ملحمة

الأبواب السبعة

عندما يتكلم لوسيفر

الجحيم

الجريمة

العقاب

حسين العائد

ملحمة الأبواب السبعة

عندما يتكلم لوسيفر

المخطوطات العتيقة

(الجحيم ، الجريمة ، العقاب)

تأليف
حسين العائد

الإهداء

" إلى من منحوني اسماءهم لأحملها ، وحبهم لأكبر به ....ألى الذين أعطوا دون أن ينتظروا شكراً ، والى انتمائي الأول والأخير...

عائلتي "

فريدريش فيلهلم نيتشه

يُعد فريدريك نيتشه (1844-1900) واحدًا من أكثر الفلاسفة إثارة للجدل وتأثيرًا في التاريخ الحديث. لم يكن مجرد أكاديمي يكتب نظريات جافة، بل كان "فيلسوفًا بالمطرقة" يسعى لتحطيم الأصنام والقيم الموروثة ليبني مكانها شيئًا جديدًا تمامًا..

ولد نيتشه في بروسيا (ألمانيا حاليًا) لعائلة متدينة، وكان من المفترض أن يسير على خطى والده كقسيس، لكنه اختار طريقًا مختلفًا كليًا.

النبوغ المبكر أصبح أستاذًا لعلوم اللغة (الفيلولوجيا) في جامعة بازل وهو في سن الـ 24 فقط، وهو إنجاز نادر جداً.

قضى معظم حياته يعاني من أمراض جسدية مزمنة (صداع نصفي ومشاكل في المعدة)، مما دفعه للاستقالة والعيش حياة ترحال وتأمل في جبال الألب السويسرية وإيطاليا.

انتهت حياته الفكرية بانهيار عصبي عام 1889 في تورينو، وقضى سنواته العشر الأخيرة في صمت ذهني تام حتى وفاته عام 1900.

فلسفته وأفكاره الجوهرية

فلسفة نيتشه ليست "نظامًا" مغلقًا، بل هي صرخة لإعادة تقييم كل القيم. إليك أهم ركائزها:

أ. "موت الإله" (العدمية)

لم يقصد نيتشه الموت الفيزيائي بطبيعة الحال، بل قصد أن المنظومة الدينية والأخلاقية القديمة لم تعد هي المركز الذي يوجه حياة الإنسان المعاصر. حذر نيتشه من أن هذا الانهيار قد يؤدي إلى "العدمية" (فقدان المعنى)، وطالب البشر بإيجاد قيم خاصة بهم بدلاً من القيم الموروثة.

ب. الإنسان الأعلى (Übermensch)

يرى نيتشه أن الإنسان الحالي هو مجرد "جسر" بين الحيوان والإنسان الأعلى. الإنسان الأعلى هو الشخص الذي يتجاوز الأخلاق التقليدية، ويخلق قيمه الخاصة، ويقول "نعم" للحياة بكل ما فيها من ألم ولذة.

ج. إرادة القوة

يرى نيتشه أن المحرك الأساسي لكل كائن حي ليس "البقاء" (كما قال داروين) ولا "اللذة" (كما قال فرويد لاحقاً)، بل هو التوسع والنمو والسيطرة على الذات والعالم، وهو ما أسماه "إرادة القوة".

د. العود الأبدي

وهي فكرة تجريبية (واختبار نفسي): "ماذا لو كان عليك أن تعيش حياتك بكل تفاصيلها، بآلامها وأفراحها، مرة بعد مرة إلى الأبد؟". إذا استطعت قول "نعم" لهذا العود، فأنت قد حققت أقصى درجات قبول الحياة.

أشهر مؤلفاته

1_ (هكذا تكلم زرادشت) من أهم أعماله، صاغه بأسلوب نبوي ليطرح أفكار "الإنسان الأعلى" و"العود الأبدي".

2_ (ما وراء الخير والشر) نقد لاذع للأخلاق السائدة وتقسيمها إلى (أخلاق السادة وأخلاق العبيد).

3_ (أصل الأخلاق) وفصلها دراسة تاريخية لكيفية نشوء مفاهيم "الذنب" و"الضمير".

4_ (العلم المرح) الكتاب الذي أعلن فيه لأول مرة عبارته الشهيرة "لقد مات الإله".

5_ (عدو المسيح) هجوم حاد على المؤسسات الدينية التي رأى أنها تضعف روح الإنسان.

المقدمة

بَرْزَخُ الكَلِمَة حِيَالَ الفَرَاغِ المَنْطُوق...فِي ليلٍ أَزلِيٍّ لم تَطمثْهُ شمسُ اليَقين، وحيثُ المِدادُ يَسيلُ من مِحبرةِ القِدَم ليخطَّ سيرةَ الوجودِ على رقائقِ الفناء، وقفتِ الـ "أنا" الإنسانيةُ شاخصةً بفقرِها أمامَ جلالِ الـ "هو"؛ ذلك الغائبُ الحاضر، والـمُطلقُ الذي يَبتلعُ المحدود. هنا، في مَهبِّ الرُّوح، يَنشبُ الصراعُ الأكبر؛ صراعُ "الأنا" التي تَريدُ أن تَكون، في مواجهة "الـهُو" الذي يَسحقُ التفرُّدَ في مِحراسهِ الصمديّ. هي معركةٌ تدورُ رحاها بينَ جمرِ الإرادةِ وجليدِ الامتثال، حيثُ تَبحثُ الذاتُ عن ثغرةٍ في جدارِ الوجودِ لتقولَ فيها: "أنا" فتصطدمُ بصمتِ السَّماءِ الذي لا يَرُدُّ إلا بالصدى.

وعلى هذه العتبةِ الموحشة، تَتلاقى خيوطُ القَدَرِ المبرم معَ مسالكِ المصيرِ المجهول. فالقدرُ كتابٌ طُوِيَتْ صُحفُه قبلَ أن يُخلقَ النطق، سِجنٌ من الحتميّةِ تَدورُ في فلكهِ النجومُ والذرات، كأنَّ الوجودَ رقصةٌ رُسِمَتْ خُطواتُها بمدادِ الحتمية القاسية، فلا مَحيصَ عن المسار ولا مفرَّ من الـمُقَدَّر.

وفي ظِلِّ هذا الحِصارِ القدريّ، تطلُّ العدميةُ برأسِها كغولٍ يَقتاتُ على المعنى؛ تُهمسُ في أُذنِ الكائنِ بأنَّ سَعيهُ هباء، وأنَّ وقوفَهُ بينَ الأزلِ والأبدِ ليسَ إلا وَمضةً في عينِ العبث، وحكايةً يرويها مَعتوهٌ لا غايةَ لها ولا مآل.

بينَ هذه الأضداد، يَنبثقُ العنوانُ كشرارةٍ في هشيمِ الفكر: "عندما يتكلم لوسيفر.. الجحيم". إنَّ نطقَ الظلِّ هنا هو إعلانُ الثورةِ على "الحتمية"، هو محاولةُ "الأنا" المتمردة أن تَخلقَ قدراً جديداً من طينةِ الرفض. لكنَّ الفلسفةَ الشرقيةَ تُنبئنا بأنَّ هذا الكلامَ هو ذاتُه "الجحيم"؛ لأنَّ النطقَ الذي يَقصدُ الانفصال، لا يَحصدُ إلا الغُربة. الجحيمُ ليسَ ناراً تَحرقُ الجلود، بل هو "عدميةُ الكلمة" حينَ تَنفصلُ عن مَصدرِ النور؛ هو أن يَتكلمَ المخلوقُ بلسانِ "الأنا" الطاغية، فيجدَ نفسَه سجيناً في زنزانةٍ من الأوهام، يظنُّها حريّةً وهي في جَوهرِها منتهى القيد.

هو صراعٌ لا يَنتهي، بطلُهُ إنسانٌ ممزقٌ بينَ قَدَرٍ يَسوقُه، وعدمٍ يَدعوه، و"أنا" تَتوقُ لأن تَنطقَ ولو كانَ في نطقِها حَتفُها. وعندما يَتكلمُ لوسيفر، فإنه لا يَفتحُ بابَ الجحيمِ بقوةِ السلاح، بل يَفتحهُ ببراعةِ الحجة، ليجعلَ الكائنَ يختارُ مَصيرَهُ بيدِه، مُعتقداً أنه نَجا من "الهو"، ليجدَ أنه غَرِقَ في تيهِ ذاتِه.. وهل ثَمَّ جحيمٌ أشدُّ من نفسٍ ضلَّتْ طريقَها في صحراءِ كلامِها؟

بينَ لوعَةِ الحنينِ ووحشَةِ المجهول

وعلى ضِفافِ هذا الصراع، ينمو في أعماقِ الإنسان شوقٌ غريب، حنينٌ لا تهدأُ نيرانُه لشيءٍ لا يعرفُ له اسماً. هو وجدٌ قديمٌ يسكنُ الروح، كأننا غرباءُ نبحثُ عن وطَنٍ أضعناهُ في زحامِ العصور، أو كأننا أسرى نتحرقُ شوقاً لفكِّ قيود القدر والحتمية التي تلتفُّ حول أعناقنا كخيوطِ العنكبوت. هذا الشوقُ هو الذي يدفعُنا للوقوفِ على حافة الهاوية، نتساءل: هل نحنُ أسيادُ خُطانا، أم أننا مجردُ صدىً لصوتٍ لم ننطق به يوماً؟

وعندما تشتدُّ الغُربة، ويصبحُ الصمتُ ثقيلاً لا يُطاق، يبرزُ العنوانُ كهمسةٍ باردة...

إنَّ نطقَ الظلِّ هنا ليس شراً محضاً، بل هو الفتنةُ الكبرى التي تداعبُ ذلك الشوق؛ فتنةُ "الأنا" التي تظنُّ أنها بالانفصالِ عن "الهو" ستجدُ حريتها المنشودة. لكنَّ الحكمةَ تهمسُ لنا بأنَّ هذا الكلامَ هو ذاتُه الجحيم؛ لأنَّ الروحَ التي تختارُ الانفرادَ بذاتها، تنتهي محبوسةً في زنزانةٍ من العدمية، حيث لا وجهَ يُرى ولا صوتَ يُسمع سوى صدى أوجاعها.

ولكن.. هنا يكمنُ السرُّ العميق:

فبينما كان الظلامُ يبتلعُ آخرَ خيوطِ النور، وصوتُ لوسيفير يبدأُ في التغلغلِ كالسُّمِّ في عروقِ الحقيقة، حدثَ شيءٌ لم يكن في الحسبان. لم يكن الجحيمُ في النهايةِ ناراً، ولا كان الكلامُ مجردَ حروف. بل كان هناك خيطٌ خفيٌّ يربطُ بين المتحدِّثِ والمُستمِع، سرٌّ مدفونٌ تحت ركامِ الأزل، يجعلنا نتساءلُ في رعب:

هل لوسيفر هو من يتكلمُ حقاً؟ أم أنَّ الجحيمَ هو أن نكتشفَ في اللحظةِ الأخيرة أنَّ المتحدِّثَ والظِلَّ والبابَ.. ليسوا سوى انعكاسٍ لسرٍّ واحدٍ نسينا كيف نقرأه؟ الآن، خبا الضياءُ تماماً، ولم يبقَ إلا صريرُ الباب.. فهل أنتَ مستعدٌ لسماعِ ما خلفَه؟

وفي الختام عليك أن تعلم ياعزيزي القارئ

الجحيمُ ليسَ مكاناً غريباً، بل هو "عدمُك" حين يواجهك وجهاً لوجه. فعندما يتكلم لوسيفر، هو لا يقيدُك بالأغلال، بل يمنحك "المرآة"؛ لترى أنَّ كلَّ ما بنيتَه من أفكارٍ لم يكن سوى خيوطٍ واهية في مِحراسِ العدم.

استعد.. فخلفَ المِقبضِ لا ينتظرك الشيطان، بل تنتظرك الحقيقة التي هربتَ منها طويلاً:

أنك سجينُ "أناك" في عالمٍ لا يرى فيك سوى "ظِلّ".

انطفأ السراج.. وصمتَ الوجود.. وانفتحَ الباب.

" تنبيهٌ للقارئ "

"هذه المخطَّوطاَت وُجدتْ في صُرَّةٍ عتيقةٍ داخلَ قبوٍ مَهجور، لم تحملْ توقيعاً، ولا اسماً، ولا أثراً

لصاحبها؛ كأنَّ الكلماتِ نَبَتَتْ من تِلقاء نَفسِها على الورق. يُقالُ في المأثورِ إن كاتبَها لم يستعملْ

حِبراً كبقيةِ البشر، بل خَطَّها بظلالِ شمعةٍ لم تنطفئ منذُ قرون.. فاحذرْ وأنتَ تقلبُ الصفحات،

فمَن لا اسمَ لهُ قد يكونُ أيَّ أحد.. حتى ظلك الذي يراقبُك الآن."

البداية

الميلاد.. نطفةٌ من طين، وقدرٌ من نار

كانت ليلةً من ليالي عام 1844م، ليلةً لم تشبهها الليالي في بلدة "روكن" الهادئة؛ فقد كان السكونُ يلفُّ الأرجاء كدثارٍ ثقيل، صمتٌ مطبقٌ لا يقطعهُ هديرُ ريحٍ ولا لغطُ بشرً. كانت الشوارعُ الضيقةُ خاليةً تماماً، ترسمُ ظلالَها الكئيبة تحتَ ضوءِ القمر الشاحب، بعد أن آوى الجميعُ إلى مضاجعهم يطلبون راحةً نُزعت من أجسادهم في كدِّ النهار.

في تلك الساعة، كانت البيوتُ الموصدةُ تخبئُ وراء جدرانها حكاياتٍ من القناعةِ الزائفة؛ فهنالك عائلاتٌ تلتفُّ حول موائدها البسيطة، يرفعون أيديهم بالحمد، ويشكرون "الإله" بخشوعٍ على فتاتِ خبزٍ قُدّم لهم، غافلين عما يُطبخُ في قدرِ الغيب. وهنالك من غلبهم النعاسُ فوق فُرشهم الناعمة، مستسلمين لأحلامٍ رتيبة بعد يوم شاق، بينما لا يُسمعُ من الخارج سوى صوتِ نباحِ الكلاب الذي كان يمزقُ أحشاءَ الليل بحدة، كأنَّ غريزةَ الحيوان كانت تستشعرُ اقترابَ شيءٍ غريبٍ عن هذا العالم.

لكنَّ هذا الهدوءَ العميق، الممتزجَ برائحةِ الترابِ والسكينة، لم يكن إلا غطاءً لبركانٍ يوشكُ أن ينفجر. وفجأة، انشقت السكينةُ عن صرخةِ امرأةٍ هزت أركانَ الحيِّ بأسره، صرخةٌ حادةٌ، مُوجعة، ومزعجة، بددت كلَّ وقارِ الليل وهتكت سترَ الصمت في "روكن". لم تكن صرخةَ ميلادٍ عادية، بل كانت إعلاناً عن خروجِ الكائن الذي سيزلزلُ مفهومَ "النفس البشرية" المتعالية، ليعيدها إلى حجمها الضئيل، وينزعَ عنها أوهامَ العظمة التي لبستها قروناً.

نعم، في تلك الليلة، وُلد الفتى الذي سيتمردُ على ذاته أولاً، وعلى كل ما فرضه العالمُ عليه فرضاً. الشخصُ الذي سيقلبُ موازين الوجود، ويزلزلُ عالم الأرواح الهائمة، ليعيدها بقوةِ فكره إلى قرارها السحيق الذي أتت منه.. إلى "الجحيم".

ذلك الجحيم الذي ليس مكاناً للنار، بل هو جحيمُ الأرواحِ الحقيقي، المكان الذي بدأت منه كلُّ الأشياء، والهاوية التي ستنتهي إليها كلُّ الحكايات.

وفجأة.. هدأ صراخُ المرأة، وحلَّ محلَّه صمتٌ أرعبُ من الضجيج؛ لقد خرج الفتى الذي سيتمردُ على "الإله". خرج مَن سيُعيد صياغة موازين النفس البشرية ويُعرّيها أمام عجزها. يا له من قدرٍ ساخر؛ فلو علم والده في تلك اللحظة أيَّ "جنايةٍ" شنيعةٍ ارتكبها بحق البشرية بولادة هذا الطفل، لكان قتلهُ فور خروجه من الرحم، أو لكان أزهقَ روحَ نفسه قبل أن يُقدم على تلك الفعلة التي ستُنتجُ "بؤسَ النفس" وجحيمها الأبدي.

لكنَّ الوالد، الذي لم يكن يرى أبعد من رداءِ كهنوته، استقبلَ الصرخةَ بتهليلٍ وفرح. ذهب القسُّ إلى الكنيسة في عتمةِ الفجر، لا ليدفعَ خطراً، بل ليشكرَ "الإله" على تلك العطية التي وهبها له. قُدّمت القرابينُ في شوارع "روكن"، وسال الدمُ في الأزقة احتفالاً وابتهاجاً، بينما كانت الأجراسُ تُقرعُ مباركةً لقدومِ "المخلص" الصغير. أخذه والدهُ القسيسُ بين ذراعيه، ومشى به نحو مِحراب الكنيسة، وهو لا يدري أنه يحملُ بين يديه "النار" التي ستحرقُ ذلك المِحراب، واليدَ التي ستكتبُ على جدرانه: "لقد انتهى عهدُ الأوهام".

دلفَ الأبُ القسيسُ بخطواتٍ وئيدةٍ نَحوَ صحنِ الكنيسة، حاملاً بين ذراعيه ذلك "القدر الصغير" الملفوفَ بأقمشةٍ بيضاء، كأنها كفنٌ لطُهرٍ لن يدوم. كانت رائحةُ البخورِ العتيقةِ تملأُ الفضاء، تمتزجُ ببرودةِ الحجارةِ الصماء التي شهدت صلواتِ آلافِ العابرين قبلَه. وضعَ الأبُ طفلَهُ "فريدريك" فوقَ المذبح، ورفعَ عينيهِ نحو السقفِ العالي، شاكراً "ربَّه" بكلماتٍ تخرجُ من أعماقِ يقينه، وهو لا يدركُ أنَّ الروحَ القابعةَ في ذلك الجسدِ الضئيل هي "المِعول" الذي سيهدمُ هذا السقفَ يوماً ما فوق رؤوسِ الجميع.

في تلك اللحظة، وبينما كان ماءُ التعميدِ يقطرُ فوق جبهةِ الرضيع، حدثَ شيءٌ غريبٌ لم يلحظهُ إلا من قرأَ سطورَ الغيب. لم يبكِ الصغيرُ كما يفعلُ الأطفال؛ بل فتحَ عينيهِ الواسعتينِ وألقى بنظرةٍ لم تكن تنتمي لبراءةِ المهد. كانت نظرةً "ثاقبة" جالت في أرجاء الكنيسة، وتأملت في تماثيلِ القديسينَ والشموعِ الذائبة، كأنه كان يقرأُ شفراتِ السجونِ التي يُرادُ له أن يعيشَ بداخلها.

نشأَ "فريدريك" في هذا الجوِّ المشحونِ بـ "الحتمية". كان يرى والدهُ القسيسَ يمثلُ الـ "هُو" المتعالي؛ ذلك الصوتَ الذي يقررُ للناسِ معنى الخيرِ والشر، ويحددُ لهم مساراتِ القدر. كان الطفلُ يراقبُ والدهُ وهو يلقي المواعظ، فيشعرُ بغصةٍ لا يعرفُ لها اسماً. كانت الـ "أنا" الصغيرُة لديهِ تتشكلُ في الظلام، بعيداً عن أعينِ المصلين. كلُّ ترنيمةٍ كان يُجبرُ على إنشادها، كانت تزيدُ من اشتعالِ تلك "النار" الداخلية التي وُلِدَ بها.
كان القدرُ ينسجُ خيوطَهُ حوله بإحكام؛ فبينما كان والدهُ يحاولُ أن يصنعَ منهُ "خادماً لله"، كانت العدميةُ تنبتُ في قلبه كفطرٍ أسود في زوايا المعبد. كان يتساءلُ في صمتهِ الطفولي: "لماذا يجبُ أن نكونَ ظلاً لصوتٍ لا نراه؟ ولماذا نُقيدُ مصائرنا بكلماتٍ كُتبت قبلَ أن نولد؟".

وفي يومٍ من الأيام، وبينما كان يسيرُ خلفَ جنازةِ أحدِ الفقراءِ في البلدة، رأى دماءَ القربانِ وهي تجفُّ على ترابِ المقبرة. حينها، ولمرةٍ واحدة، أفلتت منهُ عبارةٌ لم يفهمها أحد، قالها بلسانٍ أكبرَ من سنّه:

"إنَّ الأرضَ عطشى.. لكنها لا تشربُ صلواتنا، بل تشربُ حقيقتنا المرة".

تلك كانت اللحظةَ التي أدركَ فيها "فريدريك" أنَّ مصيره ليس في مِحراب الكنيسة، بل في مِحرابِ نفسه. لقد بدأَ الجحيمُ الشخصيُّ يتشكل؛ جحيمُ مَن قررَ أن يبحثَ عن "الإنسان" في ركامِ الآلهة.

عامُ الغربةِ الأولى: 1844 - 1845م

في ذلك العامِ الأول، لم يكن "فريدريك" يتحركُ في فضاءِ بلدة "روكن" كطفلٍ يلهو، بل كجنينٍ نُزِعَ من رحمِ الغيب ليُلقى في "برزخٍ" من الحجرِ والبخور. كانت الكنيسةُ هي عالمهُ الأكبر، مِحرابهُ الذي لم يفرق فيه بين سقفِ المعبدِ وسقفِ السماء. كان والدهُ القسيس "كارل لودفيج" يحملهُ بين ذراعيه القويتين، ويمشي به في صحنِ الكنيسةِ الفسيحِ وقتَ الغبش، حين يكون الضوءُ شحيحاً كأملِ الفقراء. هناك، وسطَ الأعمدةِ الشاهقة التي كانت تبدو للرضيعِ كسيقانِ جبالٍ لا تنتهي، كان يشتمُّ رائحةَ خشبِ المقاعدِ العتيق ممتزجةً بنكهةِ اللبانِ الذي لا ينطفئ. كان والدهُ يرفعُ عقيرتهُ بالصلاة، فيشعرُ الصغيرُ بارتعاشِ صدرِ أبيه، وكأنَّ الـ "هُو" العظيم يتكلمُ من حنجرةِ هذا الرجل؛ كان الصوتُ يرتدُّ من الجدرانِ الصماء، ليحاصرَ "أنا" الرضيعِ الصغيرة قبل أن تجدَ طريقها للنطق.

وعندما يعودانِ إلى البيتِ الملاصقِ لأسوارِ الكنيسة، كان الصمتُ هو السيد. لم يكن البيتُ مأوىً للدفءِ بقدرِ ما كان "امتداداً للقداسة". كانت غرفتهُ تطلُّ مباشرةً على شواهدِ القبورِ المبعثرة في المقبرةِ المجاورة؛ تلك الشواهد التي كانت تتراكمُ فوقها الثلوجُ في شتاءِ عام 1845، فتبدو كأرواحٍ بيضاء واقفةٍ في انتظارِ بعثٍ قريب. كانت أمهُ "فرانسيسكا" تتحركُ في الممراتِ بخطىً وئيدة، حذرةً من أن تكسرَ خلوةَ الأبِ في مكتبته. وهناك، في تلك الغرفةِ المشحونةِ برائحةِ الحبرِ المرّ، كان فريدريك يغفو على صوتِ "صريرِ الريشة" وهي تحرثُ الورق. بالنسبة له، كان ذلك الصريرُ هو لغةُ القدر؛ فالكلماتُ التي يخطُّها والدهُ لم تكن مجردَ أحبار، بل كانت قدراً يُحاكُ خلفَ الأبوابِ الموصدة.

لكنَّ "روكن" لم تكن مجردَ كنيسةٍ وبيتٍ صامت؛ ففي اللحظاتِ القليلةِ التي كانت تخرجهُ فيها المربيةُ إلى أزقةِ الشارع، كان فريدريك يواجهُ "طينةَ الأرض" وجهاً لوجه. كان الهواءُ القارسُ يلسعُ وجنتيه الشاحبتين، بينما كانت رائحةُ الخبزِ الطازجِ المنبعثةُ من الأفرانِ تمتزجُ بضجيجِ القرويين وأوحالِ الطريق. كان يرى الفلاحين بوجوههم المحفورةِ بشقاءِ السنين، ينحنون أمامَ عربتهِ الصغيرة، ويتمتمون بكلماتِ التبركِ بـ "ابن القسيس". كان الرضيعُ يحدقُ فيهم بعينينِ واسعتينِ لم تعرفا براءةَ المهد؛ كان يرقبُ نباحَ الكلابِ البعيد وتناثُرَ الروثِ تحت حوافرِ الخيل، مستشعراً ذلك التناقضَ الموجع بين "عظمةِ المذبح" وبين "ذلِّ الشارع".

" رقصةُ الجوعِ وظلالُ العروش"

1. رياحُ "فورميرتس": العالمُ يغلي خلفَ النوافذ
كانت بروسيا في ذلك العام تعيش حالة من "الاحتباس السياسي"؛ عهد الملك فريدريك ويليام الرابع بدأ يتشقق، ورياح التغيير (ما قبل ثورات 1848) بدأت تهب كسمومٍ باردة. في المقاهي البعيدة عن "روكن"، كان المثقفون يتحدثون عن "موت القديم"، لكن في "روكن"، كان والد فريدريك، القسيس الملكي الوفاء، يحاول إغلاق النوافذ بإحكام ليحمي رعيته وابنه من "عدوى الحرية". كان فريدريك الرضيع ينام في مهده بينما كانت الجرائد الممنوعة تُهرب عبر الحدود، محملةً بأفكار "الهيجليين الشباب" الذين سيقتلون "الإله" فكرياً لاحقاً. لم يكن الصغير يفهم الكلمات، لكنه كان يشعر بـ "التوتر الكهربائي" في يد والده وهو يطوي الصحف بذعر؛ كان يمتصُّ طاقة "الخوف من المجهول" ويحولها في داخله إلى قوةٍ صامتة.

2. شتاءُ البطاطس المر: جُوعُ الأرضِ وذلُّ الرعية
اقتصادياً، كان عام 1845م هو بداية الكارثة؛ "لفحة البطاطس" ضربت المحاصيل في أوروبا. في أزقة "روكن"، بدأ الوجوم يرتسم على وجوه الفلاحين. دخلت الرعية إلى الكنيسة ببطونٍ خاوية، ليروا والده القسيس يخطب عن "المانا" الساقطة من السماء.

هنا، برز وجه نيتشه كـ "شاهدٍ صامت". عندما كان يُحمل في الشارع، كانت عيناه تلتقيان بأعين الفقراء الجائعين؛ لم يبتسم لهم بفقر الأطفال، بل كان يحدق في بؤسهم بنظرة "فاحصة" هزت كيانهم. أحسَّ الناس أنَّ هذا الرضيع لا يشفق عليهم، بل يرى "ضعفهم". كان تأثره بالأجواء الاقتصادية يظهر في رفضه للألعاب الملونة؛ كان يفضل ملمس "الحجر البارد" و"الخشب الخشن"، كأنه كان يستعد منذ عامه الأول لحياةٍ لا تعترف بالرفاهية، بل بالصلابة.

3. البيتُ المحاصر: صراعُ الإيمانِ والواقع

تأثرت العائلة بضيق الحال وقلق الوالد الصحي والمادي. كان "كارل لودفيج" يحاول أن يجعل من ابنه "قرباناً" لتهدئة غضب السماء. في هذا العام، بدأ الأب يلاحظ أنَّ ابنه يمتلك "هيبةً عكسية"؛ فبدلاً من أن يضم الأب ابنه للإله، كان الرضيع يشدُّ الأب نحو "أرضية الواقع".

كان فريدريك يراقب شمعدانات الكنيسة الذهبية ثم ينظر إلى أيادي الفلاحين المتشققة في الخارج؛ هذا التناقض الصارخ سكن في وعيه البكري. وجهه في ذلك العام بدأ يتخذ طابع "السيادة"؛ ملامحُ لم تكن تطلب الحب، بل تفرض الاحترام. كان وجهه ينمو بعيداً عن ملامح العائلة الهادئة، ليصبح "وجهاً غريباً" في بيت القسيس، وجهاً يشي بأنه ليس ابناً لهذا الرجل، بل هو ابنُ القدر.

دخل "فريدريك" عامه الثاني، وبدأ جسدهُ النحيلُ يكتسبُ صلابةً غريبة، وكأنه يستعدُّ لحملِ أوزارِ فكرٍ لن يطيقهُ أحد. في هذا العام، لم يعد الصغيرُ مجردَ "مراقب"، بل بدأ في ممارسةِ أولى أفعالِ السيادة: النطقُ والمشي.

. فريدريك: الكلمةُ التي كسرت طوقَ التسابيح

في صيف عام 1846م، وبينما كان والده القسيس "كارل" يجلسهُ في حديقةِ البيتِ الملاصقة للمقبرة، نطقَ فريدريك أولى كلماته، كلماتٍ خرجت رصينة، باردة، ومحملةً بـ "ثقلِ المعنى". كان ينطقُ أسماءَ الأشياءِ وكأنه "يُعمدها" من جديد؛ يُسمي الشجرة "ظلاً"، ويُسمي الكنيسة "حجراً".

في يوليو من هذا العام، ولدت شقيقته "إليزابيث". كان مشهد اللقاء الأول بينهما دراميًا؛ وقف فريدريك أمام مهدها، ولم يلمسها أو يبتسم لها، بل ظلَّ

يحدقُ فيها بصمتٍ طويل، كأنه يدركُ بفطرتهِ أنَّ هذه القادمة ستكون "حارسةَ سجنه" ومُحرفةَ إرثه مستقبلاً. كان وجهه في تلك اللحظة يحملُ ملامحَ "الأنطولوجيا"؛ ملامح الكائن الذي يرى في الآخر "جحيماً" أو "مرآة". بدأ يمشى بخطىً وئيدة داخل الكنيسة، وكان يتجنبُ السجود؛ بل كان يقفُ طويلاً أمام الأعمدة، يلمسُ شقوقها بأصابعه الصغيرة، باحثاً عن الثغراتِ في ذلك البناءِ الشامخ.

. العالمُ في 1846م: جوعُ الأبدانِ واكتشافُ "الخفيّ"

كان هذا العامُ هو عام "الاضطرابِ الكوني والاجتماعي". اقتصادياً، وصلت أزمةُ "لفحة البطاطس" إلى ذروتها في بروسيا. ارتفعت أسعارُ الخبزِ بجنون، وبدأت "انتفاضاتُ الجوع" (Hunger Revolts) تندلعُ في المدنِ الألمانية القريبة من "روكن". كان الفقراءُ يمرون أمام بيت القسيس بوجوهٍ يكسوها الغبارُ واليأس، يطلبون معونةً لا تكفي لسدِّ الرمق.

سياسياً، كان العالمُ يعيشُ حالةً من الغليانِ المكتوم. في بولندا، اندلعت انتفاضةُ "كراكوف" ضدَّ القوى الاستعمارية، وبدأ الفكرُ "الليبرالي" يتسربُ كالنارِ في الهشيم تحت كراسي العروش. وفي تطورٍ علميٍ مذهل في سبتمبر 1846م، تمَّ اكتشافُ كوكب "نبتون"؛ لم يكن الاكتشافُ بالعين، بل بـ "الحسابات الرياضية". كان هذا الحدثُ رمزياً بامتياز؛ فالإنسانُ بدأ يجدُ عوالمَ خفيةً بالمنطقِ والعقل، لا بالوحيِ والغيبيات.

. التقاطع: كيفَ صَهَرَ الواقعُ وعيَ الطفل؟

تأثرت عائلةُ نيتشه بهذا الجوِّ المشحون بشكلٍ مباشر. كان الوالدُ "كارل" يعاني من تمزقٍ داخلي؛ فبينما يرى رعيتهُ تموتُ جوعاً، كان عليه أن يبررَ لهم "حكمةَ الابتلاء". كان فريدريك يراقبُ والده وهو يوزعُ الصدقاتِ القليلة، ويسمعُ تنهداته المليئة بالخوفِ من المستقبل.

لقد امتصَّ فريدريك في عامه الثاني هذا "التناقضَ الوجودي"؛ رأى أنَّ الصلاةَ لا تشبعُ البطون، وأنَّ العقلَ البشري استطاع الوصولَ إلى كوكبٍ في أقاصي الكون بينما يعجزُ الإلهُ عن إنقاذِ طفلٍ فقيرٍ في "روكن". بدأ وجه نيتشه يكتسبُ ملامحَ "الشكِّ المقدس"؛ لم يعد وجه رضيع، بل وجه "فيلسوفٍ صغير" يرى أنَّ العالمَ محكومٌ بـ "إرادةِ القوة" والحاجة، لا بالرحمةِ المزعومة.

"الإله لا يُطعم الجياع دائماً." 1847_1848

دخلَ "فريدريك" مرحلةً جديدةً من الوعي؛ لم يعد يكتفي بالنظر، بل بدأ في "تحليل" المحيط ببرودٍ لا ينتمي لسنّه. كانت الأجواءُ في بيت القسيس بـ "روكن" مشحونةً بتوترٍ خفي، ورائحةِ قلقٍ تفوحُ من أردية الوالد الكهنوتية.

1. فريدريك وإليزابيث: ميلادُ التَّبَعِيَّة

أتمت "إليزابيث" عامها الأول، وبدأت تحبو وتخطو خطواتها الأولى خلف أخيها الأكبر. كانت تنظرُ إليه كأنه "وثنٌ صغير"؛ تتبعُ حركاته، وتقلّدُ صمته. أما فريدريك، فكان يتعامل معها بنوعٍ من "التعالي العطوف". لم يكن يراها شريكةً في اللعب، بل كان يراها كائناً يحتاجُ إلى "المراقبة".

في أحد أيام هذا العام، وُجدَ فريدريك وهو يضعُ يدهُ فوق رأس إليزابيث بقوةٍ وغرابة، وحين سألتهُ أمهُ عما يفعل، أجاب بكلماتٍ مقتضبة: "أنا أتأكدُ أنها لا تزالُ خلفي". كانت تلك اللحظة هي الرسم البياني الأول لعلاقتهما؛ هو "الأصل" الصامت والمتمرد، وهي "الظل" الذي سيحاولُ لاحقاً احتكار نوره.

2. الأجواء السياسية والاقتصادية: صرخةُ الأمعاء الخاوية

تاريخياً، كان عام 1847م هو الذروة المأساوية لما عُرف بـ "الأربعينيات الجائعة" في أوروبا. ضربت "لفحة البطاطس" المحاصيل للمرة الثالثة على التوالي، وارتفعت أسعار القمح في بروسيا إلى مستوياتٍ جنونية.
في الشارع: كانت "روكن" تعيشُ حالةً من الكسادِ الحزين؛ اختفت ضحكات الأطفال، وحلت محلها طوابيرُ الفقراء أمام باب الكنيسة. كان فريدريك يراقب من النافذة وجوهَ القرويين التي أصبحت تشبه "الأرض المحروقة"؛ وجوهٌ غارقةٌ في ذلِّ الحاجة.

في البيت: تأثرت العائلةُ اقتصادياً؛ قُللت الوجبات، وغابَ اللحمُ عن المائدة. رأى فريدريك والده القسيس وهو يبيعُ بعضاً من كتبه الثمينة ليشتري طحيناً يوزعهُ على الجوعى. هذا التضحيةُ الأبوية ولّدت في نفس الصبي تساؤلاً مراً: "لماذا يحتاجُ الإلهُ إلى إذلالِ خلقهِ بالجوعِ لكي يثبتَ لهم حاجتهم لرحمته؟".

عام 1848م، العام الذي لم يسقط فيه الملوكُ فحسب، بل سقط فيه "الإله الصغير" في حياة فريدريك. كان هذا العام هو اللحظة التي أدرك فيها الطفلُ ذو السنوات الأربع أنَّ "الثبات وهم"، وأنَّ حتى أكثر القلاع حصانةً (العقل والدين والعرش) يمكن أن تنهار في ليلةٍ وضحاها.

اندلعت الثورات في برلين؛ رأى الناسُ الدماءَ تسيلُ من أجلِ الكرامة، وطالبوا بإنهاءِ سلطة الملك المطلقة.

الأثر في "روكن": كان والده القسيس "كارل" يرتجفُ وهو يقرأ الجرائد؛ فالملك بالنسبة له هو "ظلُّ الله على الأرض". كان فريدريك يراقبُ ذعرَ والده، ولأول مرة رأى "الخوف" يسكنُ عيني الرجل الذي كان يوزعُ الأمانَ على الرعية. وفي صيف هذا العام، وقعَ الحدثُ الذي سيُشكلُ وعي نيتشه للأبد. والده القسيس، ذلك الصوتُ الجهوري الذي كان يمثلُ "الحتمية الإلهية"، سقط فجأة. لم يكن سُقوطاً عادياً، بل كان بدايةً لـ "خريفِ الدماغ".

أصيب الوالدُ بما وصفهُ الأطباءُ آنذاك بـ "لين الدماغ". بدأ يفقدُ القدرةَ على النطق؛ وهو الذي كان يعيشُ بـ "الكلمة"، صارَ عاجزاً عن استحضارِ اسمِ ابنه.

عامُ الخسوف.. حينَ صَمَتَ المِحراب (1849)

وصلنا الآن إلى "عام الخسوف"؛ العام الذي انكسر فيه العمودُ الفقري لعالم "فريدريك" الصغير، وفيه تحولت طفولتهُ من "حكاية" إلى "أسطورةٍ تراجيدية". عام 1849م هو اللحظة التي لُفظت فيها "الأنا" من حضن "الـهُو" الأبوي، لتواجه البردَ القارسَ وحدها.

كان هذا العامُ لفريدريك بمثابة "الخسوف الكبير". بدأت الشهور الأولى منه وهو يراقبُ والده القسيس "كارل لودفيج" وهو يتآكلُ من الداخل؛ الرجل الذي كان يملأُ الدنيا بصوته، صار الآن جسداً واهناً يهذي بكلماتٍ لا تنتمي للغةِ البشر.
في 27 يوليو 1849م، وقعت الواقعة؛ انطفأ نبضُ الأب. وقف "فريدريك" ذو السنوات الخمس أمام جثمان والده المسجّى في الكنيسة، ولم تكن ردة فعله بكاءً طفولياً، بل كانت "ذهولاً وجودياً". رأى اليد التي كانت تباركهُ وقد صارت باردةً كالحجر، ورأى المِحرابَ الذي كان يضجُّ بالحياة وقد تحول إلى قبوٍ للصمت.
في مشهدٍ جنائزيٍّ مهيب، نُقل التابوتُ إلى سردابِ الكنيسة وسط رنين الأجراس الجنائزي الثقيل. كان فريدريك يمشي خلف الجنازة بخطىً رصينة، رأسهُ مرفوعٌ بنحوٍ يثيرُ الريبة، وعيناهُ لا ترفّان؛ وكأنه كان يودعُ ليس والدهُ فقط، بل يودعُ "النظامَ الكوني" الذي كان يمثلهُ هذا الرجل.

هنا طرأ على نيتشه التحولُ الذي سيظلُّ يلازمهُ حتى جنونهِ الأخير. لقد تحولَ من طفلٍ "خاضع" إلى "سيّدِ عزلته".
الوقارُ المُرعب: بدأ الناسُ يطلقون عليه لقب "القسيس الصغير". صار يرتدي ثياباً داكنة، ويمشي ببطءٍ شديد، وإذا نطقَ، كانت كلماته تخرجُ كالرصاص؛ موزونة، عميقة، ومحملةً بحزنٍ قديم.

اكتشافُ "الخلاء": اكتشف فريدريك أنَّ البيتَ الذي كان يسكنه "الإله" (والده) قد أصبح فارغاً. هذا الفراغ لم يملأهُ بالخوف، بل بـ "إرادة السيادة"؛ شعر أنه الوحيدُ المسؤول عن حماية أمه وأخته "إليزابيث" التي كانت تلتصقُ به كظلهِ الباكي.
الموسيقى كبديل: في هذا العام، بدأ يهربُ إلى "البيانو"، ليحول صمتهُ إلى نغماتٍ جنائزية. الموسيقى بالنسبة له لم تكن تسلية، بل كانت الطريقة الوحيدة لمخاطبة "العدم" الذي تركهُ والده خلفه.

الأوضاعُ السياسيةُ والاجتماعية.. عودةُ "القبضةِ الحديدية"
بينما كان فريدريك يدفنُ والده، كان العالمُ في عام 1849م يدفنُ "الثورة".
نهايةُ الأحلام: شهد هذا العام القضاءَ التام على بقايا ثورات 1848 في ألمانيا والمجر وإيطاليا. استعادت الملكيةُ البروسيةُ سيطرتها المطلقة، وسادَ جوٌّ من "الرجعية المطبقة".
الكسادُ الروحي: خابَ أملُ المثقفين والفقراء، وعاد الناسُ إلى الكنائس ليس إيماناً، بل هرباً من ملاحقةِ السلطة. كانت "روكن" تعيشُ هذا الكبت؛ فموتُ القسيس "كارل" (الموالي للملك) كان بمثابة خسارةٍ لرمزٍ من رموز "الاستقرار القديم".

الأثرُ على فريدريك: لقد تشبعَ الطفلُ بهذا الجو؛ رأى أنَّ القوةَ (الجيش والملك) هي التي انتصرت في النهاية، وأنَّ "الحق" الذي نادى به الثوار قد سُحق تحت الحوافر. هذا عزز لديه فكرة أنَّ العالمَ لا يُحكمُ بالعدل، بل بـ "القوة".

لقد كان عام 1849م هو "التربة" التي نبتت فيها كلُّ فلسفة نيتشه اللاحقة:

1_بذرةُ "موت الإله": إنَّ طفلاً رأى "ممثل الإله" (والده) يموتُ بمرضٍ في الدماغ (عضو الفكر)، سيتوصلُ حتماً في كبره إلى أنَّ "الإله قد مات". فكرة فقدان السلطة العليا بدأت هنا كجرحٍ شخصي قبل أن تصبح نظرية فلسفية.

2_الارتحالُ الأبدي: نتيجةً لموت الأب، فقدت العائلةُ حقها في سكن "بيت القسيس". في نهاية هذا العام، بدأت الاستعدادات للرحيل عن "روكن". هذا

"الاقتلاع" جعل نيتشه يشعر بأنه "غريبٌ أبدي"، لا ينتمي لأرضٍ أو سقف، وهو ما نراه في فلسفته التي تدعو دائماً لـ "الترحال الفكري".

3_المرضُ كقدرٍ وراثي: رؤيةُ والده يتألمُ في رأسه جعلت فريدريك يعتقد أنَّ العبقريةَ مرتبطةٌ بالمرض. هذا الخوف (والإيمان) سيلاحقهُ طوال حياته، وسيجعلهُ يكتبُ فلسفته بـ "الدم والألم"، معتبراً أنَّ المعاناةَ هي التي تصنعُ "الإنسان المتجاوز".

4_السيطرةُ النسوية: برحيل الأب، وجد نيتشه نفسه وحيداً في وسطٍ نسائي (الأم، الأخت، العمتان، الجدة). هذا الضغط النسوي "المقدس" والمحافظ سيخلق لديه لاحقاً صراعاً مريراً مع "المرأة" ومع "القيم الأخلاقية التقليدية"، وسيدفعه للتمرد الشرس عليها.

خاتمةُ الخماسيّة الأولى: المَعدنُ الذي صَهرهُ العَدَم

لم تكن السنواتُ الخمسُ الأولى من حياة فريدريك نيتشه مجرد طفولةٍ عابرة، بل كانت "مختبراً وجودياً" قاسي المعالم. لقد وُلد هذا الطفل في مِحرابِ اليقين، لكنه لم يكد يخطو خطواته الأولى حتى وجد نفسه يسيرُ فوق أنقاضِ كلِّ شيء؛ الأرضُ جاعت في 1847، والملوكُ سقطوا في 1848، والإلهُ الشخصي (والده) صَمَتَ للأبد في 1849.

لقد كانت هذه البدايةُ "جنايةً" بالمعنى الإنساني، لكنها كانت "ضرورةً" بالمعنى الفلسفي. فلكي يخرجَ لنا الرجل الذي سيحطمُ الأصنام بمطرقةِ فكره، كان لزاماً أن يتحطمَ صنمهُ الأول وهو في الخامسة. لم يخرج نيتشه من "روكن" طفلاً يطلبُ العطف، بل خرج منها "شيخاً صغيراً" يحملُ في عينيه برودةَ القبور، وفي قلبهِ حرارةَ الثورة التي سُحقت في الشوارع.

جوهرُ التحول: من "النُّطفة" إلى "المِطرقة"
إنَّ الصعوبةَ التي اكتنفت بداياته لم تكن عائقاً، بل كانت "الوقود".
فمن جوعِ القرويين، تعلم أنَّ الوعودَ الغيبية لا تُسمنُ من جوع.
ومن صراخِ الثوار، تعلم أنَّ العروشَ التي تبدو خالدةً هي أوهنُ من بيتِ العنكبوت.
ومن احتضارِ والده، تعلم الدرسَ الأقسى: أنَّ العقلَ - ذلك العضو المُقدس - هو أولُ ما يخونُ صاحبه.
لقد تظافرت السياسةُ والاقتصادُ والموتُ الشخصي لتنزعَ عن فريدريك "رداءَ البراءة" مبكراً، وتُلبسهُ "عباءةَ الاغتراب". لم يعد نيتشه ينتمي لعائلته أو لكنيسته أو لعصره؛ لقد صار ينتمي لـ "مستقبلٍ" لا يراهُ أحدٌ غيره.

السطرُ الأخير:
"عندما غادرَ فريدريك 'روكن' في نهاية عام 1849، لم يكن يتركُ وراءه بيتاً وقبراً فحسب، بل كان يتركُ خلفه 'البشريةَ القديمة'. لقد دُفن الطفلُ الباكي مع والده، وقامَ من بين الركام كائنٌ جديد، كائنٌ أدرك أنَّ الحقيقةَ لا تُوجد في مِحراِب الكنيسة، بل في 'الهاوية' التي تجرأ على التحديقِ فيها وهو لا يزالُ يحبو."

بهذه الخاتمة، نُغلقُ بوابة "سنوات التكوين" لنفتحَ صفحةً جديدة في "ناومبورغ".

قِف عند حافةِ هذا الصمت؛ فما قرأتَهُ آنفاً لم يكن سيرةَ طفلٍ، بل كان "مختبرَ الألم" حيثُ عُجنت النطفةُ لتستحيلَ جمرةً. لقد جفَّ طينُ "روكن" المبللُ بدموعِ القساوسة تحتَ شمسِ "لايبزيغ" المحرقة، وحانَ الوقتُ لننفضَ الغبارَ عن الرقوقِ التي لم تُكتب بحبرٍ، بل بدمِ الرؤيا.

نحنُ الآن نكسرُ الأختامَ عن المخطوطاتِ العتيقة؛ تلكَ التي لم تكن يوماً أوراقاً تُدرس، بل كانت "شهاداتِ انتحارٍ" يومية أمامَ مرايا الجحيم. خلفَ كلِّ بابٍ من الأبوابِ السبعة، ينتظرُ لوسيفر بظلهِ المحرض، ليجرعَ فريدريك "سُمَّ الحقيقة" قطرةً بقطرة، حتى يذوبَ البشريُّ فيه، ولا يبقى سوى الإعصار.

المخطوطة الأولى: غُربةُ الرُّوح وصدمةُ الوعي

الفصلُ الأول: خُماسيةُ النِّساء.. وسجنُ النَّواعم (1850م - 1858م)

رحلَ فريدريك عن "روكن"، لكنَّ "روكن" لم ترحل عنه؛ بل حُمِلت جثثُها وذكرياتها في صناديق خشبية متهالكة لتُفرغ في بيتٍ ضيق على زاوية ساحة "ناومبورغ". هناك، حيثُ الرطوبةُ تعانقُ جدرانَ البيوت القديمة، وُضعَ "نصلُ النار" وسطَ "محرابِ الحرير".

كان البيتُ محكوماً بـ "خُماسيةٍ قدسية" من النواعم؛ الجدةُ "إردموث" التي تمثلُ سطوةَ التقاليد، والأمُّ "فرانسيسكا" الشابة التي لم تجفَّ دموعُ ترمّلها بعد، والأختُ "إليزابيث" التي كانت ظلاً صغيراً ينمو ليمتصَّ ضوءَه، وعمتان غارقتان في نصوصِ الكتابِ المقدس والورعِ المتزمّت.

يقولُ لوسيفر في هامشِ الرَّقاقة:
"كنتُ أرقبهُ من خلفِ ستائرِ الدانتيلِ البيضاء.. كان الصبيُّ يختنقُ برائحةِ اللافندرِ والبخور. خمسُ نساءٍ يغزلنَ حوله شرنقةً من 'الشفقة'. كنَّ يُطعمنَهُ الفضيلةَ بملعقةٍ من ذهب، ويحرسنَ براءتَهُ كما تُحرسُ القبور.. لم يكنَّ يعلمنَ أنَّ خلفَ تلك النظرةِ الساهمة، كان ثمة 'إلهٌ منكسر' يبحثُ عن مخرج."
في هذا السجنِ الناعم، تحولَ نيتشه إلى "تمثالٍ من أدب". كان يُلقبُ بـ "القسيس الصغير"؛ لأنه كان يقرأُ الإنجيلَ بنبرةٍ تجعلُ العجائزَ يجهشنَ بالبكاء. لكنَّ الحقيقةَ كانت أشدَّ قسوة؛ لقد كان يقرأُ لكي يملأَ الفراغَ الذي تركه صمتُ أبيه. في الرابعةِ فجراً، كان يقفُ أمامَ النافذةِ المطلةِ على الشارعِ الصامت، يتساءلُ: "لماذا خُلقَ العقلُ إذا كانت الإجاباتُ كلُّها قد كُتبت مسبقاً في كتابٍ واحد؟".

الواسطةُ الأولى (الموسيقى):

وسطَ هذا الحصارِ النسائي، وجدَ فريدريك ثغرةً في جدارِ السجن: "البيانو". كانت أصابعُه الصغيرةُ تضربُ المفاتيحَ بقسوةٍ لا تناسبُ طفلاً. لم تكن موسيقى الكنيسة، بل كانت "صرخاتٍ من نغم".

في إحدى الليالي، وبينما كانت العمتان تتحدثان عن "رحمةِ الرب"، عزفَ فريدريك لحناً جنائزياً غريباً، ارتجفت لهُ الشموع.

لوسيفر يهمس: "في تلك اللحظة، لمسَ الصبيُّ طرفَ ثوبي للمرةِ الأولى.. لقد أدركَ أنَّ النغمةَ أصدقُ من الكلمة، وأنَّ الألمَ لا يُداوى بالصلاة، بل بـ 'الخلق'." كانت ناومبورغ هي "الرحمُ المظلم"؛ حيثُ جُردَ نيتشه من "الذكورةِ الخشنة" لأبيه، ليُغمسَ في "أنوثةِ الورع". هذا التضاد هو الذي خلقَ فيه لاحقاً ذلك الاحتقارَ الهائل لـ "أخلاقِ الشفقة"؛ لأنه جربها، وعاشها، وعلمَ أنها ليست إلا قيداً ناعماً يمنعُ الروحَ من التحليق.

خرجَ نيتشه من هذا الفصلِ وهو يحملُ "جوعاً لا ينتهي" لشيءٍ صلب، لشيءٍ ذكوريٍّ محارب، لشيءٍ يشبهُ البرقَ وسطَ غيمةِ البخورِ الخانقة.

في صيف عام 1858م، جلس رئيس مدرسة "الكاتدرائية في مكتبه، يراجع ملفات الطلاب المرشحين للمنح الملكية. توقف طويلاً عند ملف الصبي فريدريك فيلهلم نيتشه. كان الصبي قد قضى أربع سنوات في هذه المدرسة، لكنها كانت كافية ليترك أثراً يشبه "النُّدبة" في ذاكرة أساتذته.

1. ملامحُ التفوُّق: عقلٌ يسبقُ سنواته

قبل أن يرحل إلى "بفورت"، كان نيتشه الأول بلا منازع. لم يكن يتفوق بالاجتهاد فحسب، بل بـ "الغريزة المعرفية".

اللُّغات القديمة: كان يكتب اللاتينية بطلاقة تُخجل مدرّسيه، ويقرأ اليونانية كأنها لغته الأم.
الدين: كان يحلل النصوص الإنجيلية ببراعة جعلت الجميع يوقنون أنه "قسيسٌ بالفطرة"، دون أن يدركوا أنه كان يُشرّحها ليفهم سر قوتها، لا ليؤمن بها.
الموسيقى: كان يُنظر إليه كـ "موزارت صغير"؛ يؤلف المقطوعات المعقدة وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة.

2. التقريرُ السري: "عقلٌ استثنائيٌّ يميلُ للوحدة"

كتب رئيس المدرسة تقريره ليرسله إلى إدارة "بفورت". لم يكن تقريراً أكاديمياً جافاً، بل كان "تحذيراً مبطناً".
جاء في فحوى التقرير (بتصرف درامي):
"إنَّ التلميذ فريدريك نيتشه يمتلك ملكاتٍ ذهنية تتجاوزُ مرحلته العمرية بمراحل. إنه لا يدرسُ المادة، بل يمتصُّ جوهرها. غير أنَّ ما يثيرُ الريبة هو عزلتهُ الاختيارية؛ فهو لا يشاركُ أقرانهُ لهوهم، بل يسكنُ في عوالمَ داخليةٍ حصينة. إنه يميلُ للوحدة ميلَ مَن وجدَ في نفسه كفايةً عن الآخرين. إنه عقلٌ متوقد، لكنه يحتاجُ ليدٍ حديدية تُهذبه، وإلا احترقَ بنوره."

تفسيرُ لوسيفر لهذا التقرير

في تلك اللحظة، وبينما كان الحبرُ يجفُّ على الورق، كان لوسيفر يراقبُ المشهد من زاوية المكتب، مبتسماً لتلك الكلمات.
يقول لوسيفر في المخطوطة:
"رئيس المدرسة كان يظن أنه يخدم الدولة بإرسال هذا النابغة لـ 'بفورت'.. لم يدرك أنه كان يرسلُ 'ذئباً' إلى زريبةِ خرافٍ أكاديمية. 'ميلُه للوحدة' لم يكن خجلاً، بل كان تَرَفُّعاً. في سن الرابعة عشرة، كان فريدريك قد أدرك سراً لم يدركه أساتذته: أنَّ الحقيقة لا تُكتشفُ وسط الزحام، بل في القفارِ الموحشة. لقد كانت صفتُه تلك هي 'البصمةُ الشيطانية' التي ميزتهُ عن بقية القطيع."

المخطوطة الأولى: عتبةُ الانكسار (مشهد الدخول)

1. الوداعُ المرّ.. رائحةُ الثيابِ الجديدة

في صباح ذلك اليوم الخريفي، كان البيت في ناومبورغ يضج بحركةٍ صامتة وموترة. الأم "فرانسيسكا" كانت قد أعدت لفريدريك ثيابه الجديدة؛ معطفاً طويلاً ثقيلاً، وياقاتٍ بيضاء منشاة بعناية. كانت الأخت "إليزابيث" تنظر إليه كأنه بطلٌ ذاهبٌ للفتح، بينما كانت العمتان تهمسان بصلواتٍ أخيرة وتضعان في جيبه مناديلاً مطرزة.

كان فريدريك يشعرُ بـ "غصةٍ مزدوجة"؛ رغبة عارمة في الهروب من هذا القفص الأنثوي، وخوف قاتل من المجهول الذي ينتظره خلف أسوار "بفورت". عندما صعد إلى العربة التي ستنقله، التفت ليرى الوجوه الخمسة تلوح له من النافذة.. كانت تلك آخر مرة يرى فيها "فريدريك الطفل"؛ فمَن سيعود من تلك المدرسة لن يكون ابناً باراً أبداً.

2. الوقوفُ أمامَ ماردِ الحجري

بعد رحلة قصيرة عبر الوديان الضبابية، برزت أسوار "شولبفورتا". لم تكن مدرسة، بل كانت "ديراً" عتيقاً محصناً، تحيط به أشجار الحور العالية وكأنها حراسٌ من خشب. الجدران الحجرية كانت مغطاة بالطحالب، والنوافذ القوطية الضيقة تبدو كأيونٍ تراقبُ القادمين.

عندما نزل فريديركٌ من العربة، شعر ببرودة الهواء تختلف عن برودة ناومبورغ؛ كانت برودةً "رسمية". سار خلف أمه نحو البوابة البرونزية الضخمة التي نُقش فوقها شعار التاج البروسي.

يقول لوسيفر في المخطوطة:

"كنتُ أقفُ فوق إحدى الشرفات العالية، أراقب ذلك الصغير وهو يجرُّ خطاه المتعثرة. كان يبدو كعصفورٍ يسيرُ نحو فكِّ مفترسٍ حجرٍي. الأرضيةُ الرخامية كانت تُصدر صوتاً (طق.. طَق) مع كل خطوة، كأنها عدٌّ تنازلي لنهاية براءته. في تلك اللحظة، لم يكن فريدريك يدخل مدرسة، كان يدخل 'مصنع العقول'."

3. المحاكمةُ الأولى: لقاءُ "الرئيس"

دخل فريدريك إلى مكتب "رئيس المدرسة". كان المكتب فخماً، مظلماً، تفوح منه رائحة التبغ الفاخر والجلود القديمة. هناك، لم يُعامل فريدريك كطفل، بل كـ "مادة خام".

الواسطة: كان رئيس مدرسة ناومبورغ قد أرسل تقريراً سرياً يصف فيه نيتشه بأنه "عقلٌ استثنائي يميل للوحدة".

المشهد: نظر إليه "الرئيس" من فوق نظاراته الذهبية، وسأله بضع كلمات باللاتينية. أجاب فريدريك بصوتٍ خافت لكنه ثابت. في تلك اللحظة، وقعت الأم على أوراق "المنحة الملكية".

لقد كان ذلك التوقيع هو "صك التنازل"؛ فبموجب المنحة، أصبح نيتشه "ملكاً للدولة" وللعلم. سُلِّم فريدريك مفتاح خزانته ورقمه الخاص، وقيل لأمه ببرود بروسي: "شكراً لكِ سيدتي، يمكنكِ العودة الآن. فريدريك في أيدٍ أمينة".

4. الزنزانةُ الذهبية.. الليلةُ الأولى

بقيت الأم واقفةً لثوانٍ، تريدُ ضمه، لكنَّ "بروتوكول" المكان كان يمنع العواطف. غادرت فرانسيسكا، وبقي فريدريك واقفاً في الممر الطويل، يراقبُ طيفها وهو يبتعد خلف البوابة التي أُغلقت بصوتٍ معدنيٍّ رنان.

قاده أحد الطلاب الأكبر سناً إلى مهجعه. سريرٌ خشبيٌّ ضيق، بطانيةٌ خشنة، وصمتٌ مطبق يقطعه فقط صوت جرس الكنيسة البعيد.

جلس فريدريك على سريره، وفتح حقيبته. أخرج "البيانو الورقي" (لوحة خشبية رسم عليها مفاتيح بيانو ليتدرب صامتاً).

بدأ يحرك أصابعه على الخشب بلا صوت، بينما الدموع تجري بصمت على وجنتيه.

لوسيفر يهمس له من تحت السرير:

"لا تبكِ يا فريديريك.. هذا الصمت هو ما كنتُ أعدُّك له. في ناومبورغ كان هناك الكثير من الضجيج العاطفي الذي يحجب صوتي. هنا، وسط هذا الحجر البارد، ستسمعني بوضوح. أهلاً بك في بيتك الحقيقي."

خلفَ تلك البوابةِ الحجريةِ التي تفوحُ منها رائحةُ القرون، بدأَ فريدريك رحلةَ "التلاشي والولادة". في ممراتِ "شولبفورتا"، لم يكن الهواءُ يحملُ ذراتِ الأكسجين فحسب، بل كان يحملُ غبارَ المخطوطاتِ وصرامةَ الرهبنةِ البروسية.
إليك تفاصيلُ ذلك اليومِ الأول، وكيف رصدت "عينُ الهاوية" خُطى الصبيِّ التائه:
المخطوطة الأولى: غُربةُ الرُّوح - يومُ "النَّفيِ" الأول

. الاستقبالُ البارد: صِدامُ الأرواح (أكتوبر 1858م)
حينَ دخلَ فريدريك الساحةَ الداخلية للمدرسة، كانت عيونُ مئاتِ الطلابِ ترمقهُ بفضولٍ يشبهُ فضولَ الصقورِ تجاهَ طريدةٍ جديدة. هؤلاءِ لم يكونوا أطفالاً، بل كانوا "مشاريعَ قادة"؛ أبناءُ النبلاءِ والعائلاتِ العريقة الذين تشرّبوا القسوةَ قبلَ العلم.
لقاءُ "الأقران": بزيّهِ المدرسيِّ الجديد، وياقتهِ البيضاءِ الصارمة، بدا فريدريك لهم ككائنٍ غريب. لم يكن يملكُ ضخامةَ أجسادهم ولا خشونةَ أصواتهم. لقّبوهُ منذُ اللحظاتِ الأولى بـ "القسيس الصغير" (Der kleine Pastor)؛ ليس حباً فيه، بل سخريةً من تلك الوقارِ الغريب الذي يكسو ملامحه، ومن تلك النظرةِ الساهمة التي كانت ترى ما وراءَ الجدران.

المبارزةُ الصامتة: في قاعةِ الطعام، جلسَ فريدريك وحيداً وسطَ الضجيج. كان الطلابُ يتبادلون النكاتِ الخشنة، بينما كان هو يحدقُ في صحنهِ المعدني، شاعراً بأنَّ جداراً غيرَ مرئيٍّ يفصلهُ عن "القطيع". لم يحاول التقرّبَ منهم، ولم يحاولوا هم كسرَ عزلته؛ فقد كان "التقريرُ السري" للرئيس قد سبقهُ، راسمًا حولهُ هالةً من "العبقريةِ المنبوذة".

. اليومُ الأول: تراتيلُ الحديدِ والحبر
مرَّ اليومُ الأول كأنهُ دهرٌ من الرتابةِ القاتلة. لم يكن هناك وقتٌ للتأقلم؛ فالساعةُ في "بفورت" لا تدق، بل "تجلد".
قاعةُ الدرس: وجدَ فريدريك نفسه في مواجهةِ أساتذةٍ يشبهون تماثيلَ الرخام؛ لا يبتسمون ولا يلينون. حينَ طُلِبَ منهُ ترجمةُ نصٍّ لاتينيٍّ معقد، نطقَ الكلماتِ بنبرةٍ جعلت القاعةَ تسكن. لم تكن ترجمةً، كانت "إحياءً" للنص. في تلك

اللحظة، أدركَ زملاؤه أنَّ هذا "القسيس الصغير" يملكُ سلاحاً أمضى من قبضاتهم: إنهُ يملكُ اللغة.

قانونُ الصمت: كان عليهِ أن يسيرَ في الممراتِ برأسٍ منحنٍ قليلاً، وألّا يتحدثَ إلا إذا سُئل. هذا الصمتُ المفروضُ خارجياً، غذّى صمتَهُ الداخلي.

. لوسيفر: الرقيبُ الصامتُ خلفَ الأعمدة
طوالَ ذلك اليوم، لم يكن فريدريك يعلمُ أنَّ "ظلاً" لا ينتمي لهذا العالم كان يرافقهُ خطوةً بخطوة.
يقولُ لوسيفر في المخطوطة:
"كنتُ أتكئُ على العمودِ الثالثِ في الرواقِ الشمالي، أراقبُ ارتجافةَ يديهِ وهو يمسكُ بريشةِ الحبر. كان الطلابُ يظنون أنهم يتنمرون عليه، ولم يدركوا أنني كنتُ أعزلهُ عنهم لأحميهِ من تفاهتهم. رأيتُهُ في ليلتهِ الأولى، حينَ أُطفئتِ الشموعُ في المهجعِ الجماعي، وهو يحدقُ في السقفِ الحجري العالي. كانت دموعه تجفُّ قبلَ أن تسقط، لأنَّ حرارةَ 'الفكر' بدأت تصعدُ من أعماقه."

. مشهدُ السريرِ رقم (12): ليلُ الغربة
في المهجعِ البارد، حيثُ الأنفاسُ المنتظمةُ للطلابِ الآخرين تخلقُ إيقاعاً رتيباً، كان فريدريك مستيقظاً. كان يفتقدُ رائحةَ "ناومبورغ"، ويحنُّ إلى صوتِ عزفهِ الحرِّ على البيانو. هنا، البيانو لهُ ساعاتٌ محددة، والروحُ لها مواعيدُ انضباط. تحتَ غطائهِ الخشن، وضعَ يديهِ على صدره، وشعرَ للمرةِ الأولى بـ "صمتِ الإله". لم يعد يجدُ في قلبهِ ترنيمةً واحدةً يواسي بها نفسه. لوسيفر، الجالسُ عندَ قدمي سريره في الظلام، كان يبتسمُ بمرارة.
لوسيفر يهمسُ للقدر:
"لقد نجحنا يا فريدريك.. ناومبورغ تلاشت كالدخان. الآن، أنتَ وحيدٌ مع الحجر، ومعي. غداً، ستبدأُ في كتابةِ تاريخِكَ الخاص، ليس ككاهنٍ قسيس، بل كـ 'خادمٍ للحقيقةِ الجارحة'. نم الآن، فالكوابيسُ التي سأمنحكَ إياها أجملُ بكثيرٍ من أحلامِ الورعين."

هكذا كانت البداية.. صبيٌّ منبوذٌ بذكائه، ومدرسةٌ لا ترحم، وشيطانٌ بدأَ ينسجُ خيوطَ القدر.

المخطوطة الأولى: غُربةُ الرُّوح وصدمةُ الوعي

الفصلُ الثاني: خريفُ التخرُّج.. ونحرُ القسيس (1864م)

قضى فريدريك في "شولبفورتا" ستَّ سنواتٍ عجاف، كانت كافيةً لتجعلَ من قلبهِ حصناً ومن عقلهِ نَصلاً. لم تكن تلك السنواتُ دراسةً، بل كانت "حصاراً فكرياً"بينما نَطوي رِقاقَةَ الصبا، نجدُ أنَّ "بفورت" لم تكن مدرسةً، بل كانت "مَطحنةً للروح". لقد دخلها فريدريك طفلاً يرتجفُ من البرد، وخرجَ منها رجلاً يرتجفُ الكونُ من أفكاره.

لَمحةٌ من عُمقِ السِّجنِ الحجري (1858-1864):
عُصبةُ "جيرمانيا": وسطَ الانضباطِ القاتل، أسسَ نيتشه مع رفيقيهِ "بينديل" و"كروغ" نادياً سرياً. كانوا يجتمعون فوقَ التلالِ المحيطةِ بالمدرسة، يتبادلون القصائدَ والموسيقى كأنهم يتبادلون "ممنوعاتٍ" ثورية. هناك، قرأَ نيتشه لأول مرةٍ عن "موتِ الروحِ القديمة"، وهناك بدأت نوتاتُهُ الموسيقيةُ تتخلى عن رزانةِ الكنيسة لتعتنقَ صخبَ العاصفة.

ضريبةُ النبوغ: تفوقَ في اللغاتِ الكلاسيكية لدرجةِ أنَّ أساتذتهُ كانوا يشعرون بالحرجِ أمامه. كتبَ أطروحتَهُ للتخرجِ عن الشاعرِ اليوناني "ثيوجنيس"؛ لم تكن مجردَ دراسة، بل كانت "بيانَ حربٍ" يُمجدُ فيهِ أرستقراطيةَ الفكرِ ويحتقرُ "أخلاقَ القطيع".

نوباتُ الصداع: بدأت جدرانُ عقلهِ تتصدع. الصداعُ النصفيُّ الذي رافقهُ لم يكن مرضاً جسدياً فحسب، بل كان "زلزالاً داخلياً"؛ صراعاً بينَ "القسيس الصغير" الذي يريدُ إرضاءَ أمه، وبينَ "الفيلسوف المحطم" الذي بدأَ يرى وجهَ العدم.

عتبةُ الوداع: حينَ انكسرَ القيد (سبتمبر 1864م)
في يومِ تخرجه، وقفَ فريدريك في الساحةِ الكبرى لـ "بفورت" للمرةِ الأخيرة.
كان يرتدي ثوبَ التخرجِ الأسود، وعيناهُ غائرتانِ خلفَ نظاراتهِ السميكة. ألقى خطابَ الوداعِ باللاتينيةِ بطلاقةٍ جعلت الجدرانَ الحجريةَ ترتجفُ إعجاباً.
حينَ عبرَ البوابةَ البرونزيةَ العظيمةَ نحو الخارجِ، لم يلتفت خلفه. كان يحملُ في حقيبتهِ شهادةً تُثبتُ عبقريته، وفي روحهِ "جثةً" يُريدُ دفنها: جثةُ إيمانهِ القديم.

يقولُ لوسيفر، وهو يمشي بجانبهِ في الطريقِ نحو محطةِ القطار:
"انظر إليه.. لقد تخرجَ من سجنِ 'بفورت' ليدخلَ سجنَ 'الحرية'. الطلابُ الآخرون يضحكون، يخططون للزواجِ والوظائفِ المستقرة، أما هو.. فهو يحملُ 'لُغماً' في صدره. لقد انتهت سنواتُ التلقين، وحانَ وقتُ التيه. أنا فخورٌ ببرودته؛ لقد علّمتهُ تلك المدرسةُ كيف يعيشُ بلا عاطفة، وأنا سأعلّمهُ كيف يعيشُ بلا إله."

1. مشهدُ القطار: وداعُ الماردِ الحجري (أكتوبر 1864م)
في تلك المقصورة الضيقة، كان فريدريك وحيداً رغم وجود المسافرين. كان يرتدي معطفه الأسود، ويتحسس حقيبته الجلدية التي تضم دواوين "هولدرلين" ونوتات موسيقية لم تكتمل. كان يشعر بخفةٍ مرعبة؛ الخفة التي تلي خلع القيود الثقيلة، لكنها الخفة التي تسبق السقوط في الهاوية.
لوسيفر (يتجسد في دخان غليون مسافر جالس في الزاوية):
"انظر من النافذة يا فريدريك.. تلك الأشجار التي تهرب للخلف هي ذكرياتك. 'بفورت' الآن مجرد حجر أصم في ذاكرة الجغرافيا، لكنها في روحك صارت 'قاعدة' لانطلاق الصاروخ. أنت الآن لا تسافر نحو 'بون'.. أنت تسافر بعيداً عن 'نفسك القديمة'. هل تشعر ببرودة المقعد؟ إنها برودة الحقيقة التي لا تجد مَن يدفئها."

2. محطةُ "بون": محاولةُ ارتداءِ القناع (1864 - 1865م)
وصل فريدريك إلى جامعة بون وهو يحاول أن يكون "إنساناً عادياً". انخرط في جمعية الطلاب "فرانكونيا"، شرب الجعة حتى الثمالة، وشارك في المبارزات التقليدية، وحاول أن يضحك بملء فيه ليطرد الصمت الذي سكنه في "بفورت".

التجربة: كان نيتشه في بون يمثل دوراً مسرحياً. كان يرتدي قبعة الطلاب الملونة، لكن لوسيفر كان يهمس له وسط ضجيج الحانات: "هؤلاء ليسوا أقرانك.. أنت هنا تشرب الجعة لتنسى أنك وحيد، لكنَّ خمر الحقيقة الذي تذوقته في 'بفورت' لا يُمحى بمذاق الشعير."
الاشمئزاز: سرعان ما بدأ نيتشه يشعر بالتقزز من سطحية الحياة الطلابية. في بون، فقدَ إيمانه بـ "القطيع" تماماً. وفي لحظة قرار حاسم، قرر اتباع أستاذه المفضّل "فريدريك ريتشل" إلى لايبزيغ.

3. الوصول إلى "لايبزيغ": مغناطيسُ القدر (أكتوبر 1865م)
حين نزل نيتشه في محطة قطار لايبزيغ، كان الجو خريفياً، كئيباً، ومليئاً برائحة الكتب القديمة والمصانع. لم تكن لايبزيغ مدينة للبهجة مثل بون، بل كانت مدينة "للعمل والصمت".
استأجر نيتشه غرفة متواضعة، ووضع حقائبه. كان جسده منهكاً، وصداعه القديم يطلُّ برأسه من حين لآخر.

المخطوطة الأولى: غُربةُ الرُّوح وصدمةُ الوعي

الفصلُ الثالث: مِرآةُ العَدَم.. ولعنةُ "شوبنهاور" (أكتوبر 1865م)

بوصولِ فريدريك إلى لايبزيغ في أكتوبر 1865م، نكونُ قد وصلنا إلى "منطقةِ الصفر" في تاريخِ الفكرِ الحديث. لم تكن لايبزيغ بالنسبة له مجرد محطةٍ أكاديمية، بل كانت "المَذبح" الذي ستُقدمُ عليه آخرُ بقايا إيمانهِ القديم قرباناً للحقيقةِ الجارحة.
في شارع "بلومينغاس"، استأجرَ فريدريك غرفةً متواضعةً في الطابقِ العلويّ. كانت الغرفةُ تشبهُهُ تماماً؛ ضيقةً، باردةً، وساكنةً كصومعةِ راهبٍ اعتزلَ العالم قبلَ أوانه. وضعَ صناديقَ كتبهِ في الزوايا، ورتّبَ أوراقه، وجلسَ أمامَ النافذةِ يراقبُ سماءَ لايبزيغ الرماديةَ التي كانت تُمطرُ كآبةً فوقَ أرصفةِ المدينةِ الصناعية.
كان يشعرُ بـ "خلاءٍ عظيم"؛ فبعدَ صخبِ "بون" المصطنع، وجدَ نفسه وحيداً مع صمتهِ القديم. لم يكن لديهِ أصدقاء، ولا عائلة، ولا إلهٌ يتكئُ عليه. كان نيتشه في تلك اللحظة "نصلًا" جُرِّدَ من غمده، ينتظرُ شيئاً يغرزُ فيهِ حدَّته.

يقولُ لوسيفر، وهو يجلسُ ببرودٍ فوقَ صندوقِ كتبهِ الخشبي:
"كنتُ أراقبهُ وهو ينظفُ نظاراتهِ السميكةَ بيديٍّ ترتجفانِ قليلاً. كان يبحثُ عن 'معنى' وسطَ ركامِ الكلماتِ الميتة. في لايبزيغ، لم يكن الهواءُ يحملُ الأكسجين، بل كان يحملُ غبارَ القرون. كنتُ أعلمُ أنَّ هذه الغرفةَ ستشهدُ ولادةَ 'المسخِ الجميل'؛ ذلك الذي سيهدمُ المعبدَ فوقَ رؤوسِ الجميع."

1. الرحلةُ نحو مكتبةِ "رولاند": مِغناطيسُ القَدَر

في ظهيرةِ يومٍ خريفيٍّ عاصف، خرجَ فريدريك من غرفتهِ هرباً من ضيقِ جدرانها. كانت قدماه تقودانهِ وكأنَّ خيطاً غيرَ مرئيٍّ يشدهُ نحو زقاقٍ ضيقٍ تفوحُ

منه رائحةُ الورقِ العتيقِ والتبغِ المرّ. توقفَ أمامَ مكتبةِ "رولاند" للكتبِ المستعملة؛ واجهةٌ زجاجيةٌ مغبرة، خلفها آلافُ الأرواحِ المحبوسةِ في جلودِ الكتب.
دخلَ فريدريك، فاستقبلهُ صريرُ البابِ الخشبيّ ورائحةُ الرطوبة. سارَ بينَ الأرففِ المظلمة، يمررُ أصابعهُ النحيلةَ فوقَ عناوينَ لا تثيرُ اهتمامه. وفجأة، في ركنٍ مهملٍ يغطيهِ الغبار، وقعت عيناهُ على مجلدٍ ذي غلافٍ رماديٍّ كئيب، يحملُ اسماً لم يكن يسمعُ بهِ إلا لماماً: "آرثر شوبنهاور".

المخطوطة الأولى: الختامُ الدامي

المَقامُ الأخير:المَعموديةُ السَّوداء..واللقاءُ بالأبِ الملعون (أكتوبر 1865م)

كان الهواءُ في مكتبةِ "رولاند" ثقيلاً، مشحوناً برائحةِ الورقِ المتآكلِ والجلودِ التي تعفنت في أقبيةِ النسيان. سارَ فريدريك بينَ الممراتِ الضيقةِ كأنهُ يسيرُ في متاهةٍ جنائزية، ممرراً أصابعهُ المرتجفةَ فوقَ ظهورِ المجلداتِ المرصوصةِ كشواهدِ القبور. لم يكن يبحثُ عن مادةٍ لرسالتهِ الجامعية، بل كان يبحثُ عن "صوتٍ" يكسرُ ضجيجَ الفراغِ في رأسه.

وفجأة، توقفَ الزمن. في ركنٍ معتم، تحتَ ضوءٍ شاحبٍ يتسللُ من نافذةٍ علوية، برزَ مجلدٌ ضخمٌ ذو غلافٍ رماديٍّ باهت، كأنهُ قطعةٌ من صخرِ القبر. مدَّ فريدريك يده، مَسحَ الغبارَ المتراكم، فقفزَ الاسمُ إلى عينيهِ كطعنةِ نصل:
آرثر شوبنهاور: العالمُ كإرادةٍ وتَمثُّل

في تلك اللحظة، شعرَ نيتشه ببرودةٍ تسري من أصابعهِ إلى نخاعه. لم يكن الاسمُ غريباً تماماً، لكنه كان "محظوراً" في الأوساطِ الورعة. فتحَ الصفحةَ الأولى، فقرأَ السطورَ التي كانت تنتظرهُ منذُ خروجهِ من "روكن". شعرَ وكأنَّ يداً جبارةً قد قَبضت على قلبهِ وعصرته.

1. مِستنقعُ الأفكار: حينَ وجدتِ الروحُ حاويتها

لسنوات، كان نيتشه يعيشُ في "مستنقعٍ" من الأفكارِ غيرِ المرئية؛ كان يشعرُ بعبثيةِ الوجود، وبقسوةِ الموت، وبزيفِ الوعودِ الكنسية، لكنه لم يملك "اللغة"

ليصفَ ذلك. وحينَ قرأَ لشوبنهاور، وجدَ "الوعاء" الذي سيحتوي كلَّ تلك القذارةِ المقدسةِ في داخله.

الأبُ الروحي: لم يكن شوبنهاور بالنسبةِ لنيتشه مجردَ فيلسوف، بل كان "الأبَ الذي لم يكذب". والدهُ القسيسُ حدثهُ عن السماء، وشوبنهاور حدثهُ عن "الهاوية". والدهُ ماتَ تاركاً إياه للرب، وشوبنهاور وُلدَ في عقلهِ ليتركهُ للحقيقة.
الاعترافُ الكوني: "الإرادةُ العَمياء".. هذه الكلمةُ كانت التفسيرَ الوحيدَ لصداعه، ليتتمه، ولغربتهِ في "بفورت". الوجودُ ليس خطةً إلهية، بل هو انفجارٌ غريزيٌّ محمومٌ للألم.

2. لوسيفر والشهادةُ على "الولادةِ الثانية"
في زاويةِ المكتبة، خلفَ كومةٍ من القواميسِ اللاتينيةِ القديمة، كان لوسيفر يراقبُ اتساعَ حدقتيّ فريدريك. لم يعدْ بحاجةٍ لأنْ يهمسَ له؛ فالكتابُ كان يقومُ بالمهمةِ على أكملِ وجه.
يقولُ لوسيفر في المخطوطة:
"رأيتُهُ يضمُّ المجلدَ إلى صدره كأنهُ يضمُّ طفلاً ناجياً من حريق. في تلك اللحظة، تمَّت 'المعموديةُ السوداء'. لقد غسلَ شوبنهاور روحَ فريدريك من بقايا 'ماءِ التوبة' المسيحي، وعمّدهُ بـ 'زيتِ العدم'. رأيتُ ملامحهُ تتصلب، وقسماتِ وجههِ الرقيقةِ تتحولُ إلى رخامٍ بارد. لقد وجدَ نيتشه 'أباهُ' الحقيقي؛ الأبَ الذي يمنحُكَ المطرقةَ بدلاً من الخبز، والشكَّ بدلاً من اليقين."

3. العودةُ إلى "بلومينغاس": ليلةُ الانصهار
ركضَ نيتشه عائداً إلى غرفته. لم يخلعْ معطفهُ المبلل. أشعلَ شمعةً واحدة، وغرقَ في المجلدِ لثلاثةِ أيامٍ بلياليها، لا يأكلُ ولا ينام. كان يقرأُ اعترافاتِ روحِهِ بلسانِ رجلٍ آخر.
حينَ أغلقَ المجلدَ في الفجرِ الرابع، كان نيتشه قد تغيرَ كيميائياً.
القسيسُ الصغير مات: دُفنَ تحتَ أطنانِ اليأسِ الشوبنهاوري.

الفيلسوفُ وُلد: من رَحِمِ هذا "المستنقعِ" الفكري، وُلدت الرغبةُ في تجاوزِ شوبنهاور نفسه.
لقد وجدَ نيتشه "القعر" الذي سيرتكزُ عليه ليقفزَ القفزةَ الكبرى.

المخطوطة الأولى: الفصل الثالث - مِرآةُ العَدَم (الختام)

. طقوسُ الانهيارِ الواعي
لم يكد فريدريك يضعُ المجلدَ الرماديَّ لـ شوبنهاور على مكتبهِ الخشبي، حتى شعرَ بأنَّ الغرفةَ قد ضاقت. خلعَ معطفهُ المبلل، وأشعلَ شمعةً نحيلةً كانت ترتجفُ مع كلِّ نَفَسٍ يخرجُ من صدرهِ المتسارع. رمى بنفسهِ على الكرسي، وفتحَ الصفحةَ الأولى.. ومنذُ السطرِ الأول، لم يعد نيتشه هو نيتشه.
يقولُ لوسيفر، وهو يتكئُ على حافةِ النافذةِ مراقباً المطر:
"رأيتُهُ يقرأُ كأنهُ يشربُ سُمّاً لذيذاً. كانت عيناهُ تتسعانِ مع كلِّ جملة، ويداهُ تقبضانِ على حوافِ الورقِ كأنهما تمسكانِ بحافةِ هاوية. لم يكن يقرأُ ليتعلم، بل كان يقرأُ ليعترف. شوبنهاور لم يمنحهُ أفكاراً جديدة، بل مَنحهُ 'الأسماءَ' لِشياطينهِ القديمة. تلك الصرخاتُ الصامتةُ التي كانت تسكنهُ منذُ موتِ والده، وجدَت أخيراً حنجرةً في هذا الكتاب."

. مِستنقعُ "الإرادةِ العَمياء"
كان نيتشه يغرقُ في تفاصيلِ الفلسفةِ الشوبنهاورية؛ وجدَ فيها أنَّ الكون ليس "خطةً إلهيةً حكيمة"، بل هو "إرادةٌ عَمياء"... وحشٌ كونيٌّ لا يهدأ، يتضورُ جوعاً، ويفترسُ نفسهُ ليبقى حياً.
المرآةُ القاسية: لأول مرة، فهمَ نيتشه سرَّ صداعهِ المزمن؛ إنهُ تجلي الجسدِ لِهذا الصراعِ الكوني. فهمَ لماذا ماتَ والدهُ "الطيب" بجنونٍ وألم؛ لأنَّ "الإرادة" لا تفرقُ بين قسيسٍ ومجرم.
الأبُ الروحي: في تلك اللحظة، تبنّى نيتشه شوبنهاور أباً له. قال في نفسه:
"هذا الرجلُ لا يواسيني بوعودِ الجنة، بل يحترمني بما يكفي ليخبرني أنني أعيشُ في جحيمٍ مُنظم". كان مستنقعُ الأفكارِ السوداء بالنسبة له أكثرَ طهارةً من مياهِ المعموديةِ الزائفة.

. ليلةُ الانفجارِ الداخلي
في فجرِ اليومِ الثالث، كان نيتشه قد قرأَ المجلدَ مرتين. كانت الشموعُ قد ذابت وتحولت إلى بقعٍ من الشمعِ البارد، والبردُ قد تغلغلَ في عظامه. وقفَ أمامَ مرآتهِ الصغيرة، ونظرَ إلى وجهه؛ لم يعد يرى "الطالبَ المتفوق"، بل رأى "المُعزى الوحيد لِنفسه".
لوسيفر يهمسُ لهُ من وسطِ الظلال:
"انظر إليك.. لقد انتهت 'الخُماسيةُ النسائية' في روحك. لقد قتلكَ شوبنهاور لتُولدَ من جديد. أنتَ الآن حرٌّ.. لكنها حريةُ مَن يقفُ وحيداً في فضاءٍ لا نهايةَ له. هل تشعرُ بـ 'العلمِ المَرِح' الذي بدأَ يتسللُ إلى قلبك؟ إنهُ الفرحُ الذي يأتي بعدَ اليأسِ المطلق."

. الختام: سقوطُ الأختام
أغلقَ نيتشه الكتاب، ووضعهُ تحتَ وسادته. في تلك اللحظة، سقطت الأختامُ عن بصيرته. لقد أدركَ أنَّ مهمتهُ ليست تفسيرَ الكلماتِ الميتة كعالمِ لغويات، بل هي "تحطيمُ الأصنام" التي جعلت البشرَ عبيداً لِأوهامِ السعادة.

نهاية المخطوطة الاولى:

قَرابةُ الهاوية: حِينَ جَلَسَ "ابنُ القَسِيس" في ضِيَافَةِ الشَّيطان

أطبقَ فريدريك غلافَ المجلدِ الرماديّ ببطءٍ شديد، وكأنَّ أصابعهُ تلمسُ جِلداً بشرياً حياً. دَفَعَ بالكتابِ تحتَ وسادته، وشعرَ في تلك اللحظة أنَّ الأختامَ التي كانت تُطبقُ على صدرهِ لسنواتٍ قد سقطت تماماً. طوالَ الأسابيعِ الماضية، لم يكن نيتشه يقرأُ شوبنهاور، بل كان "يتجرّعهُ"؛ حتى استوطنَ فيلسوفُ التشاؤمِ كلَّ خليةٍ في دماغه، وصارَ يرى الوجودَ عارياً من كلِّ قداسة، مجردَ إرادةٍ عَمياء تتخبطُ في الظلام.

كان لوسيفر يرقبهُ في تلك الفترةِ من زاويةِ الغرفةِ الصامتة في لايبزيغ، يبتسمُ وهو يرى "ابنَ القسيس" يتخلى عن ثوبِ الورعِ قطعةً قطعة، ليغرقَ في مستنقعِ الحقيقةِ المرة.
وبعدَ يومٍ شاقٍّ من التيهِ الفكريّ والصداعِ الذي يكادُ يفتكُ برأسه، استسلمَ فريدريك لِجاذبيةِ الفراش. غطَّ في نومٍ عميق، نومٍ هادئٍ وساكنٍ كأنهُ سوادُ الليلِ المطلق. لكنَّ روحهُ لم تكن نائمة؛ بل كانت تَعبرُ جِسرَ الحلمِ نحو المنطقةِ المحرمة.

استيقظَ نيتشه داخلَ الحلم، ليجدَ نفسهُ في مكانٍ لا يُمكنُ لِعينٍ بَشريةٍ أن تُدركَ أبعاده. لم تكن هناك جدرانٌ ولا سماء؛ بل كان فراغاً أسودَ . البردُ هناك كان لهُ ملمسُ الحجرِ القديم، وصمتٌ قارسٌ يلفُّ كلَّ شيء. وسطَ هذا التيه، ظهرت مائدةٌ خشبيةٌ عتيقة، يتوسطها شمعدانٌ يحملُ شمعةً واحدة، يرتجفُ لهبُها بضعفٍ كأنهُ نَفَسٌ يحتضر، ليضيءَ مساحةً ضيقةً جداً وسطَ هذا الخلاءِ الموحش.
وعلى الجانبِ الآخرِ من الطاولة، كان لوسيفر ينتظر.
كان كياناً يفيضُ بالغموض، يجلسُ بهدوءٍ يوحي بأنهُ جزءٌ من هذا الصمتِ الأزلي. بشرتهُ رماديةٌ شاحبة كأنها نُسجت من غبارِ النجومِ الميتة، وجسدهُ الطويلُ يوحي بقوةٍ هائلةٍ سكنت الوجودَ قبلَ أن تُوجدَ اللغات. ملامحهُ كانت حادةً وقاسية، يعلو جبينَهُ العريضَ قرنانِ أسودانِ طويلانِ يلتويانِ نحو الأعلى كأنهما تيجانٌ من ألمٍ عتيق. أما عيناه.. فقد كانتا الرعبَ الأكبر؛ لم يكن فيهما لونٌ أو بياض، بل كانتا فجوتينِ عميقتينِ من السوادِ الدامس، سوادٍ يبتلعُ النورَ ويشي بقرابةٍ غريبةٍ بينَ صاحبِ هذهِ العينينِ وبينَ الهاويةِ التي تفتحت في عقلِ نيتشه بعدَ قراءتهِ لِشوبنهاور.

سادَ صمتٌ ثقيل، حتى بدأَ نيتشه يشعرُ أنَّ جسدَهُ النحيلَ يكادُ يذوبُ أمامَ هذهِ الهيبة. حينها، نطقَ الكيانُ بصوتٍ هادئٍ وعميق، صوتٍ لا يأتي من الحنجرة، بل من أعماقِ الوجودِ نفسِه، قائلاً:
("يا ابنَ آدم.. هَوِّن على نفسكَ وأسمعني.. تعالَ معي وشارِكني جِلستي، وأشبعْ فضولكَ الذي في نفسك، وأكملْ نقصكَ معي لعلَّكَ تُفلحُ وتعي وتفهمُ ما نحنُ عليهِ مقبلون.")

تقدمَ نيتشه بخطواتٍ مهزوزة، وجلَسَ أمامَهُ بعيونٍ مرتعبةٍ وجسدٍ لا يكادُ يحملهُ من فَرطِ الرهبة. في تلك اللحظة، شعرَ نيتشه بـ "لقاءِ العمومة" الحقيقي؛ فـالشرُّ القابعُ في تلكَ العيونِ السوداء لم يكن غريباً عنه، بل كان يشبهُ تماماً "العدمية" التي سكنت روحه. لوسيفر لم يكن عدواً في هذا الحلم، بل كان "العمَّ" الأكبرَ الذي ينتظرُ وريثَهُ ليطلعهُ على أسرارِ الجحيمِ التي سيبدأُ بكتابتها في أوراقه.

ساد صمتٌ طويل، صمتٌ مريب جعل نيتشه يشعر بضآلة كينونته أمام هذا الجبروت الرمادي. استجمع فريدريك بقايا شجاعته، ونطق بصوتٍ مبحوح يرتجف كخيط دخان:
"أين أنا؟.. ما هذا المكان الذي سقطتُ فيه؟.. وهل أنا أهذي تحت وطأة الحمى، أم أنني متُّ ودخلتُ دهاليز الفناء؟"

لم يتحرك الكيان، بل ظل يحدق فيه بتلك الفجوات السوداء، ونطق بصوتٍ ليس له حنجرة، بل هو ترددٌ عميق يهز الروح:
"أنت في 'المنطقة الصفر' يا فريدريك.. حيث لا مكان للأوهام، ولا سماء للاختباء، ولا جدران تفصل بين الحقيقة وبينك. لستَ ميتاً، بل أنت 'مستيقظ' لأول مرة، مستيقظٌ في حلمٍ هو أصدق من يقظتك الرتيبة في لايبزيغ."

ابتلع نيتشه ريقه الجاف، وعيناه لا تغادران ذلك الوجه الحجري:
"ومَن أنت؟.. وما شأنك بي؟.. رأيتك في غرفتي، وفي أزقة ناومبورغ، والآن أراك هنا بوضوحٍ يرعبني.. هل أنت شيطان شوبنهاور الذي تجسد ليشرّح ياسي؟"
مال الكيان بجسده الطويل فوق الطاولة، فاقترب وجهه الرمادي من لهب الشمعة، وبدت ظلال قرونه كأذرعٍ عملاقة تحيط بالمكان:
"أنا 'العمُّ' الذي كان يرقبك خلف أعمدة 'بفورت' الباردة وأنت تُحطم براءتك فوق نصوص الإغريق. أنا الظل الذي كان يحرس عُزلتك في 'ناومبورغ' حين كنت تختنق بلُطف النساء وتبحث عن 'أبٍ' قوي لا يكسره الموت.

لستُ غريباً عنك يا فريدريك، فكل فكرةٍ متمردة خطرت ببالك، كانت صدى لخطواتي في ممرات عقلك."

تجرأ نيتشه ونظر مباشرةً في تلك الفجوات المظلمة، وسأل سؤاله الأخير الذي كان ينهش صدره:

"ولماذا أنا؟.. لماذا اخترتني أنا تحديداً من بين كل هؤلاء الطلاب والقساوسة والعقول؟.. ماذا تريد من رجلٍ لا يملك سوى صداعه وكتبه وعزلته؟"

هنا، ارتسمت على شفتي لوسيفر ابتسامةٌ باردة، أظهرت أنياباً بيضاء كالعاج القديم، وقال بهدوءٍ تقشعر له الأبدان:

"لأنك الوحيد الذي مَلَكَ الجرأة لِيقول: 'العالم وجعٌ بلا مبرر'. لقد اخترتك لأن سنواتك السبع في 'بفورت' صهرت عقلك حتى صار نَصلاً صقيلاً، ولأن يتمك المبكر في 'روكن' جردك من حماية الآباء الأرضيين لتكون مستعداً لاستقبال الآباء الكونيين. اخترتك لأنك حين أغلقت كتاب شوبنهاور قبل قليل، لم تكن تبحث عن مواساة، بل كنت تبحث عن 'سلاح'. أنت 'المُختار' لأنك 'المُحطِّم' الأكبر، والمحطمون وحدهم هم مَن يصلحون لبناء المخطوطات التي ستحرق العالم القديم."

سكت لوسيفر قليلاً، ثم مد يده الرمادية الطويلة فوق الطاولة، وكأن أصابعه تلامس روح نيتشه العارية:

"أنت الآن على عتبة بوابات الجحيم السبعة. ليست مكاناً للتعذيب، بل هي 'مراحل التحول'؛ كل بوابة ستنتزع منك جزءاً من إنسانك القديم، لتبني مكانه عظمة 'الإنسان الأعلى'. إذا قبلت، فسنبدأ الآن ... سأمنحك مطرقة الفلاسفة، وسأمنحك عُزلتي الخاصة، لتكتب تاريخاً يرتعد له الأحياء والموتى. فهل أنت مستعدٌ لِتعانق قدرك، أم ستعود لتكون مجرد أستاذٍ مغمور يقتله النسيان؟"

ساد صمتٌ مهيب في ذلك الفراغ الأسود، وظل لهب الشمعة يرتجف بينهما كأنه شاهدٌ على عهدٍ سيُكتب بمدادٍ من رمادٍ ونار. نظر نيتشه إلى تلك اليد الممدودة، وشعر أن خيطاً من الدم المنسي قد رُبط بينهما للأبد.

مُلحق المخطوطة الأولى: صراعُ الأزل (ما وراء السطور)

لماذا الآن؟
قد يتساءل القارئ: لماذا لم نُبحر في تفاصيل هذا النزاع الكوني أثناء سرد المخطوطة الأولى؟ ولماذا تركنا "فريدريك" يواجه مصيره وكأنه وحيدٌ تماماً في عزلته؟

الحقيقة هي أنَّ نيتشه نفسه كان يجب أن يشعر بـ "الوحدة المطلقة"؛ فالاختيار الذي اتخذه لم يكن ليكون ذا قيمة وجودية لو علم أنَّ هناك قوىً عظمى تتصارع فوق رأسه. كان الصمتُ السماوي هو "الامتحان الأكبر" لِعقله. لذا، آثرنا أن يظلَّ السرد في المخطوطة الأولى ملتصقاً بجلد نيتشه، بآلامه الجسدية، وبأوراق كتبه، لكي نعيش معه مرارة "اليتم" التي دفعته للارتماء في أحضان لوسيفر.
أما الآن، وقد وقع العهد وسقطت الأختام، حان الوقت لنفتح "الستار الخلفي"، لنرى الكواليس التي كانت تغلي بينما كان نيتشه يظن أنَّ صراعه هو مجرد صراعٍ مع الحبر والورق.

أجواء الملحق: مَسرحُ "اللا-رؤية"
في هذا الملحق، سننتقل من رائحة الغرف الضيقة في "ناومبورغ" و"لايبزيغ" الى فضاءاتٍ تتجاوز الزمان والمكان. سنشاهد الأحداث التي مَرَّت بنا، ولكن من زاويةٍ مغايرة تماماً:
سنرى أنَّ "الصداع" الذي كان يفتك برأس نيتشه لم يكن مجرد عارضٍ طبي، بل كان "صدىً لصدمات القوى"؛ حيث كان لوسيفر يطرقُ أبواب عقله بعنف، بينما كان "النور" يحاول ترميم تلك الأبواب بلمساته الهادئة.
سنكتشف أنَّ "الصدف" التي قادته لكتاب شوبنهاور لم تكن صدفاً، بل كانت "مناورات حربية" خفية.
الأجواء هنا ستكون ملحمية، تدمج بين "جلال النور" الذي يمثله مِيخائيل بنبرته الوقورة الحزينة، وبين "جمال الظلام" الذي يمثله لوسيفر بكبريائه الساخر وتحريضه المستمر. إنها رحلة في "فلاش باك" كوني، نرى فيها كيف

سُحبت الخيوط من "روكن" حتى "لايبزيغ"، وكيف انتصر "الشر" في نهاية المطاف، ليس بالقوة، بل بذكاءٍ استغلَّ جروح نيتشه التي عجز "النور" عن مداواتها.

"نحن الآن لا نسرد تاريخاً، بل نكشف "سرقة روح" تمت في وضح النهار الكوني."

المشهد: مقبرة روكن (أغسطس 1849م)

بينما كانت الكنيسة الصغيرة في "روكن" تئنُّ تحت وطأة ترانيم الوداع الجنائزية، كان الوجودُ يرتجفُ في بُعدٍ آخر لا تراهُ أعينُ المشيعين الباكين. لم تكن الجنازة مجرد مواراةٍ لجسد القسيس "كارل لودفيج" تحت التراب، بل كانت "سوقاً عكاظياً" لتقرير مصير الصبي ذي الخمس سنوات، الذي كان يقفُ مذهولاً أمام القبر المفتوح.
كانت السماءُ رماديةً كئيبة، تُمطرُ رذاذاً ناعماً يمتزجُ بطين الأرض الرطب. المشيعون يرتدون سواداً كأنه قطعة من ليلٍ مكسور، وصوت المعاول وهي تضربُ التربة كان يرتدُّ في أذني الصغير "فريدريك" كضرباتِ مِطرقةٍ على قلبِ الإيمان.
وفوق رؤوس البشر، حيثُ يلتقي الضبابُ بالغموض، برز الكيانان.
على يمين القبر، انتصبَ مِيخائيل. كان يتجلى كوهجٍ أبيضَ ناصع، أجنحتهُ العظيمةُ ليست من ريش، بل من خيوطِ فجرٍ منسوجةٍ بوقار. كان وجههُ يشعُّ بسكينةٍ حزينة، وعيناهُ الزرقاواتانِ تفيضانِ بدموعٍ من ضياء. كان يمدُّ يدهُ النورانية ليظلل رأس "فريدريك"، محاولاً حجبَ برودة الموت عن روحه الغضّة.
وعلى اليسار، من قلبِ ظلِّ شجرةِ سدرٍ عتيقة، خرجَ لوسيفر. كان حضورهُ يمتصُّ الضوءَ من حوله؛ جسدٌ رماديٌّ منحوتٌ من كبرياء، ووشاحٌ من دخانٍ أسود يلتفُّ حوله كعباءةِ ملكٍ مخلوع. عيناهُ السوداوانِ كانتا تحدقانِ في جثةِ القسيس داخل التابوت بنوعٍ من السخرية المُرّة، وقرناهُ الحادانِ يشقانِ الضبابَ بتحدٍ أزلي.

الصراع: حوارٌ فوق جُثةِ اليقين
مِيخائيل (بصوتٍ يشبهُ رنينَ الأجراسِ البعيدة):
"ارحل يا لوسيفر.. ليس هذا وقتُكَ ولا مكانُك. هذا الطفلُ مبللٌ بدموعِ الطهر، وهو تحتَ حمايتي. والدهُ كان خادماً مخلصاً، وسأبني في قلبِ الصغير محراباً لِلصبرِ والرضا بقضاءِ السماء."
لوسيفر (بضحكةٍ خافتةٍ تجعلُ الهواءَ يرتجفُ ببرودةٍ مفاجئة):
"حماية؟ أيُّ حمايةٍ تتحدثُ عنها يا حامل الميزان؟ انظر إلى 'خادمك المخلص'.. لقد نخرَ السوسُ دماغه، ومات وهو يرى أشباحاً لا وجود لها. لقد خذلتهُ سماؤُك في ذروةِ إيمانه. انظر إلى عيني الصبي.. إنه لا يبحثُ عن 'صبرِك' الباهت، إنه يبحثُ عن 'العدل'.. ولن يجدهُ في ترانيمِك."
مِيخائيل (وهو يقتربُ من الطفل ليضعَ لمسةً من السكينة على جفنيه):
"الألمُ هو اختبارُ الروح يا متمرد. هذا الصبي سيسيرُ على خطى والده، سيكونُ قسيساً، وسيدافعُ عن النور بكلماتِه. الموتُ ليس نهاية، بل هو بابٌ لِلفرحِ الأبدي."
لوسيفر (يتقدمُ بخطواتٍ واثقةٍ حتى صارَ يواجهُ مِيخائيل فوقَ القبرِ تماماً):
"كذبةٌ جميلة.. لكنَّ طينَ 'روكن' أصدقُ من وعودِك. اسمع يا مِيخائيل.. هذا الصبي ليس كغيره. في رأسهِ يغلي جنونٌ لن تطفأهُ مياهك المقدسة. هو لا يريدُ 'فرحاً أبدياً' في السماء، هو يريدُ 'حقيقةً عارية' هنا فوق الأرض. لقد مات أبوهُ القسيس، ومعهُ ماتت براءةُ الكنيسة في عقل الصبي. سأتركهُ لكَ لسنوات، دع الحروفَ اللاتينيةَ واليونانيةَ تنهشُ قلبه، دع 'بفورت' تصقلهُ بالبرد.. لكنني سأنتظرهُ في 'لايبزيغ'. هناك، سأفتحُ لهُ كتابَ شوبنهاور، وسأجعلهُ يرى أنَّ إلهك هو مجردُ وهمٍ خلقهُ الضعفاء."
مِيخائيل (وهو يرفعُ سيفهُ النوراني بصمتٍ مَهيب):
"سأحاربُكَ في كلِّ فكرةٍ تخطرُ بباله. سأذكرهُ بـ 'الجمال'، بـ 'الموسيقى'، وبـ 'الشفقة' التي هي جوهرُ النور. لن تظفرَ بـ 'ابن القسيس' بسهولة."

لوسيفر (يبتسمُ وهو يختفي في الضباب، تاركاً وراءهُ رائحةَ كبريتٍ وكبرياء):
"سنرى يا مِيخائيل.. لكن تذكر.. أنا لا أحاربُ بالسيوف، أنا أحاربُ بـ 'الأسئلة'. وحين يبدأُ فريدريك بالسؤال، لن يجدَ إجاباتِكَ كافية."

المشهد: غُرفةُ المَعيشة في ناومبورغ (عقدُ الخمسينيات من القرن التاسع عشر)

انتقلَ مَسرحُ النزاعِ الكونيّ من طينِ المقابرِ في "روكن" إلى شوارعِ "ناومبورغ" الهادئة، حيثُ المنازلُ التي تفوحُ منها رائحةُ القهوةِ والكتبِ المقدسة. هنا، في هذا "الحِصنِ النسائيّ" الذي يحيطُ بفريدريك (أُمّهِ، وجَدّتهِ، وأختِه)، بدأَ مِيخائيل مَلحمةَ الدفاعِ المستميتِ عن روحِ الفتى، بينما كان لوسيفر يراقبُ المَشهدَ من الزوايا المظلمة، مُكتفياً بابتسامةٍ باردة، مُلتزماً بـ "الهُدنةِ" التي مَنحها للنور، لكنهُ لم يَبخل بسخريتِه.
كان فريدريك الشاب يجلسُ أمامَ البيانو، أصابعهُ الصغيرةُ تداعبُ المفاتيحَ لتعزفَ ترنيمةً كنسيةً رقيقة. ضوءُ الشموعِ يترنحُ على جدرانِ الغرفة، مُمزقاً عتمةَ المساء.
فوقَ كتفِ الفتى، كان مِيخائيل يتجلى كغيمةٍ من ضياءٍ ذهبيّ. كان يبدو كأنهُ يحاولُ نَسجَ "دِرعٍ من النور" حولَ المنزل؛ كانت أجنحتهُ تلتفُّ حولَ فريدريك كلما عَزفَ نوتةً موسيقية، وكان يهمسُ في رُوعِ الفتى برؤىً عن الجمالِ الإلهيّ، محاولاً أن يربطَ موهبتهُ الفذةَ بتمجيدِ الخالق. كان مِيخائيل يملأُ هواءَ ناومبورغ بالسكينة، ويجعلُ من حَياةِ فريدريك سِلسلةً من الطقوسِ الهادئة: المدرسة، الكنيسة، والمنزل.

وفي أقصى زاويةٍ من الغرفة، حيثُ تَعجزُ الشموعُ عن اختراقِ العتمة، كان لوسيفر يتكئُ بظهرهِ على خزانةِ الكتبِ العتيقة. كان يرتدي ثوبهُ الرماديّ الأنيق، وقرناهُ يلمعانِ كخنجرينِ أسودينِ تحتَ الظلال. لم يتدخل، ولم يهمس لنيتشه بكلمة، بل كان يحدقُ في مِيخائيل بنظراتٍ يمتزجُ فيها المَللُ بالاحتقار.
الحوار: سُخريةُ الظِّل وفشلُ النُّور
مِيخائيل (وهو يوجهُ يدَ فريدريك لتعزفَ لَحناً سماوياً):
"انظر إليه يا لوسيفر.. إنهُ يغرقُ في الجمال. الموسيقى ستكونُ مِرساةَ نجاتِه. سأجعلُ منهُ 'القسيسَ الصغير' الذي يرى الله في كلِّ نغمة. ناومبورغ ستكونُ مَغسلةً لروحِه، تُطهرُهُ من شكوكِ 'روكن' القاتلة. هل ترى؟ إنهُ يَسكنُ الآن في مِحرابِ النور."

لوسيفر (يُصدرُ ضحكةً مكتومةً أشبهَ بفحيحِ الريحِ في غابةٍ محترقة):
"تُطهرُه؟ بل أنتَ 'تُدجّنُه' يا مِيخائيل. أنتَ تبني حَولهُ قَفصاً من الأوهامِ الرقيقة. تظنُّ أنَّ هذه الترانيمَ ستُنسيهِ رائحةَ القبرِ في 'روكن'؟ أنتَ لا تمنحُهُ 'النور'، بل تمنحُهُ 'العمى' الجميل. اِستمر في محاولاتِك.. اِملأ عقلَهُ بالبخورِ والصلوات، اِجعل نساءَ البيتِ يلففنهُ بخيوطِ الحماية.. أنا أستمتعُ بِمشاهدةِ هذا العبث."
مِيخائيل (بإصرارٍ مَهيب وهو ينثرُ وهجاً فوقَ أوراقِ نيتشه):
"إنهُ يكتبُ أشعاراً لتمجيدِ السماء! قلبهُ لا يزالُ طاهراً، وسأظلُّ أقاتلُ ليبقى كذلك. سأجعلُ من صباهُ حُلماً من الورع، حتى إذا كبرَ، وجدَ في إيمانِه حِصناً لا تستطيعُ أنتَ اختراقَه."
لوسيفر (يتحركُ ببطءٍ في الظل، وعيناهُ السوداوانِ تلمعانِ بسخريةٍ جارحة):
"حِصناً؟ يا لكَ من ساذج! أنتَ تقومُ بِتسمينِ الضحيةِ لي فحسب. كلما زادَ 'وَرعُه' الآن، زادَ عُنفُ 'انفجارِه' لاحقاً. الفتى يملكُ عقلاً يطلبُ 'الحقيقة'، وأنتَ تعطيهِ 'المواساة'. هل تظنُّ أنَّ هذه الترانيمَ ستصمدُ عندما أفتحُ لهُ أبوابَ الفلسفةِ في 'بفورت'؟.. لَقد أعطيتُكَ مَهلةً يا مِيخائيل، ليس لأنني أخشاكَ، بل لأنني أريدُ لنيتشه أن يَختنقَ بـ 'نورك' المزيف أولاً، ليكونَ سقوطُه في جحيمي أعمق وأكثرَ لذة."
مِيخائيل (وهو يرفعُ رأسَهُ بتحدٍ وقد ازدادَ ضياؤه):
"لن يسقط. سأبقى حارساً لِبواباتِ قلبِه."
لوسيفر (يعودُ للتككُؤِ على الجدار، ويُغلقُ عينيهِ بنوعٍ من الازدراء):
"اِحرس ما شئت.. فبينما أنتَ تُعلمه كيف 'يُصلي'، أنا أنتظرُ اللحظةَ التي سيسألُ فيها 'لماذا؟'. وعندما يأتي ذلك السؤال، سيتلاشى نُورك كما يتلاشى الضبابُ أمامَ الحريق. واصل مَسرحيتَك.. مَهلتُكَ لم تَنتهِ بعد، لكنَّ الساعةَ تَدق، و'بفورت' تنتظرُ خلفَ التل."
خَفَتَ صوتُ البيانو، وقام فريدريك لِيُغلقَ النافذة، مُشيحاً بوجهه عن النجوم. لم يَشعر بـ "النور" الذي كان يحاولُ ضمه، ولم يَسمع "سخرية" الشيطان، لكنهُ شعرَ بضيقٍ غامضٍ في صدره.. كأنَّ هدوءَ ناومبورغ كان "الهدوءَ الذي يسبقُ العاصفة". كان لوسيفر يبتسمُ في الظلام، مفسحاً المجالَ لـ "مِيخائيل" لِيُكملَ صلاتَه الأخيرة فوقَ روحٍ كانت قد بدأت تنجذبُ بالفعل نحو الهاوية.

المشهد: عتبةُ مدرسة "بفورت" العظيمة (1858م)

تقفُ مدرسة "بفورت" كقلعةٍ حجريةٍ قوطية، جدرانُها الباردةُ تلتهمُ ضوءَ النهار، وأبراجُها الشاهقةُ تشقُّ السماءَ كأصابعَ متيبسة. وقفَ فريدريك الشاب عند البوابة، حقيبتهُ الخشبيةُ الصغيرةُ تزنُ أثقلَ مما هي عليه، وعيناهُ تائهتانِ بين دموعِ أمهِ "فرانسيسكا" في الوداع، وبينَ عتمةِ الممرِّ الحجريّ الذي ينتظرهُ.
فوقَ إحدى الشرفاتِ العاليةِ والمُظلمة، حيثُ لا تصلُ أشعةُ الشمس، كان لوسيفر يقفُ كتمثالٍ من الأبنوس. وشاحهُ الدخانيُّ يتطايرُ مع ريحِ تشرين الباردة، وعيناهُ السوداوانِ تحدقانِ في "ابن القسيس" بنوعٍ من الجوعِ المتربص. وعلى الجانبِ الآخر من الشرفة، كان مِيخائيل يقفُ بِضياءٍ باهتٍ ومرتبك، محاولاً نَسجَ هالةٍ من السكينةِ حولَ رأسِ الفتى لِتحميهِ من وحشةِ الفراق.

الحدث: الصعقةُ والوسم
انحنى فريدريك لِيُقبلَ يدَ أمهِ للمرةِ الأخيرة. وفي تلك اللحظةِ الدقيقة، التفتَ لوسيفر نحو مِيخائيل بابتسامةٍ حادةٍ كشفرةٍ مِقصلة.
لوسيفر (بصوتٍ ليس له حنجرة، بل هو ترددٌ عميق يهزُّ أركانَ الشرفة):
"تظنُّ أنَّ صلواتِ ناومبورغ ستحميهِ من 'منطق' اليونان؟ أنت واهمٌ يا حامل الميزان. لقد انتهت مَهلتُك.. والآن يبدأُ عملي الحقيقي. سأضعُ توقيعي على جَسدِه، لِيعلمَ أنَّ الحقيقةَ لا تُنالُ إلا عبرَ البوابةِ التي لا يجرؤُ أحدٌ على عبورِها.. بوابةُ الألم."
رفعَ لوسيفر إصبعهُ الرماديّ البارد، وأشارَ بحدةٍ نحو جبهةِ فريدريك.
في تلك اللحظةِ تماماً، وبينما كان فريدريك يرفعُ رأسَهُ لِيخطو خطوتهُ الأولى داخلَ البوابة، شعرَ بـ "برقٍ" يضربُ بقوةٍ خلفَ عينيه. لم يكن ألماً تدريجياً، بل كان صعقةً كهربائيةً مباغتةً جمدت الدماءَ في عروقه. سقطت الحقيبةُ من يدهِ، وتراجعَ خطوةً للخلف، واضعاً كفهُ على صدغيهِ كأنما يحاولُ منعَ رأسهِ من الانفجار.
الحوار: حقيقةُ الوجع
مِيخائيل (بذعرٍ مقدساً وهو يندفعُ نحو حافة الشرفة):
"ماذا فعلت؟.. إنهُ لا يزالُ طفلاً! لقد وعدتَ بالمهلة!"

لوسيفر (يبتسمُ بكبرياءٍ مروع، تاركاً وهجاً رمادياً يلمعُ في عينيه):
"لقد وفيّتُ بعهدي في ناومبورغ. لكنَّ 'بفورت' هي أرضي. هذا البرقُ هو 'تحيتي' لِـ 'ابن القسيس'. إنهُ 'المنطقُ العاري' وهو يطرقُ أبوابَ عقلِه. الصداعُ الذي يشعرُ به الآن هو أولُ مسمارٍ أدقُّهُ في صليبِ عبقريته. كلما حاولَ العودةَ لِعاطفةِ الشفقة، سأضربُهُ بهذا الوجع، حتى يكرهَ 'نورك' الباهت، ويطلبَ 'عتمتي' التي تمنحهُ الرؤية. لقد وسمتُهُ لي.. وإلى الأبد."

اللقطةُ الأخيرة: العبورُ بالألم
استجمعَ فريدريك شتاتَ نفسه، وحملَ حقيبتهُ بيدٍ ترتجف. نظرَ نحو الممرِّ المظلم، وكان يشعرُ بنبضٍ مؤلمٍ ومنتظمٍ خلفَ عينيه، نبضٍ غريبٍ لم يعهدهُ من قبل. خطا خطوتهُ الأولى داخلَ مدرسة "بفورت"، تاركاً خلفه براءةَ ناومبورغ ودموعَ أمه، ودخلَ إلى "مَصيدةِ العظمة".

نزلَ لوسيفر من شرفتهِ كظلٍ سريع، واختفى خلفَ الأعمدةِ الحجرية، تاركاً مِيخائيل يقفُ وحيداً، يراقبُ الفتى وهو يدخلُ إلى "مَعملِ الألم" الذي سيبدأُ فيه لوسيفر بِتشريحِ روحه، قطعةً قطعة. الحربُ لم تعد خلفَ الكواليس فحسب، بل بدأت تُكتبُ الآن بمدادٍ من "الوجع" في خلايا دماغ فريدريك نيتشه.

أروقةُ "بفورت" (تَشريحُ اليقين)
المشهد: المكتبةُ العتيقة (شتاء 1860م)
كانت الرطوبةُ تتسللُ من الجدرانِ الحجرية، ورائحةُ الورقِ القديمِ تُغلفُ المكان. جلسَ فريدريك الشاب وحيداً في زاويةٍ مُظلمة، يضعُ يديهِ على صدغيهِ لِيتحملَ ذلك النبضَ اللعين الذي لا يهدأ. الضوءُ المتسربُ من النوافذِ المرتفعة كان يؤذيه، وكأنَّ كلَّ شعاعٍ هو إبرةٌ تُغرسُ في عينه.
فوقَ رفوفِ الكتبِ العالية، كان مِيخائيل يحومُ كطيفٍ من الفِضة، يحاولُ يائساً أن يجمعَ خيوطَ الضياءِ المتناثرة ليصنعَ منها "غِطاءً" لِعيني فريدريك. كان يهمسُ لهُ بكلماتٍ من المزامير، ويحاولُ أن يوجهَ بصرهُ نحو كتبِ اللاهوتِ والحكمةِ الوديعة.
أما لوسيفر، فكان يجلسُ على الطاولةِ المقابلةِ لنيتشه مباشرةً، متجسداً في هيئةِ ظلٍّ لا يتحرك. لم يكن يقرأ، بل كان يراقبُ مِيخائيل بسخريةٍ مَمريرة.

توضيحُ "الوسم": هل هو الواقعُ أم الخيالُ الزائف؟
مِيخائيل (بصوتٍ متهدجٍ من التعب):
"ارفع يَدَكَ عنهُ يا لوسيفر! لقد أصبتَهُ بـ 'خيالٍ زائف'.. جعلتَهُ يرى الوجودَ غابةً من الوحوشِ والألم. هذا الصداعُ هو 'كذبةٌ' غَرستَها في جسدِه لِتحجِبَ عنهُ حقيقةَ النورِ والسكينة. أنتَ تَسجُنُهُ في أوهامِكَ المظلمة!"
لوسيفر (يَبتسمُ وهو يَنفضُ غُباراً وهْمياً عن عباءتِه):
"أوهام؟.. أخطأتَ العنوان يا حامل الميزان. أنا لم أَسِمهُ بـ 'الخيال'، بل وسَمتهُ بـ 'نَصْلِ الواقع'.
اسمعني جيداً: الصداعُ ليس مَرضاً، بل هو 'حَساسيةٌ مُفرطةٌ تجاهَ الزيف'. لقد وسَمتهُ بـ 'الحقيقةِ العارية'. في كلِّ مرةٍ يحاولُ فيها أن يَهرُبَ إلى خيالاتِكَ 'الزائفة' عن الإلهِ الرحيمِ والعدالةِ السماوية، يَحترقُ وَسْمِي في عقلِه. جسدُهُ الآن يَرفضُ 'الأكاذيبَ المُريحة' التي تُقدمُها له.
أنا لم أعطِهِ خيالاً؛ أنا حَطمتُ 'خيالَهُ الدافئ' وتركتُهُ يواجهُ بَرْدَ الحقيقةِ كما هي. الصداعُ هو صرخةُ عقلِهِ وهو يكتشفُ أنَّ الكونَ صامتٌ، وأنَّ الوجودَ لا يُبالي بدموعِه."
استماتةُ النور: الدفاعُ الأخير
لم يستسلم مِيخائيل. اندفعَ نحو فريدريك، ومَسحَ على جبهتِهِ بيدِهِ النورانية، فهدأ النبضُ قليلاً. بدأ فريدريك يقرأُ قصيدةً عن "الوطن والرب"، وشعرَ براحةٍ مؤقتة.
مِيخائيل (يتلفتُ نحو لوسيفر بتحدٍ):
"أرأيت؟.. إنهُ يعودُ إلينا. سأتمسكُ بقلبهِ حتى لو احترقت يداي بنارك. سأجعلهُ يرى 'الجمال' كقيمةٍ مُطلقة، وسأزرعُ فيهِ حُبَّ الإنسانيةِ والشفقة. لن تدعَهُ يرى 'واقعَكَ البارد' كحقيقةٍ وحيدة."
لوسيفر (يضحكُ ببرودٍ وهو يختفي في زوايا المكتبة):
"تَمَسَّك بهِ كما تشاء.. لكن تذكر، كلما زادَ تمسكُكَ بهِ وزادَ 'تَخديرُك' لهُ بالسكينة، سيكونُ صُداعي القادمُ أكثرَ فتكاً. 'بفورت' علّمتهُ أن يقرأَ لغاتِ القدماء، وسرعانَ ما سيكتشفُ أنَّ آلهةَ اليونانِ كانت تعشقُ الدماءَ والجنون، وليس 'الرحمة' التي تَدَّعيها.
اِستمر في صلاتِك يا مِيخائيل.. فأنا أستمتعُ برؤيةِ 'ابن القسيس' وهو يرتجفُ بين يديّ، مُمزقاً بين واقعٍ لا يرحم، وخيالٍ لا يُشبع."

حالُ نيتشه في تلك اللحظة
في تلك الأروقة، كان نيتشه يشعرُ بشيءٍ غريب؛ كان يكتبُ في مذكراتِهِ قصائدَ تفيضُ بالإيمان، لكنَّهُ في أعماقه، كان يرى أنَّ الكلماتَ تفرُّ منه. كان "وَسْمُ لوسيفر" (الواقع الحاد) يجعلُهُ يرى التناقضاتِ في كلِّ مكان:
- يرى القسيسَ يتحدثُ عن الزهد، بينما يَجمعُ المال.
- يرى المعلمَ يتحدثُ عن الحكمة، وهو غارقٌ في الكبرياء.
لقد صارَ "راداراً" لِلكذب، وهذا هو الوجعُ الأكبر؛ أن تعيشَ في عالمٍ من الأقنعة (التي يحاول النور الحفاظ عليها لِتستمر الحياة)، وأنتَ تملكُ عيناً (وَسَمها الشيطان) لا ترى إلا ما خلفَ الأقنعة.

تتمةُ الملحق: مَلحمةُ "لايبزيغ" (الوقوفُ عندَ فوهةِ البركان)

المشهد الأول: زقاقُ الظلال (الشعور بالعدم)
كانت شوارع لايبزيغ غارقةً في ضبابٍ لزج، وأعمدة الغاز تنثر ضوءاً شاحباً يشبه وجوه الموتى. مشى فريدريك وحيداً، ياقتهُ مرفوعةٌ لتحميهِ من بردِ تشرين، لكنَّ البرد الحقيقي كان ينبعُ من داخله.
خلفه، كان مِيخائيل يلهثُ نوراً. كان ضياؤه قد بَهتَ، وأجنحتهُ تزدحمُ بجروحٍ غير مرئية. كان يحاول أن يهمس لفريدريك بذكرى "ناومبورغ"، بوجوه النساء اللواتي ينتظرنه، وبالكنيسة التي ترك فيها قلبه.
وعلى الجانب الآخر من الشارع، يمشي لوسيفر بمحاذاته، صامتاً كالموت، واثقاً كالقَدَر. لم يكن ينظر لنيتشه، بل كان ينظر للأفق، وكأنه يرى الانهيار القادم.
مِيخائيل (بصوتٍ متهدج، يكاد يكون توسلاً):
"فريدريك.. لا تدخل ذلك المتجر! عُد إلى غرفتك، صلِّ، اقرأ 'العهد الجديد'.. لا تزال هناك فرصة للعودة. النورُ ينتظرك، والرحمةُ أوسعُ من شكوكِك."
لوسيفر (يلتفت ببطء، وعيناه تشعانِ بسوادٍ مطلق):
"الرحمةُ؟ الرحمةُ هي 'مخدر' الضعفاء يا مِيخائيل. انظر إليه.. إنه يتضورُ جوعاً لـ 'الحقيقة' التي منعتها عنه لسنوات. هو لا يريد صلاة، هو يريد 'سلاحاً' ليفهم هذا العبث. واليوم.. سأعطيه المطرقة."

المشهد الثاني: حانةُ الأوراق الملعونة (لقاء شوبنهاور)
دخل نيتشه دكان الكتب القديمة. كان المكان تفوح منه رائحة الغبار والزمن المنسي. وفجأة، وقعت عيناه على كتابٍ ذو غلافٍ رماديٍّ كأنه قطعةٌ من الجحيم: "العالم كإرادة وتمثل" لـ آرثر شوبنهاور.
في تلك اللحظة، حدثَ الانفجار.
مِيخائيل حاول أن يمدَّ يده ليُسقط الكتاب من فوق الرف، حاول أن يغشي بصر نيتشه بغمامةٍ من الدموع. لكنَّ لوسيفر كان أسرع؛ وضع يده الرمادية فوق يد نيتشه، وجذبهُ نحو الغلاف.
لوسيفر (يهمس بانتصار):
"افتحه يا فريدريك.. افتح 'الكتاب الأسود'. هنا ستجد إنجيلك الحقيقي. هنا ستعرف أنَّ الوجود ليس 'عنايةً إلهية'، بل هو 'إرادةٌ عَمياء' لا ترحم. هنا ستموت براءتُك.. ويُولدُ عَقلك."
بمجرد أن قرأ نيتشه السطور الأولى، صرخ مِيخائيل صرخةً هزت أركان المكان (لكنَّ أحداً لم يسمعها سوى لوسيفر). شعر مِيخائيل بـ "الوسم" الذي وضعه لوسيفر في "بفورت" وهو يتوهجُ بنورٍ أسود، محرقاً كلَّ بقايا الإيمان في عقل الفتى.
المشهد الثالث: صراعُ الغرفةِ المُظلمة
عاد نيتشه لغرفته، أغلقَ الباب، وفتحَ الكتاب. في تلك اللحظة، تحولت الغرفةُ الصغيرةُ إلى ساحةِ معركةٍ كبرى.
مِيخائيل تجلى في وسط الغرفة، سيفهُ النورانيُّ يقطرُ دمعاً ذهبياً، وهو يصرخ بصوتٍ لا يسمعه إلا الوعي:
"فريدريك! انظر إليّ! هذا الكتابُ هو 'سَمُّ العدم'! إذا شربتهُ، ستنقطعُ خيوطُ السماءِ عن روحِك للأبد. سأحرقُ هذه الأوراقَ بضيائي إن لزمَ الأمر لِأنقذك من هذا الانتحار الفكري!"
اندفعَ لوسيفر من عتمةِ الزاوية، منتصباً كطودٍ من الكبرياء، وقرناهُ الحادان يشقان سقف الغرفة المعنوي:
"تنقَذه؟.. أنتَ تريدُ أن 'تخنقَه' في قشرةِ الزيف! دعهُ يقرأ.. دعهُ يرى حقيقةَ 'الإرادة' التي تحركُ هذا الوجود الصامت. أنتَ تخافُ عليهِ من الألم، وأنا أريدهُ أن يكونَ هو 'الألم' ذاته لِيصنع مجده. تراجع يا مِيخائيل.. فالعقلُ قد استيقظ، والنورُ لم يعد يكفي لِمن أبصرَ الظلام."

بينما كان الكيانانِ يتصادمانِ، انفجر "صداعُ نيتشه" كزلزالٍ خلف عينيه، حتى خَرَّ صريعاً لِوطأةِ نَومٍ جَبّارٍ بدأ يغزو حواسَّه وهو لا يزالُ فوق الصَّفحاتِ المفتوحة.

المشهد الرابع: "المنطقة الصفر" (الثانية العالقة)

انتقلنا الآن إلى المشهد المهيب.. الفراغُ الأسود، الطاولة، والشمعة الوحيدة. خارج دائرة ضوء الشمعة، في العتمةِ المحيطة بهذا الفراغ، كان مِيخائيل يقفُ منهاراً على ركبتيه. ضياؤهُ صارَ خافتاً كبقايا حلم، ويداهُ ممدودتانِ نحو نيتشه، لكنه لا يستطيعُ عبورَ "خطِّ الإرادة". كان يهمسُ للمرةِ الأخيرة: "تذكر.. 'روكن'.. الأب.. لا تلمس يده..".

لكن داخل دائرةِ الشمعة، كان لوسيفر يمدُّ يدهُ الرماديةَ الطويلة، عيناهُ السوداوانِ ثابتتانِ كالثقوبِ الكونية، وصوتهُ يخرجُ كفحيحٍ يملأ الوجود:

"أنتَ لستَ بحاجةٍ لِذكرى 'روكن' يا فريدريك.. أنتَ بحاجةٍ لِأن تكونَ أنتَ 'البداية'. انظر إلى يدي.. إنها الجسرُ الوحيد فوق هاوية العدم. خلفها.. ستعرفُ لماذا تألمَ والدك، ولماذا صمتت السماء."

وهنا.. تجمد كل شيء.

ساد صمتٌ مهيب في ذلك الفراغ الأسود، وظل لهب الشمعة يرتجف بينهما كأنه شاهدٌ على عهدٍ سيُكتب بمدادٍ من رمادٍ ونار. نظر نيتشه إلى تلك اليد الممدودة، وشعر أن خيطاً من الدم المنسي قد رُبط بينهما للأبد.

لقد توقف العالمُ عند هذه اللحظة؛ مِيخائيل يحبس أنفاسه النورانية، ولوسيفر ينتظر بابتسامةٍ باردة، ونيتشه.. يحدق في اليد الممدودة، غارقاً في ترددٍ يزنُ ثقل الكون.

المخطوطة الثانية: تِيجانُ النَّشوةِ.. ومَطَارقُ الزَّوال

غِوايةُ الارتقاء

لَمْ يكنِ العهدُ الذي كُتِبَ في سَوادِ الحُلُم مُجردَ كلماتٍ عابرة؛ لقد كانَ مَخاضاً لِولادةِ كِيانٍ جديدٍ يَرفضُ القُيود. في هذه المخطوطة، يَنتهي زمنُ الترددِ لِيبدأَ زمنُ التجسيد؛ حيثُ يَمشي "الظِّلُّ" في ضياءِ النهار، ويتحولُ "الوَسْمُ" القديمُ إلى بوصلةٍ تَقودُ الخُطى نَحوَ قِممٍ لم يَطأها بَشرٌ من قبل.

نحنُ الآن أمامَ مَرحلةِ "الصعودِ العظيم"؛ اللحظةِ التي يَظنُّ فيها العقلُ البشريُّ أنهُ وجدَ ضالَّتَه، وأنَّ الوجودَ قد ابتسمَ لهُ أخيراً في صورةِ جَمالٍ باهرٍ وعظمةٍ لا تُطال. لوسيفر هنا هو "المُهندسُ الخفي" الذي يَبني السلالمَ لِنيتشه، ويُمهدُ لهُ الطُّرقَ لِيَلتقي بـ "الصَّنمِ الأكبر".. ذلك الكِيانِ الذي سَيَمنحُ نيتشه نَشوةَ الإله، قبلَ أنْ يَهبَهُ طَعنةَ القَدَر.

بينَ قَداسةِ الحُبِّ ولذّةِ التَّحطيم

في طياتِ هذه السطور، يَمزجُ الشيطانُ بَيْنَ خمرِ الإبداعِ وسَمِّ الارتياب. سَنتبعُ خيطاً دقيقاً يَتأرجحُ بَيْنَ الانبهارِ والنفور؛ بَيْنَ الرغبةِ في الانتماءِ إلى "جَنةِ العباقرة"، وبَيْنَ الصوتِ الخفيِّ الذي يَصرخُ خلفَ الأُذُنِ بأنَّ كلَّ معبودٍ هو زَيْفٌ يَنتظرُ المِطرقة.

لوسيفر يَنتظرُ اللحظةَ التي يَنضجُ فيها الثمرُ لِيَقطفَه، ويُراقبُ ببرودٍ كيفَ تَتورطُ الروحُ في "عشقِ المتاهة". المخطوطةُ الثانية هي رحلةُ الانخداعِ بالقمةِ قبلَ السقوطِ في الهاوية؛ هي قصةُ التحولِ من التلميذِ المفتونِ بجمالِ اللحن، إلى الثائرِ الذي يكتشفُ أنَّ خَلفَ كلِّ نغمةٍ مقدسةٍ تَقبعُ شهوةُ السيطرةِ والضعفِ البشريّ.

نَذيرُ الزلزال

استعدوا لِمواجهةِ الحقيقةِ في أبشعِ صُوَرِها وأجملِها؛ حيثُ يَلتقي "الإنسانُ الأعلى" بـ "أوهامِه العظمى". لوسيفر يَمُدُّ خيوطَه الآن، والمَسرحُ مُعدٌّ لِأعظمِ صراعٍ بَيْنَ جِيلَيْن، وبَيْنَ عَقلَيْن، وبَيْنَ "إلهٍ" يَحتضرُ و"بشرٍ" يُريدُ أنْ يَحكمَ العَدم.

"تَوهّم كما تَشاء يا فريدريك.. فكلَّما ارتفعَ صَرحُ مَعبدِكَ، كانَ صَدى تحطيمِهِ أكثَرَ جلالاً."

إنَّنا نَقِفُ الآنَ عَلى عتَبَةِ المَجهول، حَيْثُ تَرتدي الرُّوحُ أَجنِحَةً مَنسوجةً من خيوطِ الفولاذِ وألحانِ الفلسفةِ العالية. لا مَجالَ لِلنظرِ إلى الوراء، ولا هَمَّ يَعلو فوقَ صَوْتِ ذلكَ النَّهمِ العَظيمِ لِلسِّيادة، وتلكَ الرَّغبةِ الجامِحةِ في إحراقِ المَسافاتِ بَيْنَ "ما هو كائِن" وبَيْنَ "ما سَيَكون". لوسيفر يَنظُرُ إلى "فَريدريك"، ليس كَضحيةٍ أو مُريد، بَل كَشريكٍ في جَريمةِ الوعيِ الكُبرى؛ الجريمةُ التي سَتَجعلُ من العالَمِ مَحضَ مَختبرٍ لِإرادةٍ لا تَعرفُ القُنُوع.

استعدُّوا لِمواكبةِ الرُّوحِ وهي تَتسلَّقُ مَعراجَ مَجدِها، مُتسلِّحةً بِصَمْتِ القِمَمِ الجليديّة وصَخَبِ الطُّموحِ الذي لم يَعُدْ يَخشى الآلهة. لوسيفر يَرْفعُ مِصباحَهُ الآن -ليس لِيُنيرَ الطريق، بَل لِيُري نيتشه أنَّ الوجودَ لَيْسَ إلا مَسرحاً صامتاً يَنتظرُ بَطَلَه المَنشود.. البَطَلَ الذي سَيَجرؤُ عَلى نَزْعِ الأَقنِعَةِ عَنْ وُجوهِ الأَرْبابِ الواحدِ تِلْوَ الآخَر. هُنالك، خَلْفَ الضَّبابِ الذي يَلفُّ المَستقبل، تَنْتظرُ "العظَمَة" بِمخالبِها الذَّهبيَّة، ولوسيفر يَهْمِسُ لِلمرَّةِ الأَخيرةِ في أُذُنِ القَدَرِ قبلَ أَنْ يَنطَلِقَ الصَّخَب:

(إنَّ العالَمَ الآنَ يَتنفَّسُ من خِلالِ رِئَتَيْك.. فَابْدَأِ الغِناء، لِتَرقُصَ الأرواحُ مَعَك).

المخطوطة الثانية: سِيمفونيةُ الهاوية.. وتَراتيلُ الصَّنمِ المَنحور

المشهد الأول: مقطورةُ القَدَرِ والظِّلِّ الأنيق

(أبريل 1869 - محطة قطارات لايبزيغ)

كانت محطةُ لايبزيغ تَغصُّ بِحشدٍ من البشرِ والضجيج، ودخانُ محركاتِ البخارِ الكثيفِ يلتفُّ حولَ الأرصفةِ كأنهُ أنفاسُ تنينٍ معدنيٍّ عملاق. وسطَ هذه الفوضى، مشى "فريدريك نيتشه" بِخطىً وئيدة، يحملُ حقيبةً جلديةً متهالكةً تَئنُّ تحتَ ثِقلِ كتبِ فقهِ اللغةِ الكثيرة. لم يكن يرتدي قُروناً، ولا يجرُّ خلفهُ خطايا ظاهرة؛ كان مجردَ شابٍّ نابغٍ في الرابعة والعشرين من عمره، يرتدي معطفاً أسودَ دقيقَ الهندسة، ويحملُ وجهاً شاحباً نَحتَهُ السَّهرُ والصُّداع.

استطاعَ بصعوبةٍ أن يجدَ مَقطورةً خاصةً فارغة. دخلَ وأغلقَ البابَ الزجاجيَّ خلفه، مُقصياً ضجيجَ العالمِ الخارجي. وضعَ حقيبتَهُ على الرف، وجلسَ بجوارِ النافذة، سادلاً جفنيهِ المتعبين. كانت أفكارهُ تتسابقُ أسرعَ من القطار؛ بازل.. الجامعة.. أصغرُ بروفيسور.. هل هو جاهز؟ وفجأة، اهتزتِ المقطورةُ بعنف، وصرختْ صفارةُ القطارِ مُعلنةً بَدءَ الرحلة، وبدأَ المشهدُ خارجَ النافذةِ يتحركُ ببطءٍ ثم يتسارع، تاركاً لايبزيغ وذكرياتها خلفَ غبارِ الفحم.

فتحَ نيتشه عينيهِ لِيستنشقَ الهواء، لكنَّ نَفَسَهُ انقطعَ في حنجرته.

لم يكن وحيداً.

في المقعدِ المقابلِ له تماماً، والذي كان فارغاً قبل ثوانٍ، يجلسُ رجلٌ. لم يكن هناكَ دخانٌ، ولا كبريت، ولا قرونٌ ضخمةٌ تشقُّ سقفَ المقطورةِ كما في الحلمِ الأول. هذه المرة، كان لوسيفر يرتدي هِنداماً بشرياً في غايةِ الأناقة؛ حُلةً رماديةً داكنةً من أجودِ أنواعِ الصوف، تلتفُّ حولَ جسدهِ الرياضيّ بِتناسقٍ مثاليّ. واضعاً ساقاً فوق الأخرى بِكبرياءٍ وثقةٍ كأنَّ المقطورةَ هي عرشُه الملكي، ويداهُ ذاتُ الأصابعِ الطويلةِ والمشذبةِ تسترخي على ركبتيه.

لكن، لم يكن هناكَ شكٌّ في هويته.

كان وجههُ طافحاً بجمالٍ باردٍ ومنحوت، لكنَّ عينيهِ.. تلكَ العينينِ السوداوينِ المطلقتين، الخاليتينِ من أيِّ بياضٍ أو انعكاسٍ للنور، كانت تشعُّ بِذكاءٍ كونيٍّ ومكرٍ أزلي. ابتسمَ لوسيفر ابتسامةً خفيفةً، أظهرتْ صفاً من الأسنانِ البيضاءِ المثالية، ونظرَ إلى نيتشه المذعور.

لوسيفر (بصوتٍ عميقٍ ومخمليٍّ، يحملُ نبرةَ سخريةٍ مهذبة):
"على رِسلِك يا بروفيسور.. لم أكن أعلمُ أنَّ أصغرَ عباقرةِ ألمانيا يرتعبُ من مجردِ 'رفيقِ سفرٍ' أنيق."
حاولَ نيتشه أن يجمعَ شتاتَ نفسه، بلعَ ريقَهُ الجاف، ونظرَ إلى الرجلِ الذي صارَ ظِلَّه.
نيتشه (بصوتٍ مرتعشٍ قليلاً):
"أنتَ.. لقد ظننتُ أنكَ.. أنكَ ستبقى في الفراغِ الأسود. مظهرُكَ.. مختلف."
ضحك لوسيفر ضحكةً قصيرةً وساخرة.
لوسيفر:
"وهل كنتَ تتوقعُ أن أمشيَ بقرونٍ وحوافرَ وسطَ ركابِ الدرجةِ الأولى؟ العراقةُ يا عزيزي نيتشه تقتضي التكيف. القرونُ موضةٌ قديمةٌ جداً، وتُسببُ صداعاً في السقفِ المنخفض. القناعُ البشريُّ أكثرُ عمليةً.. وأكثرُ إغواءً، أليس كذلك؟"
أشارَ بيدهِ نحو كتبِ نيتشه المتراكمة في الحقيبة.
لوسيفر (متابعاً بفكاهةٍ لاذعة):
"ثم إنني أرى أنكَ تحملُ مكتبةً كاملةً لِقواعدِ اللغةِ الإغريقية. هل تنوي تعليمَ آلهةِ الأوليمب قواعدَ اللغةِ مرةً أخرى؟ أم أنكَ تأملُ أن تجدَ تعويذةً بينَ الصفحاتِ تُعيدني إلى جحيمي؟"
نظرَ نيتشه إلى عينيهِ السوداوين، وشعرَ أنَّ الصداعَ القديمَ بدأَ يدبُّ خلفَ صدغيه.
نيتشه:
"أنا ذاهبٌ لِأُعلّم.. لِأبحثَ عن الحقيقة."
اعتدلَ لوسيفر في جلسته، وتلاشتِ الفكاهةُ من وجههِ لتُفسحَ المجالَ لِتعبيرٍ من الجديةِ المرعبة، بينما ظلت الابتسامةُ باردةً على شفتيه.
لوسيفر:
"الحقيقة.. كلمةٌ كبيرةٌ لِفمٍ صغيرٍ يا فريدريك. الحقيقةُ التي تبحثُ عنها لا توجدُ في كتبِ قواعدِ اللغة، ولا في ممراتِ جامعةِ بازل. الحقيقةُ قد صافحتَها بِيَدِك في لايبزيغ.. والآن، نحنُ ذاهبون لِنُوقظَها."
سادَ صمتٌ ثقيلٌ في المقطورة، لم يقطعهُ سوى صوتُ القطارِ وهو ينهبُ الأرض، بينما ظلَّ نيتشه يحدقُ في رفيقهِ الجديد، عالماً أنَّ رحلةَ حياتِهِ قد بدأت.. للتو.

مشهد الفلاش باك: عُبورُ العَتبةِ المُحرّمة
اتكأ نيتشه برأسه على مسند المقعد الخشبي، وبينما كانت عجلات القطار تطحن المسافات بإيقاعٍ رتيب، بدأ ضجيجُ العالم الماديّ يتلاشى، وصورةُ لوسيفر الجالس قبالته في الحُلّة الرمادية بدأت تذوبُ وتتحول.. عاد به الزمانُ إلى الوراء، إلى تلك الغرفة الباردة في "لايبزيغ" حيث انهار جسده فوق كتاب شوبنهاور، لتستيقظ روحه في "المنطقة الصفر".عاد ليجدَ نفسه واقفا أمام الطاولةِ الوحيدةِ في "المنطقةِ الصفر". الشمعةُ ترتعش، ولوسيفر -بهيئتهِ الأولى المهيبة- يمدُّ يدهُ الرماديةَ نحوه. كانت أصابعهُ الطويلةُ تبدو في العتمةِ وكأنها أغصانُ شجرةٍ ميتةٍ تنتظرُ أن تلتفَّ حولَ قَدَرِه.
توقفتْ أنفاسُ "فريدريك" عند حافةِ تلك اليد، وشعرَ ببرودةِ "المنطقةِ صفر" تنهشُ يقينَهُ القديم كما ينهشُ الصقيعُ أوراقَ الخريف. لم يكن صمتُ المكانِ صمتاً عادياً، بل كان فراغاً ينتظرُ "كلمة" لِيتحولَ إلى مأساةٍ أو ملحمة.

لوسيفر (بصوتٍ عميقٍ يخرجُ من أقبيةِ الأزل، رصينٍ كأنهُ وقعُ القَدَر):
"لماذا تتجمدُ أمامَ العتبةِ يا ابنَ القسيس؟ هل لا تزالُ ملوحةُ تراتيلِ الطفولةِ العالقةِ في حنجرتِكَ تمنعُكَ من الصراخ؟ أم أنكَ تخشى أن تكتشفَ أنَّ 'النور' الذي بَشَّرَ بهِ أسلافُكَ ليس سوى ستارةٍ تُخفي خلفها صمتَ السماءِ المُطبق؟"
رفعَ نيتشه عينيه، كانت الحدقتانِ متسعتينِ تحت وطأةِ الرهبة، لكنَّ نصلَ الذكاء الحادَّ في عينيه لم ينطفئ.
نيتشه (بصوتٍ جاف، يحملُ مرارةَ السنين):
"أنا لا أخشى الظلام، فقد سكنتُ في أروقةِ العُزلةِ طويلاً.. أنا أخشى الخديعة. أنتَ تَعِدُ بالمعرفة، لكنَّ المعرفةَ خنجر، وأنا لا أريدُ أن أموتَ منتحراً بوهجِ الحقيقةِ قبل أن أكتشفَ مبرراً واحداً لِهذا الوجودِ الذي ينهشنا."
اقتربَ لوسيفر، ومالَ بجسدهِ العظيمِ فوق الطاولة، فبدتْ عيناهُ السوداوانِ كمجرتينِ من العدمِ تبتلعانِ ضوءَ الشمعةِ اليتيم.
لوسيفر (يهمسُ بِوقارٍ مُرعب):
"المبررُ لا يُمنح، بل يُخلق. انظر إلى يدي.. هل ترى فيها قيداً أم مِعولاً؟ لقد رأيتَ والدكَ يذبلُ كعشبٍ جافٍ في 'روكن'، يُصلي لِصليبٍ لا ينطق، ويموتُ بِصداعٍ لم تشفقْ عليهِ كلُّ أدعيةِ الكنيسة. هل كان إلهُهُ موجوداً وهو يسمعُ حشرجاتِ صدرهِ الأخيرة؟ لقد غادرهُ إلهُهُ كما تُغادرُ الغربانُ حقولَ الشتاء،

وتركهُ لِلديدانِ والصمت. المعرفةُ التي أعرضُها عليك هي أن تدركَ أنَّكَ الوحيدُ في هذا الخلاء.. أنتَ الإله، وأنتَ القربان، وأنتَ الحقيقةُ العارية."
نيتشه (يتقدمُ بِصدرهِ نحو الطاولة، والتوترُ يشدُّ ملامحَه):
"أنتَ تطلبُ مني أن أحرقَ جسورَ الماضي خلفي.. أن أتبرأَ من ظلِّ والدي لكي أتبعَ ظلك؟"
لوسيفر (بصوتٍ يملؤه الجلالُ والفتنة):
"أنا لا أطلبُ اتباعاً، بل أطلبُ 'قبولاً' لِقَدَرِكَ الذي كُتبَ بمدادِ الصداعِ في 'بفورت'. مدَّ يدكَ.. دعنا نكسرْ هذا القناعَ الهشَّ الذي تُسميهِ 'إنساناً'. المعرفةُ هي العبءُ الأثقل، فهل تملكُ كتفاً من حجرٍ لِتحملَ عليهِ حقيقةَ أنَّ العالمَ وجعٌ بلا مبرر.. ؟"
بِحركةٍ بطيئة، ومشحونةٍ بكلِّ ثقلِ الوجود، مدَّ نيتشه يدهُ ووضعها في كفِّ لوسيفر. لم تكن المصافحةُ باردة، بل كانت كأنها ملامسةُ جمرٍ تحت الرماد.
سَرَتْ في جسدِ نيتشه رعشةٌ كونية، بمجرد أن أطبقتْ يد "فريدريك" على كف لوسيفر، لم يعد هناك طاولة، ولا شمعة، ولا فراغ أسود. تفتتت "المنطقة صفر" كأنها مرآة هُشمت بمطرقة عملاقة، وانفجرت الشظايا إلى سديم من الأرجوان والذهب. شعر نيتشه بجسده ينساب عبر فجوة في نسيج الزمان، ريح باردة تلفح وجهه برائحة النبيذ المعتق والرخام القديم، قبل أن يرتطم قدمه بأرض صلبة أحدثت صدىً عميقاً في أرجاء المكان.

مشهد الانتقال: عتبة العالم العتيق

فتح نيتشه عينيه الوجلتين، ليجد نفسه وسط مشهدٍ يخلب اللب ويزرع الرهبة في آن واحد. لم تكن سماءً تلك التي تعلوه، بل سقفاً لا متناهياً من السحب البنفسجية الكثيفة التي تتدفق كأنها نهر من الحبر المشتعل. الأرض تحت قدميه كانت بلاطاً مرمرياً شاسعاً، أبيض كالثلج، تتخلله عروق ذهبية تنبض بضوء خافت، وكأن الأرض نفسها تمتلك قلباً يخفق ببطء تحت وطأة القرون.

كانت "الغابة الرخامية" تلتف حوله؛ لم تكن أشجاراً من خشب، بل كانت أعمدة شاهقة من الرخام النابض، جذوعها ملتوية كعضلات جبار يحاول كسر قيوده. أغصانها كانت بللورية، لا تحمل أوراقاً، بل تحمل عناقيد من الضياء الذي يقطر

على الأرض كأنفاس النجوم. الهواء كان ثقيلاً، لزجاً برائحة القدم والعراقة، رائحة تشبه الورق البردي المحروق والتراب الذي لم تلمسه شمس منذ الأزل.

مشى لوسيفر أمامه بصمت ملكي، رداؤه الرمادي ينسحب فوق الرخام دون أن يُحدث صوتاً، وكأنه جزء من هذا الفراغ الجليل.

نيتشه (بصوت يرتجف، وعيناه تجوبان المكان بذهول):

"أين نحن؟.. هل هذا هو خرائب عقلي التي تجسدت؟ إلى أين تقودني يا لوسيفر؟ أشعر أن هذا المكان يمتص روحي.. كأن الحجارة هنا تعرفني أكثر مما أعرف نفسي."

توقف لوسيفر، والتفت برأسه ببطء، عيناه السوداوان تلمعان وسط الضباب الأرجواني.

لوسيفر (بهدوء مهيب):

"أنت في 'الرحم الأول' يا فريدريك.. هنا حيث وُلدت الأساطير قبل أن تُشوهها لغات البشر. نحن ذاهبون إلى 'المنبع'؛ إلى حيث يقبع الصدق الذي لا يحتمله الموتى. أنت لست في الجحيم، بل أنت في 'الحقيقة العارية' التي تتستر خلف ستائر الفلسفة."

استمرا في السير حتى انفرجت الغابة عن ساحة دائرية يتوسطها شجر عظيم، لم يكن رخامياً فحسب، بل كان مزيجاً من الحجر واللحم الحي. جذوره كانت تلتوي حول جسد كائنٍ جثم تحتها لآلاف السنين؛ كان ذلك هو "سيلينوس"[1].

---

[1] -سيلينوس (Silenus): في الميثولوجيا الإغريقية، هو الحكيم الساتيري والمربي الأول للإله ديونيسوس. يمثل التناقض الصارخ بين المظهر الخارجي (الشيخوخة والثمل) والجوهر الداخلي (الحكمة المطلقة والتنبؤ). اشتهر بكونه الرابط في أسطورة "لمسة الذهب" للملك ميداس، وبفلسفته التشاؤمية حول الوجود الإنساني .
 تُروى الأسطورة أن سيلينوس ضلّ طريقه ووقع في يد الملك ميداس، الذي أكرم ضيافته لعشرة أيام تقديراً لحكمته ومكانته لدى "ديونيسوس". كمكافأة على هذا النبل، منح ديونيسوس لميداس "لمسة الذهب" الشهيرة. ترمز هذه القصة في الأدب الكلاسيكي إلى الصراع بين الرغبة المادية والحكمة الفطرية؛ حيث كان سيلينوس (الذي يمثل الحكمة رغم مظهره الرث) سبباً في اختبار أخلاقي كشف عن طمع الإنسان وسوء تقديره لمعنى السعادة.

لم يكن سيلينوس مجرد ساتير سكير كما تصوره الأساطير الهزيلة؛ بل كان جسداً ضخماً، مترهلاً بوقار، جلده بلون الطمي الجاف، يغطيه شعر كثيف يشبه الطحالب التي تنمو فوق القبور. وجهه كان لوحة من الوجع الكوني؛ تجاعيده غائرة كأنها أخاديد حفرتها دموع سوداء، ولحيته البيضاء الطويلة تداخلت مع جذور الشجرة حتى صار من الصعب التمييز بينهما.

كان سيلينوس مُقيداً بجذور الشجرة التي اخترقت جسده في مواضع عدة، وكأن المعرفة التي يحملها هي ذاتها القيد الذي يقتله. كانت يداه ضخمتين، أصابعهما منغرسة في التراب المرمر، وعيناه.. كانت عيناه فجوات من الرماد، تفيضان بنور باهت ومخيف، كأنه يرى الوجود كله من بدايته حتى نهايته في رمشة عين.

لوسيفر (يقف بجانب الشجرة، مشيراً بيده نحو الكائن الجاثم):

"انظر إليه جيداً يا فريدريك.. هذا هو سيلينوس. لقد طارده الملك 'ميداس' ليعرف السر، فظن أنه وجد كنزاً، وما وجد إلا خنجراً في قلبه. إنه مصلوب هنا، ليس بمسامير من حديد، بل بسلاسل من 'الصدق المطلق' الذي لا يرحم."

خطا نيتشه خطوة واحدة، وشعر أن الهواء من حول سيلينوس يغلي بمرارة قديمة. انبعثت من الحكيم رائحة نبيذ فاسد وتراب جنائزي.

نيتشه (بصوت متهدج، تملؤه الرهبة):

"أيها الحكيم الأسير.. يا مَن عاصر ولادة الأرواح وفناءها.. ناديتُك من ظلمات عجزنا: أخبرني، ما هو الأفضل والأعظم للإنسان في هذا الوجود الذي لا يرحم؟"

تحركت أجفان سيلينوس ببطء شديد، وأحدث تحركه صوتاً يشبه تحطم الحجر. رفع رأسه، ونظر إلى نيتشه بنظرةٍ اخترقت عروقه، كأنما يرى فيه كل المآسي التي سيكتبها نيتشه مستقبلاً. فتح فمه الذي كان كأنه كهف مهجور، وبدأ يتكلم بصوت أجش، ثقيل، يخرج من أعماق الأرض.

سيلينوس (بصوت يقطر ازدراءً ووقاراً):

"يا نسل الفناء العابر.. وليد الصدفة والشقاء! لماذا تُجبرني على النطق بما هو الأجدر بك وبأذنيك ألا تسمعاه؟ هل تريد الحقيقة التي تقتل؟ إن الأفضل لك على الإطلاق.. هو ألا تكون. ألا تُولد. ألا تُوجد. أما الخيار الثاني الأفضل لمن فُرض عليه هذا الوجود اللعين.. فهو أن 'تموت قريباً'!"[2]

تراجع نيتشه خطوتين، وكأنَّ كلمات سيلينوس كانت سياطاً من لهب لفحت وجهه. ساد صمتٌ ثقيل، لم يقطعه إلا نبض العروق الذهبية في الرخام تحت أقدامه. نظر نيتشه إلى لوسيفر، الذي كان يتكئ بظهره على جذع شجرة رخامية، عاقداً ذراعيه فوق صدره، يراقب المشهد بابتسامة خفية لا تشي بشيء سوى المتعة الباردة.

استجمع نيتشه شتات عقله، ورفع رأسه الذي بدأ الصداع ينخر في زواياه من جديد، لكن عينه كانت تلمع بتحدٍ انتحاري. تقدم نحو سيلينوس حتى صار وجهه مقابلاً لوجه الحكيم المقيد، وتصاعدت منه رائحة التراب والنبيذ المر.

نيتشه (بصوتٍ يملؤه التحدي، وعروق عنقه بارزة من التوتر):

"إذن، العدمُ هو غايتُك؟ تطلبُ مني أن أحتقرَ صرخةَ الوجودِ لأن الفناءَ ينتظرُها؟ أيها الحكيمُ المقيد، إذا كان 'ألّا نكون' هو الأفضل، فلماذا لا تزالُ أنفاسُكَ تترددُ في هذا الحجر؟ لماذا لا يزالُ عقلُكَ يحفظُ أسرارَ الوجودِ بدلاً من أن يذوبَ في الصمت؟ هل تبيعني اليأسَ لكي تبررَ قيدك، أم أنك تخشى أن نكتشفَ أن في هذا العبء.. سحراً يفوقُ عظمةَ الفناء؟"

تحركت جذور الشجرة بعنف، وسمع نيتشه صرير الحجر وهو ينحت جسد سيلينوس. رفع الحكيم رأسه ببطء، وتمددت تجاعيد وجهه في ضحكةٍ صامتة بدت وكأنها شقٌ في صخرةٍ قديمة. فتح عينيه الرماديتين، ونظر إلى نيتشه بنظرةٍ تجمع بين الشفقة والاحتقار.

سيلينوس (بصوتٍ يشبه حفيف الأوراق الجافة في مقبرة):

---

[2] -حكمة سيلينوس: تُنسب هذه المقولة في الأساطير الإغريقية إلى "سيلينوس" رفيق الإله ديونيسوس، حين طارده الملك ميداس وأجبره على البوح بأسمى الحقائق البشرية.

"تظنُّ أن بقائي هنا 'إرادة'؟ يا لك من بشريٍّ مغرور! أنا 'ذاكرةُ الخطأ' يا فريدريك. أنا الشاهدُ الذي لا يموت لكي لا ينسى الوجودُ قبحه. أنت تسألُ عن السحر؟ السحرُ هو 'الخديعة' التي تبتكرونها لكي لا تشنقوا أنفسكم بظلالكم. تسمونه 'الفن'، تسمونه 'الأمل'.. لكنه في الحقيقة ليس سوى مسكناتٍ لآلامٍ لا تُشفى. قل لي يا من جئتَ لتقودَ عقولَ البشر، هل ستُطعمهم 'الجمال' لكي ينسوا ريحَ المقابرِ التي تنبعثُ من ثيابهم؟"

نيتشه بدأ يتحرك بذهابٍ وإيابٍ أمام سيلينوس، كانت حركاته سريعة، متوترة، كأن عقله يحاول حياكة ثوبٍ جديدٍ من اليقين وسط هذا الدمار.

نيتشه (يتوقف فجأة، ويشير بسبابتِهِ نحو سيلينوس):

"نعم! سنُطعمهم الجمال! إذا كان الوجودُ مأساة، فسنكونُ نحنُ أبطالَها. لماذا تريدُ نزعَ القناعِ عن وجهِ الحياةِ طالما أن الوجهَ خلفه مرعب؟ أليس من 'العظمة' أن نصنعَ من هذا اليأسِ موسيقى؟ لوسيفر أخبرني أن المعرفةَ سلاح، وأنت تخبرني أنها انتحار. من منكما يكذب؟ أم أن الحقيقة هي أننا يجبُ أن نعرفَ 'القبح' لكي نبدعَ 'المقدس'؟"

التفت لوسيفر في تلك اللحظة، واعتدل في وقفته، وتحركت ظلال قرونه فوق الرخام كأنها كائنات حية.

لوسيفر (بنبرةٍ مخمليةٍ تقطرُ سماً):

"سيلينوس يرى 'العدم' كجدار، بينما أنا أريدُكَ أن تراه كـ 'لوحةٍ بيضاء'. هو يتكلمُ من قاع السقوط، وأنا أريدُكَ أن تتكلمَ من قمةِ الصعود. اسألهُ يا فريدريك.. اسألهُ عن تلك اللحظة التي تسبقُ الفناء، ألا يلمعُ فيها الوجودُ كأبهى ما يكون؟"

نيتشه اقترب من سيلينوس لدرجة أن أنفاسه لفتحت وجه الحكيم البارد.

نيتشه (يهمس بحدة واثارة):

"أجبني أيها الحكيم.. ألا توجد لحظةٌ واحدة، نغمةٌ واحدة، صرخةُ وجدٍ واحدة، تجعلُ من كلِّ هذا العناءِ أمراً يستحقُ العيش؟ ألا يوجدُ في 'ديونيسوس'[3] الذي تسكنُ روحُهُ فيك ما يُبررُ شقاءَ البشر؟"

سيلينوس أغمض عينيه، وبدأ جسده يهتزُّ تحت القيود، وخرجت منه ونةٌ عميقة بدت وكأنها قادمة من مركز الأرض. ارتجفت الغابة الرخامية، وتساقطت قطراتٌ من الضياء الأرجواني من الأغصان البلورية فوق رؤوسهم.[4]

سيلينوس (بصوتٍ متهدجٍ يملؤه الوجع):

"ديونيسوس؟.. أنتَ تنطقُ باسمِ 'الجنون' وتسميه مبرراً! اللحظةُ التي تسألُ عنها هي لحظةُ 'التمزق'. نحن نرقصُ لكي لا نشعرَ بتمزقِ أعضائنا، ونغني لكي نُغطي على صوتِ تحطمِ عظامِنا. أنتَ تريدُ 'المبرر'؟ المبررُ هو أننا 'مُجبرون' على أن نكون.. نحنُ عبيدُ صدفةٍ كونيّةٍ لا ترحم. هل تستطيعُ فلسفتُكَ أن تنظرَ في عينيّ 'الحقيقة' دون أن تُصابَ بالعمى؟ هل تستطيعُ أن تخبرَ أمّاً تفقدُ طفلَها أنَّ موتهُ هو 'تنسيقٌ جماليٌّ' في لوحةِ العدم؟"

احتقن وجه نيتشه، وشعر بضغطٍ هائلٍ في صدغه. قبض بيديه على جذور الشجرة التي تقيد سيلينوس، وهزّها بعنفٍ لم يكن يتخيل أنه يملكه.

نيتشه (يصرخ بمرارة وعمق):

"إذن سأكونُ أعمى! سأكونُ مجنوناً! إذا كان 'الصدق' يعني الفناء، فليحيا 'الزيفُ المقدس'! سأبني عالماً من الأوهامِ العظيمة التي تجعلُ من ذلك الطفلِ الميتِ لحناً أزلياً. أنا لا أبحثُ عن الحقيقةِ لكي أعبدَها، بل لكي أُروّضَها! قل لي يا سيلينوس.. هل تخشى من إرادتي؟ هل تخشى أن يأتي بَشرٌ ويحولُ قيودَكَ هذه إلى أوتارٍ لِقيثارته؟"

---

[3] ديونيسوس (Dionysus): إله الخمر والنشوة والمسرح في الميثولوجيا الإغريقية.

[4] "يُشير انفعال سيلينوس هنا إلى رفضه لمحاولة نيتشه إيجاد 'معنى' أو 'جمال' في الوجود الذي يراه سيلينوس محض صدفة كونية لا ترحم."

رفع سيلينوس رأسه فجأة، ولأول مرة، لمعت في عينيه الرماديتين شرارةٌ من الرعب.. أو ربما من الإعجاب المسموم.

سيلينوس (بهدوء مخيف):

"أنتَ تتكلمُ كإلهٍ لا يملكُ جسداً. لكنَّ جسدَكَ سَيخونُك. ستمشي في طريقِ المعرفة، وكلما اقتربتَ من نوري، ستحترقُ أجنحتُك. أتعرفُ ماذا يكمنُ في نهايةِ هذا الطريق الذي ترسمه؟"

نيتشه (يصمد بنظرته، وصدره يعلو ويهبط):

"أخبرني.. ماذا يكمنُ هناك؟"

توقف سيلينوس عن الكلام لثوانٍ، وساد صمتٌ مرعبٌ في الغابة، حتى لوسيفر بدا وكأنه ينتظر الإجابة بحذر.

سيلينوس:

"تكمنُ هناك.. العُزلةُ المطلقة. حيثُ لن تجدَ إلهاً تلجأ أليَهِ، ولا بشراً تحبه.. ستجدُ فقط 'نفسَك'.. مرآةً تعكسُ العدمَ الذي جئتَ منه. فهل أنتَ مستعدٌ لتكونَ ذلك الصدى الوحيد في فراغِ الأبد؟"

تراجع نيتشه خطوة، ملامحه التي كانت محتقنة بالتحدي استقرت الآن في سكونٍ مخيف، كأن الكلمات الأخيرة قد جمدت الدماء في عروقه. "لا إله تلتجئ إليه".. ترددت هذه العبارة في ذهنه كصدى أجراس كنيسةٍ مهجورة. لم يكن الخوف هو ما يرتسم على وجهه، بل كانت ملامح رجلٍ يدرك فجأةً ثقل الثمن الذي وافق على دفعه.

لوسيفر، الذي كان يراقب من الظل، اعتدل في وقفته. تحركت يده الرمادية الطويلة لتمسح طرف ذقنه المنحوت، وعيناه السوداوان تلمعان ببريقٍ يجمع بين الترقب واللذة.

استمرار الملحمة: صراع الإرادة والعدم

نيتشه (بصوتٍ منخفض، يخرج كفحيحٍ وسط سكون الغابة الرخامية):

"العزلةُ المطلقة؟.. أنتَ تظنُّ أنكَ تهددني بالوطنِ الذي سكنتُهُ منذُ طفولتي. ألا تدركُ أيها الحكيمُ المصلوبُ أن 'الإله' الذي تتحدثُ عن غيابهِ كان هو الصمتَ الأكبرَ في حياتي؟ لقد لجأتُ إليهِ في 'روكن'، وفي 'ناومبورغ'، وفي صرخاتِ والدي المريض، ولم أجدْ سوى صدى صوتي يرتدُّ إليّ من جدرانِ السماءِ الباردة. إذا كان قدري أن أكونَ الصدى الوحيد في فراغِ الأبد، فسأجعلُ من هذا الصدى 'سمفونية' تُرغمُ الفراغَ على الانصات."

ضحك سيلينوس، وكانت ضحكته هذه المرة أشد قسوة، أهتزت لها جذور الشجرة العظمى، وسقطت قطعٌ من اللحاء الرخامي على الأرض كأنها شظايا عظام.

سيلينوس (بعينين تفيضان بالمرارة الكونية):

"يا لكَ من بشريٍّ عنيد! تتحدثُ عن السيمفونيات وأنتَ لا تزالُ ترتجفُ من برودةِ الهواءِ هنا. أتعرفُ معنى ألّا تجدَ أحداً تحبه؟ المعنى هو أن تتآكلَ روحُكَ من الداخلِ لأنَّكَ لا تجدُ مصباً لفيضِكَ. ستصبحُ كغيمةٍ مثقلةٍ بالمطرِ فوق صحراءَ من الزجاج. ستجدُ 'نفسك'.. نعم، ولكن أيَّ نفس؟ ستجدُ وحشاً جائعاً لا يشبعُ من الأسئلة. لوسيفر يُغريكَ بالقمم، لكنه لا يخبرُكَ أنَّ الأوكسجينَ هناك.. هو 'الألمُ الخالص'."

التفت نيتشه نحو لوسيفر، كانت نظرة عتابٍ ممزوجةٍ بالإصرار.

نيتشه (يصرخ، مشيراً بيده نحو لوسيفر):

"أجبني أنت! هل العزلةُ هي النهاية؟ هل جئتَ بي إلى هنا لكي أكونَ مجردَ مرآةٍ للعدم؟ أنتَ وعدتني بالمعرفة، وعدتني بأنني سأكونُ 'المعول' الذي يحطمُ الأصنام. كيف أحطمُها وأنا لا أملكُ أرضاً أقفُ عليها؟"

خلا لوسيفر من صمته الملكي، وخطا خطواتٍ وئيدة نحو نيتشه. كان لوقع أقدامه على الرخام رنينٌ موسيقيٌّ غامض. وقف خلف نيتشه مباشرة، وانحنى ليهمس في أذنه، بينما ظلال قرونه تلتف حول رأس نيتشه كتاجٍ غير مرئي.

لوسيفر (بنبرةٍ مخمليةٍ جليلة):

"سيلينوس يخبرُكَ بنصفِ الحقيقةِ يا فريدريك، لأنهُ يرى النهايةَ ولا يرى 'التحول'. نعم، ستكونُ وحيداً، لأنَّ العمالقةَ لا يمشون في القطعان. ونعم، لن تجدَ إلهاً تلتجئُ إليه، لأنكَ ستكونُ أنتَ الملاذَ الأخيرَ لنفسك. المرآةُ التي يتحدثُ عنها سيلينوس.. إذا كانت تعكسُ العدم، فهذا لأنَّكَ لم تملأها بَعْدُ بصورِ خلقِك. المعرفةُ ليست أن ترى العدم، بل أن تملكُ الجرأة لترسمَ فوقه 'عالمك الخاص'."

نيتشه أغمض عينيه بشدة، الصداع بدأ ينفجر في صدغيه كأنه مطارقُ حديدية. قبض بيديه على معطفه الأسود فوق صدره، وبدأ يتنفسُ بصعوبة، لكنه لم يتراجع.

نيتشه (يوجه كلامه لسيلينوس، وعيناه مفتوحتان الآن بشراسة):

"إذن فليكن العدمُ خصمي! سأواجهُ مرآتي، وإذا كانت تعكسُ العدم، فسأهشمُها وأصنعُ من شظاياها نجوماً جديدة. أنتَ تقولُ إنَّ الأفضلَ لِي ألّا أكون؟ وأنا أقولُ لَك: إنَّ الوجودَ الذي أرفضُهُ هو الوجودُ الذي يُشبهُ 'قيدك'. أنا سأكونُ 'الضرورة' التي تُبررُ هذا الشقاء. أيها الحكيم.. أخبرني، أليسَ في قاعِ يأسِكَ هذا.. رغبةٌ سريةٌ في أن ترى بشرياً يكسرُ قوانينَ قدَرك؟"

توقف سيلينوس عن الاهتزاز فجأة. ساد صمتٌ خانق، حتى الضياء الأرجواني في الأغصان بدا وكأنه تجمد. رفع الحكيم وجهه المحطم، ولأول مرة، لم تكن هناك سخرية في عينيه، بل كان هناك "خوفٌ مقدس".

سيلينوس (بصوتٍ هامسٍ وثقيل):

"أنتَ تطلبُ المستحيل يا ابن 'روكن'.. تطلبُ أن تحبَّ قدرَكَ وهو يمزقك. إذا فعلتَ ذلك، فلن تكونَ بشراً، ولن تكونَ إلهاً.. ستكونُ شيئاً لم يسبقْ لِلغابةِ الرخاميةِ أن رأتْه. ولكن تذكر.. المرآةُ لا ترحم، والصدى لا يكذب. عندما تصرخُ

في الفراغ: 'أنا موجود'، هل أنتَ مستعدٌ لِسماعِ الجوابِ الذي سيخرجُ من حنجرةِ العدم؟"

نيتشه (بثقةٍ انتحارية، مقترباً أكثر من سيلينوس):

"أنا مستعدٌ لِأنْ أكونَ أنا 'الجواب'. أخبرني المزيد.. لا تتوقف عند العزلة. ماذا خلفَ العزلة؟ ماذا يحدثُ لِلروحِ عندما تتوقفُ عن البحثِ عن 'ملجأ' وتبدأُ في أن تكون هي 'العاصفة'؟"

(لوسيفر يبتسم بانتشاء، بينما بدأ سيلينوس بفتح فمهِ لِيُخرج سراً أعمق، وجذور الشجرة بدأت تلتفُ بقوةٍ أكبر حول جسده وكأنها تحاول منعه من الكلام).

بدأ الغليانُ في عروقِ الرخامِ يزداد، وصوتُ طقطقةِ الجذورِ وهي تلتفُّ حول جسدِ سيلينوس صارَ يشبهُ تحطمَ الجبال. كان الحكيمُ يصارعُ للاحتفاظِ بوعيه، وزَبَدٌ من النبيذِ الأسودِ يخرجُ من زوايا فمه، وعيناهُ الرماديتانِ جحظتا بنورٍ يائسٍ وهو يحدقُ في نيتشه.

المشهد: انفجارُ السرّ.. وظهورُ "المُعترض"

سيلينوس (بصوتٍ متقطعٍ كأنه يُنتزعُ من أعماقِ الأرض):

"تريدُ أن تعرفَ ماذا خلفَ العزلة؟ خلفَها يكمنُ 'الدوارُ الأزلي'[5].. الدائرةُ التي لا تنتهي! ستكتشفُ أنَّ كلَّ ما فعلتهُ، وكلَّ ما سيفعلهُ البشر، قد حدثَ بالفعلِ ملايين المرات، وسيحدثُ للأبد. ستجدُ نفسَكَ سجيناً في تكرارٍ لا يرحم، حيثُ لا جديدَ تحتَ شمسِ العدم.. إلا ألمُكَ الذي سيعودُ إليكَ في كلِّ دورة."

5 الدوارُ الأزلي أو العود الأبدي:هي رؤية كونية تفترض أن الزمان ليس خطاً مستقيماً يبدأ من نقطة وينتهي عند أخرى (الولادة ثم الموت)، بل هو دائرة مغلقة ومطلقة. في هذه الدائرة، كل حدث، كل صرخة ألم، كل لحظة ندم، وحتى كل قطرة عرق سقطت من جبينك، قد حدثت بالفعل مليارات المرات في الماضي، وستتكرر بحذافيرها مليارات المرات في المستقبل. لا يوجد "خلاص"، ولا يوجد "فردوس" ينتظر في النهاية، لأن النهاية هي ببساطة.. البداية من جديد.

شحبَ وجهُ نيتشه، وشعرَ بأنَّ عقلهُ يترنحُ أمام فكرةِ "العود الأبدي" التي ألقاها سيلينوس كقنبلةٍ موقوتة. قبضَ بيديه على رأسه، وكأنَّ جمجمتَهُ أضيقُ من أن تحتملَ هذا المفهوم.

نيتشه (يصرخ وسط ضجيج الغابة):

"تكرار؟.. إذن الموتُ ليس خلاصاً؟ أيُّ جحيمٍ هذا الذي تبشرُ به؟ لوسيفر! أهذا هو السِّر؟ أن نعيشَ عذابنا إلى الأبد دون أملٍ في نقطةِ نهاية؟"

ضحك لوسيفر بانتشاء، وتحركَ كالفانتوم وسط الضباب الأرجواني، وعيناهُ تشعانِ ببريقٍ شيطانيّ.

لوسيفر:

"إنهُ الاختبارُ الأقصى يا فريدريك! الدائرةُ هي تاجُ القويّ، ولحدُ الضعيف. إذا كنتَ 'الجواب'، فستحبُّ هذه الدائرة لأنها تمنحُكَ الخلودَ في إرادتك. لا تنظر لِسيلينوس، فهو يراها سِجناً، وأنا أريدُكَ أن تراها..."

وفجأة.. انشقَّ الضوءُ الأرجوانيُّ في الغابةِ بوميضٍ أبيضٍ حاد، وميضٌ لا ينتمي لهذا المكانِ الموحش. لم يكن ضوءاً جميلاً، بل كان ضوءاً يحملُ عتاباً قديماً، وصوتاً بشرياً صرفاً، مرتعشاً، كأنه قادمٌ من كنيسةٍ محترقة.

"فريدريك.. توقف! لا تَمُدَّ يدكَ أكثر في هذه النار!"

تسمّر نيتشه في مكانه. الصوتُ كان مألوفاً لدرجةٍ جعلت قلبهُ ينقبضُ بوجعٍ طفوليّ. التفت ببطء، ليجدَ عند حافةِ الأشجارِ الرخاميةِ قواماً بشرياً يتجسد. لم يكن كياناً أسطورياً، بل كان رجلاً يرتدي ثياباً بسيطة، وجههُ يفيضُ بطيبةٍ ممزوجةٍ بالذعر، وعيناهُ تحملانِ كلَّ "الشفقة" التي كان نيتشه يحاولُ قتلها.

إنه مِيخائيل.

لوسيفر توقفَ عن الابتسام، وتقلصت ملامحُ وجههِ الأنيقِ لتكشفَ عن بشاعةٍ مخفية؛ زمجرَ بصوتٍ يشبهُ قعقعةَ الرعد.

لوسيفر (بصوتٍ يقطرُ حِمماً):

"أنت! كيف تجرأتَ على تلويثِ عتبتي ببقايا إيمانكَ المهزوم؟ هذا المكانُ للعظماءِ الذين قرروا السقوط، وليس لـ 'القديسين' الذين يقتاتون على الفتات!"

خطا مِيخائيل خطوةً للأمام، متجاهلاً لوسيفر، وعيناهُ معلقتانِ بنيتشه فقط. كان يرتجف، لكنَّ حضورهُ كان ثقيلاً بوزنِ "الذنب".

مِيخائيل (بصوتٍ متهدج):

"فريدريك.. انظر إليّ. هل نسيتَ مَن نكون؟ هل تظنُّ أنَّ هذه 'الغابة' هي حقيقتك؟ هذا الكيانُ يبيعُكَ العظمةَ لكي يسرقَ منك ميزتَكَ الوحيدة.. أن تكون 'إنساناً' قادراً على الحُبّ. سيلينوس لا يخبركَ الحقيقة، هو يخبركَ بـ 'يأسه'. العزلةُ التي يَعِدُكَ بها ليست مقاماً للإله، بل هي زنزانةٌ ستموتُ فيها وحدكَ دون أن يمسحَ أحدٌ عرقَ جبينك."

نيتشه (يتلعثم، وصوتهُ يترنحُ بين القوةِ والضعف):

"مِيخائيل؟.. ماذا تفعلُ هنا؟ لوسيفر قال إنَّكَ جزءٌ من الأوهامِ التي حطمتُها. لماذا تعودُ الآن لتسحبني إلى 'الشفقة'؟ أنا أخترتُ المعرفة.. اخترتُ أن أكونَ العاصفة!"

مِيخائيل (بصرخةٍ مليئةٍ بالألم، مقترباً أكثر):

"أيُّ عاصفةٍ هذه التي تبدأُ بذبحِ روحِك؟ المعرفةُ التي تُجردُكَ من القدرةِ على الانتماءِ لِبشرٍ مثلك هي 'لعنة'. انظر إلى سيلينوس.. هل تريدُ أن تنتهي هكذا؟ مصلوباً على صِدقٍ لا يرحم؟ فريدريك، العودةُ لا تزالُ ممكنة.. لا تُوقع العهدَ الأبديَّ مع هذه الدائرة."

انفجر سيلينوس بالضحكِ مجدداً، ضحكةٌ هستيريةٌ هذه المرة.

سيلينوس:

"أنظروا! 'الواعظُ' قد وصل! جاء لِيُخبِرَكَ عن الحُبِّ في عالمٍ محكومٍ بالجاذبيةِ والموت. قل له يا فريدريك.. هل يستطيعُ حُبُّهُ أن يوقفَ مطارقَ الصداعِ في رأسك؟ هل يستطيعُ مِيخائيل أن يمنحَكَ 'المعنى' الذي لم يجِدْهُ والِدُكَ في صلاته؟"

لوسيفر تحركَ بسرعةِ البرق، ووقفَ بين نيتشه ومِيخائيل، وجسدهُ الطويلُ يحجبُ الضوءَ الأبيضَ تماماً.

لوسيفر (يهمسُ لنيتشه، وعيناهُ السوداوانِ تخترقانِ رُوحَه):

"هل ستسمعُ لِصوتِ الضعفِ الذي يريدُ إعادتَكَ لِلحظيرة؟ مِيخائيل هو القيدُ الأخيرُ لِعبقريتِك. هو يمثِّلُ كلَّ ما يشدُّكَ لِلأسفل.. لِلمتوسط، لِلعادي. اختر يا فريدريك: هل تريدُ عُزلَةَ النسرِ فوقَ القمم، أم دفءَ القطيعِ في الوادي المحترق؟"

تراجع نيتشه خُطوة، وهو ينظرُ إلى مِيخائيل الباكي، ثم إلى لوسيفر المتمكن، ثم إلى سيلينوس المحطم. شعرَ بأنَّ جسدهُ يتمزقُ حرفياً بين ثلاثِ قوى؛ الصدقُ القاتل، العظمةُ الملعونة، والوفاءُ البشريُّ الميؤوسُ منه.

نيتشه (يصرخ والدموعُ تلمعُ في عينيه، لكنَّ صوتهُ يحملُ نبرةَ التحدي):

"مِيخائيل.. لا تأتِ لِتُطالبني بـ 'الإنسان'. الإنسانُ هو شيءٌ يجبُ أن يُتجاوز! لكنكَ.. أنتَ تذكرني بما كان يمكنُ أن أكون. لماذا الآن؟ لماذا في قلبِ الغابةِ الرخامية؟"

مِيخائيل (بإصرارٍ مستميت، يمدُّ يدهُ نحوه):

"لأنَّ هذه هي اللحظةُ الأخيرة قبل أن تُصبحَ 'الصدى'. فريدريك، الحقيقةُ ليست في القمة، الحقيقةُ في 'المسافة' بيننا. لا تدعهُ يسرقُ اسمك.. لا تدعهُ يحولُكَ إلى 'فكرة'!"

احتدمَ الجو، وبدأت الأشجارُ الرخاميةُ بالارتجاجِ العنيف، والضياءُ الأبيضُ والأرجوانيُّ يتصارعانِ فوق الرؤوسِ كسيوفٍ متقاطعة.

نيتشه يقف في المركز، لوسيفر يضغطُ عليه بالعظمة، ومِيخائيل يسحبهُ بالحب، وسيلينوس يضحكُ من حتميةِ السقوط. لمن سيميل نيتشه؟ وكيف سيواجه مِيخائيل جبروت لوسيفر في هذه اللحظة؟

المخطوطة الثانية: جِنازةُ الشَّفَق.. وانتحارُ القَلْبِ فوقَ مَذْبَحِ الحَقيقة

كانتِ الغابةُ الرخاميةُ تترنحُ تحتَ وطأةِ صراعِ الأضداد؛ الضياءُ الأبيضُ القادمُ من مِيخائيل يصارعُ السديمَ الأرجوانيَّ المنبعثَ من كِيانِ لوسيفر، وسيلينوسُ في المركزِ يصرخُ بضحكاتٍ تشبهُ تكسّرَ الزجاجِ في مِحرابٍ مَهجور.
وقفَ نيتشه في بؤرةِ الإعصار، عيناهُ تزيغانِ بينَ مِيخائيل الذي يمثلُ "الأرضَ والدموع"، وبينَ لوسيفر الذي يمثلُ "البرقَ والقمم".

مِيخائيل (يصرخُ والدموعُ تحرقُ وجنتيه، ماداً يدهُ المرتجفة):
"فريدريك.. انظرْ إلى يدِي! إنها يدُ رفيقِ طفولتِك، يدُ مَن مسحَ عنكَ غبارَ 'ناومبورغ'. إذا ذهبتَ معهُ، ستحرقُ جسرَ العودةِ للأبد. ستموتُ وحيداً في صقيعِ فكرِكَ دونَ قلبٍ ينبضُ لِأجلك. لا تتركني.. لا تتركِ 'الإنسانَ' فيك يرحل!"

لوسيفر (يخطو خلفَ نيتشه، واضعاً يديهِ الرماديتينِ على كتفيهِ كأنهما فكّا كَمّاشة، هامساً بفحيحٍ يُشعلُ الروح):
"هل تسمعُهُ يا فريدريك؟ إنهُ يدعوكَ لِلبقاءِ في 'الحظيرة'. يريدُكَ أن تكونَ نسخةً أخرى من والدك.. ذلك الرجلِ الذي قتلهُ الحزنُ واليقينُ الكاذب. انظرْ إلى مِيخائيل، إنهُ 'الشَّفقةُ' التي ستخنقُ عبقريتَك. الحقيقةُ لا تسكنُ في أحضانِ الرفاق، بل في عُزلةِ النُّسور. اخترْ: هل تريدُ أن تموتَ باكياً كقسيسٍ مهزوم، أم تريدُ أن تحيا صاعقةً تُعيدُ تشكيلَ الأزل؟"

تشنجت ملامحُ نيتشه، وبدأَ الصداعُ ينفجرُ خلفَ عينيهِ كأنهُ مطارقُ تقرعُ سندانَ القَدَر. نَظرَ إلى مِيخائيل، فرأى فيهِ كلَّ الضعفِ البشري، رأى فيهِ صورةَ والدهِ وهو يلفظُ أنفاسَهُ الأخيرةَ متمسكاً بأوهامِ السماء. ثم نَظرَ إلى لوسيفر، فرأى القوةَ العارية، الحقيقةَ المُرّة التي لطالما طاردها بينَ سطورِ شوبنهاور وقواعدِ اللغةِ الميتة.

نيتشه (بصوتٍ تحوّلَ فجأةً من الارتجافِ إلى صلابةِ الرخام، وعيناهُ تفيضانِ ببريقٍ مسموم):
"كفى يا مِيخائيل! ثيابُكَ الملطخةُ بالدموعِ تذكرني بـ 'الإنسانِ الضئيل' الذي أقسمتُ على تجاوزه. حُبُّكَ قيد، ووفاؤكَ زنزانة. أنا لا أريدُ "العزاء"، أنا أريدُ "الرُّؤية". إذا كان الثمنُ هو أن أكونَ الصدى الوحيدَ في العدم، فليكن! لن أموتَ كما ماتَ أبي.. لن أنتهي كصلاةٍ لم يُجبها أحد. أنا أختارُ.. 'الحقيقة'."

انهارَ مِيخائيل على ركبتيهِ وكأنَّ صاعقةً ضربتْ كرامتَه. غطى وجهَهُ بِيَديهِ وانتحبَ بصوتٍ مَزّقَ سكونَ الغابة. أما لوسيفر، فقد ارتسمتْ على وجههِ ابتسامةٌ عريضةٌ مفعمةٌ بانتصارٍ أزليّ.
لوسيفر (بصوتٍ يملؤهُ الظَّفَر):
"أحسنتَ الاختيارَ يا ابنَ النُّورِ الملعون. والآن.. دعنا نُطهرْ بصرَكَ من آخرِ بقايا الضباب."
بِحركةٍ غادرةٍ وسريعةٍ كخاطفِ الأرواح، اندفعَ لوسيفر نحو مِيخائيل الجاثم. لم يخرجْ خنجراً، بل تحولتْ يدهُ إلى نصلٍ من الظلّ الخالص. وبكلِّ برود، طَعنَ مِيخائيل في مَقتل، وسطَ صرخةٍ خرساءَ لم يسمعها سوى قلبِ نيتشه الذي كانَ يتفتتُ في تلك اللحظة.
انفجرَ مِيخائيل إلى شظايا من الضوءِ الأبيضِ الباهت، وتلاشى نورهُ تدريجياً حتى ابتلعت العتمةُ مكانه. شعرَ نيتشه بـ "بَردٍ" مُفاجئٍ يسكنُ صدره، كأنَّ الجُزءَ الذي كانَ يربطهُ بالبشريةِ قد قُلعَ من جذوره.
سادَ صمتٌ جنائزيٌّ مُطبق. وقفَ نيتشه وحيداً وسطَ الغابةِ الرخامية، يحدقُ في الفراغِ حيثُ كانَ مِيخائيل يقف. لوسيفر وقفَ بجانبه، مسحَ يدهُ بوشاحهِ الرماديّ، ونظرَ إلى نيتشه بعينينِ سوداوينِ لا يحدُّهما قرار.

لوسيفر (يهمسُ برهبةٍ جليلة):
"الآن فقط.. أنتَ حُرٌّ يا فريدريك. لقد قَتلنا 'الإنسانَ' فيك. سيلينوس كانَ مُحقاً؛ العزلةُ هي البداية. والآن.. انظرْ إلى المرآة؛ لا إله، لا رفيق، لا شفقة. فقط أنت.. والعدمُ الذي ينتظرُ أن تَخلُقَ فيهِ مَلحمتَك."
رفعَ نيتشه رأسه، لم تعدْ هناك دموع، ولم يعدْ هناكَ خوف. كان وجههُ قد تحولَ إلى قناعٍ من الحجر، وعيناهُ تعكسانِ سوادَ عيني لوسيفر.

نيتشه (بصوتٍ باردٍ كالموت):
"لقد انطفأَ النورُ الأخير.. فليبدأْ عزفُ النحيبِ المقدس. أنا مستعدٌ لِأكونَ 'العاصفة'."
ضحكَ سيلينوس من بعيد، ضحكةً هذه المرة خاليةً من السخرية، ومليئةً بالرعبِ المكتوم. وبدأتِ الغابةُ الرخاميةُ تنهارُ حولهما، ليعودَ نيتشه ببطءٍ إلى وعيهِ في مقطورةِ القطار، حيثُ ينتظرهُ العالمُ المادي.. ومطرقةُ "بازل" التي لا ترحم.

المخطوطة الثانية: اشتباكُ الوعي..
عادت جدران المقطورة لترسم حدودها الضيقة من جديد. تلاشى الضياء الأرجواني وصراخ سيلينوس، وحلّ محلهما صوتُ القطار الرتيب وهو ينهب الأرض. نيتشه، الذي كان رأسه مستنداً إلى المسند الخشبي، فتح عينيه ببطء؛ كانت الحدقتان لا تزالان متسعتين، وجسده يرتعش برعشةٍ خفية لم تستطع حرارة المقطورة إخمادها.
قبالته، كان لوسيفر يجلس بوضعيته الأنيقة، يضع ساقاً فوق أخرى، عيناه السوداوان تراقبان "فريدريك" بمكرٍ صامت، كأنه يراقب قطعة كيمياء تتحول تحت النار.
نيتشه (بصوتٍ متهدج، يحاول استرجاع وقار البروفيسور):
"تلك الغابة.. ذلك الكائن المقيد بجذور الرخام.. هل كان ذلك حقاً 'المنبع'؟ سيلينوس نطق بكلماتٍ تُحطم العظم. أخبرني يا لوسيفر، دون مراوغةٍ هذه المرة: إذا كان 'ألّا نكون' هو الأفضل، فلماذا تمنحني كل هذه 'القوة' للوجود؟ لماذا تدفعني للقمة طالما أن القاع هو الحقيقة المطلقة؟"
لوسيفر (يبتسم ابتسامةً غامضة، ويمسح بيده طرف كأسه الخالي):
"يا لَبراعة عقلك يا فريدريك! تسألُ عن 'لماذا' وأنت لا تزال تَمضغُ مرارة الصدق. سيلينوس نطق بحقيقة 'الطبيعة'، تلك التي لا تملك غاية سوى الفناء. لكنني لم آخذك إليه لكي تستسلم لمصير الحشرات. أخذتك لكي تدرك أنَّ 'العظمة' هي الجريمة الوحيدة التي تُبرر وجودك. الوجود 'خطيئة' في نظر الطبيعة، وأنا أريدُك أن تكون 'المجرم الأكبر'."
نيتشه (يقطب حاجبيه، والقلق ينهش ملامحه):

"وتلك الهيئة التي انطفأت.. ذلك النور الذي سميته 'مِيخائيل' وذبحته أمام عيني.. صوته كان يطرق أبواباً في روحي ظننتُ أنها أُغلقت للأبد. شعرتُ كأنني أقتلُ جزءاً مني لم يُولد بَعْد."
لوسيفر (يضحك ضحكةً منخفضة، فيها نبرة من المكر الجليل):
"مِيخائيل؟.. اعتبره 'الاحتمال الضائع'. هو لم يكن بشراً تعرفه، بل كان 'الغريزة' التي تشدك للوراء، للسكينة، للحُب الذي يُقيد الجناحين. ذبحتُه لأنك لا تستطيع أن تحمل صاعقة الحقيقة وأنت لا تزال تحنُّ لدفءِ 'القطيع'. أنت لم تقتل غريباً، أنت قتلت 'ضعفك' المتجسد. ألا تشعر بالخفة الآن؟ ألا تجد أن الهواء في صدرك صار أكثر برودةً ونقاءً؟"
نيتشه (يتكئ للأمام، وعيناه تخترقان سواد عيني لوسيفر):
"الخفة التي أشعر بها تُشبه خفة الرجل الذي يسقط من شاهق! أخبرني عن 'الدائرة'.. سيلينوس تكلم عن 'العود الأبدي'. قال إن كل هذا حدث وسيعود. هل تقصد أن عذابي هذا، وهذا الحوار، وهذا الصداع الذي يمزق صدغي، ليس له نهاية؟ أهذا هو الخلود الذي تَعِدُ به؟ سجنٌ من التكرار؟"
لوسيفر (تلمع عيناه ببريقٍ شيطاني، ويخفض صوته كأنه يلقي بتعويذة):
"أوه، لقد التقطتَ الجوهر سريعاً! 'العود الأبدي' هو المطرقة التي سأكسر بها مفاصل إرادتك.. أو أصهرُها لتصبح فولاذية. الضعيف يرى في التكرار جحيماً، أما القوي.. فهو مَن يقول للحظة: 'هل هذه هي الحياة؟ إذن، فلتعد مرةً أخرى!'. أنا لا أعدك بجنةٍ في النهاية، لأنني ألغيتُ 'النهاية'. أنا أمنحك 'الآن' مكرراً للأبد. هل تملك الشجاعة لتعيش هذه اللحظة، بكل قسوتها، ملايين المرات؟"
نيتشه (يصمت لثوانٍ، وجبينه يتصبب عرقاً، ثم يهمس):
"إذن، أنت لا تُريدني أن أصل.. أنت تُريدني أن 'أستمر' في الصراع."
لوسيفر (يعتدل في جلسته بكبرياء):
"الوصول هو الموت. أما الصراع.. فهو الموسيقى الوحيدة التي يرقصُ عليها الشيطان. أنت سألتني في الغابة عما لم تفهمه؛ ما لم تفهمه هو أنك 'المختار' لا لكي ترتاح، بل لكي تكون 'المسرح' الذي يتقاتل عليه العدم مع الوجود. مِيخائيل كان يريدُ لك 'الراحة'، وأنا أريدُ لك 'المجد'. والمجد يا فريدريك.. ثمنه العزلة المطلقة داخل تلك الدائرة."

نيتشه (بنظرةٍ ثاقبة ومملوءة بالشك الذكي):

"ومَن يضمن لي أنك لست مجرد جزءٍ من هذا 'الدوار'؟ ربما أنت أيضاً سجينٌ معي في هذه المقطورة، تعيدُ إغوائي في كل دورةٍ للأبد."

لوسيفر (يبتسم ابتسامةً عريضة، تظهر أنيابه البيضاء):

"سؤالٌ ذكي.. ذكيٌ جداً. ربما أنا قيدك، وربما أنا مفتاحك. لكن أليس هذا الغموض هو ما يجعل الرحلة مثيرة؟ انظر للخارج.. الجبال تقترب، والضباب يزحف. لقد عبرنا الحدود، يا بروفيسور. لم تعد 'نيتشه' الذي ركب القطار في لايبزيغ.. أنت الآن شيءٌ آخر، شيءٌ بدأ يَفهم أن 'الحقيقة' ليست كلمة تُقال، بل هي جرحٌ يُعاش."

ساد الصمت في المقطورة، ولم يعد يُسمع سوى لهث القطار المتعب. نيتشه ظل يحدق في لوسيفر، محاولاً فك شفرة هذا الكيان الذي يمنحه العظمة ويُجرده من السكينة في آنٍ واحد.

نيتشه (يعدل من وضعية نظارته، وصوته يحمل رنيناً فلسفياً متسائلاً):

"أخبرني.. تلك الأشهر التي تلت خروجي من البوابة، كيف سارت الأمور بهذه الدقة المرعبة؟ بالأمس كنتُ مجرد طالبٍ في 'لايبزيغ' يغرق في قواميس اللغة، وفجأة.. انفتحت أبوابُ 'بازل' دون أن أطرقها. أهذه هي 'المعرفة' التي وعدتَ بها؟ أن تتحول حياتي إلى مسرحيةٍ من النجاحاتِ المريبة؟"

لوسيفر (يدير رأسه ببطء، وابتسامةٌ ساخرة تداعب شفتيه):

"النجاح هو 'الطُّعم' يا فريدريك. هل كنتَ تظن أنني سأتركك تتعفنُ في غرفتك المظلمة؟ العالم يحتاج إلى 'قناعٍ' يليقُ بالعاصفة القادمة. 'بازل' لم تختر أستاذاً في الرابعة والعشرين من عمرهِ لِعبقريته فحسب، بل لأن 'الإرادة' التي سكنتك بعد العبور جعلت 'ريتشل'[6] يراك كمعجزةٍ لا تتكرر. الرسالة التي وصلت إليك للتدريس لم تكن حظاً، بل كانت 'صكاً' يربطك بالواقع لكي تشرع في هدمه."

نيتشه (يقاطعه، والذكرى تتجسد في عينيه):

"ولقاء 'فاغنر'؟.. ذلك المساء المطر في لايبزيغ.. في منزل 'بروكهاوس'. عندما سمعتُ موسيقى 'تريستان وإيزولده'، شعرتُ أن روح سيلينوس هي التي

---

[6] فريدريك ريتشل (Friedrich Ritschl): أحد أهم علماء اللسانيات والفقه اللغوي في القرن التاسع عشر، والمعلم الروحي لنيتشه. في واقعة أكاديمية غير مسبوقة عام 1869، قام ريتشل بتوصية جامعة "بازل" السويسرية بتعيين تلميذه نيتشه أستاذاً جامعياً وهو في سن الرابعة والعشرين فقط، قبل حتى أن يتم أطروحة الدكتوراه. كتب ريتشل في رسالته الشهيرة للجامعة: "إنه يستطيع فعل أي شيء يضع عقله فيه.. سيكون معجزة إذا عاش".

تعزف. كان فاغنر يضجُّ بقوةٍ لم أرَها في بَشر. هل كان لقاؤنا صدفة؟ أم أنه هو "الصنم" الذي جئتَ لتريني كيف أعبده.. ثم أذبحه؟"

لوسيفر (يتكئ للأمام، وتلمع عيناه بمكرٍ جليل):
"صدفة؟.. يا لَبراءتك! فاغنر هو "ديونيسوس" المتجسد في ثيابٍ مخملية. لقد جعلتُ كيميائك تتوافق مع نغماته لكي تدرك أنَّ "الحقيقة" المُرّة التي نطق بها سيلينوس يمكن تحويلها إلى سكرٍ موسيقي. أنت رأيتَ فيه "الأب" الذي افتقدته، وهو رأى فيك "العقل" الذي سيُشرعِن أساطيره. لكن أخبرني.. ألم تشعر بظلي يقف بينكما وأنتما تتحدثان عن "شوبنهاور"؟ ألم تدرك أنَّ حماسك لفاغنر كان هو الوقود الذي أحرق آخر بقايا "مِيخائيل" فيك؟"
نيتشه (يهمس بمرارة، وكأنه يسترجع تفاصيل اللقاء):
"كان يرتدي معطفاً من الحرير، ويتحدث بكبرياء الآلهة. شعرتُ حينها أنني وجدتُ وطناً أخيراً. لكنني الآن، وسط هذا الصقيع، أتساءل: هل دعوته لي لزيارته في "تريبشن" هي بداية ارتقائي، أم أنها "المذبحة" الثانية التي تُعدها لي؟ لقد تركتُ خلفي "الإنسان".. فهل أذهبُ الآن لأفقدَ "العقل"؟"
لوسيفر (بضحكةٍ خافتة، فيها نبرة من التشويق الغامض):
"أنت تذهبُ لِتختبر "القوة". فاغنر هو العظمة التي لا تزالُ ملطخةً بـ "البشرية". تريبشن ليست وطناً، بل هي "محرقة". ستجلسُ معه، وستحتسي النبيذ ، وستظنُّ أنك وصلتَ إلى قمة العالم. لكن تذكر.. الرسالة التي في حقيبتك، التي تناديك "بروفيسور"، هي السلسلة التي سأشدها كلما حاولتَ الغرق في أحضان "الراحة". أنت الآن أستاذٌ في بازل، أليست هذه هي الإثارة التي كنت تنشدها؟"
نيتشه (يحدق في لوسيفر بتحدٍ ذكي):
"أنت تمكر، ولكنني أتعلم. دعوتي لبازل هي "مطرقتي"، ولقاء فاغنر هو "موسيقاي". سأستخدم كليهما. لكن قل لي.. لماذا أشعر أن رسالة التعيين تلك، رغم بريقها، تحمل رائحة الورق الجنائزي؟"
لوسيفر (بغموضٍ لاذع):
"لأنها تذكرةُ دخولك إلى "المتاهة". أنت الآن رسمياً جزءٌ من العالم الذي تمقته. فكيف ستقوم بدور "الأستاذ" وأنت تحمل سر "العدم"؟ هذا هو التشويق الحقيقي.. أن تعيش الكذبة ببراعةٍ تجعل حتى "الصدق" يرتجف."

توقفَ القطارُ فجأةً في محطةٍ صغيرةٍ رابضةٍ وسط الضباب، أحدثَ كبحُ العجلاتِ صريراً حاداً كأنه صرخةٌ مكتومةٌ في ممراتِ الذاكرة. دخلَ ضوءُ الفجرِ الشاحبِ عبر النافذة، ليرسمَ فوق وجهِ "فريدريك" ظلالاً جعلتهُ يبدو كتمثالٍ نُحتَ من شمعٍ وقلق.
تراجعَ لوسيفر إلى زاويةِ المقطورةِ المظلمة، حيثُ لا تصلُ خيوطُ الضياءِ الهزيلة، وبقيت عيناهُ السوداوانِ تلمعانِ ببريقٍ ساخر، يراقبُ نيتشه وهو يطوي رسالةَ التعيينِ بيدينِ يرتجفُ فيهما بقايا "بردِ العبور".
لوسيفر (بنبرةٍ تقطرُ سخريةً لاذعة، وصوتٍ فيه بَحّةٌ مفعمةٌ بالمكر):
"أُنظرْ إلى وجهِك في الزجاج يا 'بروفيسور'.. تبدو كأنكَ تحملُ وزرَ خطايا البشريةِ فوقَ كتفيك، بينما أنتَ في الحقيقةِ لا تحملُ سوى تذكرةِ دخولٍ لِتُصحح أخطاءَ القواعدِ لِأبناءِ المصرفيين في بازل. أليسَ من المضحكِ أنَّ 'قويَّ الوعيِ' الذي ذبحَ شفقَهُ منذُ قليل، يرتجفُ الآن من فكرةِ الوقوفِ أمامَ مَنصةٍ خشبيةٍ لِيُلقي 'فتاتَ الحكمةِ' على مسامعِ الموتى؟"
نيتشه (يعدلُ من وضعيةِ ياقته، وعيناهُ لا تزالانِ غائرتين):
"الموتى الذين تتحدثُ عنهم هم مَن سيمنحونني 'الشرعية' لِأكونَ المطرقةَ التي تبحثُ عنها. سأُعلمهم اليونانيةَ لكي يَفهموا معنى 'المأساة'، لا لكي يَعدّوا حروفَ العلة."
لوسيفر (يضحكُ ضحكةً جافةً ومكتومة):
"المأساة؟.. يا لَكَ من حالمٍ بائس! ستُعلمهم كيفَ يَعدّون عظامَ الإغريقِ لِيُزينوا بها متاحفهم الباردة. لكنْ لا بأس، فالقناعُ الأكاديميُّ يمنحكَ وقاراً يُداري رائحةَ الكبريتِ العالقةَ في ثيابك.
تحركَ القطارُ مجدداً، وبدأَ لوسيفر يتلاشى في الظل، لكنَّ صوتهُ بقيَ يطنُّ في أذنِ نيتشه كذبابةٍ لا تهدأ.
لوسيفر (هامساً بسخريةٍ ختامية):
"وداعاً مؤقتاً يا 'أصغرَ بروفيسورٍ' في تاريخِ ألمانيا. سأتركُكَ لِتغرقَ في عظمةِ الأوراقِ والأختام. احذرْ أنْ تموتَ من المللِ قبلَ أنْ تبدأَ 'العاصفة'. أنا سأكونُ هناك.. في الممراتِ المظلمةِ لِجامعةِ بازل، أنتظرُ اللحظةَ التي سَتملُّ فيها من 'اللغة' وتَبدأُ بـ 'الصرخ'."

الوصول: محطةُ بازل (أبريل 1869)
توقفَ القطارُ أخيراً في محطةِ بازل الكبرى. انفتحَ البابُ، فاندفعَ هواءُ سويسرا البارِدُ كأنهُ نصلٌ يَقُدُّ صدرَ نيتشه. نزلَ إلى الرصيف؛ كان المشهدُ عبارةً عن مَزيجٍ رماديٍّ من البخارِ والضجيجِ المكتوم.
المحطةُ كانت تبدو ككاتدرائيةٍ من الحديدِ والزجاج، يلفها ضبابٌ كثيفٌ يجعلُ الناسَ يبدون كأشباحٍ تائهة. رائحةُ الفحمِ المحروقِ والزيتِ الساخنِ كانت تزكمُ الأنف، لِتمزجَ هيبةَ اللقاءِ بقذارةِ الواقعِ الصناعي.
وقفَ نيتشه وحيداً وسطَ الزحام، يُعدلُ قبعتَه السوداء، ويقبضُ على حقيبتِهِ التي تحتوي على مسوداتِ "مولد المأساة". نظرَ إلى أعمدةِ المحطةِ العالية، فشعرَ بِصغرِ حجمِهِ البشريّ، لكنَّ ذِكرى مِيخائيلَ المذبوحِ منحتْهُ برودةً فولاذية.
نيتشه (يهمسُ لنفسه، والضبابُ يغلفُ وجهه):
"إذن.. هذه هي بازل. مدينةُ القبورِ الأكاديميةِ الراقية."
خطا خُطوتهُ الأولى نحو الخروج، تاركاً خلفهُ دخانَ القطارِ وصمتَ المقطورة، متجهاً نحو "بازل"؛ حيثُ ينتظرُهُ المجدُ المزيف، وحيثُ تقبعُ "تريبشن" خلفَ الأفق.. تحملُ لهُ لَحناً سيحرقُ رُوحَهُ بجمالهِ القاسي.

المشهد: عتبةُ "الجامعةِ العتيقة" (Rheinsprung)
مشى نيتشه بِخُطىً وئيدةٍ في شوارعِ بازلَ الضيقة، متجهاً نحو "الجامعةِ القديمة" (Alte Universität) الواقعةِ على منحدرِ الـ "راينسبرونغ" (Rheinsprung). كانتِ المدينةُ تستيقظُ ببطء، وصوتُ وقعِ أقدامِهِ على الحصى يترددُ كنشيدٍ جنائزيٍّ خافت. عندما وصَلَ أمامَ مبنى الجامعة، توقفَ واستنشقَ الهواءَ بعمق. لم تكن الجامعةُ عبارةً عن قاعاتٍ حديثةٍ أو حَرَمٍ جامعيٍّ شاسع، بل كانت مبنىً قوطياً قديماً، مبنياً من الحجرِ الرمليِّ الأحمر، يفوحُ منهُ عِطرُ العراقةِ والصرامةِ الأكاديمية. واجهتُهُ الحجريةُ كانت ملتويةً بِفعلِ الزمن، ونوافذُهُ العاليةُ والضيقةُ كانت توحي بـ "الانكفاءِ على الذات". بَدَتِ الجامعةُ كأنها كاتدرائيةٌ لِلمعرفة، لا يدخلُها إلا مَن قَدَّمَ نذراً لِلهِ الفكرِ الأكاديميِّ الجاف.
صعَدَ نيتشه الدرجاتِ الحجريةَ المتآكلةَ ببطء، وشعرَ بِالثقلِ الجليلِ لِلمسؤولية. دفعَ البابَ الخشبيَّ الضخمَ الذي أحدثَ صريراً عالياً مَزقَ سكونَ الرواقِ الداخلي.
كانَ الرواقُ مظلماً، تُضيئُهُ مصابيحُ غازيةٌ خافتة، وأرضيتُهُ مفروشةٌ ببلاطٍ حجريٍّ أبيضَ وأسود. الهواءُ في الداخلِ كان ثقيلاً، لزجاً بِرائحةِ الورقِ القديم،

وصمغِ التجليد، والشموعِ المحترقة؛ رائحةُ قرونٍ من البحثِ في نصوصِ الإغريقِ والرومانِ الميتة. نظرَ نيتشه حولَهُ، فبَدَتِ الممراتُ المتعرجةُ كأنها دهاليزُ لِلوصولِ إلى سرٍّ مَكتوم، لا لِتعليمِ الطلاب.

اللقاءُ معَ "العميد": صَرامةُ العَقْد الأكاديمي

تبِعَ نيتشه لافتاتٍ خشبيةً صغيرةً حتى وصَلَ أمامَ بابِ مكتبِ "العميد" (Rector) لِكليةِ الآدابِ والعلوم الإنسانية. كانَ العميدُ في ذلك الوقتِ هو "ويلهلم فيشر" (Wilhelm Vischer-Bilfinger)، رجلٌ في عقدهِ السادس، يُجسدُ كبرياءَ جامعةِ بازلَ وعراقتها. طرَقَ نيتشه الباب، فأتاهُ صوتٌ أجشٌّ يأمرُهُ بِالدخول.

دخلَ نيتشه، فبَدَا المكتبُ كأنهُ مَكتبةٌ عملاقة. الكتبُ تملأُ الجدرانَ من الأرضِ حتى السقف، ملفاتٌ مَربوطةٌ بِحبالٍ تملأُ الزوايا، وخرائطُ قديمةٌ لِليونانِ معلقةٌ فوقَ المِدفأة. جَلَسَ العميدُ خلفَ مكتبٍ ضخمٍ من خشبِ البلوط، مرتدياً رداءً أكاديمياً أسودَ وثقيلاً، ونظارةً ذهبيةً صغيرةً تقبعُ فوقَ أرنبةِ أنفه. رفَعَ رأسَهُ ونظرَ إلى نيتشه بِتمعن، نظرةً فاحصةً لم تخلُ من الدهشةِ لِشابٍّ يبدو أصغرَ من عمرِهِ الحقيقي (أربعة وعشرون عاماً).

العميد فيشر (بنبرةٍ رصينة، مليئةٍ بِالجَودة الألمانية):

"أهلاً بكَ يا سيد نيتشه.. أو يجبُ أنْ أقولَ الآن: 'هير بروفيسور نيتشه'. لقد تأخرتَ قليلاً.. أليس كذلك؟ القطارُ لم يكنْ بِالتوقيتِ السويسريّ، أليس كذلك؟"

اعتذرَ نيتشه بِتأدب، ماداً يدهُ لِلمصافحة، لكنَّ العميدَ لم يمدَّ يدهُ، بل أشارَ إلى كرسيٍّ مَخمليٍّ قبالته. جلسَ نيتشه، ووضَعَ حقيبتَهُ على الأرض.

العميد فيشر (يتابعُ، وعيناهُ تراقبانِ كلَّ حركة):

"دكتور ريتشل (Ritschl) في لايبزيغ قدَّمَ لَكَ تزكيةً غيرَ مسبوقة. قالَ إنكَ 'معجزة' لِفقهِ اللغة. هنا في بازل، نحنُ لا نؤمنُ بـ 'المعجزات' يا فريدريك، بل نؤمنُ بـ 'العملِ الجاد' والصرامةِ العلمية. لقد منحتكَ هذه الجامعةُ كرسياً أكاديمياً مرموقاً، ليس لِأنك 'شابٌّ حالم'، بل لِأننا ننتظرُ منك أنْ تُعيدَ لِفقهِ اللغةِ بريقَهُ الكلاسيكيّ.. بِحيادٍ وموضوعيةٍ تامة. المنهجُ واضح، والنصوصُ مَحددة. فهل أنتَ جاهزٌ لِتحملَ هذا العبء؟"

شعرَ نيتشه بِقسوةِ الكلمات؛ فـ 'فقه اللغة' الذي يطالبونَ بهِ هو مجردُ تحليلٍ جافٍ لِلكلماتِ والقواعد، بينما هو يرى فيهِ روحَ الحضارة. لكنه حافظَ على هدوئهِ الأكاديميّ.

نيتشه (بصوتٍ عميق، رزين، وعيناهُ ثابتتانِ في عيني العميد):
" سيد هير ريكتور فيشر.. أنا مُمتنٌ لِثقةِ بازل. جئتُ لِخدمةِ الإغريقِ والرومان، بِكلِّ ما أملكهُ من معرفة. لكنني أيضاً آملُ أنْ أجعلَ هذه النصوصَ 'تنبضُ' من جديد، لا أنْ أكتفي بِتشريحِ جثتها اللغوية."
تقلصتْ ملامحُ العميدِ قليلاً، ورفَعَ حاجبَهُ الأيسر.
العميد فيشر:
"إياكَ أنْ 'تُجنح' في خيالِكَ يا سيد نيتشه! فقهُ اللغةِ هو عِلم، وليس أدباً. نحنُ لا نريدُ 'فلسفةً' هنا، بل نريدُ 'حقائقَ لغوية'. والآن.. خُذْ هذا المفتاح.. إنهُ مفتاحُ قاعةِ المحاضراتِ رقم '1' (Hörsaal I). محاضرتُكَ الأولى تبدأُ بعدَ عشرِ دقائق. طلابُ بازلَ ينتظرونَ بِفارغِ الصبرِ أستاذَهُم الجديد."
مَدَّ العميدُ مفتاحاً حديدياً ثقيلاً نحو نيتشه. أخذهُ نيتشه، ووقَفَ، وانحنى بِاحترام، وخرجَ من المكتب، تاركاً خلفَهُ صمتَ العميدِ وصرامةَ المكان.
المشهد: عتبةُ "القاعة رقم 1".. وأولُ صفٍّ تدريس
مشى نيتشه في الممراتِ المتعرجة، باحثاً عن القاعةِ المنشودة. كانَ قلبهُ يقرعُ طبولاً وحشيةً في صدره، ويدهُ تقبضُ على المفتاحِ الثقيلِ حتى ابيضتْ أناملُه.
وصَلَ أمامَ بابٍ خشبيٍّ مزدوج، كُتبَ فوقهُ بِأحرفٍ قوطيةٍ مَذهبة: "Hörsaal I".
توقفَ نيتشه أمامَ الباب، وشعرَ أنَّ أنفاسَهُ تتقطع. سَمِعَ خلفَ البابِ همساتِ الطلابِ وتدافعَهُم، كأنهُ صخبُ جيشٍ يستعدُّ لِلهجوم. رفَعَ يدهُ ووضَعَ المفتاحَ في القفل، فدارَ بِسهولةٍ مُحدثاً صوتاً معدنياً حاداً. دفعَ البابَ بِقوة، ودخل.
سادَ صمتٌ مُطبقٌ في القاعةِ على الفور. كانتِ القاعةُ مَبنيةً على طرازِ المدرجاتِ الرومانيةِ الصغيرة، مقاعدُها الخشبيةُ مائلةٌ نحو الأسفلِ باتجاهِ مَنصةٍ مرتفعةٍ يتوسطُها مِكتبٌ كبيرٌ ومِقعدٌ جلديٌّ ضخم. كانتِ القاعةُ مَلئيةً بِحوالي ثلاثين طالباً، يرتدونَ ثياباً رصينة، وعيونُهُم معلقةٌ بِالكاملِ بِنيتشه. نظرَ نيتشه إليهم؛ كانوا طلاباً في مقتبلِ العمر، لكنَّ نظراتَهُم كانت تفيضُ بِتحدٍّ أكاديميٍّ بارد، يختبرونَ الأستاذَ الجديد.. الشابَّ الذي لم يسبقْ لَهُ أنْ وقفَ أمامَ مَنصةٍ من قبل.
مشى نيتشه بِهدوءٍ مصطنعٍ نحو المنصة، صوتُ وقعِ حذائِهِ يترددُ بِوضوحٍ وسطَ صمتِ القاعة. وصَلَ إلى المنصة، ووضَعَ حقيبتَهُ على المكتب، وأخرجَ منها مُسوداتِ مُحاضرتهِ الأولى عن "فقه اللغةِ الكلاسيكي". جَلَسَ على المقعدِ

الجلديِّ الضخم، وشعرَ أنَّ المقعدَ يبتلعُهُ تماماً. نظرَ إلى الطلاب، فبَدُوا لَهُ كأصنامٍ حجريةٍ تنتظرُ أنْ يبثَّ فيها الحياة.. أو أنْ يُقدمَ لها قرباناً لِلهِ اللغةِ الميتة.
أغمضَ نيتشه عينيهِ لِثانيةٍ واحدة، وتذكرَ وصيةَ لوسيفر: "القناعُ الأكاديميُّ يمنحكَ وقاراً". فتحَ عينيه، ونظرَ إلى الصفِّ الأول؛ رأى عيوناً متعبة، عيوناً تبحثُ عن 'المعرفة' لِأجلِ الوظيفة، لا لِأجلِ الحياة. شعرَ بِغربةٍ مُوحشةٍ في هذا المكان؛ كأنهُ 'صدى' يصرخُ في مِحرابٍ مَهجورٍ لِآلهةٍ لم تعدْ تُجيب.
نيتشه (بصوتٍ عميق، قويّ، هدأَ فجأةً رعشتُه، وعيناهُ تجوبانِ القاعة):
"أيها السادة.. جئنا إلى بازلَ لِنتحدثَ عن الإغريق. جئنا لِنتساءلَ: لماذا لا تزالُ كلماتُهُم الميتةُ تقرعُ أبوابَ عقولنا؟ لماذا لا نزالُ نُطاردُ 'البراءة' في تماثيلهم الباردة؟"
توقفَ نيتشه، وظلَّ الصمتُ الجنائزيُّ سيدَ الموقف. نظرَ الطلابُ إليهِ بِذهول؛ فمحاضراتُ 'فقه اللغة' تبدأُ عادةً بِشرحِ قواعدِ اللغةِ وتحليلِ النصوص، لا بِالتساؤلاتِ الفلسفيةِ عن 'البراءة' و'الروح'. شعرَ نيتشه بِبرودةِ القاعةِ تتسللُ إلى مَسامه، وشعرَ أنَّ مفتاحَ العميدِ فيشر، الذي لا يزالُ في جيبه، هو السلسلةُ التي تمنعهُ من 'التحليق'.. لكنهُ مستعدٌ لِأنْ يكونَ 'المطرقة'.

تحرك نيتشه من خلف المكتب الضخم بخطوات هادئة، لكنها كانت تحمل صدىً غريباً في القاعة الصامتة. لم يفتح أوراقه بَعد، بل ظلَّت عيناهُ تخترقان الصفوف، وكأنه يقرأ في وجوه الطلاب صراعاتهم الدفينة قبل أن يقرأ في أوراقهم.
مشهد: انبعاثُ الروحِ من جَسدِ الحرف (مونولوج الفيلسوف)
توقف نيتشه في منتصف المنصة، وسندَ يديه على حافتها، ثم انحنى قليلاً نحو الطلاب وكأنه يهمس بسرٍّ مقدس:
"أيها السادة، إنَّ 'فقه اللغة' (Philology) الذي جئتم لتعلمه ليس 'تشريحاً للجثث'، بل هو 'فنُّ استحضارِ الأرواح'. أنتم تريدون 'قواعد'، وتريدون 'أصول كلمات'، وتريدون مراجع تُغلفونها باليقين لكي تناموا بسلام. لكنني أخبركم.. إنَّ الإغريق لم يكونوا 'أمثلةً في كتب النحو'. لقد كانت دمائهم تغلي بالنشوة والألم. مأساتُهم لم تكن حبراً على ورق، بل كانت رقصاً شجاعاً فوق حافةِ الهاوية."
ساد صمتٌ أثقلُ مما سبق. رفع نيتشه نبرة صوته، وبدأت ملامحه تزداد حدة:

"إننا ندرسهم لكي نتعلم كيف 'نحيا'، لا لكي نعرف كيف 'نطقوا'. هل سأل أحدكم نفسه وهو يحلل جملةً لهوميروس: 'ما هو حجم الوجع الذي جعل هذا الأعمى يرى النور في الكلمات؟'. إنَّ الفلسفة الكامنة خلف اللغة هي التي تهمنا. إذا جردنا النص من روحه، فلن يتبقى لنا سوى 'غبار'. فهل جئتم لتكونوا 'كناسين لغبار التاريخ'، أم لتمسكوا بالبرق الذي سكن قلوب هؤلاء العظماء؟"

الاشتباك: "هانس" وحارسُ القوانينِ الميتة

تحرك طالبٌ في الصف الأول، كان يدعى "هانس"، وهو شابٌ ذو نظراتٍ حادة وجبهةٍ ضيقة تفيض بالصرامة الأكاديمية الألمانية. لم يستطع كتمان امتعاضه من هذا الخروج "الهرطقي" عن المنهج.

هانس (بصوتٍ جاف، يحملُ نبرة اعتراضٍ واضحة):

"عذراً يا هير بروفيسور.. لكننا في جامعة 'بازل'، لا في مسرحٍ للمأساة. المنهجُ الذي تعلمناه في لايبزيغ وبرلين يقول إنَّ الدقة هي ميزان الحقيقة. 'فقه اللغة' هو علمٌ مادي، يبحث في تطور الحرف وصحة المخطوطة. إذا أدخلنا 'الروح' و'الرعشة' في تحليلنا، فما الذي سيتبقى للعلم؟ هل نتحول جميعاً إلى شعراء تائهين لنُرضي فلسفتك؟"

توقف نيتشه، وارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ باردة، فيها الكثير من الكبرياء والشفقة. خطا خطوةً نحو هانس، حتى كاد يلامس مكتبه.

نيتشه (بعينين تشتعلان بتحدٍ فلسفي):

"أوه.. الدقة! العلم! يا لَكَ من حارسٍ أمينٍ لـ 'العدم' يا بني. أنت تخافُ من 'الروح' لأنها غير قابلة للقياس بمسطرتك الأكاديمية. الدقة التي تتحدث عنها هي 'سجن' تضع فيه عقلك لكي لا يرى الوهج. أخبرني يا هانس.. ما نفع 'الدقة' في وصف لون العينين إذا كان الجسدُ جثةً باردة؟ أنت تريد 'علماً' يحميك من التفكير، وأنا أريد 'معرفةً' تجبرك على الارتجاف. إنَّ منهجكم الجاف هو الذي قتل الإغريق مرتين؛ مرةً تحت تراب الزمن، ومرةً تحت أقلامكم الجامدة."

طالب آخر من الوسط (مرتبك، يرفع يده بخوف):

"لكن يا دكتور، العميد فيشر أكد لنا أنَّ المراجع التاريخية هي العمود الفقري لدروسنا. إذا تجاهلنا القواعد، كيف سنفهم النص الأصلي؟"

نيتشه (يستدير بسرعة، مشيراً بيده نحو نافذة القاعة التي تطل على نهر الراين):

"أنا لا أطلبُ تجاهل القواعد، بل أطلبُ 'تجاوزها'! القواعد هي 'السلّم'، وليست 'القمة'. أنتم تريدون البقاء فوق الدرجات الأولى لكي لا تُصابوا بالدوار. المراجعُ ليست غاية، بل هي 'أقنعة' تُخفي خلفها وجوه الآلهة والبشر. أنا أسألكم: هل لديكم الشجاعة لتمزقوا هذا القناع؟ هل لديكم الشجاعة لتدركوا أنَّ العقل الذي تفتخرون به ليس سوى 'أداةٍ' صغيرة أمام إرادةٍ كونيةٍ لا ترحم؟"
ضرب نيتشه المنصة بيده ضربةً واحدة جعلت المحبرة تهتز، وتصاعد صوته كهديرِ رعدٍ مكتوم:
نيتشه:
"جامعة بازل لم تمنحني هذا الكرسي لكي أكون 'ببغاءً' يُعيد سرد ما قاله السابقون. لقد جئتُ لأكون 'المطرقة' التي تهدم جدرانكم العتيقة لكي يدخل الهواء النقي! مَن منكم يريد أن يبقى 'طالباً' يجمع الفتات، فليذهب إلى القاعات المجاورة. أما مَن يريد أن يكون 'إنساناً' يواجه عظمة الإغريق عارياً بلا دروعٍ أكاديمية.. فليبقَ هنا. فقه اللغة الذي سأدرّسه هو 'نشيدُ القوة'، لا 'ترانيمُ العجز'!"
تراجع "هانس" إلى الخلف، وقد احتقن وجهه بالغيظ والذهول. القاعة التي كانت "جنائزية" الصمت، صارت الآن "بركاناً" من التوتر الفكري. نظر الطلاب لبعضهم البعض؛ شعروا أنَّ الأستاذ الجالس أمامهم ليس مجرد أكاديمي، بل هو "زلزال" يهدد كل ما تعلموه عن السكينة العلمية.
لم يفتح نيتشه كتابه بعد، ظل واقفاً بوقارٍ مرعب، يراقبُ صراع الأفكار في عيونهم، بانتظار مَن يجرؤ على السؤال القادم.

سادَ صمتٌ أكثرُ عُمقاً، صمتٌ لم يَعُد مَبنياً على الدهشةِ وحدها، بل على ترقُّبِ الانفجارِ القادم. تراجعَ نيتشه خُطوةً إلى الخلف، ومدَّ يدهُ ببطءٍ نحو طبعةٍ قديمةٍ من "إلياذةِ هوميروس"[7] كانت تقبعُ فوقَ مَكتبه. لم يفتحْها كَمَن يبحثُ عن صفحةٍ مُحددة، بل مَسحَ على غِلافِها الجِلديِّ كأنهُ يتحسسُ نَبضَ كائنٍ حَيّ. رَفَعَ نيتشه بَصرهُ، وصارَ صوتهُ الآنَ أكثرَ هدوءاً، لكنهُ هدوءٌ يَسبقُ العاصفة.

[7] **إلياذة هوميروس:** أقدم ملحمة شعرية في الأدب اليوناني الكلاسيكي، تُنسب للشاعر الأسطوري "هوميروس" (القرن 8 ق.م). تروي قصة حرب طروادة وتركز بشكل أساسي على مأساة البطل "أخيل" وصراعه مع مفهوم المجد والفناء. تعتبر المرجع الأول للقيم البطولية والميثولوجية في اليونان القديمة.

الدَّرسُ الأوَّل: هُوميروس.. لَحْنُ الدَّمِ في حِبْرِ القَواعِد
نيتشه (بنبرةٍ رَخيمة، يملؤها الوَقار):
"لِنفتحِ الأبوابَ إذن. لِنتحدث عن هوميروس. أنتم، في كُتبِكم، تَتجادلونَ حولَ 'المسألةِ الهوميرية'؛ هل كانَ رجلاً واحداً؟ أم مَجموعةً من الشعراء؟ هل كُتبتِ الإلياذةُ في القرنِ الثامنِ أم التاسع؟[8]
يا لَبؤسِ هوميروس بينَ أيديكم! أنتم تُريدونَ 'شَهادةَ ميلاد' لِلشمس، بينما يَكفي أنْ تشعروا بِحرارتِها لِتدركوا وجودَها. هوميروس ليسَ 'مؤلفاً' يا سادة، هوميروس هو 'إرادةُ اليونان' التي صِيغت في جُمَل. عندما نَقرأُ عن غَضبِ 'أخيل'، نحنُ لا نَدرسُ تصريفَ الأفعالِ في حَالةِ الغَضب، بل نَدرسُ كيفَ يُمكِنُ لِلإنسانِ أنْ يَتحولَ إلى 'إلهٍ مُدمر' لِكي يَحتملَ فَقدانَ المَعنى."
فتحَ نيتشه الكتابَ فجأة، وصوتُ تَمزقِ سُكونِ الورقِ كانَ كأنهُ طعنةٌ في صَدرِ القاعة. بدأَ يقرأُ مَقطعاً بِاليونانيةِ القَديمة، لكنهُ لم يقرأهُ كأكاديميّ، بل كعازفِ أوبرا يَستحضرُ أرواحَ القتلى في "طروادة". كانَ لسانُهُ يَنطقُ الحُروفَ بِقسوةٍ جَميلة، كأنَّ الكلماتِ نِصالٌ تُشحذ.
نيتشه (يَتوقفُ عن القراءةِ فجأة، ويُغلقُ الكتابَ بِقوة):
"هل سَمِعتم؟ هل سَمِعتم صليلَ السُّيوفِ خلفَ تلكَ الحروفِ 'الميتة'؟ فقهُ اللغةِ الذي سَأُعلمكم إياهُ هو 'فنُّ القراءةِ بِبُطء'. نحنُ لا نَقرأُ لِننتهي من النص، بل لِنَدعَ النصَّ 'يَلتهمُنا'. الإغريقيُّ لم يكن يَعرفُ 'الموضوعية'؛ كانَ يَعرِفُ فقط 'النشوة' أو 'الفناء'. والآن.. لِننظر إلى الكلمةِ الأولى في الإلياذة: Mnin (الغضب). مَن منكم يجرؤُ على إخباري: كيفَ يُمكِنُ لِلغةٍ أنْ تبدأَ بـ 'غَضبٍ' مُقدسٍ وتَنتهي بِتأسيسِ حَضارة؟"
المُواجهة: صِراعُ المَنطقِ والجنون
رَفَعَ "هانس" يدهُ مُجدداً، لكنَّ حركتَهُ هذهِ المَرة كانت مَشحونةً بِالاستفزاز. لم يَعُد يَهتمُّ بِقواعدِ الأدب، بل أرادَ أنْ يَجرَّ نيتشه إلى مَيدانِ 'المَنطقِ الصرف'.

---

[8] **المسألة الهوميرية:** هي الجدل الأكاديمي حول هوية "هوميروس" وحقيقة وجوده؛ هل كان شخصاً واحداً أبدع الملاحم، أم هو مجرد اسم رمزي لمجموعة من الشعراء الجوالين الذين تناقلوا القصص شفهياً؟ تبحث المسألة أيضاً في تاريخ تدوين الإلياذة، والذي يرجحه أغلب الباحثين في القرن الثامن قبل الميلاد.

هانس (بصوتٍ مَليءٍ بالسخريةِ المَكتومة):
"هير بروفيسور، هذا العَرضُ المَسرحيُّ ممتع، لكنهُ يفتقرُ لِـ "الدليل". أنتَ تَتحدثُ عن "النشوة" و"الغضب"، بينما "ريتشل" و"مومسن" عَلَّمونا أنَّ الدليلَ الفيلولوجيَّ يَقومُ على مُقارنةِ المَخطوطات. أينَ هي حَقيقتُكَ العِلميةُ في هذا الكلام؟ هل سَنُمتحنُ في نهايةِ الفصلِ في مَدى "رعشةِ أرواحنا"، أم في دقةِ تَصريفنا لِأفعالِ هوميروس؟"
انفجرَ بَعضُ الطلابِ بِضحكاتٍ مَكتومة، وشعروا أنَّ هانس قد وضَعَ الأستاذَ الشابَّ في مأزقٍ "عِلمي". لكنَّ نيتشه لم يَهتز. خطا خُطواتٍ هادئةً نحو هانس، وانحنى فوقَ مَكتبه لِدرجةِ أنَّ أنفاسَهُ المَسكونةَ بِصقيعِ "بازل" لَفحت وجهَ الطالب.
نيتشه (بصوتٍ خفيضٍ ومُرعبٍ في هُدوئه):
"تَسألُ عن الامتحانِ يا هانس؟ الامتحانُ الحقيقيُّ هو "الحياة" التي ستخرجُ إليها وأنتَ لا تَملكُ سوى "قواميسَ" فارغةٍ في رَأسك. الحقيقةُ العِلميةُ التي تَتحدثُ عنها هي "وهمٌ" آمن، سِتارةٌ تُخفي خَلفَها عَجزَكم عن مُواجهةِ الحقيقةِ الكونية. أنتَ تُريدُ "مُقارنةَ مَخطوطات"؟ افعلْ ذلك! سَأتركُكَ تغرقُ في بَردِ الوَرقِ لِعشرِ سنوات، وفي النهايةِ سَتجدُ نفسَكَ تَعرفُ كلَّ شيءٍ عن "الكلمة" ولا تَعرفُ شيئاً عن "الرُّوح". الإغريقيُّ يا هانس لم يكن يملكُ "مَخطوطات"، كان يَملكُ "قوةً" تُحوّلُ الألمَ إلى جَمال. وإذا كنتَ تَرى في كلامي مَسرحاً، فذلك لِأنَّ مَنطقَكَ العقيمَ لا يَحتملُ رؤيةَ "الحقيقةِ وهي تَرقص"."
طالبٌ آخر (يُحاولُ تخفيفَ الحدة):
"ولكن يا سيدي.. إذا كانَ كلُّ شيءٍ هو "إرادة" و"نَشوة"، فكيفَ نُميزُ بينَ الحقيقةِ والخَيالِ في النص؟"
استدارَ نيتشه نحو السبورةِ الخشبيةِ الكبيرة، وأمسكَ بقطعةِ طَباشير، ورسمَ خَطاً واحداً مُستقيماً، ثم رَسمَ دائرةً حَولَه.
نيتشه (مُشيراً إلى الدائرة):
"الحقيقةُ هي هذهِ "الدائرة" التي تُحيطُ بِنَا؛ حتميةُ الألم، الفَناء، والعدمُ الذي نطقَ بهِ سيلينوس. أما "الخيال".. فهو هذا الخَطُّ الذي يَمُرُّ عَبْرَها لِيُعطيها شَكلاً. نحنُ لا نُميزُ بينهما، بل نستخدمُ الخَيالَ لِكي "نَحتمل" الحقيقة.
فقهُ اللغةِ هو العِلمُ الذي يَدرسُ كيفَ صَنعَ الإنسانُ من خَيالهِ "حقيقةً" مَقدسةً لِكي لا يَنتحر. هل تظنونَ أنَّ "الآلهة" في الإلياذةِ كانت مَحضَ خُرافة؟ لا.. كانت

'ضرورةً' جَماليةً لِكي يرى اليونانيُّ عَظمتَهُ في مِرآةِ الخُلود. أنتم تُريدونَ 'دِقةً' تَقهرُ الخَيال، وأنا أُريدُ 'خَيالاً' يَقهرُ المَوت. فمَن منكم لا يزالُ يجرؤُ على سؤالي عن 'المَنهج'؟"

ضَربَ نيتشه الطباشيرَ فوقَ المكتب، فانكسرتْ إلى شظايا بيضاء تَناثرتْ أمامَ هانس. غَرِقتِ القاعةُ في صَمتٍ آخَر، صَمتٍ هذهِ المَرة يَشوبُهُ 'الخوفُ المُقدس'.

بدأَ هانس يَخفضُ بَصره، وشعرَ الطلابُ أنَّ هذا الأستاذَ لا يُحاضِرُ من مَراجع، بل يُحاضِرُ من 'جُرحٍ' مَفتوحٍ في جَبينِ الزَّمَن.

نيتشه (يَعودُ إلى مَقعده، ويفتحُ أوراقَهُ بِهُدوءٍ مُميت):

"والآن.. لِنبدأ بِتحليلِ السطرِ الأول. ليس كَعُلماءِ حفريات، بل كَمُحاربينَ عادوا لِلتوِّ من ساحةِ المَعركة. افتحوا كُتبَكم.. ودعونا نَرى مَن منكم سَيصمدُ أمامَ أولِ صرخةٍ لِهوميروس."

(نيتشه جالسٌ بِشُموخ، والطلابُ يفتحونَ كُتبَهُم بأيادٍ مُرتعشة، بينما يفوحُ من زوايا القاعةِ عِطرُ الرخامِ القَديمِ الذي جَلبهُ نيتشه مَعهُ من رِحلتهِ المُظلمة).

مالتْ شمسُ "بازل" نحو الغروب، وألقتْ بظلالٍ طويلةٍ مائلةٍ عبر النوافذ العالية للقاعة رقم (1)، لترسمَ خطوطاً ذهبيةً فوق الغبار المتراقص وصورِ الفلاسفة المعلقة على الجدران. أغلقَ نيتشه كتاب "الإلياذة" ببطء، وأحدثَ اصطدامُ الغلافِ الجلدي الثقيلِ بالمكتبِ صوتاً رخيماً طوى معه تفاصيلَ النحوِ والصرفِ التي نُقشت في الساعاتِ الماضية.

وقفَ نيتشه، ولم يلملم أوراقَه، بل اتجهَ نحو النافذةِ الكبيرة المطلةِ على نهرِ "الراين"، وأعطى ظهره للطلاب الذين تسمروا في مقاعدهم، يشعرون بأنَّ هذه الدقائق الأخيرة ليست مجرد خاتمة لدرس، بل هي "صكُّ غفرانٍ" أو "لعنةٌ" أبدية.

الموعظةُ الختامية: مأساةُ العقلِ ورقصةُ الوجود

التفتَ نيتشه إليهم ببطء، ملامحُ وجهه كانت غارقةً في الظل، بينما لمعت عيناهُ ببريقٍ لا ينتمي لِوقارِ الأساتذةِ التقليديين.

نيتشه (بصوتٍ عميقٍ يخرجُ من أقبيةِ الروح):

"أيها السادة.. الدرسُ انتهى، لكنَّ المحنةَ قد بدأتْ لِتوّها. لقد جئتم لِتبحثوا في هذا المبنى العتيق عن 'الحقيقة'، وها أنا أقولُ لكم: إنَّ الحقيقةَ هي أفعى تلدغُ مَن يحاولُ ترويضَها بالمنطقِ الجاف. لقد درسنا هوميروس، رأينا كيفَ مَجّدَ

الألم، وكيفَ حوّلَ الفجيعةَ إلى لحنٍ أزلي. والآن، وأنتم تستعدون لمغادرةِ هذه القاعة، اسألوا أنفسكم: هل ستخرجون كـ 'موظفين' لِلمعرفة، أم كـ 'ضحايا' لها؟"

سادَ صمتٌ جنائزي، صمتٌ يشبهُ الصمتَ الذي سادَ "الغابة الرخامية" بعد صرخة سيلينوس.

نيتشه (يتابع، ونبرته تزدادُ حدةً وجلالاً):

"إنَّ العالمَ في جوهرهِ هو فوضى لا مبررَ لها، مأساةٌ لا حلَّ لها سوى 'الفن'. الوجودُ لا يُمكنُ تبريرُه إلا كظاهرةٍ جمالية. فإذا لم تحولوا حياتكم إلى 'عملٍ فني'، وإذا لم تجعلوا من آلامكم وصداعكم وتخبطكم مادةً لِلإبداع، فأنتم مجردُ ركامٍ بَشريٍّ ينتظرُ الفناء.

لا تنظروا لِجامعة بازل كملجأ؛ فالمعابدُ الأكاديميةُ هي القبورُ التي ندفنُ فيها شجاعتنا الفطرية. إنَّ ما أطلبهُ منكم ليس 'الحفظ'، بل 'التحطيم'. حطموا الأصنامَ التي تسكنُ عقولكم، حطموا اليقينَ الباردَ الذي يمنحكم الأمانَ الزائف. كونوا 'جسوراً' لِشيءٍ أعظم، لا 'غاياتٍ' لِأنفسكم الصغيرة."

خطا نيتشه خُطوةً نحو المنصة، وقبضَ بيديهِ على حافتها، وانحنى بجسدهِ نحو الطلاب الذين بدوا كأقزامٍ أمامَ فيضِ فكرِه.

نيتشه (يهمسُ بكلماتٍ تقطرُ مَكراً وفلسفة):

"سيقولون لكم إنني 'هرطوقي'، وإنني أُفسدُ عقولكم باليأس. وأنا أقولُ لكم: إنَّ اليأسَ هو نقطةُ البدايةِ الوحيدةِ لِلحرية. مَن لم يذقْ طعمَ العدم، لن يدركَ أبداً عظمةَ الوجود. اذهبوا الآن.. وعيشوا حياةً تليقُ بـ 'تلميذٍ لِهوميروس'؛ حياةً فيها من 'الغضبِ المقدس' ما يكفي لِحرقِ كلِّ الأوهام. تذكروا.. أنَّ الروحَ لا تحلقُ إلا في الصقيع، وأنَّ النورَ لا يولدُ إلا من تمزقِ العتمة."

الخروج: صمتُ الممراتِ وصدى المطرقة

سكتَ نيتشه فجأة. ظلَّ واقفاً في مكانهِ كتمثالٍ من الحجر، يراقبُ الطلاب وهم يلملمون أوراقهم بأيدٍ مرتعشة، ويخرجون من القاعةِ الواحد تلو الآخر بصمتٍ مريب، دون أن يجرؤَ أحدٌ منهم على توجيهِ كلمةِ شكرٍ أو توديع. حتى "هانس" خرجَ وهو ينكسُ رأسه، كأنَّ قلعةَ مَنطقهِ قد هُدمت فوقَ رأسه.

بقي نيتشه وحيداً في القاعة. رائحةُ الطباشيرِ الممزوجةِ بالبرودةِ كانت تملأُ المكان. نظرَ إلى مفتاحِ العميد "فيشر" الملقى على المكتب، وابتسمَ ابتسامةً

مريرة. شعرَ ببرودةِ "المنطقة صفر" تعودُ لِتسكنَ يدَه، وبهمسِ لوسيفر يترددُ في زوايا عقله: "لقد بدأتَ بذبحِ خرافهم يا فريدريك.. فليبدأِ العزف."
حملَ حقيبتَه، وأطفأَ المصباحَ الغازيَّ الوحيد، وخرجَ من القاعة. كانت ممراتُ الجامعةِ خالية، وأصداءُ خطواتهِ فوقَ البلاطِ الحجريِّ كانت تُعلنُ عن وصولِ "المحطم" الذي لن يتركَ حجراً فوق حجرٍ في معبدِ الفكرِ القديم.

خرجَ "فريدريك نيتشه" من القاعة رقم (1)، تاركاً خلفهُ رائحةَ التمردِ وبقايا ذُهولِ الطلابِ العالقِ في الهواء. لم يذهبْ باتجاهِ المخرج، بل غاصَ في عمقِ ممراتِ جامعةِ بازل، تلك الممراتِ التي كانت تلتوي كأمعاءِ وحشٍ حجريٍّ قديمٍ يقتاتُ على الصمتِ والكتب.
المشهد: في كاتدرائيةِ العقولِ الميتة
مشى نيتشه في الأروقةِ المعتمة، حيثُ كانت تماثيلُ الفلاسفةِ والعلماءِ القدامى تبرزُ من الجدرانِ كوجوهٍ خرساءَ تُراقبُ خطواتِه. توقفَ أمامَ مكتبةِ الجامعةِ الكبرى، تلك القاعةِ الشاهقةِ التي كانت رفوفُها تنوءُ تحتَ ثقلِ آلافِ المجلداتِ المغطاةِ بجلدِ العجول. استنشقَ الهواء؛ لم تكن رائحةَ ورقٍ فحسب، بل كانت رائحةَ "الزمنِ المحبوس".
نظرَ نيتشه إلى السقوفِ المزدانةِ بالرسوماتِ الدينيةِ والعلمية، وهمسَ لنفسهِ بنبرةٍ غارقةٍ في الفلسفة:
"يا لَبؤسِ هذا الصرح.. يظنونَ أنهم يحفظونَ المعرفة، بينما هم يحفرونَ قبوراً لِلكلمات. كلُّ كتابٍ هنا هو شاهدُ قبرٍ لِفكرةٍ كانت يوماً تشتعلُ بالحياة. بازل ليست جامعة، إنها 'متحفٌ لِلمومياواتِ الفكرية'. هؤلاءِ الأساتذةُ الذين يمشون في هذه الممرات، ليسوا سوى حراسٍ لِجثثِ اليونانِ والرومان، يخشونَ أنْ تستيقظَ الأرواحُ التي يحبسونها في القواميس."
لمسَ جداراً حجرياً بارداً، وشعرَ بأنَّ الحجارةَ نفسَها تضجُّ بصرخاتِ مَن حاولوا التفكيرَ خارجَ الأطرِ الضيقة. كان يرى التاريخَ في بازل كأنهُ "سلسلةٌ من الأقنعة"؛ قناعُ إيراسموس، وقناعُ برنولي، والآن.. قناعُ نيتشه الأستاذ. مشى نحو الفناءِ الداخلي، حيثُ تتشابكُ فروعُ الأشجارِ العاريةِ مع الأعمدةِ القوطية، وشعرَ بأنَّ الجامعةَ تحاولُ خنقهُ بوقارِها المصطنع.
المواجهة: زلزالُ المبدأِ وجمودُ المؤسسة

بينما كان غارقاً في تأملِ التناقضِ بين عظمةِ الماضي وجفافِ الحاضر، مَزقَ سكونَ المكانِ صوتُ وقعِ أقدامٍ عسكريةِ الصرامة. التفتَ نيتشه لِيجدَ العميد "ويلهلم فيشر" يتقدمُ نحوه، وقد احتقنَ وجههُ باللونِ الأرجوانيّ، وعيناهُ تقدحانِ شرراً خلفَ نظارتهِ الذهبية. كانت يدهُ تقبضُ على مِلفٍ جلديٍّ بعنف، وكأنهُ يحملُ أدلةَ جريمةٍ نكراء.

العميد فيشر (بصوتٍ يرتجفُ من الغضبِ المكتوم):

"هير بروفيسور نيتشه! هل تظنُّ أنَّ هذه 'كاتدرائيةٌ لِلتنبوئاتِ الغيبية' أم جامعةٌ لِلبحثِ العلمي؟ لقد وصلتني تقاريرُ عما حدثَ في القاعةِ رقم واحد منذُ دقائق.. الطلابُ خرجوا وهم يشعرونَ بالدوار، والبعضُ يتهمني بأنني عيّنتُ 'شاعراً مجنوناً' بدلاً من 'فقيه لغة' رصين. ما الذي كنتَ تفعلهُ هناك؟"

توقف نيتشه، واعتدلَ في وقفته، ونظرَ إلى العميدِ ببرودٍ وهدوءٍ جعلَ الأخيرَ يشعرُ بضآلته. لم تكن في عيني نيتشه ذرةُ خوف، بل كانت هناك "سخريةٌ عليا" تليقُ بِمَن صافحَ لوسيفر.

نيتشه (بصوتٍ عميقٍ وهادئ، يقطرُ فلسفة):

"هير ريكتور فيشر.. المريضُ دائماً ما يشعرُ بالدوارِ عندما يشمُّ رائحةَ الهواءِ النقيّ بَعدَ سنواتٍ من السجنِ في القبو. ما تسميهِ 'تقارير' هو مجردُ أنينِ عقولٍ اعتادتْ على أكلِ الورقِ الجاف، وفزعتْ عندما رأتِ 'اللحمَ الحيّ' لِلتاريخِ يَمثلُ أمامها. أنا لم ألقِ محاضرة، أنا كنتُ أحاولُ 'إيقاظَ الموتى'.. فهل صارَ الاستيقاظُ تهمةً في بازل؟"

العميد فيشر (يضربُ المِلفَ بيده، ويقتربُ من نيتشه):

"إيقاظُ الموتى؟ نحنُ هنا لِتشفيرِ النصوصِ وتحليلِ اللهجات! لقد عيناك لِتكونَ حارساً لِدقةِ المنهج، لا لِتُحطمَ هيبةَ العِلم بكلماتٍ عن 'الرقص' و'الهاوية'. بازل لا تخرجُ شعراء، بل تخرجُ باحثين. المنهجُ هو العمودُ الفقريُّ لِهذه المؤسسة، وأنتَ تحاولُ كسرهُ بِمطرقتِكَ الفلسفية!"

نيتشه (يضحكُ ضحكةً منخفضةً ومريرة، ويشبكُ يديهِ خلفَ ظهره):

"العمودُ الفقريّ؟ يا لَلبراعة! أنتَ تسمي 'التصلب' عموداً فقرياً. المنهجُ الذي تدافعُ عنهُ يا سيدي هو 'الخوفُ المنظم' من الحقيقة. أنتم تحبون 'الدقة' لأنها تمنحكم وهمَ السيطرةِ على الوجود. تُريدونَ أنْ تَعدّوا عددَ النبضاتِ في قلبِ هوميروس، وتنسونَ أنَّ هوميروس هو 'النبضُ' ذاته. العلمُ الذي لا يرتجفُ أمامَ

عظمةِ المأساةِ الإنسانيةِ ليس عِلماً، بل هو 'أعمالُ سكرتاريةٍ كونية'. أنتم تحولونَ العبقريةَ إلى أرقام، والروحَ إلى حواشٍ ميتة في أسفلِ الصفحات."

العميد فيشر (بهياج، وصوتهُ يعلو حتى ترددَ صداهُ في الفناء):

"أنتَ تتطاولُ على قرونٍ من الرصانةِ الأكاديمية! مَن أنتَ لِتُقررَ ما هو العِلم؟ لقد كنتَ طالباً بالأمس، واليومَ تظنُّ أنكَ فوقَ القوانين. إذا لم تلتزمْ بالخطةِ الدراسيةِ المحددة، وإذا لم تتوقفْ عن حشوِ رؤوسِ هؤلاءِ الشبابِ بأفكارٍ تدعو للتمردِ على العقل، فسأضطرُّ لاتخاذِ إجراءاتٍ تجعلكَ تندمُ على تركِ 'لايبزيغ'!"

خطا نيتشه خُطوةً واحدةً باتجاهِ العميد، فجعلَ الرجلَ يتراجعُ غريزياً. كانت هالةُ نيتشه في تلك اللحظةِ مشحونةً بـ "ثِقلٍ ماديّ" غيرِ مبرر.

نيتشه (يهمسُ بحدةٍ تجعلُ الكلماتِ كأنها نِصالٌ باردة):

"الندمُ هو فضيلةُ الضعفاء، وأنا فقدتُ القدرةَ على الندمِ منذُ زمن. أنتَ تهددني بـ 'الإجراءات'؟ أنتَ كَمَن يهددُ العاصفةَ بـ 'إغلاقِ النوافذ'. بازل تحتاجُ إليّ أكثرَ مما أحتاجُ إليها؛ لأنني الوحيدُ الذي يملكُ الشجاعةَ لِيُخبركم بأنَّ معبدكم هذا ينهار. أنتم لا تملكونَ حقيقة، أنتم تملكونَ فقط 'اتفاقاً جماعياً على الكذب'. العلمُ الحقيقيُّ يبدأُ بـ 'الشكِّ العظيم'، وأنا جئتُ لِأزرعَ هذا الشكَّ في أقدسِ محاريبكم. فهل ستعاقبني لأنني أملكُ عيناً ترى خَرابَ عقولكم؟"

التهديدُ الأخيرُ وسخريةُ "المطرقة"

سادَ صمتٌ ثقيل. كان العميدُ يلهثُ من فرطِ الانفعال، بينما كان نيتشه واقفاً كأنهُ جبلٌ من الجليدِ لا تُذيبهُ نيرانُ البيروقراطية. نظرَ العميدُ إلى نيتشه بنظرةٍ تجمعُ بين الكراهيةِ والذهول، وكأنهُ يرى أمامَهُ كائناً لا ينتمي لِلفصيلةِ البشريةِ الأكاديمية.

العميد فيشر (يُعدلُ معطفَهُ بِيَدٍ مرتعشة، ويقولُ بلهجةٍ قاطعة):

"هذه هي المرةُ الأخيرةُ التي أُحذركَ فيها يا دكتور نيتشه. بازل لها اسمٌ يجبُ حمايته، ولن أسمحَ لـ 'فوضويٍّ' مثلكَ أنْ يلطخَهُ بالهرطقات. التزمْ بالمنهج، والقِ دروسكَ كما هو مكتوب، وإلا.. فالبابُ الذي دخَلْتَ منهُ بترحيب، سيُغلقُ خلفكَ بِلعنةٍ أكاديميةٍ لن تُمحى. لقد أعذرتُ مَن أنذر!"

استدارَ العميدُ ومشى مُبتعداً، وكانت خطواتُهُ السريعةُ تخبطُ فوقَ الحصى بِتشنج، كأنهُ يهربُ من عدوى أصابتْ مملكته.

وقف نيتشه يراقبهُ وهو يبتعد، وارتسمتْ على وجههِ ابتسامةٌ ساخرةٌ مليئةٌ بالازدراءِ المُرّ. نَظرَ إلى السماءِ الرماديةِ التي كانت تُمطرُ خيوطاً رقيقةً من البرد، وهمسَ لِنفسهِ بِصوتٍ مسموع:
نيتشه (بسخريةٍ حادة):
"انظرْ إليه.. يظنُّ أنهُ يحمي 'الحقيقة' بِملفٍ جلديٍّ وتهديداتٍ جوفاء. يرتجفُ من 'كلمة' لأنها قد تهدمُ بُرجَهُ الورقيّ. مسكينٌ هذا العميد.. يملكُ مفاتيحَ الجامعة، لكنهُ لا يملكُ مِفتاحاً واحداً لِفهمِ معنى 'الإرادة'. اذهبْ يا فيشر.. اذهبْ واختبئ خلفَ مراجعِكَ الميتة، فالرعدُ القادمُ لا يكترثُ لِتحذيراتِ النمل."
بصقَ نيتشه على الحصى بوقارٍ مريب، ثم عدّلَ قبعتَهُ السوداء، وواصَلَ تجولهُ في أرجاءِ الجامعة، لكنَّ هذه المرة، كانت خطواتُهُ أثقل، كأنَّ كلَّ خطوةٍ هي "طرقةُ مطرقة" فوقَ توابيتِ العقولِ التي تُحيطُ به.
انهمرَ المطرُ فوقَ أسطحِ "بازل" القرميدية، ليغسلَ غبارَ القرونِ عن تماثيلِ الجامعةِ الصامتة. كان "نيتشه" يمشي تحتَ الرواقِ المفتوح، وصوتُ نعلِ حذائهِ يرتطمُ بالحجرِ المبللِ بإيقاعٍ رتيب، كأنهُ عدادٌ لزمنٍ لا يرحم.
وفجأة، لم يعدْ صوتُ الارتطامِ منبعثاً من قدميهِ وحدهما. شعرَ ببرودةٍ مألوفةٍ تخترقُ معطفهُ الصوفي، وبرائحةِ كبريتٍ خفيفةٍ تتمازجُ مع رائحةِ المطرِ والتراب. التفتَ ليجدَ لوسيفر يمشي بجانبهِ بخطواتٍ واثقة، مرتدياً معطفهُ الرماديَّ الأنيق الذي لم تبتلَّ منهُ خيطٌ واحد، حاملاً مظلةً سوداءَ يبدو نسيجُها كأنهُ قُدَّ من جناحِ غراب.
المشهد: ضحكةُ الشيطانِ في أروقةِ "المقبرة"
لوسيفر (بنبرةٍ تمزجُ بينَ الإعجابِ الساخرِ والازدراءِ المُر):
"يا لَه من استهلالٍ عظيم يا 'فريدريك'! لم تمضِ ساعةٌ واحدة، وقد نجحتَ في إثارةِ ذعرِ ثلاثينَ طفلاً، وجعلتَ ذلك العجوزَ 'فيشر' يرتجفُ لدرجةِ أنهُ كادَ يبتلعُ نظارتهُ الذهبية. هل جئتَ لِتُدرسَ 'فقه اللغة' أم لِتُمارسَ طقوسَ طردِ الأرواحِ الشريرةِ من عقولِ هؤلاءِ المساكين؟"
نيتشه (يتوقفُ عن المشي، وينظرُ إلى لوسيفر بمرارة):
"لقد رأيتَهُ يا لوسيفر.. رأيتَ كيفَ يقدسونَ 'الورق' ويحتقرونَ 'الروح'. فيشر لا يرى فيَّ أستاذاً، يرى فيَّ خطراً يهددُ هدوءَ مزارعهِ الفكرية. لقد جئتُ لِأبني، فوجدتُ نفسي مضطراً لِلهدمِ أولاً."
لوسيفر (يضحكُ ضحكةً منخفضةً تترددُ أصداؤُها في الرواقِ الخالي):

"الهدم؟ أوه.. أنتَ تبالغُ في تقديرِ قوتك يا بروفيسور. أنتَ لم تهدمْ شيئاً بَعْد؛ أنتَ فقط خدشتَ طلاءَ التابوت. هل رأيتَ ذلك المِلفَّ الجلديَّ الذي كانَ يقبضُ عليه؟ إنهُ يعتقدُ أنَّ القوانينَ الأكاديميةَ هي 'صواعقُ جوبيتر' التي سَتسحقُك. أليسَ من المضحكِ أنَّ بشرياً فانياً، يفوحُ منهُ عطرُ الورقِ العتيق، يحاولُ تهديدَ مَن صافحَ 'العدم'؟"

نيتشه (يستأنفُ مشيَهُ بحدة، وعيناهُ تقدحانِ بشررِ التحدي):

"سخريتُكَ تزيدُ من إصراري. بازل ليست سوى البداية. سأجعلُ من هذهِ الممراتِ مكاناً لا يجرؤُ الجبناءُ على المشيِ فيه."

لوسيفر (يسبقهُ بخطوةٍ ويلتفتُ إليهِ وهو يمشي بظهره، بابتسامةٍ شيطانيةٍ جذابة):

"تعجبني هذهِ النبرة.. لكنْ قل لي، ألم تشعرْ بضآلةِ حجمكَ وأنتَ تقفُ أمامَ تلكَ التماثيل؟ هؤلاءِ العظماءُ الذين تمعنتَ في صورهم منذُ قليل.. لقد بدأوا جميعاً بِمثلِ طموحك، وانتهوا جميعاً حواشٍ ميتةً في كتبِ التاريخ. 'فيشر' ليسَ عدوك، بل هو 'مستقبلك' إذا لم تكسرْ القالبَ تماماً. هو يراكَ 'نسخةً متمردة' منه، ويعتقدُ أنَّ القليلَ من 'الإجراءاتِ الإدارية' ستُعيدكَ إلى الحظيرة. هل سَتسمحُ لِورقِهِ أنْ يخنقَ برقك؟"

نيتشه (يتوقفُ فجأةً ويمسكُ بحافةِ عمودٍ رخامي، هامساً بغضب):

"لقد فقدتُ مِيخائيلَ لِأجلِ هذهِ اللحظة.. فهل تعتقدُ أنني سأنحني لِعجوزٍ يخشى ضجيجَ أفكاره؟"

لوسيفر (يقتربُ من أذنِ نيتشه، وتنخفضُ نبرتهُ لِتُصبحَ أكثرَ غموضاً وإثارة):

"مِيخائيل؟.. لقد ذبحتَهُ لِتكونَ 'حُرّاً'، والآن ها أنتَ ذا تتقيدُ بجدولِ محاضراتٍ وراتبٍ شهري وتوبيخٍ من 'ريكتور'. أليستْ هذهِ هي النكتةُ الكبرى؟ لوسيفر يمنحكَ الحقيقة، وبازل تمنحكَ 'مكتباً'. أنتَ الآن تلعبُ دورَ 'المحطم' وأنتَ ترتدي ربطةَ عنقٍ مهذبة. سخريةُ القدرِ يا فريدريك هي أنكَ تظنُّ نفسكَ عاصفةً، بينما لا يراكَ العالمُ سوى 'أستاذٍ شابٍّ يحتاجُ لِبعضِ التهذيب'."

اشتباكُ السخرية: مطرقةُ الفكرِ وريشةُ الشيطان

نيتشه (ينظرُ إليهِ بنظرةٍ ثاقبةٍ وذكية):

"أنتَ تُمكرُ لِتستفزَّ 'كبريائي'، لكنكَ تنسى أنَّ 'القناع' جزءٌ من الحرب. سأرتدي معطفَ الأستاذ، وسأكتبُ الأبحاث، وسأكونُ 'البروفيسور المثالي' في نظرِ العالم، لكي أتمكنَ من طعنِ هذا العصرِ في قلبهِ من الداخل. سخريةُ 'فيشر' هي جهله، وسخريتي هي معرفتي."
لوسيفر (يُصفقُ بيدٍ واحدةٍ ببطءٍ ووقار):
"براعةٌ لغويةٌ ممتازة! لكنْ احذرْ يا عزيزي.. فالأقنعةُ تميلُ مع الوقتِ لِلالتصاقِ بالوجوه. غداً سَتذهبُ إلى 'تريبشن'.. ستقابلُ 'الإلهَ' الذي اخترتَهُ لنفسك، ريتشارد فاغنر. هناكَ سَتدركُ الفرقَ بينَ سخريةِ 'فيشر' الضحلةِ وبينَ كبرياءِ فاغنر الطاغي. هل سَتكونُ هناكَ أيضاً "أستاذاً"؟ أم سَتتحولُ إلى 'صدى' لِلحنه؟"

نيتشه (بثقةٍ مشوبةٍ بالقلق):
"سأكونُ الصاعقةَ التي تُضيءُ مَسرحه، لا الظلَّ الذي يتبعه."
لوسيفر (يختفي تدريجياً في ضبابِ المطر، ويبقى صوتهُ يترددُ كفحيحٍ ممتع):
"سنرى.. سنرى كيفَ ستصمدُ 'مطرقتُك' أمامَ 'كمانٍ' فاغنر. اذهبْ الآن.. جَففْ معطفكَ من مطرِ بازل، واستعدَّ لِمطرِ المشاعرِ الذي ينتظرُكَ في تريبشن. تذكرْ يا فريدريك: اليومَ حطمتَ كبرياءَ عجوز، وغداً قد تُحطمُ رُوحَك."
تلاشى لوسيفر، وتركَ نيتشه وحيداً وسطَ الرواق. المطرُ كان يزدادُ غزارة، وصوتُ الرعدِ البعيدِ بدا لنيتشه كأنهُ صدىً لِضحكةِ ذلك الكيانِ الذي يدفعهُ نحو القمةِ والهاويةِ في آنٍ واحد.
وقف نيتشه في مكانه، يتأملُ المطرَ المنهمر، ويشعرُ أنَّ جدرانَ جامعةِ بازلَ بدأتْ تضيقُ عليه.. وأنَّ الرحلةَ الحقيقيةَ قد بدأتْ لِتوّها.

المخطوطة الثانية

رنينُ المِطرقةِ في مَحاريبِ الجليد: رحلةُ الشَّكِّ نحوَ تريبشن

خريفُ الأقنعةِ في غُرفةِ العُزلة

عادَ نيتشه إلى غُرفتهِ الصغيرَةِ في بازل، يجرُّ خلفهُ صمتاً أثقلَ من ضجيجِ القاعات. كانتِ الغرفةُ بارِدَة، لا يُدفئها سوى ضوءُ مِصباحِ الزيتِ الذي يرتعشُ فوقَ مَكتبهِ الخشبيّ. وضعَ حقيبتَهُ جانباً وجلسَ يحدقُ في مِرآتهِ الصغيرة، متأملاً ذلك الوجهَ الذي صارَ يحملُ لقبَ "بروفيسور".

روتينُ "بازل" المسموم.. وحدثٌ غامض

استمرَّ الأسبوعُ الأولُ بِرتابةٍ قاتلة. كان نيتشه يَمشي في أروقةِ الجامعةِ كأنهُ طيف. الأساتذةُ الآخرونَ كانوا يرمقونهُ بِنظراتٍ مريبة، يتهامسونَ خلفَ ظهرهِ عن "ذلك الشاب الذي عيّنهُ ريتشل".

وفي اليومِ الثالث، حدثَ أمرٌ أثارَ اهتمامَ نيتشه. في ممرِّ كُليةِ اللاهوت، وَجَدَ حشداً من الطلابِ يقفون أمامَ لوحةِ الإعلانات، وعلاماتُ الذعرِ تكسو وجوههم. كان هناك إعلانٌ عن انتحارِ أحدِ الطلابِ النابغين في قسمِ اللغاتِ القديمة؛ وُجِدَ ميتاً في غرفتهِ وبين يديهِ نسخةٌ مُمزقةٌ من "أوديب مَلِكاً"، وقد كَتبَ على حافتها بدمه: "الحقيقةُ لا تُطاق.. والظلامُ أرحم".

شعرَ نيتشه بـ "بَرْدٍ" مقدسٍ يسري في جسده. لم يكن حزيناً، بل كان مُرتاعاً من عُمقِ المأساةِ التي لم يجروْ أحدٌ على الاعترافِ بها.

لقاءٌ في أقبيةِ الذاكرة (نيتشه ودكتور هاينريش)

بينما كان نيتشه يبحثُ عن مَخطوطةٍ قديمةٍ في أقبيةِ المكتبةِ العميقة، التقى بـ "دكتور هاينريش"، وهو أمينُ مكتبةٍ عجوز، انحنى ظهرهُ تحتَ ثِقلِ السنين، وغطى الغبارُ رداءَهُ حتى صارَ جزءاً من ألوانِ الرفوف. كان هاينريش يُمثلُ "النهايةَ البائسة" لِلمسيرةِ الأكاديمية؛ رجلٌ فَقَدَ عينيهِ في قراءةِ الحواشي، وفَقَدَ روحهُ في ترتيبِ الفهارس.

دكتور هاينريش (بصوتٍ يشبهُ حفيفَ الورقِ القديم):

"أنتَ الأستاذُ الجديد.. نيتشه، أليس كذلك؟ لقد سَمِعتُ صرخاتكَ في القاعةِ رقم واحد. جدرانُ هذه المكتبةِ لها آذان، وهي تهتزُّ عندما يلمسُ أحدٌ ما 'العَصَبَ الحيّ'. لكنْ نصيحةٌ من رجلٍ دَفنَ حياتَهُ هنا: بازل لا تُحبُّ الأحياء، هي تَعشقُ

الموتى فقط. لا تُحاولْ أنْ تنفخَ الروحَ في هذه الحجارة، فالحجارةُ سَتسحقُكَ لكي تُحافظَ على سكونها."

نيتشه (يحدقُ في عيني العجوزِ المطفأتين):

"وما نفعُ البقاءِ في مَقبرةٍ إذا لم نُحاولِ الانبعاث؟ دكتور هاينريش، أنتَ تَعرفُ أنَّ خلفَ هذه الكلماتِ الميتةِ تكمنُ طاقةٌ كونية. لماذا رَضيتَ أنْ تكونَ سَجّاناً لها بدلاً من أنْ تكونَ مُحرراً؟"

دكتور هاينريش (يضحكُ ضحكةً مريرة):

"لأنَّ الحريةَ تُحرق، يا بُني. ذلك الطالبُ الذي انتحرَ بالأمس.. لقد حَاوَلَ أنْ 'يرى'. وهذا هو الثمن. بازل تُطعمُكَ الأمانَ مُقابلَ بَصَرِك. خُذْ مَخطوطتكَ وارحلْ إلى قاعتك، وتظاهرْ بأنكَ 'عالِم'.. فذلكَ أطولُ لِعمرِك."

خرج نيتشه من القبو وهو يشعرُ بضيقٍ خانق. كلماتُ العجوزِ كانت مرآةً لِمستقبلٍ يرفضه.

قرارُ الرحيلِ إلى "تريبشن"

جاءَ مساءُ الجمعة، وكان المطرُ قد توقفَ لِيتركَ خلفَهُ ضباباً يلفُّ بحيرة "لوسيرن". وَجَدَ نيتشه نفسَهُ يمسكُ بِدعوةِ ريتشارد فاغنر التي بقيتْ في جيبهِ طوالَ الأسبوع كأنها جمرةٌ مُتوقدة. كان يَعرفُ أنَّ الذهابَ إلى هناك هو الخطوةُ الأولى بعيداً عن "أمانِ بازل" نحو "خطرِ الإبداع".

نيتشه (يُحضرُ حقيبتَهُ الصغيرة، وعيناهُ تلمعانِ بإصرار):

"كفى انتظاراً. بازل حاولتْ خنقي بِقوانينها، وهاينريش حَاولَ تخويفي بِمصيره. غداً.. سأذهبُ لِلقاء 'الإلهِ' الذي يَعزفُ لحنَ الوجود. تريبشن ليست مُجردَ منزل، إنها الملاذُ الأخير لِلروحِ التي ترفضُ الموتَ داخلَ الكتب."

أغلق نيتشه حقيبته الجلدية بإحكام، وكأنَّ صريف القفل كان إعلاناً ببدء الحرب على رتابة الوجود. في تلك الليلة، لم ينم نيتشه نوماً عادياً؛ بل كان غافياً فوق جمر الترقب، تستيقظ في أذنه نغماتٌ خافتة لم يسمعها بَعد، نغماتٌ تهرب من قاعات "بازل" لتستقر في أحضان بحيرة "لوسيرن".

الرِّحلةُ نحوَ الأفقِ المَقدس

عند بزوغ أول خيطٍ من ضياءِ الفجر، كان نيتشه يجلسُ في عربةِ القطار، مُسنداً رأسه إلى الزجاج البارد. كانت الحقول السويسرية تمرُّ من أمامه كأنها صفحاتٌ من كتابٍ قديم، لكنه لم يعد يقرأ؛ كان يشعر.

كلما صعد القطارُ في المرتفعات، شعر نيتشه بأنَّ رئتيهِ تتوسعان لِتستوعبا "أوكسجين العظمة". نظر إلى جبال الألب الشاهقة، ورأى في قممها المغطاة بالثلوج انعكاساً لِأفكارهِ التي لا تجرؤ على النزول إلى الوديان.
"هناك.. خلف هذه الجبال، يسكنُ الرجل الذي حوّلَ الألمَ إلى أسطورة. بازل كانت 'المنفى'، وتريبشن هي 'العودة'."
المَشيُ فوقَ ماءِ الرُّوح: الطَّريقُ إلى تريبشن
وصل نيتشه إلى محطة "لوسيرن"، لكنه لم يطلب عربةً لِتُقله. أراد أن يمشي هذه المسافة؛ أراد أن يُطهرَ قدميهِ من غبارِ الممرات الأكاديمية قبل أن يطأ "أرض الآلهة". سار على طول ضفاف البحيرة، وكان الهواءُ رطباً يفوحُ برائحةِ الصنوبر والماء العذب.
كانت بحيرة "لوسيرن" في ذلك الصباح مرآةً لِلسماء، ساكنةً لدرجةِ أنَّ نيتشه شعر بأنه يمشي فوق الوعي ذاته. عندما بدأت فيلا "تريبشن" تلوح من بعيد وسط الأشجار الكثيفة، توقف نيتشه. كانت الفيلا تبدو كأنها "جزيرةُ العزلةِ المجيدة"، مكانٌ لا يصلُ إليه ضجيجُ العالم، ولا تصله قوانينُ العمداء الجوفاء.
العَتبةُ المُرتجفة: لقاءُ "ديونيسوس" المتجسد
اقترب نيتشه من الباب الخشبي الكبير. وضع يده على المقرعة الحديدية، وشعر بترددٍ طفوليٍّ لم يعرفه من قبل. هو الآن ليس "البروفيسور"، بل هو ذلك الشاب الذي سُحرت رُوحه في ليلةٍ مطيرةٍ في "لايبزيغ".
طرق الباب. وما هي إلا لحظات، حتى فُتح البابُ بقوةٍ وحيويةٍ لا تناسبُ جسداً بشرياً عادياً.
كان واقفاً هناك. ريتشارد فاغنر. ببرنيطتهِ المخمليةِ الشهيرة، وعينيهِ اللتين تشعانِ بنورٍ يجمعُ بين الجنونِ والعبقرية. لم ينتظر فاغنر أن ينطق نيتشه بكلمة واحدة؛ بل انفجر بضحكةٍ مبهجةٍ هزت أركان الرواق، وفتح ذراعيهِ كأنه يفتحُ أبوابَ التاريخ.
فاغنر (بصوتٍ جهوريٍّ دافئ، مليءٍ بالنشوة):
"أوه! البروفيسور الشاب! فريدريك! لقد وصلتَ أخيراً! تريبشن كانت تفتقدُ عقلاً مِثلك لِيُكملَ سيمفونيتها. تعالَ.. ادخل،..ادخل،لا تقف على العتبة كأنك غريب، أنت الآن في منزلك، في معبدنا!"
قبض فاغنر على يد نيتشه وضغط عليها بقوة، ثم سحبهُ إلى داخل الصالون الواسع الذي كانت تفوحُ منه رائحةُ القهوة والسيجار الفاخر والأوراق

الموسيقية. كان الجوُّ مشحوناً بـ "طاقةِ الخلق"؛ بيانو ضخم يتوسط القاعة، ومخطوطاتٌ ملقاةٌ في كل مكان.

استذكارُ اللَّيلةِ الأولى: "شوبنهاور" والمَطر

جلس فاغنر قبالة نيتشه، وظل يحدقُ فيه بابتسامةٍ عريضة، وكأنه يرى فيهِ "الابن الروحي" الذي انتظرهُ طويلاً.

فاغنر (يهزُّ رأسهُ بإعجاب):

"هل تذكر يا فريدريك؟ تلك الليلة في لايبزيغ.. في منزل 'بروكهاوس'؟ كان المطرُ يغسلُ شوارع المدينة، بينما كنا نحن نغسلُ أرواحنا بموسيقى 'تريستان'. أتذكرُ جيداً نظرةَ عينيك عندما تحدثنا عن 'شوبنهاور'. في تلك اللحظة عرفتُ أنك لستَ مجردَ لغويٍّ يجمعُ الحروف؛ بل أنتَ مقاتلٌ يبحثُ عن 'إرادةِ القوة' في قلبِ العدم."

نيتشه (بصوتٍ يملؤهُ التأثرُ والوقار):

"كيف لي أن أنسى يا معلمي؟ تلك الليلة كانت هي التي منحتني الشجاعة لِأحتملَ بازل وجفافها. لقد كنتُ أسمعُ صدى كلماتكَ في كل صفحةٍ أقرأُها. جئتُ اليوم لِأقول لك إنَّ تلميذكَ قد عبرَ المتاهة، وهو الآن مستعدٌ لِأنْ يكونَ جندياً في جيشك الموسيقي."

فاغنر (يضعُ يدهُ على كتف نيتشه، وتزدادُ نبرتهُ حماساً):

"جيش؟ بل نحن 'آلهةٌ' نصنعُ عالماً جديداً! انظر حولك يا فريدريك.. هنا في تريبشن، نحن نكتبُ الفصلَ الأخير من ضعفِ البشرية، ونبدأُ السطرَ الأول من قوتها. بازل أعطتكَ 'المنصب'، وأنا سأعطيكَ 'الرسالة'. سنُثبتُ لهم جميعاً أنَّ الموسيقى هي اللغةُ الوحيدةُ التي لم تمت، وأنَّ فقهَ اللغةِ الذي تدرسهُ هو المفتاحُ لِفتحِ توابيتِ العظماء."

نهض فاغنر فجأة، واتجه نحو النافذة المطلة على البحيرة، وفتحها على مِصراعيها ليدخلَ نسيمُ "لوسيرن" البارد ويحركَ أطرافَ المخطوطات فوق البيانو. التفت إلى نيتشه، وكانت ملامحه تفيض بجديةٍ مرعبة ومقدسة.

فاغنر:

"سنقضي الأيام القادمة هنا، في حوارٍ لا ينتهي. سنُحطمُ الأصنامَ سوياً. ولكن قبل ذلك.. أخبرني، هل تشعرُ بالبرد؟ لا.. لا يمكن لِمن يحملُ نيرانَ فكركَ أن يشعرَ بالبرد. أنتَ الآن في 'المنطقةِ الآمنة' لِلروح، حيثُ لا عمداء، ولا قوانين، ولا موتى.. هنا فقط، يوجدُ 'الخلق'."

كان نيتشه ينظرُ إلى فاغنر، ويشعرُ بأنَّ جدرانَ غرفتهِ الضيقة في بازل قد تلاشت تماماً. كان يشعرُ بأنهُ في حضرةِ "قوةٍ طبيعية" لا يمكنُ صدُّها. وفي تلك اللحظة، وسطَ هذا الترحيبِ الحار، شعرَ بشيءٍ غريبٍ يلوحُ في أفقِ المكان.. سكينةٌ منظمةٌ بدأت تظهرُ في الرواقِ الجانبيّ، ووقعُ أقدامٍ رقيقةٍ وواثقةٍ بدأت تقتربُ من الصالون.

التفتَ نيتشه نحو المدخلِ الجانبيّ، ليرى امرأةً تقفُ هناك بوقارٍ يتجاوزُ الوصف. كانت ترتدي ثوباً أسودَ طويلاً، وشعرُها مصففٌ بعنايةٍ أرستقراطيةٍ صارمة. لم يكن جمالُها هو ما لفتَ انتباهَ نيتشه في تلك اللحظة، بل تلك "العظمةُ الهادئة" التي تشعُّ من عينيها. كانت كوزيما.

فاغنر (بزهوٍ وفخر، وهو يشير بيده نحوها):

"فريدريك.. اسمح لي أن أقدمَ لكَ مَن تنظمُ فوضى أيامي، ومَن تملكُ المفاتيحَ الحقيقية لروحِ 'تريبشن'. كوزيما، هذا هو البروفيسور نيتشه الذي حدثتكِ عنه، العقلُ الذي تنبأَ به 'ريتشل' بأنه سيكونُ صاعقةً في سماءِ الفكر الألماني."

وقف نيتشه، وعدّلَ وقفتَه بصرامةٍ أكاديميةٍ محضة. انحنى انحناءةً خفيفةً ومحترمة، ولم تنطق شفتاه إلا بكلماتٍ رسميةٍ تليقُ ببروفيسورٍ في جامعة بازل.

نيتشه (بصوتٍ رزين وهادئ):

"يُشرفني جداً لقاؤكِ يا سيدة كوزيما. لقد سمعتُ الكثيرَ عن تقديركِ للفنِّ والجمال، ويسعدني أن أكونَ ضيفاً في هذا المنزل الذي تفوحُ منه رائحةُ الإبداعِ الخالص."

مدّت كوزيما يدَها ببطء، ولمسَ نيتشه أطرافَ أصابعِها بلمسةٍ عابرةٍ وباردة. كانت نظرتُها فاحصة، ذكية، وكأنها لا ترى شاباً في الرابعة والعشرين، بل ترى "مشروعاً" فكرياً يجبُ مراقبته.

كوزيما (بصوتٍ رخيم، موزون، يقطرُ ذكاءً):

"أهلاً بكَ يا دكتور نيتشه. ريتشارد لا يتحدثُ عن الجميع بهذه الحماسة. إنَّ كونكَ أستاذاً في هذا السنِّ الصغير يُنبئُ بأنكَ تملكُ شجاعةً لا يملكُها أقرانُك. نحنُ هنا لا نرحبُ فقط بـ 'العالِم'، بل نرحبُ بـ 'المؤمن' بالرسالةِ التي نحاولُ بعثَها من جديد."

اشتباكُ العقول: حولَ مائدةِ الفلسفة

انتقلوا جميعاً للجلوسِ حولَ طاولةٍ مستديرةٍ من خشبِ الأبنوس، تطلُّ على البحيرةِ التي بدأتْ أمواجُها تضطربُ قليلاً بفعلِ رياحِ الظهيرة. وضعَ فاغنر يديه على الطاولة، وبدأَ في الدخولِ مباشرةً في صلبِ القضايا التي تهمُّ رُوحَه.

فاغنر (بحدةٍ وعمق):

"فريدريك.. قل لي، كيفَ يتقبلُ هؤلاءِ 'الموتى' في بازلِ أفكارَك؟ هل بدأوا يدركونَ أنَّ فقهَ اللغةِ الكلاسيكيَّ ليس مجردَ نبشٍ في القبور، بل هو استحضارٌ لروحِ 'ديونيسوس' التي خنقَها المنطقُ السقراطي؟"

نيتشه (يشبكُ أصابعه، ويحدقُ في عمقِ الحوار):

"إنهم خائفون يا معلمي. إنهم يفضلونَ 'أبولو' المنضبط، المنسق، الجميلَ في سكونه، لأنَّ 'ديونيسوس' يمثلُ لهم الفوضى والدمار. إنهم لا يفهمونَ أنَّ الجمالَ الإغريقيَّ الحقيقيَّ لم يولدْ من السكون، بل ولدَ من الصراعِ الدامي بين النورِ والعتمة. إنهم يدرسونَ المأساة كـ 'نص'، بينما المأساة هي 'فعلُ وجود'."

تدخلتْ كوزيما في الحوار، ولم يكن تدخلُها عارضاً، بل كانَ كالطرحِ الفلسفيِّ الرصين. كانت تتابعُ حديثَ نيتشه بدقةٍ جعلتْه يشعرُ بالدهشةِ من عُمقِ فهمِها.

كوزيما (بجدية):

"إذن أنتَ ترى يا دكتور نيتشه أنَّ الثقافةَ الألمانيةَ الحاليةَ تعاني من 'فقرِ الدم' الروحي بسببِ غلبةِ التحليلِ العقلاني على الروحِ الأسطورية؟ هل تظنُّ أنَّ الموسيقى، وموسيقى ريتشارد على وجهِ الخصوص، هي القادرةُ على إعادةِ اللحمِ الحيِّ لهذا الهيكلِ العظميِّ الذي تسمونه 'العلم'؟"

نظرَ نيتشه نحوها؛ لم يكن هناك إعجابٌ عاطفيّ، بل كان هناك "احترامٌ عقليّ" هائل. وجدَ نفسَه أمام امرأةٍ تزنُ الكلماتِ بِميزانٍ ذهبي.

نيتشه:

"بالضبط يا سيدة كوزيما. العلمُ صارَ غايةً في حدِّ ذاته، وهذا هو الانتحارُ الحقيقي. نحنُ بحاجةٍ إلى 'خرافةٍ' جديدة، إلى أسطورةٍ تجمعُ شتاتَ الروح. وموسيقى ريتشارد ليست مجردَ ألحان، إنها 'انفجارٌ' لروحِ الأمة. إنها تذكرُنا بما نسيناهُ تحتَ وطأةِ الكتبِ والجامعات."

المشهدُ المثير: "صرخةُ العظمة"
نهضَ فاغنر فجأةً من مقعده، وكأنه لم يعدْ يطيقُ الجلوسَ وهو يتحدثُ عن هذه الأمور. اتجهَ نحو البيانو الكبير، وبدأَ يضربُ المفاتيحَ بقوةٍ مذهلة. لم تكنْ موسيقى هادئة، بل كانتْ "دراما" صوتيةً ملأتْ أركانَ تريبشن.
فاغنر (يصرخُ فوقَ صوتِ الموسيقى):
"اسمع يا فريدريك! هذا هو الجواب! هذه هي الصرخةُ التي أردتُها! لا نحتاجُ لإذنٍ من برلين أو بازل لكي نكونَ عظماء. نحنُ نملكُ الحقَّ في الخلقِ لأننا نملكُ الشجاعةَ لِلسقوط! هل أنتَ مستعدٌ لِأنْ تحترقَ معنا في هذه النار؟"
كانت كوزيما تراقبُ فاغنر بهدوءٍ وثبات، ثم التفتتْ ببطءٍ نحو نيتشه. كانتْ تدرسُ ملامحَه، تدرسُ مدى قدرةِ هذا الشابِّ النحيلِ على تحمُّلِ طوفانِ فاغنر.
نيتشه، من جانبه، كان يشعرُ بتوترٍ غريب؛ لم يكن هذا "درساً"، بل كان "معموديةً" بالنار.
كوزيما (بصوتٍ منخفضٍ وسطَ ضجيجِ البيانو):
"إنَّ ريتشارد يختبرُ صمودَك يا دكتور. هو لا يبحثُ عن 'مساعد'، بل يبحثُ عن 'رؤية' تضاهي رؤيته. هل ستظلُّ 'بروفيسوراً' يحللُ الألحان، أم ستكونُ 'الفيلسوف' الذي يمنحُها مبرراً وجودياً؟"
وقف نيتشه، واقترب من البيانو، وشعر بأنَّ الأرضَ تهتزُّ من تحت قدميه. كانت هذه اللحظاتُ الرسميةُ والعميقةُ في "تريبشن" هي التي بدأتْ ترسمُ ملامحَ الانقسامِ القادم في رُوحه.
توقف فاغنر عن العزف فجأة، وسادَ صمتٌ أثقلُ من الموسيقى ذاتها. نظرَ الثلاثةُ لبعضهم البعض، وكانَ الضبابُ خلفَ النافذةِ قد بدأَ يزحفُ فوقَ مياهِ البحيرة، وكأنَّ الطبيعةَ نفسَها تشاركُ في هذا "العقدِ الملعون" الذي يُبرمُ الآن.

انتقلتِ المجموعةُ من الصالونِ الموسيقي إلى غرفةِ الطعام، حيثُ استحالَ مَشهدُ العشاءِ إلى ما يُشبهُ "المائدةَ السقراطية" ولكن بلمسةٍ دراميةٍ ثقيلة. كانت الغرفةُ مكسوةً بخشبِ الجوزِ الداكن، تتوسطُها طاولةٌ عريضةٌ ممتدة، فُرِشَت بكتانٍ أبيضَ ناصعٍ عَكَسَ ضياءَ الشموعِ المتراقصة في الشمعداناتِ الفضية.
كان الصمتُ في البدايةِ ثقيلاً، لا يقطعهُ إلا رنينُ الفضةِ على أطباقِ الخزف، ورائحةُ النبيذِ المعتقِ التي امتزجت برائحةِ البخورِ الخفيفةِ المنبعثةِ من زوايا القصر. جلسَ فاغنر في رأسِ المائدة كإمبراطورٍ في مَنفاه، وعن يمينه كوزيما

التي كانت تراقبُ المشهدَ بعينين ثاقبتين، بينما جلسَ نيتشه قبالتَها، يشعرُ وكأنهُ يجلسُ فوقَ صفيحٍ ساخنٍ من الأفكار.
المخطوطة الثانية: وليمةُ العقلِ المتمرد
بدأ فاغنر الهجوم، ولم يكن هجوماً شخصياً، بل كان هجوماً على "الروحِ العصرية". وضعَ كأسهُ بقوةٍ على الطاولة، ونظرَ إلى نيتشه نظرةً اخترقَتْ قناعهُ الأكاديمي.
فاغنر (بصوتٍ أجشّ، يملؤهُ الاحتقارُ للمؤسسات):
"أخبرني يا فريدريك.. وأنتَ تمضغُ طعامَ بازل الأنيق، هل تشعرُ بمرارةِ الأكاذيبِ التي تُلقونها على مسامعِ الشباب؟ أنتم تدرسونَ 'أفلاطون' و'أرسطو' كأنهم قطعٌ أثريةٌ خلفَ الزجاج، بينما العالمُ ينهارُ لأنَّ أحداً لم يعدْ يجرؤُ على 'الجنون'. الجامعةُ هي المَقبرةُ التي ندفنُ فيها إرادتَنا لكي نتحولَ إلى موظفين مطيعين للدولة. أليسَ كذلك؟"
رفعَ نيتشه رأسه، وبدت عيناهُ خلفَ نظارتهِ كشعلتينِ من الذكاء الحاد. لم يكن بصددِ الدفاعِ عن بازل، بل كان بصددِ تشريحِ "المعرفة" ذاتِها.
نيتشه (بصوتٍ رزين، مائلٍ للحدة):
"المشكلةُ يا معلمي ليست في الجامعةِ وحدَها، بل في 'الوعي' الذي فقدَ قدرتَهُ على احتمالِ المأساة. نحنُ نعيشُ في عصرِ 'التفاؤلِ السقراطي' البائس، حيثُ يظنُّ الإنسانُ أنَّ العقلَ المنطقيَّ يمكنهُ حلُّ لغزِ الوجود. الإغريقُ العظماءُ لم يكونوا منطقيين؛ كانوا 'ديونيسيين' يرقصون فوقَ بركان. ما أخشاهُ هو أنَّ الفنَّ نفسَهُ قد يتحولُ إلى مجردِ 'تسليةٍ' للبرجوازية، بدلاً من أن يكونَ 'السكين' التي تمزقُ رداءَ الزيف."
التفتت كوزيما نحو نيتشه، وكانت يداها متشابكتين فوق الطاولةِ بوقارٍ مريب. كانت مداخلتُها هي اللحظةَ التي تحولَ فيها العشاءُ من نقاشٍ إلى "صراعِ رؤى".
كوزيما (بنبرةٍ هادئة، لكنها تقطرُ قوة):
"دكتور نيتشه.. أنتَ تتحدثُ عن 'السكين'، لكنْ ألا ترى أنَّ الفنَّ يحتاجُ أيضاً لـ 'الإطار'؟ ريتشارد لا يقدمُ مجردَ موسيقى، بل يقدمُ 'ديناً جديداً' من الجمال. الصراعُ ليس بين العقلِ والجنون فحسب، بل هو بين 'الفوضى' و'التنظيمِ الإلهي' للروح. هل فلسفتُكَ قادرةٌ على منحِ البشرِ 'مبرراً' للعيش، أم أنكَ ستحطمُ أصنامَهم وتتركهم عراةً في مهبِّ العدم؟"

اشتباكُ الأضداد: مأساةُ النورِ والعتمة

توقفَ نيتشه عن الأكل تماماً. كانت كلماتُ كوزيما قد مستْ الجرحَ الفلسفيَّ الأعمقَ لديه. نظرَ إليها، ولأولِ مرةٍ شعرَ بذكاءٍ أنثويٍّ لا يكتفي بالملاحظة، بل يقتحمُ حصونَ الفكر.

نيتشه (بإثارةٍ فكريةٍ متصاعدة):

"العدمُ يا سيدة كوزيما هو الحقيقةُ التي نهربُ منها جميعاً. الأديانُ كانت أغطيةً دافئة، لكنها تمزقت. الفنُّ هو الغطاءُ الأخير. لكنْ حذارِ من أن نحولَ الفنَّ إلى 'وثنٍ' جديد. أنا لا أريدُ أن أمنحَ البشرَ مبرراً 'خارجياً' للعيش؛ أريدُهم أن يجدوا المبررَ في 'إرادتهم' الخاصة. ريتشارد يكتبُ 'الأسطورة'، وأنا أريدُ أن أكونَ 'المطرقة' التي تختبرُ صلابةَ هذه الأسطورة. إذا لم تصمدِ الأسطورةُ أمامَ الشك، فهي لا تستحقُّ البقاء."

فاغنر (يضحكُ بضحكةٍ مجلجلة، ويشير بسبابتِهِ نحو نيتشه):

"المطرقة! اسمعي يا كوزيما.. هذا الشابُّ يريدُ أن يطرقَ فوق رؤوسنا! فريدريك.. أنتَ تتحدثُ كأنكَ 'المسيحُ الدجال' للفلسفة. الأسطورةُ لا تحتاجُ لـ 'صمود'؛ الأسطورةُ تُؤخذُ بالإيمانِ أو تُمحى بالنسيان. موسيقتي هي 'الإرادةُ' التي تجسدتْ صوتاً. أنتَ تبحثُ عن 'الكلمة'، وأنا أمنحكَ 'الفعل'. هل تعتقدُ أنَّ البشرَ مستعدونَ لـ 'إنسانك' الذي لا يحتاجُ لآلهة؟"

نيتشه (يردُّ بسرعةٍ وبقوة):

"إنهم ليسوا مستعدين بَعد، وهذا هو السببُ في أنَّ بازل باردةٌ كالمقابر. البشرُ يخافون من 'الحرية' أكثرَ من خوفهم من الموت. إنهم يفضلونَ 'سيداً' يخبرهم بالمعنى، سواء كان هذا السيدُ قسِيساً أو موسيقياً. أنا هنا لأسأل: متى سيبدأُ الإنسانُ بـ 'خلقِ' مَعناهُ بنفسه؟"

خاتمةُ المائدة: صمتُ الحقيقةِ المُرّة

سادَ صمتٌ مفاجئ. كانت كوزيما تراقبُ التوترَ بين المعلمِ وتلميذهِ بكثيرٍ من التأمل. شعرتْ أنَّ نيتشه ليس مجردَ "داعم" لمشروع فاغنر، بل هو "قوةٌ مضادة" قد تأكلُ المشروعَ يوماً ما.

كوزيما (بصوتٍ يكسرُ الصمت، وينهي الجولة الأولى):

"لقد أفسدتَ علينا شهيتَنا يا دكتور نيتشه.. بجمالِ أفكارِكَ القاسية. ريتشارد يبني العوالم، وأنتَ تضعُ المتفجراتِ تحتَ قواعدِها. ربما هذا هو التوازنُ الذي

تحتاجهُ 'تريبشن'. لكنْ تذكر.. مَن يلعبُ بالمطارق، قد يجدُ نفسَهُ وحيداً في النهاية، محاطاً بحطامِ كلِّ ما أحب."

نظرَ نيتشه إلى كوزيما، وشعرَ لأولِ مرةٍ أنَّ ذكاءَها هو "المرآةُ" التي ستعكسُ لهُ بشاعةَ وجمالَ رحلتهِ القادمة. لم يكن هناكَ ودٌّ عاطفيّ، بل كان هناكَ "تحذيرٌ أرستقراطيٌّ" جعلَ دمهُ يتجمدُ قليلاً.

فاغنر (يرفعُ كأسهُ الأخير):

"إلى 'المطرقة' و'اللحن'! لعلَّ حطامَنا يكونُ أجملَ من بناءِ هؤلاءِ الأقزامِ في بازل!"

انتهى العشاء، لكنَّ الصراعَ كان قد بدأَ لِتوّه. خرجوا إلى الشرفةِ المطلةِ على البحيرة، حيثُ كانَ القمرُ ينعكسُ فوقَ الماءِ البارد، ونيتشه يشعرُ أنَّ "تريبشن" هي المتاهةُ التي دخلَها بإرادتِه، وأنَّ الخروجَ منها لن يكونَ أبداً بنفسِ الحالةِ التي دخلَ بها.

انزاح ستائر الغرفة لتكشف عن شرفة حجرية واسعة تطل على بحيرة "لوسيرن"، التي استقرت مياهها كمرآة سوداء تعكس بريق النجوم الباردة. كان الهواء الجبلي يحمل لسعة صقيع خفيفة، لكنها كانت ضرورية لتبريد الرؤوس التي غلت بالأفكار طوال العشاء.

جلس الثلاثة في صمت مؤقت؛ نيتشه يتأمل البخار المتصاعد من كوبه، بينما كان فاغنر يدخن سيجارة بعصبية منتظمة، وكوزيما تجلس بظهر مستقيم كأنها تمثال "أثينا" المتربص في العتمة. لم يكن هذا "شاي مساء" عادياً، بل كان وقفة فوق حافة بركان فكري أوشك على الانفجار.

المخطوطة الثالثة: صراعُ الآلهةِ فوقَ مياهِ لُوسيرن

كسر فاغنر الصمت، ولم يكن صوته هذه المرة هادراً، بل كان يحمل نبرة "النبي" الذي سئم كفر البشرية بجماله.

فاغنر (وهو يرمق الضباب البعيد):

"انظر إلى هذا الضباب يا فريدريك.. إنه يشبه عقول البشر اليوم. تائهون بين مادّية جافة وكنيسة ميتة. الفن الذي أقدمه ليس 'ترفاً'، بل هو 'الخلاص' الوحيد. أنا لا أعزف ألحاناً؛ أنا أعيد بناء 'الأسطورة' الألمانية. البشر يحتاجون إلى شيء يسجدون أمامه، يحتاجون إلى 'مقدس' جديد يعيد لهم وحدتهم الروحية. ألا ترى أن فلسفتك الصارمة قد تحرمهم من هذا الملاذ الأخير؟"

أدار نيتشه كوب الشاي بين يديه، وشعر برغبة عارمة في تحطيم هذا "السكينة" المصطنعة. رفع رأسه، وكانت نظرة عينيه تخترق عتمة الشرفة.
نيتشه (بصوت هادئ لكنه حاد كالنصل):
"وهنا يكمن الخطر يا معلمي. أنت تريد استبدال 'صنم' قديم بصنم جديد. 'الأسطورة' التي تبنيها هي مخدر جميل، لكنه يظل مخدراً. البشر لا يحتاجون إلى 'ملاذ'، بل يحتاجون إلى 'مواجهة'. فلسفتي لا تريد منحهم الخلاص، بل تريد منحهم 'القوة' ليحتملوا ضياع الخلاص. إذا كان الفن سيتحول إلى 'دين'، فإنه سيخلق عبيداً جدداً، عبيداً للجمال هذه المرة، بدلاً من عبيد الخطيئة. أنا أبحث عن 'الإنسان المتجاوز'، الإنسان الذي لا يحتاج لأسطورة لكي يرقص فوق الهاوية."
التفتت كوزيما نحو نيتشه، وكان ضوء القمر يبرز حدة ملامحها وذكاءها .
وضعت كوبها جانباً، وتحدثت بنبرة "الأرستقراطية" التي تدرك خبايا النفس البشرية.
كوزيما (ببرود فلسفي):
"دكتور نيتشه.. أنت تتحدث عن 'القوة' وكأنها مادة خام يملكها الجميع. لكن، ألا تدرك أن معظم البشر 'ضعفاء' بطبعهم؟ إنهم ينهارون بلا 'معنى' خارجي. ريتشارد يمنحهم هذا المعنى من خلال الجمال الشامل (Gesamtkunstwerk). أنت تطلب منهم أن يكونوا آلهة أنفسهم، وهذا 'انتحار جماعي'. هل تريد تحطيم كل الجسور التي تربط الإنسان بالخوارق، لكي تتركه وحيداً مع عقله البارد في هذا الكون الشاسع؟"
اشتباكُ الأضداد: بين "الخلق" و"التشريح"
نهض نيتشه من مقعده، وبدأ يذرع الشرفة جيئة وذهاباً، وصوت وقع أقدامه يتردد بانتظام كدقات ساعة القدر.
نيتشه (بانفعال فكري متصاعد):
"نعم يا سيدة كوزيما! أفضل لهم أن ينتحروا بكرامة بدلاً من أن يعيشوا بوهم مريح. الضعف الذي تتحدثين عنه هو نتيجة لقرون من العبودية للأديان والميتافيزيقا. أنا لا أريد 'جسراً' يربطنا بالخوارق، أريد أن نكتشف أن 'الخارق' هو نحن في قمة تجلينا! موسيقى ريتشارد مذهلة لأنها تفجر 'الرغبة' فينا، لكنك يا ريتشارد، بدأت تمزجها بـ 'الشفقة' المسيحية، وبـ 'القومية' الضيقة. أنت تحاول 'تأطير' العاصفة، وأنا أريد أن أكون العاصفة ذاتها!"

توقف فاغنر عن التدخين، وضاقت عيناه. شعر بأن هذا "التلميذ المعجزة" قد بدأ يلمس أوتاراً لا يجرؤ أحد على مسّها.
فاغنر (بنبرة تتأرجح بين الغضب والشفقة):
"أنت 'طهراني' في تفكيرك يا فريدريك، وهذا سيقتلك. أنت تريد 'حقيقة' مطلقة، بينما الوجود يحتاج لـ 'كذبة عظيمة' لكي يستمر. الفن هو تلك الكذبة التي تجعل الحياة ممكنة. بدوني، ستتحول فلسفتك إلى صرخة في صحراء. أنا 'الجسد' الذي يحمل أفكارك، فكيف تجرؤ على طعن الجسد الذي يمنحك صوتاً؟"
نيتشه (يتوقف أمام فاغنر مباشرة، ويهمس بقوة):
"لأن الحقيقة التي أبحث عنها لا تحتاج لصوت 'يجمّلها' يا ريتشارد. هي تحتاج لصوت 'يصرخها' كما هي. أنا أخشى أنك بدأت تصنع 'طقوساً' بدلاً من أن تصنع 'ثورة'. 'تريبشن' جميلة جداً، لدرجة أنها قد تصبح 'قناصاً' للأرواح الحرة. أنا هنا لأتعلم منك 'الخلق'، وليس 'العبادة'."
لحظةُ التوترِ الأعلى: نظرةُ كوزيما
في هذه اللحظة، تدخلت كوزيما بحركة بسيطة؛ وضعت يدها على ذراع فاغنر لتهدئته، ثم نظرت إلى نيتشه نظرة طويلة، نظرة خالية من العاطفة لكنها مليئة بالتقدير المرعب.
كوزيما (بهدوء قاطع):
"دكتور نيتشه.. أنت تظن أنك 'المطرقة'، لكن المطرقة قد تنكسر إذا ضربت صخرة أقدم منها. ريتشارد هو الصخرة التي ستحمل تراث ألمانيا، وأنت.. أنت رُبما 'البرق' الذي يضيء السماء لثانية ثم يختفي في الظلام. نحن نبني لقرون، وأنت تبحث عن لحظة صدق قد لا يحتملها بشر. هل فكرت يوماً، ماذا سيبقى منك عندما تنجح في تحطيم كل شيء؟"
شعر نيتشه ببرد مفاجئ يخترق صدره، ليس بسبب هواء البحيرة، بل بسبب "صدق" كلمات كوزيما القاسية. نظر إلى الاثنين؛ فاغنر العبقري المتغطرس، وكوزيما العقل المدبر الرزين. شعر بأنه في مواجهة "مؤسسة" وليس مجرد أصدقاء.
نيتشه (بابتسامة مريرة):
"سيبقى مني 'العدم' يا سيدة كوزيما.. وعدمي أفضل من 'وجودكم' المزيف. ربما أكون برقاً، لكن البرق هو الذي يخبر الأرض بأن السماء لا تزال تملك غضباً."

(استمر الثلاثة في التحديق ببعضهم البعض، بينما بدأ ضباب البحيرة يزحف نحو الشرفة، ليغطي أقدامهم، وكأن الحوار قد استدعى قوى الطبيعة الغامضة لتشهد على هذا الانقسام الروحي العظيم).

ارتشف نيتشه رشفةً أخيرة من شايه الذي صار بارداً، ووضع الكوب على الطاولة الرخامية بصرامة، وكأن وضع الكوب هو نقطة ومن أول السطر في كتابٍ جديد. لم يعد ينظر إلى البحيرة، بل ثبّت نظره على فاغنر، لكن هذه المرة بعيداً عن الموسيقى، غائراً في جذور النفس البشرية.
" سُلالةُ الأسيادِ وفخُّ الأخلاق "
نيتشه (بنبرةٍ منخفضة، توحي بسرٍّ خطير):
"دَعنا نترك الألحان جانباً يا ريتشارد، ولنتحدث عن 'الإنسان' الذي تسكنه هذه الألحان. أنتَ تصنع 'زيغفريد'[9]، البطل الذي لا يعرف الخوف. لكنني أسألُك: من أين يستمد بطلُك شرعيته؟ هل هو 'صالح' لأنه يتبع قيم القبيلة، أم لأنه يحطمها؟ ما أخشاهُ هو أننا لا نزال نرزحُ تحت وطأة 'أخلاق العبيد'. نحنُ نُمجد الشفقة، والتواضع، ونكران الذات، ونسميها فضائل، بينما هي في الحقيقة 'آليات دفاع' الضعفاء ضد الأقوياء. بطلُك 'زيغفريد' لن يكون عظيماً لأنه 'نقي الدم'، بل سيكون عظيماً إذا استطاع أن يكون 'خارج الخير والشر'. هل تملك الشجاعة لتخبر جمهورك في بايرويت أنَّ البطل الحقيقي هو الذي يذبح 'الأخلاق' الموروثة لكي يخلق قيمه الخاصة؟"
نهض فاغنر، ولم يكن نهوضه هذه المرة انفعالياً، بل كان وقاراً مشحوناً بالتحدي. مشى إلى حافة الشرفة، وأسند يديه إلى السور الحجري، مديراً ظهره لنيتشه.
فاغنر (بصوتٍ عميق يملؤه كبرياء "الأصل"):
"أنتَ تذهبُ بعيداً في تشريحك يا فريدريك.. لدرجة أنك قد تقتل المريض! الأخلاق ليست قيداً دائماً، بل هي 'الرحم' الذي يحمي الأمة. 'زيغفريد' ليس بطلاً لأنه يحطم القيم، بل لأنه يجسد 'القيم الأصيلة' التي نسيها الناس تحت وطأة

---

[9] زيغفريد (Siegfried): هو البطل الملحمي الأبرز في الأساطير الجرمانية والشمالية القديمة، وشخصية المحور في ملحمة "نيبيلونجين" (Nibelungenlied). اشتهر بشجاعته الفائقة وقدرته على قتل التنين "فافنير"، حيث اغتسل بدمه ليصبح جسده منيعاً ضد كافة الأسلحة، باستثناء بقعة صغيرة خلف كتفه سقطت عليها ورقة شجر وظلت نقطة ضعفه الوحيدة. يمثل زيغفريد نموذج "البطل الخالد" في التراث الأوروبي الذي يواجه الوحوش والأقدار بقوة جسدية خارقة.".. ويُعتبر زيغفريد رمزاً للقوة الفطرية التي تسبق القوانين الأخلاقية والاجتماعية."

التمدن الزائف. هو يمثل الطهر الأرستقراطي، الفطرة التي لم تلوثها مفاهيم "المصلحة" البرجوازية.

أنتَ تريد بطلاً "منعزلاً" يشرّع لنفسه، وأنا أريد بطلاً "منتمياً" يشرّع لشعبه. القوة بلا "قداسة" هي مجرد وحشية، وأنا أمنح القوة قداسة الأسطورة. هل تظن أنَّ الإنسان يمكنه احتمال حرية بلا "بوصلة"؟"

تدخلت كوزيما بذكائها الذي يشبه المشرط الجراحي، ممررةً نظرتها بين نيتشه المتمرد وزوجها الذي يبحث عن المجد القومي.

كوزيما (بهدوءٍ شديد، وهي تُعدل وضع مفرش الطاولة):

"دكتور نيتشه.. أنتَ تتحدث عن "خلق القيم" كأنك تتحدث عن عمل فني بسيط. لكن ألا ترى التناقض؟ لكي يخلق الإنسان قيمته الخاصة، يجب أن يكون قد "تجاوز" إنسانيته أولاً. وهذا ما لا يستطيعه إلا واحدٌ من كل مليون. ما تطلبه هو "دينٌ للنخبة"، دينٌ لا يرحم الضعفاء.

ريتشارد يريد "خلاصاً" للجميع من خلال البطل، وأنتَ تريد "خلاصاً" للفرد من خلال تحطيم الجميع. فلسفتك يا دكتور هي "أرستقراطيةُ الروح" في أقسى تجلياتها. ألا تخشى أنَّ تحطيمك للموازين الأخلاقية التقليدية سيؤدي إلى "عدمية" شاملة، حيث لا يتبقى شيء يستحق القتال لأجله؟"

اشتباكُ الجَوهر: براءةُ الصَّيرورةِ وقيدُ الوجدان

تقدم نيتشه نحو فاغنر، ووقف بجانبه ينظر إلى ذات الأفق المظلم، لكن بعينين تريان مستقبلاً مختلفاً تماماً.

نيتشه (بإيقاعٍ فلسفيٍّ بطيء ومُركز):

"العدمية هي الضيف الثقيل الذي يطرق أبوابنا يا سيدة كوزيما، سواء حطمنا الأصنام أم لم نحطمها. الفرق هو أنني أريد مواجهته بصدق، بينما أنتم تريدون "تزيين" غرفة الضيوف لكي لا تروُا بشاعة وجهه.

أنتَ يا ريتشارد، تمنحهم "البطل" كعكاز، وأنا أريدهم أن يتعلموا المشي على حافة الهاوية. "القداسة" التي تتحدث عنها هي سجنٌ آخر، هي محاولةٌ لإعادة إنتاج المسيحية في ثوبٍ موسيقي. البطل الحقيقي ليس هو "النقي" أو "المقدس"، بل هو الذي يملك "براءة الصيرورة". الذي يخطئ، ويفشل، ويحطم، ثم يضحك! الحقيقة هي أنَّ "الإنسان" مجرد حبل مشدود بين الحيوان والإنسان المتجاوز (Ubermensch). فهل سنظل نقوي هذا الحبل بـ "الأخلاق" التي تشدنا للخلف نحو الحيوان الوديع، أم سنقصه لنرى من منا يملكُ أجنحة؟"

استدار فاغنر نحو نيتشه، وكانت ملامحه تفيض بنوع من الاحتقار "الأبوي" لهذا الطموح الفلسفي المحض.

فاغنر (بتهكم):

"أجنحة؟.. البشر سيسقطون يا فريدريك! وسيسقطون فوق رؤوسنا. أنتَ فيلسوف الصقيع، تظن أنَّ كل الأرواح تملك برودة عقلك. الأخلاق هي 'الدفء' الذي يحمي المجتمع من التآكل. إذا نزعتَ عنهم مفاهيم 'الخير والشر' التي توارثوها، فلن يتبقَّ لك 'أبطال'، بل سيتبقَّ لك 'قطيعٌ' من الذئاب الجائعة. موسيقتي تمنحهم 'إطاراً للسمو'، وأنتَ تمنحهم 'مبرراً للتمرد'. التمرد بلا هدف هو مجرد ضجيج، والتمرد على الأخلاق هو أقصر طريق للجنون."

نيتشه (بابتسامةٍ غامضة، تكاد تكون نبوءة):

"وربما يكون الجنون هو الثمن الوحيد لـ 'الحقيقة' التي لم يجرؤ أحدٌ على نطقها بَعْد. ريتشارد.. أنتَ تخشى أن يفقد الناس 'الإيمان' بك، وأنا أخشى أن يفقدوا 'أنفسهم' فيك. الصراع بيننا ليس على الفن، بل على 'مَن يقود رُوح العصر'. هل سنقودها نحو 'مخدر العظمة' أم نحو 'ألم الحقيقة'؟"

ساد صمتٌ طويل، لم يقطعه إلا صوت الريح التي بدأت تشتد، محركةً ستائر الشرفة الثقيلة. نظرت كوزيما إلى الرجلين، وشعرت أنَّ "تريبشن" في تلك الليلة لم تعد منزلاً، بل صارت مختبراً لِمصير الحضارة الأوروبية بأكملها.

كوزيما (وهي تنهض بوقار):

"لقد تجاوزنا منتصف الليل أيها السادة.. ويبدو أننا تجاوزنا أيضاً حدود العقل البشري المعتاد. دكتور نيتشه، أنتَ ضيفٌ مشاكس جداً، وريتشارد.. أنتَ إلهٌ لا يقبل الشركاء. غداً، عندما تشرق الشمس، ستعود البحيرة زرقاء وهادئة، لكنني أشكُّ أنَّ أياً منا سيراها بذات العينين التي رآها بها بالأمس."

خاتِمةُ الوهَج: مَراسمُ الوداعِ الأرستقراطية

أشرقت شمس الأحد فوق بحيرة لوسيرن، لترسم خيوطاً ذهبية على ستائر "تريبشن" الثقيلة. كان الهواء يحمل رائحة الندى الممزوجة برائحة القهوة الطازجة، معلناً نهاية "العطلة المقدسة" لفريدريك نيتشه. وقف نيتشه في

الردهة الكبيرة، ممسكاً بحقيبته الجلدية الصغيرة، وقد عاد ليرتدي قناعه الأكاديمي الرصين؛ معطفه الأسود المشدود، وقبعته التي وضعها بعناية، لكن عينيه كانتا تلمعان ببريقٍ لا تطفئه قوانين جامعة بازل.
تقدم نيتشه نحو فاغنر وكوزيما اللذين وقفا بانتظاره عند الباب الخشبي الكبير. انحنى نيتشه انحناءة ألمانية رفيعة، فيها من الوقار ما يجعل المرء ينسى "المطرقة" التي كان يلوح بها في نقاشات الليل.
نيتشه (بصوت رزين ومفعم بالامتنان الصادق):
"هير مايستر (سيدي الأستاذ).. سيدة كوزيما.. لقد كانت هذه العطلة بمثابة 'واحةٍ ديونيسية' في صحراء العقل الجاف. أشكركما على كرم الضيافة الذي لم يكن مجرد إطعامٍ للجسد، بل كان وليمةً للروح. أترك تريبشن وأنا أحمل في حقيبتي ألحاناً وأفكاراً ستجعل جدران جامعة بازل ترتجف قليلاً."
ابتسم فاغنر بابتسامته العريضة الطاغية، ووضع يده الثقيلة على كتف نيتشه، وهزه بخفة كأنه يحاول التأكد من أن "البروفيسور" لم يتبخر تماماً في الجدية.
فاغنر (بضحكة مجلجلة):
"اسمع يا فريدريك، اذهب إلى بازل، لكن إياك أن تسمح لغبار المكتبات أن يغطي نيرانك! اذهب وعلّم أولئك 'الموتى' كيف يرقصون فوق حطام فقه اللغة. لكن تذكر.. تريبشن لا تفتح أبوابها للغرباء، بل تفتحها لـ 'الرسل'. وأنت الآن أحد رسلنا. لا تطل الغياب، فالمسودة القادمة لـ 'سيغفريد' تحتاج إلى مشرطك الفلسفي لكي تستقيم!"
الوداعُ الفلسفي: نكهةُ السخريةِ والذَّكاء
التفت نيتشه نحو كوزيما، التي كانت تقف بهدوءٍ ملكي. تقدم نحوها وانحنى ليقبل يدها ببروتوكولٍ لا تشوبه شائبة، لكنه رفع عينيه نحوها بلمحة من السخرية المبطنة.
نيتشه (بابتسامة خفيفة):
"سيدة كوزيما، أعدكِ أنني سأحاول الحفاظ على هدوئي الأكاديمي أمام زملائي، لكنني أخشى أنني إذا شربت الشاي في بازل، سأبدأ في تحليل 'ميتافيزيقيا ملعقة السكر' بدلاً من تصحيح أخطاء الطلاب النحوية. لقد أفسدتِ ذائقتي للواقع، وصار لزاماً عليّ الآن أن أرى العالم كـ 'أوبرا فاشلة' بانتظار مُخرجٍ عظيم."
ضحكت كوزيما ضحكةً رقيقة، فيها تقدير لذكاء هذا الشاب الذي يعرف كيف يمزج المأساة بالفكاهة.

كوزيما (بذكاء):
"دكتور نيتشه، السخرية هي الدرع الوحيد الذي سيحميك من صقيع بازل. اذهب بسلام، ولكن تذكر.. إذا شعرت أن 'المنطق' بدأ يخنقك، فإن بحيرة لوسيرن لا تزال هنا، والبيانو لا يزال ينتظر مَن يمنحه مبرراً فلسفياً للضجيج. نحن بانتظار عودتك في القريب العاجل."

الرحيلُ والعودة: من "القمة" إلى "الخندق"

خرج نيتشه من البوابة الحديدية، وصوت وقع أقدامه على الحصى كان يبدو له كإيقاعٍ جنائزيٍّ لوداع الجمال. ركب القطار المتجه إلى بازل، وطوال الرحلة كان ينظر إلى الجبال، ويشعر أنَّ "فريدريك" الذي صعد هذا القطار يوم الجمعة، ليس هو ذاته الذي يعود الآن.

وصل إلى غرفته في بازل مع حلول المساء. كانت الغرفة باردة، صامتة، وتفوح منها رائحة الورق القديم والوحدة. أشعل شمعته، ونظر إلى كومة الأوراق والكتب التي تنتظر تصحيحه لصباح الغد.

ألقى بحقيبته فوق السرير، وجلس خلف مكتبه، ثم همس لنفسه بابتسامةٍ مريرة وهو ينظر إلى ظله المتراقص على الجدار:

نيتشه (بسخرية ذاتية):
"حسناً يا فريدريك.. لقد عدتَ إلى 'مملكة الظلال'. غداً سأرتدي ربطة عنقي، وأتحدث بوقار عن أوزان الشعر الإغريقي، بينما قلبي يغني لحن 'تريستان'. يا لَسخرية القدر.. أن نكون مضطرين لتمثيل دور 'الأقزام' لكي نحافظ على حقنا في أن نكون 'عمالقة' في الخفاء. بازل.. لقد جئتُكِ بمرضٍ جميل لا دواء له، فاسعدي بـ 'بروفيسورك' الجديد."

المخطوطة الثانية:انشطارُ الرُّوح: بَينَ صَقيعِ "بَازل" وجَمرِ "تريبشن"

عاد نيتشه إلى "بازل" وهو يحملُ في صَدْره صدى أوركسترا كاملة، لكنَّ القَدر كان ينتظرهُ ببرودةِ جُدرانِ الجامعةِ الحجريّة. لم يكنْ مجرّدَ صباحٍ عاديّ؛ كان عودةً للمُحارِبِ الذي تذوَّقَ طعمَ الآلهةِ في "تريبشن"، ثم أُجبِرَ على العودةِ لِيبيعَ الحروفَ الميتةَ للأقزام.

المشهد: ضبابُ البازل.. وحمى "تريبشن"

استيقظَ نيتشه في غرفتهِ الباردة. كان ضوءُ الفجرِ يرتجفُ على أوراقهِ المبعثرة. شعرَ بأنَّ ربطةَ عُنُقِهِ الأكاديميةَ تشتدُّ حولَ رقبتهِ كحبلِ المشنقة. مشى في شوارعِ بازلَ باتجاهِ الجامعة، وكانَ وقعُ أقدامهِ على الحصى يتردّدُ في ذهنِهِ كإيقاعٍ من "تريستان وإيزولد".

عندما دلفَ من بوابةِ الجامعةِ العتيقة، لم يَرَ الزملاءَ والطلابَ كبشر؛ رآهم كظلالٍ تتحركُ في عالمٍ من الورقِ الجاف. كان يشعرُ بـ "تفوُّقٍ سِرّي"؛ هو يَعرفُ ما لا يَعرفون، لقد رأى "النورَ" الذي يختبئُ خلفَ الكلماتِ الإغريقية، بينما هم يكتفون بـ "نَحْتِ" القشور.

في قاعةِ المحاضرات: الحرفُ الذي صارَ جمرة

دخلَ نيتشه القاعة رقم (1). كان الطلابُ ينتظرون، والصمتُ يسودُ المكان. وضعَ حقيبتَهُ فوقَ المكتبِ بضربةٍ خفيفةٍ أحدثت صوتاً رناناً. لم يفتحْ كِتابهُ فوراً، بل وقفَ ينظرُ إلى الوجوهِ الشابةِ أمامهُ بحدةٍ غيرِ معهودة.

نيتشه (بصوتٍ يحملُ رنيناً جديداً، عميقاً ومضطرباً):

"أيها السادة.. عدتُ إليكم من 'الخارج'. والآن، عندما أنظرُ إلى نصوصِنا عن 'الدراما الإغريقية'، أشعرُ بالخجل. نحنُ نُشرِّحُ هذه النصوصَ كأننا نُشرِّحُ جثثاً في مختبرٍ بارد. لكنني أقولُ لكم اليوم: إنَّ 'سوفوكليس'[10] لم يكتبْ لكي نُحصيَ حروفَهُ المتحركة، بل كتبَ لكي يُفجِّرَ فينا إرادةَ الحياة."

بدأ الهمسُ يسري بين الطلاب. كان نيتشه يتحدثُ بانفعالٍ تحتَ السطح. تناولَ قطعةَ الطباشيرِ وكتبَ بكلماتٍ عريضةٍ على السبورة: "الموسيقى.. رُوحُ المأساة".

---

[10] سوفوكليس (Sophocles): أحد عمالقة التراجيديا الإغريقية في القرن الخامس قبل الميلاد. يُعد المطوّر الأبرز للمسرح الكلاسيكي بإدخاله الممثل الثالث وتعميقه للصراع النفسي بين الشخصيات. اشتهر بمسرحيته "أوديب ملكاً"، ويُمثل في الأدب العالمي ذروة التوازن بين "الجمال الفني" و"المأساة الوجودية"، حيث يواجه أبطاله أقدارهم بصلابة ونبل.

أحد الطلاب (بتردُّد):
"هير بروفيسور.. هل ما زلنا في درسِ 'فقه اللغة'؟ لقد جئنا لنناقشَ المخطوطاتِ المفقودة."
نيتشه (بابتسامةٍ ساخرةٍ وحادة):
"المخطوطاتُ المفقودةُ هي أرواحُكم يا بني! إنَّ ما نفقدهُ في هذه القاعاتِ هو القدرةُ على سماعِ 'النشيد'. لقد كنتُ أسمعُ ليلةَ أمسِ لحناً.. لحناً جعلَ كلَّ قواميسِنا تبدو تافهة. الإغريقُ لم يكتبوا بالريشة، بل كتبوا بالصراخِ الذي صارَ نغماً. فمن منكم يجرؤُ على أنْ يقرأَ هوميروس وهو يَسمعُ صليلَ السيوفِ في أذنيه؟"
الصِّدامُ مع الواقع: الممرُّ البارد
بعد انتهاءِ المحاضرة، خرجَ نيتشه وهو يتصبّبُ عرقاً رغمَ برودةِ الجوّ. في الممرّ، التقى بزميلٍ لهُ من كبارِ الأساتذة، رجلٌ يُمثلُ "المنطقَ الأكاديميَّ المتجمِّد".
الأستاذ (بنبرةٍ فيها عتابٌ مُبطَّن):
"دكتور نيتشه.. سمعتُ أنَّ محاضراتكَ بدأتْ تأخذُ طابعاً.. لنقل، 'موسيقياً' أكثرَ من اللازم. العميدُ قلقٌ من أنَّ الطلابَ لم يعودوا يفرقونَ بينَ 'فقه اللغة' وبينَ 'النقدِ الفني'. هل رحلتكَ إلى لوسيرن كانت مُتعبةً إلى هذا الحد؟"
نظرَ نيتشه إلى عينَي الزميلِ الشاحبتين، وشعرَ برغبةٍ عارمةٍ في الضحكِ أو الصراخ.
نيتشه (برزانةٍ تقطرُ ازدراءً):
"المتعبُ يا زميلي ليس السفر، بل العودةُ إلى عالمٍ يَخافُ من 'النغمة'. بازل مدينةٌ عظيمة، لكنها تفتقرُ إلى 'الرعد'. وما أقدمهُ للطلابِ هو المحاولةُ الوحيدةُ لإنقاذِهم من أنْ يصبحوا مُجرّدَ آلاتٍ للفهرسة."
مشى نيتشه مُبتعداً، تاركاً الأستاذَ مبهوتاً. ذهبَ إلى مكتبتِهِ الخاصةِ في الجامعة، وجلسَ وحيداً بين الرفوف. أخرجَ ورقةً وبدأ يكتبُ خربشاتٍ غيرَ مفهومة.

جلس نيتشه أمام مكتبه في بازل، والليل يزحف على الغرفة كأنه حبرٌ أسود يغطّي الوجود. كانت المصابيح في الخارج تخبو، لكن النيران التي اشتعلت في صدره خلال زيارته الأخيرة لم تكن لتنطفئ. أمسك بريشته، وغمسها في الحبر، وبدأ يفرغ ما في روحه من ضجيج فوق البياض البارد.

لم تكن مجرد رسائل؛ كانت محاولة لمدّ جسور من "الاحتراق" نحو تلك الجزيرة المعزولة في لوسيرن.

الرسالة الأولى: إلى ريتشارد فاغنر (سيّد اللحنِ الأبدي)

"سيدي المُعلم،

أكتبُ إليك من وسط هذه المقبرة الحجرية التي نُسميها 'جامعة بازل'. منذ عودتي، وأنا أشعر أنني أرتدي جسداً ليس لي. هنا، يا سيدي، يقتاتون على جثث الكلمات، يحللون رفات الإغريق كأنهم يجرون تشريحاً لآلهة ماتت منذ قرون.

لقد جعلتني زيارتي لـ 'تريبشن' أدرك حجم الجريمة التي نرتكبها هنا باسم 'العلم'. في تريبشن، رأيتُ الوجود يرقص، سمعتُ 'الإرادة' وهي تتجسد في نغماتك الصاعقة. أما هنا، فلا يوجد إلا صرير الكراسي وسعال الأكاديميين الذين يخشون حتى من التنفس بعمق.

إنني أشعر بغربةٍ مقدسة. لقد صرتُ غريباً عن تلامذتي، وغريباً عن كتبي. إنني أنتظر اللحظة التي أهرب فيها مجدداً من صقيع 'المنطق' إلى دفء 'الجنون الإبداعي' الذي تسكنه. أنت لست مجرد موسيقار، أنت المنارة التي تُثبت لي أنَّ الإنسانية لم تَمُت بَعْد تحت وطأة الحروف الميتة.

خادمك المطيع في عالمِ الظلال،

فريدريك نيتشه."

الرسالة الثانية: إلى السيدة كوزيما فاغنر (رُوح السكونِ المُدبّر)

كانت كتابة هذه الرسالة أصعب؛ فنيتشه كان يزن كل كلمة بميزانٍ من الذهب، محاولاً إظهار تقديره لذكائها دون أن يخدش جدار الرسمية الصارم.

"سيدتي الكريمة،

ما زال صدى صمتكِ المليء بالمعنى يتردد في أعماقي أكثر من صخبِ محاضراتي. في بازل، الجميع يتحدثون، لكن لا أحد يقول شيئاً. أما في 'تريبشن'، فقد تعلمتُ منكِ أنَّ 'الذكاء' هو أرقى أشكال الصمت، وأنَّ القوة الحقيقية تكمن في تلك السكينة التي تنظم فوضى العبقرية.

لقد تركتُ خلفي في لوسيرن جزءاً من رُوحي التي بدأتْ تتنفس لأول مرة. إنني أحاول هنا أن أتقمص دور الأستاذ الرصين، لكنني أجد نفسي أراقبُ حركة

السحاب فوق جبال الألب، وأتساءل: كيف يمكن لامرأةٍ واحدة أن تحمل كل هذا الوقار الذي يضاهي شموخ القمم؟
أشكركِ على "النظام" الذي منحتهِ لعقلي المشوش. سأظلُّ أقتاتُ على ذكرى حواراتنا العميقة حتى يحين موعد اللقاء القادم، حيث نواصلُ البحث عن الجمال في عالمٍ يغرقُ في القبح.

مع فائق الاحترام والتبجيل،
د. فريدريك نيتشه."

المشهد: عتمةُ المكتبِ وانتظارُ الجواب
طوى نيتشه الرسائل، وختمهما بالشمع الأحمر بحذرٍ شديد. كان يشعر بإنهاكٍ لذيذ، كأنه أفرغ جزءاً من حممه البركانية في هذه الأظرفة. نظر إلى النافذة، ورأى ضباب بازل يلف الشوارع، فابتسم بسخرية مريرة.
نيتشه (يهمس لنفسه وهو يطفئ الشمعة):
"لقد أرسلتُ بذور تمردي في البريد.. والآن، عليّ أن أنتظر لكي أرى هل ستنبتُ في تريبشن أزهاراً.. أم عواصف؟"

كان يشعرُ بوحدةٍ خانقة، لكنها وحدةٌ "متعالية". لم يكن يعرف بعد أنَّ هناك من يراقبه من زوايا الغرفة التي لم يصلها ضوء الشمعة، وأنَّ هناك "قصصاً" لم تُروَ بَعْد، ستجعلُ من هذه المراسلات الرقيقة بدايةً لتمزقٍ لا يرحم.

المخطوطة الثانية: حِوارُ الظِّلالِ والبرق
دق جرس الجامعة ليعُلَن عن إنتهاء محاضرة نيتشه، وبدأ صدى صوت نيتشه يتردد في زوايا القاعة الخشبية بينما كان الطلاب يلملمون أوراقهم ويغادرون في صمتٍ يشوبه الذهول. بقي نيتشه واقفاً خلف منصته، يجمع مخطوطاته بهدوءٍ مشوبٍ بتعبٍ لذيذ، وعيناه غائرتان في فكرةٍ لم يقلها بَعْد.
بينما خلت القاعةُ إلا من ذرات الغبار المتراقصة في خيوط الشمس الشاحبة التي تسللت من النوافذ العالية، اقترب شابٌ نحيل، ذو ملامح حادة وعينين تشتعلان بفضولٍ لا يهدأ. كان هذا الطالب هو "إرنست"، أحد القلائل الذين كانوا لا يكتفون بتدوين الملاحظات، بل كانوا "يستنشقون" الكلمات.

توقف إرنست على بُعد خطوتين من المنصة، وانتظر حتى رفع نيتشه نظره إليه. كان هناك صمتٌ مهيب يلف المكان، صمتٌ يشبه ما قبل العاصفة.
إرنست (بصوتٍ يرتجفُ احتراماً وانبهاراً):
"هير بروفيسور.. اعذر تطفلي، لكنني بقيتُ عالقاً في مقعدي حتى بعد أن انتهيتَ من حديثك. لقد درستُ تحت يد الكثيرين، وقرأتُ مئات المجلدات في فقه اللغة، لكنني اليوم لأول مرة أشعر أنَّ الكلمات 'تتنفس'. منطقكَ يا سيدي.. ليس منطقاً أكاديمياً بارداً، إنه يشبه 'البرق' الذي يضيء الهاوية لثانيةٍ واحدة، فيكشف لنا عورة الحقيقة التي نخشاها جميعاً. كيف تجرؤ على تحويل النحو الإغريقي إلى صرخةٍ وجودية؟"
توقف نيتشه عن ترتيب أوراقه، ونظر إلى الشاب بنظرةٍ فاحصة، وكأنه يرى فيه صدىً لِشبابه الضائع في دهاليز "لايبزيغ". ابتسم ابتسامةً خفيفة، فيها الكثير من المرارة والقليل من الفخر.
نيتشه (بصوتٍ هادئ ورخيم):
"اجلس يا إرنست. نادراً ما نجد في هذه القاعات من يبحث عن 'البرق'؛ معظمهم يبحثون عن 'المظلات' لِيحموا أنفسهم من مطر الحقيقة. أنتَ تسألني عن 'الجرأة'؟ الجرأةُ ليست خياراً، بل هي 'قدر'. عندما تدرك أنَّ كل ما يدرّسونه هنا هو مجرد 'أكفانٍ' من الكلمات لِتغطيةِ جثة الحقيقة، فإما أن تصبح 'حفار قبور' مثلهم، أو تصبح 'مُحيياً' للروح. المنطق الذي أعجبك.. هو منطق 'المطرقة'؛ لا يُبنى به، بل يُختبر به صدى الأشياء الخاوية."
اشتباكُ العقول: عنِ الحقيقةِ والوحدة
اقترب إرنست وجلس على طرف الدكة الأولى، وكأنَّ جسده كله يميلُ نحو مصدر النور.
إرنست (باندفاع):
"لكنَّ هذا المنطق مرعب يا سيدي! أنتَ تقول لنا إنَّ الجمال الإغريقي لم يكن سكوناً، بل كان صراعاً دموياً، وتخبرنا أنَّ الموسيقى هي أصل الوجود. إذا كان الأمر كذلك، فما نفع هذه الكتب؟ وما نفع حياتنا الهادئة هنا في بازل؟ إنَّ أفكارك تجعلني أشعر بأنَّ كل ما بنيتُه في عقلي قد بدأ يتصدع. هل تريدنا أن نصبح 'مجانين' لكي نكون 'حقيقيين'؟"
وضع نيتشه يده على حافة المنصة، وانحنى قليلاً نحو الطالب، وتغيرت نبرة صوته لتصبح أكثر عمقاً وفلسفية.

نيتشه (بحدةٍ بليغة):
"الجنونُ يا بني هو الاسم الذي يطلقه "القطيع" على كل مَن يملك شجاعة المشي وحيداً على قمة الجبل. اسمعني جيداً.. الحقيقةُ ليست مكافأة، بل هي "لعنة". هي تجعلك غريباً وسط أهلك، ووحيداً وسط زملائك.
أنتَ مُعجبٌ بأفكاري لأنها تلمس "الجرح" فيك، لأنها تخبرك أنَّ خلف هذا الوقار الأكاديمي، هناك إرادةٌ جبارة تُريد أن تتحرر. نحنُ في بازل نصنع "علماء"، لكنني أريد أن أصنع "بشراً". العالم لا يحتاج لمزيدٍ من الفهارس، العالم يحتاج لـ "أنفسٍ" تجرؤ على احتراقِ ذاتها لكي تضيء."
تساؤلُ الوجود: الثمنُ الباهظُ لِلرؤية
صمت إرنست للحظة، وبدا وكأنه يستوعب ثقل هذا الكلام. نظر إلى يديه، ثم عاد ونظر إلى نيتشه بتساؤلٍ أكثر عمقاً.
إرنست:
"وهل أنتَ.. هير بروفيسور.. هل أنتَ سعيدٌ بهذا الاحتراق؟ أرى في عينيك أحياناً حزناً لا تداويه الكتب، وأرى في زياراتك لـ "تريبشن" بحثاً عن شيءٍ مفقود. هل "إرادة القوة" التي تتحدث عنها تمنحنا العزاء، أم تزيدنا عُزلة؟"
أغمض نيتشه عينيه لثانية، وكأنَّ صورة كوزيما وفاغنر قد خطرت بباله كطيفٍ بعيد. استدار ببطء نحو النافذة، وظهره للطالب، وتحدث بصوتٍ بدا وكأنه يأتي من مكانٍ بعيد جداً.
نيتشه (بشجنٍ فلسفي):
"السعادةُ كلمةٌ للجبناء، يا إرنست. العظماءُ لا يبحثون عن السعادة، بل يبحثون عن "المعنى" وسط الألم. نعم، العزلةُ هي الثمن. كلما ارتفعتَ فوق الغيوم، صرتَ وحيداً، وصار الهواءُ أرقّ، وصار من الصعب على الآخرين سماع صوتك.
أما "تريبشن".. فهي ليست بحثاً عن عزاء، بل هي "مختبرٌ للروح". هناك رأيتُ أنَّ الفن هو الجواب الوحيد على بشاعة الحقيقة. لا تسألني هل أنا سعيد، بل اسألني: هل أنا "حيّ"؟ والجواب هو أنني أحيا بكل خليةٍ في عقلي، وهذا "الحياة" هي التي تجعلني أحتمل هذا الصمت الجامعي."
"الإنسانِ" والـ "تجاوز"
التفت نيتشه مجدداً نحو إرنست، وكانت ملامحه قد استعادت صرامتها الفلسفية، لكن بنوعٍ من العطف الأبوي تجاه هذا الوعي الشاب.

نيتشه (مواصلاً):
"أنتَ تقول إنك معجبٌ بمنطقي.. فهل أنتَ مستعدٌ لِأن تتبع هذا المنطق حتى نهايته؟ هل أنت مستعدٌ لِأن تحطم "الأوثان" التي تسكن في داخلك؛ أوثان العادة، والدين، والمنطق البشري الصغير؟ الحقيقةُ تتطلبُ قلباً من فولاذ، لأنها ستجبرك على أن تقول "لا" لِكل ما يحبه الناس، لكي تستطيع يوماً ما أن تقول "نعم" عظيمة لِنفسك."
كان إرنست يستمع وكأنَّ كل كلمة هي ضربةُ مطرقةٍ على سندان رُوحِه. بدأ يشعر أنَّ هذا اللقاء ليس مجرد نقاشٍ عابر، بل هو "نقطة تحول" في وجوده كله.
جمع نيتشه أوراقه المبعثرة، ونظر إلى إرنست بعينين تلمعان ببريقٍ غامض، ثم أشار بيده نحو الباب الكبير للقاعة.
نيتشه (بنبرةٍ هادئة):
"تعالَ معي يا إرنست.. هذه الجدران الحجرية بدأت تمتصُّ الأوكسجين من أفكارنا. الحقيقة لا تُحبُّ الأماكن المغلقة؛ إنها تختارُ المرتفعات، ومجاري الأنهار، والرياح التي لا تستأذن أحداً."
خرجا من بوابة الجامعة العتيقة، وتركا خلفهما صمت الرواق الكئيب. سارا في شوارع بازل الهادئة حتى وصلا إلى ضفاف نهر "الراين". كان النهر يتدفق بقوةٍ وجلال، عاكساً زرقة السماء الصافية، بينما كانت الأشجار على الضفتين تتمايل مع نسمات الربيع التي تحمل عبير الغابات البعيدة.
توقف نيتشه عند حافة النهر، واستنشق الهواء بعمق، وكأنَّ رئتيه كانت جائعة لهذا النقاء.

مَنطقُ النَّهرِ وصَمتُ الغابة

وقف إرنست بجانب أستاذه، يراقب تدفق المياه السريع، وشعر بأنَّ شخصية نيتشه بدأت تتغير؛ فقد اختفت صرامة "البروفيسور" وحلَّت محلها روحُ "الرائي" الذي يقرأ في صفحات الطبيعة ما لا تقوله الكتب.
إرنست (هامساً وهو ينظر إلى النهر):
"انظر إلى هذا النهر يا سيدي.. إنه يتدفق دون توقف، يغير شكله في كل لحظة لكنه يظل هو ذاته. هل هذا هو "الصيرورة" التي حدثتنا عنها؟ هل يجب على الإنسان أن يكون كالنهر، لا يخشى الاصطدام بالصخور طالما أنه يتجه نحو البحر؟"

التفت نيتشه نحو الطالب، ووضع يديه خلف ظهره، وبدأ يمشي ببطء على طول الضفة المكسوة بالعشب الأخضر.
نيتشه (بصوتٍ يمتزجُ مع حفيف الأشجار):
"أحسنتَ التشبيه يا إرنست. النهرُ لا يعتذر للصخور التي يعترض طريقها، ولا يسأل عن الوجهة؛ هو يتبع 'قانون ثقله' الخاص. لكنَّ مأساة البشر هي أنهم يريدون أن يكونوا 'بحيراتٍ' ساكنة، يخشون من الموج، ويخافون من الغرق في أعماق أنفسهم.
انظر حولك.. هذه الطبيعة ليست 'جميلة' بالمعنى الأخلاقي الذي يدرسه اللاهوتيون؛ إنها 'مروعة' في عظمتها، إنها تخلق وتدمر في آنٍ واحد دون ندم. هكذا يجب أن يكون الفكر؛ ليس مرآةً تعكس الواقع، بل قوةً تعيد صياغته."
"الألمِ" كَمشرطٍ لِلجمال
صعدا تلةً صغيرة تطلُّ على المدينة والبحيرة البعيدة. ساد صمتٌ طويل، قطعه إرنست بسؤالٍ كان يلحُّ عليه منذ لقائهما في القاعة.
إرنست:
"سيدي.. أنت تتحدث دائماً عن 'تجاوز الإنسان'، وعن ضرورة تحطيم القيم القديمة. لكنني أتساءل: ألا يؤدي هذا إلى وحدةٍ موحشة؟ عندما كنتَ في 'تريبشن' مع فاغنر وكوزيما، هل كنتَ تشعر أنكَ وجدتَ أخيراً 'قبيلتك'؟ أم أنَّ العظمة تفرضُ عليك أن تظلَّ وحيداً حتى وسط مَن تُحب؟"
توقف نيتشه فجأة، ونظر إلى الأفق البعيد حيث تتوارى قمم الجبال خلف الضباب الرمادي. بدت ملامحه في تلك اللحظة وكأنها منحوتة من صخر الجبل ذاته.
نيتشه (بنبرةٍ عميقة وشجية):
"الوحدةُ يا إرنست هي 'جمرُ العبقرية'. في تريبشن، رأيتُ فجراً لِعالمٍ جديد، رأيتُ بشراً يجرؤون على صياغةِ أنفسهم كأعمالٍ فنية. لكن حتى هناك، في قلب ذلك السحر، تظلُّ الروح العظيمة غريبة.
فاغنر هو 'العاصفة'، وكوزيما هي 'السكينة المحركة' لتلك العاصفة. لقد تعلمتُ منهما أنَّ الجمال لا يولد من الطمأنينة، بل يولد من 'التوتر الأعلى' بين الأضداد. أنا لا أبحث عن قبيلة لكي أرتاح فيها، بل أبحث عن 'أندادٍ' لكي أصارعهم ويصارعوني. الصداقة الحقيقية ليست أن نتفق، بل أن نكون 'نجمين' يسبحان في مداراتٍ مختلفة لكنهما يضيئان ذات العتمة."

تساؤلُ المصير: "الإنسانُ" والـ "أرض"
انحنَى نيتشه والتقط حجراً صغيراً وألقاه في الماء، وراقب الدوائر التي تتسع وتتلاشى.
نيتشه (مواصلاً):
"أنتَ تخشى الوحدة، لكنني أخشى 'الزحام'. الزحام يسرق منك صوتك الداخلي، ويحول أفكارك إلى أصداء لآراء الآخرين. في الطبيعة، لا توجد آراء، توجد فقط 'حقائق'. الشجرة لا تحاول إقناعك بأنها خضراء؛ هي فقط 'تكون'.
إنني أريد للإنسان أن يعود إلى 'الأرض'، أن يترك سماء الأوهام والميتافيزيقا التي خنقته لقرون. كن وفياً للأرض يا إرنست! لا تؤمن بالذين يَعِدونك بفردوسٍ خلف الغيوم لكي يسرقوا منك شجاعتك هنا. الفردوس الحقيقي هو تلك اللحظة التي تقف فيها فوق هذه التلة، وتشعر أنكَ 'سيدُ' مصيرك، وأنَّ ألمك وضحكك هما جزءٌ من موسيقى الكون الكبرى."
المشهدُ المتصاعد: بَينَ صَمودِ الجبلِ وسيولِ النَّفس
تحرك نيتشه بحيوية أكبر، وكأنَّ الطبيعة منحته طاقةً جسدية. بدأ يتحدث بيديه، وعيناه تلاحقان حركة الطيور في السماء.
إرنست (بذهول):
"كأنكَ تطلب منا أن نكون آلهةً صغاراً يا سيدي.. لكن مَن يحتمل كل هذا الثقل؟ مَن يحتمل أن يعيش بلا 'يقين'؟"
نيتشه (بابتسامةٍ منتصرة):
"اليقينُ هو 'قبرُ العقل'. الروح القوية تعشقُ 'الخطر'، تعشقُ الإبحار في البحار غير المكتشفة. الثقلُ الذي تتحدث عنه هو 'أجنحتك' التي لم تتعلم الطيران بها بَعْد.
تذكر دائماً: 'يجب أن يحمل الإنسان في داخله فوضى، لكي يستطيع أن يلد نجماً راقصاً'. بازل تريد أن تُنظم هذه الفوضى، تريد أن تحولك إلى موظفٍ مطيع. أما أنا.. فأريدك أن تكون 'العاصفة' التي تكنس الغبار عن وجه الوجود."

بدأت الشمسُ تغوصُ خلفَ قممِ جبالِ "الجورا"، صابغةً مياهَ "الراين" بلونِ الدّمِ الممزوجِ بالذَّهب. كان الهواءُ قد أصبحَ أكثرَ برودة، ووقعُ أقدامِ نيتشه وإرنست فوقَ الحصى صارَ الإيقاعَ الوحيدَ المتبقي في هدوءِ الغسق. توقفا عند حافةِ

مُنحدرٍ صخريٍّ يُطلُّ على المدينةِ التي بدأتْ أضواؤُها تشتعلُ كأنها نجومٌ سقطتْ في الوحل.

نظرَ إرنست إلى أستاذه، وبدا لهُ نيتشه في ذلك الضوءِ الشاحبِ كأنهُ كائنٌ من عصرٍ آخر، كأنهُ "بروميثيوس"[11] يرتدي معطفاً أكاديمياً. كان السؤالُ الأخيرُ يغلي في حنجرةِ الطالب، سؤالاً يخشى إجابتَه.

إرنست (بصوتٍ خافتٍ يشبهُ حفيفَ الريح):

"سيدي.. لقد علمتني كيف أحطم، وكيف أشك، وكيف أعشقُ العاصفة. لكنْ، أخبرني بصدق: عندما تنتهي هذه الرحلة، وعندما نحطمُ كلَّ الأصنامِ واليقينيات، ماذا سنجدُ في انتظارنا؟ هل سنجدُ "الإنسان المتجاوز" كما تَعِدُنا، أم سنجدُ الفراغَ الذي لا يرحم؟ هل هناك 'شاطئ' لهذا النهرِ الذي ألقيتَني فيه؟"

توقفَ نيتشه عن السير. نظرَ إلى الأفقِ البعيد، حيثُ تلتقي السماءُ السوداءُ بالأرضِ المظلمة، وصمتَ لِلحظةٍ بدتْ أطولَ من الدهر. ثم التفتَ إلى إرنست، وكانت عيناهُ تلمعانِ ببريقٍ مرعبٍ ومقدسٍ في آنٍ واحد.

نيتشه (بصوتٍ عميقٍ وهادئٍ كالقَدَر):

"إرنست.. أنتَ ما زلتَ تبحثُ عن 'الخلاص'، وما زلتَ تسألُ عن 'النهاية'. لكنَّ الحقيقةَ المُرّة هي أنه لا يوجدُ شاطئ، ولا توجدُ نهاية. الوجودُ هو 'دائرةٌ مفرغة' من الصيرورة، هو رقصةٌ أبديةٌ فوقَ العدم.

أما سؤالكَ عما سنجدُه.. فنحنُ لن نجدَ شيئاً 'ينتظرنا'، لأننا نحنُ مَن 'يخلق' ما سيأتي. الإنسانُ ليس غاية، بل هو 'جسرٌ' ممدودٌ فوقَ هاوية. مأساةُ الأغلبية هي أنهم يريدون السكنَ فوقَ الجسر، وبناءَ بيوتِهم وسطَ الهواء. أما أنا.. فأعلمُ أنَّ الجمالَ ليس في الوصول، بل في 'العبور' الخطير."

خاتمةُ النُّورِ والمَأساة

اقتربَ نيتشه من حافةِ المُنحدر، وأشارَ بيدهِ نحو المدينةِ الغارقةِ في الظلام.

نيتشه (مواصلاً بِنبرةٍ نبويّة):

"انظر إلى تلك الأضواء.. كلُّ ضوءٍ منها هو 'يقينٌ' كاذبٌ يتمسكُ بهِ إنسانٌ خائف. هم يظنون أنهم يملكون الحقيقة، بينما هم يملكون فقط 'الأمان'. أما أنتَ

---

[11] بروميثيوس: هو أحد كبار "التايتنز" (العمالقة) في الأساطير اليونانية، ويُعرف بلقب "صديق البشر". تذكر الأسطورة أنه سرق "نار المعرفة" من آلهة الأوليمب وأهداها للبشر ليعلمهم الفنون والحرف ويحررهم من جهلهم. عاقبه الإله "زيوس" على هذا التمرد بتقييده إلى صخرة في جبال القوقاز، حيث يسلط عليه نسرًا ينهش كبده كل يوم، ليعود كبده وينمو في الليل ليبدأ العذاب من جديد. يرمز بروميثيوس في الأدب والفلسفة إلى التمرد النبيل، التضحية في سبيل المعرفة، والإرادة التي لا تنكسر أمام بطش الآلهة أو السلطة.

يا إرنست، فلقد سَمِمتُ رُوحَكَ بـ 'الحرية'. وهذهِ الحريةُ هي أثقلُ حِملٍ يمكنُ لبشرٍ أن يحمله.
غداً، ستعودُ إلى مقعدك في القاعة، وستسمعُ زملائي يتحدثون عن 'الأخلاق' و'المنطق'. في تلك اللحظة، ستشعرُ بغربةٍ تُمزقُ أحشاءك. لا تبحثْ عني لكي أُعزيك، ولا تبحثْ عن 'تريبشن' لكي تختبئَ فيها. كُنْ أنتَ 'العاصفة' التي لا تسألُ عن الوجهة. لعلَّ أعظمَ ما يمكنُ أن يحققهُ الإنسان، هو أن يحدقَ في وجهِ 'العدم'.. ويضحك!"

الصَّمتُ الأخير

سادَ صمتٌ مُطبق. شعرَ إرنست بأنَّ الكلماتِ قد انتهت، وأنَّ ما بَقِيَ هو "الفعل".
مدَّ نيتشه يدهُ وربتَ على كتفِ تلميذهِ بقوةٍ غيرِ متوقعة، وكأنهُ يودعُ فيهِ جزءاً من نَفْسه.

نيتشه (بابتسامةٍ غامضةٍ وساخرة):
"اذهب الآن.. الليلُ طويل، والطريقُ إلى بازل يحتاجُ إلى أقدامٍ ثابتة. لقد منحتُكَ 'المطرقة'، فاحذرْ أن تكسرَ بها أصابعك قبل أن تكسرَ بها أصنامَك. تذكر دائماً: 'مَن يملكُ لِماذا يعيش، يمكنهُ أن يحتملَ أيَّ كيف'."
استدارَ نيتشه ومشى وحيداً نحو أعالي التلة، مختفياً في الضبابِ الذي بدأ يلفُّ القمة، تاركاً إرنست واقفاً عند الحافة، ينظرُ إلى النهرِ المتدفقِ في الأسفل. لم يكن إرنست يرى الماء، بل كان يرى "الصيرورة" التي لا تهدأ، وشعرَ لأولِ مرةٍ أنَّ الثقلَ الذي يحملهُ ليس ثقلَ المعرفة، بل ثقلَ "الألوهيةِ" الجريئة التي زرعها نيتشه في رُوحه.

انتهى الحوار، وبدأَ نيتشه رحلةَ عودتهِ إلى عُزلتهِ المعتادة، بينما بَقِيَ التلميذُ مذهولاً أمامَ عظمةِ الهاويةِ التي اكتشفها لِلتو.

المخطوطة الثانية: العصرُ الذهبي.. وظِلالُ الآلهةِ فوقَ بحيرةِ لُوسيرن

إيقاعُ الرِّحلةِ المُقدسة (1869 - 1871)

مرّت السنونُ على "بازل" كأنها فصولٌ في كتابٍ قديم، لكنَّ حياةَ فريدريك نيتشه كانت تُكتبُ بمدادٍ من نوعٍ آخَر. صارَ يومُ الجُمعةِ بالنسبةِ لهُ هو "يوم الانبعاث"؛ فما إنْ تَدقُّ الساعةُ مُعلنةً انتهاءَ آخرِ محاضراتِ الأسبوع، حتى يخلعَ نيتشه رداءَ الأستاذِ الجامعيِّ المُثقلِ بالهموم، لِيستقلَّ القطارَ المتجهَ نحو لوسيرن.
كانت المسافةُ بين بازل و"تريبشن" هي المسافةُ بين العقلِ الصارمِ والروحِ الهائمة. وفي تلك الفترة، تحوّل نيتشه من "ضيفٍ مَرغوبٍ فيه" إلى "ابنٍ لِلعائلة". لم يعد يطرقُ البابَ بِرسمية، بل صار لهُ مقعدٌ دائمٌ بجانب المدفأة، وغرفةٌ خاصةٌ تنتظره، وصارَ الأطفالُ (سيغفريد وأخواته) يركضون نحوهُ كأنهُ عمُّهم القادمُ من بلادِ الحكايا، حاملين لهُ رسوماتِهم ليحكيَ لهم عن أساطيرِ اليونان.

في مِحرابِ "تريبشن".. صِناعةُ الأسطورة

في تلك الأمسياتِ الطويلة، كان نيتشه يغوصُ مع فاغنر في أعماقِ "خاتم النيبلونغ"، ويساعدهُ في مراجعةِ مذكراتِ حياته. كانت كوزيما تجلسُ بينهما، تُديرُ دفةَ النقاشِ بذكائها الهادئ، وتراقبُ هذا الفيلسوفَ الشابَّ وهو يضعُ "مبضعَ" فكرهِ لتشريحِ موسيقى زوجِها، فيزدادُ يقينُها بأنَّ نيتشه ليس مجردَ صديق، بل هو "المُفسرُ الوحيد" الذي يستطيعُ ترجمةَ عبقريةِ فاغنر إلى لغةِ الفلسفة.
كانت النقاشاتُ تصلُ إلى ذروتِها عندما يتحدثون عن "موتِ الثقافةِ القديمة" و"ميلادِ الإنسانِ الجديد". كان نيتشه يشعرُ وسطَ هذه العائلةِ بأنهُ وجدَ "الوطن" الذي حُرمَ منهُ طويلاً، وطنٌ لا تحكمهُ القوانينُ الجافة، بل يحكمهُ "الجمالُ المطلق".

صدى "تريبشن" في قاعاتِ بازل

لم يعد سِرُّ نيتشه خافياً على أحد. في ممراتِ جامعة بازل، كان الطلابُ والأساتذةُ يتهامسون عن "الأستاذ الفاغنري". لم يعد نيتشه يُخفي إعجابه؛ بل تحولت محاضراتهُ إلى ملاحمَ تمجدُ العبقرية.

عندما كان يرجعُ من عطلاتِ نهاية الأسبوع، كان يدخلُ القاعةَ وعيناهُ تلمعانِ بوهجٍ غريب. كان يتحدثُ لِطلابهِ عن "ريتشارد فاغنر" ليس كموسيقارٍ فحسب، بل كـ "بُعثٍ جديدٍ لِرُوحِ المأساةِ الإغريقية".

نيتشه (مخاطباً طلابَهُ في إحدى محاضراتِ خريف 1870):

"أيها السادة.. تظنون أنكم تدرسون اليونان في الكتب؟ اذهبوا واسمعوا ألحانَ فاغنر! هناك ستجدون 'أخيل' و'أوديب' يتنفسون من جديد. إنَّ يدَ هذا الرجلِ لا تلمسُ مفاتيحَ البيانو، بل تلمسُ أوتارَ الوجودِ ذاتِها. إنني رأيتُ العظمةَ متجسدةً في تريبشن، وما أُعطيكم إياه هنا ليس إلا القشورَ الباردةَ لتلك النارِ المشتعلةِ هناك."

صارَ الطلابُ يراقبون نيتشه بذهول؛ بعضُهم كان يرى فيهِ نبياً لِعصرٍ جديد، وبعضُهم كان يخشى أن يكونَ أستاذُهم قد فَقَدَ توازنَهُ الأكاديميَّ تماماً تحت سحرِ لوسيرن.

التوترُ الصامت.. وبدايةُ الانشطار

بحلولِ منتصفِ عام 1871، وصَلَ القربُ بين نيتشه وعائلةِ فاغنر إلى ذروته. كان نيتشه يكتبُ كتابه الأول "مولد المأساة" تحت تأثيرِ تلك الجلساتِ العميقة. لكن، خلفَ هذا الصفاءِ العائلي، بدأت تظهرُ ملامحُ "قلقٍ" خفيٍّ في رُوحِ نيتشه. كان يرى كوزيما وهي تُفني حياتَها في خِدمةِ "صنمِ" فاغنر، وكان يشعرُ بداخلِهِ بصراعٍ غريب: إعجابٌ مُطلقٌ بالرجل، وتقديرٌ عميقٌ لِذكاءِ المرأةِ الذي يفوقُ في صمتِهِ ضجيجَ ألحانِ زوجِها. كانت النقاشاتُ الفلسفيةُ تزدادُ حِدّة، وبدأ نيتشه يطرحُ تساؤلاتٍ عن "استقلاليةِ الفرد" أمام "سطوةِ العبقري"، وهي تساؤلاتٌ كانت تمرُّ كنسيمٍ باردٍ وسطَ دفءِ تريبشن.

هكذا كانت السنينُ الذهبية؛ نيتشه يعيشُ بجسدِهِ في بازل، وبقلبِهِ في تريبشن، مُمزقاً بين واجباتِ الأستاذِ وأحلامِ الثائر، بينما كانت خيوطُ الأقدارِ تُغزلُ لِتحضيرِ المواجهةِ الكبرى التي ستزلزلُ هذا الاستقرارَ الهش.

هَمْسُ الجِراح.. ودفءُ "أريادني"

كانت ليلةٌ من ليالي خريف عام 1871، حيث غلف الضبابُ بحيرة "لوسيرن" وحوّل فيلا "تريبشن" إلى جزيرةٍ معزولة عن العالم. في الداخل، كان صدى ضرباتِ بيانو خافتة يأتي من الطابق العلوي، حيث انغمس فاغنر في وضع اللمسات الأخيرة على أحد مقاطع "سيغفريد"، غير آبهٍ بما يدور في الأسفل.

في الصالون الصغير المضاء بوهج المدفأة الخافت، جلس نيتشه في مقعده المعتاد، وأمامه كوزيما التي كانت تطرزُ بصمتٍ ملكي. ساد صمتٌ لم يكن ثقيلاً، بل كان مشحوناً بنوعٍ من الفهم المتبادل الذي تجاوز حدود الكلمات.

توقف نيتشه عن تقليب صفحات كتابه، ونظر إلى النيران وهي تلتهم الحطب. بدا وجهه في تلك اللحظة شاحباً، وعيناه تحملانِ تعباً لم تستطع فلسفة "القوة" أن تخفيه.

نيتشه (بصوتٍ خافت، كأنه يتحدث لنفسه):

"أتعلمين يا سيدة كوزيما.. أحياناً أشعر أنَّ 'بازل' ليست مدينة، بل هي ثقبٌ أسود يمتصُّ كل الألوان من رُوحي. أعودُ إلى هناك فأجد نفسي أستاذاً يحاضرُ عن عظمةِ الموتى، بينما أشعرُ بداخلِي أنني أنا الميتُ الذي يحتاجُ لِمَن يبعثه."

وضعت كوزيما إبرتها جانباً، ورفعت عينيها نحوه. لم تكن نظرتُها نظرة "زوجة الأستاذ" لِتلميذه، بل كانت نظرة رُوحٍ رأت في نيتشه ما لم يرهُ حتى هو في نفسه.

كوزيما (بنبرةٍ دافئة كالحرير):

"دكتور نيتشه.. فريدريك.. أنتَ تحملُ ثقلَ العالم فوق كتفيك وتتساءلُ لماذا تشعرُ بالتعب. أنتَ لا تُحاضر عن الموتى، أنتَ تُصارعُ لكي لا تصبحَ واحداً منهم. بازل ليست هي المشكلة؛ المشكلة هي أنك ترفضُ أن تمنحَ نفسك 'الحقَّ في الضعف'. أنتَ تريد أن تكون 'المطرقة' دائماً، لكن حتى المطارق تحتاجُ أحياناً لِوسادةٍ من الصمت لكي ترتاح."

لحظةُ الانكشاف: نِيتشه والوَحدةُ العارية

شعر نيتشه بغصةٍ في حلقه. لم يسبق لِأحدٍ أن خاطبهُ بهذا القرب. في عالم الرجال ومع فاغنر، كان عليه دائماً أن يكون متوقداً، ذكياً، ومستعداً للمنافسة الفكرية. لكن هنا، ومع كوزيما وحدها، سقطت الأقنعة.

نيتشه (بصوتٍ يرتجفُ قليلاً):

"لكنَّ الضعفَ خطيئةٌ في مذهبي يا كوزيما. مَن يطمحُ لِتجاوز الإنسان، عليه أن يقطعَ أوتارَ احتياجهِ للآخرين. العزلةُ هي قَدري، لكنها أحياناً تكونُ باردةً لدرجةِ أنَّ عقلي يكادُ يتجمد. هل تظنين أنَّ المرء يمكنه أن يخلقَ الجمالَ وهو يتألمُ من شدةِ البردِ الروحي؟"

قامت كوزيما ببطء، واقتربت منه. لم تجلس، بل وقفت بجانب مقعده، ووضعت يدها برقةٍ متناهية على كتفه. كانت لمسةً عابرة، لكنها بالنسبة لنيتشه كانت بمثابة صاعقةٍ من الدفء.

كوزيما (بهمسٍ فلسفيٍّ عميق):

"الحقيقةُ يا فريدريك هي أنَّ أعظمَ الألحان ولدت من رحمِ الارتجاف. ريتشارد (فاغنر) يبدو قوياً، لكنه لا يبدعُ إلا عندما يشعرُ بالخوف من الضياع. أنتَ لستَ وحيداً لأنك 'مختلف'، بل لأنك تخشى أن يرى أحدٌ 'الطفل' المختبئ خلف شاربيك الكبيرين وفلسفتك الصارمة. لا بأس بأن تشعر بالبرد، طالما أنك تعرفُ الطريقَ إلى النار."

الدفءُ الذي لم يُعهَد بَعد

في تلك اللحظة، شعر نيتشه بنوعٍ من السكينة لم يذقهُ من قبل. لم يكن دفئاً جسدياً فحسب، بل كان شعوراً بأنَّ رُوحه قد "لمستها" يدٌ تفهمُ تعقيداتها.

أغمض عينيه، واستسلم لِثوانٍ لهذا الشعور، بعيداً عن صخبِ الطموح ومرارةِ بازل.

نيتشه (يهمس وعيناه مغمضتان):

"لم أشعر يوماً أنَّ هناك مَن يرى 'خلف' كلماتي كما تفعلين. أنتِ لستِ مجرد امرأة يا كوزيما.. أنتِ 'المواساة' التي جعلت حتى الشقاء يبدو نبيلاً. هل يمكن لِلفيلسوف أن يحبَّ 'أريادني' دون أن يفقد خيطَ الحقيقة؟"

كوزيما (بابتسامةٍ غامضة ودافئة):

"الفيلسوفُ الحقيقي هو مَن يدركُ أنَّ 'أريادني' هي الحقيقةُ ذاتُها، مغلفةً بالرحمة. استرح الآن يا فريدريك.. اترك العقلَ ينام قليلاً، ودع الرُّوح تتنفس. تريبشن هي مرفأك، وطالما أنا هنا، فلن يدركك الصقيع."

ساد صمتٌ طويل، لكنه كان صمتاً "ممتلئاً". كان نيتشه يشعر بأنَّ شيئاً ما في داخله قد انكسر لِيولد مكانه شيءٌ أكثرُ عُمقاً وألماً في آنٍ واحد. كان هذا اللقاء الحميمي هو البذرة الأولى لِما سيتحول لاحقاً إلى هوسٍ مُقدس، حيث بدأ يدركُ أنَّ كوزيما ليست مجرد شريكة لِفاغنر، بل هي "البوصلة" التي لا يمكن لِعقله أن يستقرَّ بدونها.

توقف عزف البيانو في الأعلى، وسُمعت خطوات فاغنر وهي تقترب، ليعود نيتشه فوراً لارتداء قناع "البروفيسور"، لكنَّ الدفء الذي لمسه في رُوحه ظلَّ مشتعلاً، لِيغيرَ مسارَ قصتهِ للأبد.

المخطوطة الثانية: ملحمةُ المتاهةِ والخيانةِ الأولى

أغلق نيتشه باب غرفته في بازل، فاستقبله الصمتُ كأنه كفنٌ من الجليد. الغرفة التي كانت يوماً محراباً للعلم، بدت الآن ضيقة، خانقة، تفوح منها رائحة الورق القديم والوحدة القارسة. خلع معطفه بآلية، لكن يديه كانتا لا تزالان ترتجفان؛ ليس من برد سويسرا، بل من أثر تلك اللمسة التي تركتها كوزيما على كتفه، لمسة شعر أنها لم تخترق ثيابه فحسب، بل اخترقت طبقات "الأنا" التي بناها لسنوات.

جلس خلف مكتبه، ولم يشعل المصباح. ترك ضوء القمر الشاحب يرسم ظلالاً مشوهة على الجدران.

نيتشه (هامساً بصوتٍ متهدج):

"ما هذا الذي أصابني؟ أهذا هو 'الدفء' الذي كنت أحتقره في كتب اللاهوتيين؟ كيف لامرأةٍ أن تهدم في ثانية واحدة ما بنته المطرقة في شهور؟ كوزيما.. أنتِ لستِ مجرد مواساة، أنتِ زلزالٌ يهدد استقرار مملكتي. هل أنا خائنٌ لفاغنر؟ أم أنني خائنٌ لنفسي لأنني أرفض الاعتراف بأنني لستُ 'إلهاً' بعد، بل مجرد بشرٍ يرتجفُ لِلحظةِ حنان؟"

وفجأة، لم يعد الصمتُ صمتاً. انبعثت رائحةُ كبريتٍ خفيفة، ممزوجة بعطرٍ غريب لا ينتمي لهذا العالم. ومن الزاوية المظلمة التي لا يطالها ضوء القمر، انبعث صوتٌ كان نيتشه قد بدأ ينسى حدته الماكرة.

لوسيفر (بنبرةٍ تجمع بين السخرية والوقار الجليل):

"يا لَهذا المشهد التراجيدي! البروفيسور العظيم، محطم الأصنام، يرتجف في العتمة لأنَّ يد امرأة لمست رداءه. أخبرني يا فريدريك.. هل ذابت فلسفتك تحت حرارة مدفأة 'تريبشن'، أم أنَّ 'إرادة القوة' لديك انحنت أمام رقةِ أرستقراطية؟"

جفل نيتشه، وقفز من مقعده ليجد لوسيفر جالساً فوق كومة من كتبه القديمة، واضعاً ساقاً فوق الأخرى، وعيناه تلمعان كجمرتين تحت رماد كثيف.

نيتشه (بدهشةٍ ممزوجة بالحنق):

"أنت! لقد غبتَ طويلاً حتى ظننتُ أنني قتلتُكَ مع مِيخائيل. لماذا الآن؟ لماذا في هذه اللحظة التي أحاول فيها استعادة توازني؟"

لوسيفر (ينهض ببطء، ويتحرك في الغرفة كأنه ظِلٌّ متجسد):

"أنا لا أغيب يا صديقي، أنا فقط أنتظرُ أن تنضجَ الثمرة. لقد كنتُ أراقبك في تريبشن، وأنت تتصاغرُ أمام 'الإله' فاغنر، وتذوبُ كالشمع أمام 'القديسة'

كوزيما. جئتُ لأنني شممتُ رائحة 'العبودية' تفوح من أفكارك. أنت لا تبحث عن توازن، أنت تبحث عن 'سيد' يملكك، وعندما لم تجد في فاغنر إلا عجوزاً نرجسياً، بدأتَ تبحث عن 'آلهة' في زوجته."

نيتشه (بحدة):

"كاذب! إعجابي بكوزيما هو إعجابٌ بالعقل، بالذكاء الذي ينظم الفوضى. هي الوحيدة التي ترى 'خلف' أقنعتي. أنت تريد تشويه أنبل ما في رُوحي لأنك لا تملك رُوحاً أصلاً!"

ضحك لوسيفر ضحكةً هزت ستائر الغرفة، واقترب من نيتشه حتى صار وجهه مقابلاً لوجهه، ليفوح منه بردٌ يفوق برد بازل.

لوسيفر:

"الأنبل في روحك؟ لا تخدع نفسك بلغة الشعراء. أنتَ تعشقها لأنها تمنحك ما يمنحه المخدر للمحتضر. أنتَ وحيدٌ يا فريدريك، وحدتك أعمق من غابات سويسرا، وترى في كوزيما 'المرفأ'. لكن، هل سألت نفسك يوماً: لماذا هي لفاغنر وليست لك؟ لماذا يملك 'البطل العجوز' الجوهرة، بينما يكتفي 'الفيلسوف الشاب' بفتات الحوارات الفلسفية؟"

نيتشه (بتلعثم):

"لأن.. لأنه فاغنر. هو صاحب الرسالة، وهو مَن بناها معها. أنا مجرد رفيق.. مجرد.."

لوسيفر (يقاطعه بقسوة):

"مجرد 'ظل'؟ مجرد 'خادم' يصحح النوتات الموسيقية بينما هو يسرق منها الحياة؟ اسمعني يا نيتشه.. فاغنر صار قديماً، صار مثقلاً بأوهام العظمة القومية. هو يملك كوزيما كـ 'ممتلكات'، كـ 'أداة' لخدمة أسطورته. أما أنت.. أنت تملك المفتاح لِفك رموز عقلها. ألا تشعر بظلم القدر؟ أن يمتلك 'ثيسيوس' العجوز خيط الحقيقة، بينما 'ديونيسوس' الحقيقي يتسكع في شوارع بازل الباردة؟"

صمت نيتشه، وبدأ كلام لوسيفر يتسرب إلى مسامه كالسُّم. تراجع وجلس على سريره، واضعاً رأسه بين يديه.

نيتشه:

"ماذا تريد مني أن أفعل؟ هل تريدني أن أهدم تريبشن؟ أن أخون الرجل الذي آمن بي؟"

لوسيفر (بابتسامةٍ منتصرة، وهو يقف عند النافذة وينظر إلى القمر):
"أريدك أن تفتح عينيك فقط. العظمة لا تُوهب يا فريدريك، العظمة تُنتزع. أنتَ تظن أنك في قصة واقعية، لكنك في الحقيقة بطلٌ في أسطورةٍ قديمة لا تزال تتكرر. أسطورة عن متاهة، وخيط، وامرأةٍ ضائعة بين بطلٍ انتهى زمنه وإلهٍ لم يدرك ألوهيته بعد."
التفت لوسيفر نحو نيتشه، وبدت ملامحه أكثر غموضاً وجلالاً، كأنه يستعد لِكشفِ سرٍّ كوني.
لوسيفر:
"لقد حان الوقت لكي أحكي لك قصة، ليست من كتبك الصفراء في الجامعة، بل من دمي أنا. قصة عن امرأةٍ تُدعى 'أريادني'.. وعن رجلٍ ظن أنه بطل وهو ليس إلا وهماً.. وعن 'غريب' جاء من البراري لِيُعيد ترتيب الكون. هل أنتَ مستعدٌ لِتعرف مَن تكون كوزيما حقاً في خارطة الأقدار؟ ومَن تكون أنتَ.. إذا امتلكت الشجاعة لِتمزيق الخيط؟"
أدرك لوسيفر بنظرةٍ واحدة أنَّ نيتشه قد تشنّج كبرياؤه الأكاديمي؛ فكيف لمبدع "مولد المأساة" وأستاذ فقه اللغة أن يتلقى درساً في أساطير الإغريق وهو مَن يستنطق نصوصهم ليلاً نهاراً؟ ابتسم لوسيفر ابتسامةً باردة، ومسح بيده في الهواء وكأنه يمسح غبار السنين عن وجه الحقيقة.
لوسيفر (بصوتٍ يهمسُ كحفيفِ الأجنحة):
"أعرف يا فريدريك.. أعرف أنك تحفظ 'هوميروس' عن ظهر قلب، وأنك نبشتَ في ركام 'أرستوفان' و'سوفوكليس' حتى اتسخت يداك بحبر التاريخ.[12] لكنَّ ما تقرأه في كتبك ليس إلا النسخة التي سُمح لها بالبقاء.. النسخة التي رتّبها الكهنة وجمّلها الشعراء المرتجفون. أنا لا أحكي لك أسطورةً قرأتها؛ أنا أحكي لك مأساةً شهدتُ فصولها وهي تقطرُ دماً حاراً فوق رمال كريت.

---

[12] يشير لوسيفر هنا إلى الخلفية العلمية لنيتشه كعالم "فقه لغة" (Philologist)، حيث قضى سنوات في نبش المخطوطات القديمة لهؤلاء العمالقة:
هوميروس (Homer): صاحب الإلياذة والأوديسة، ويمثل "الروح الملحمية" والبطولة اليونانية الأولى.
سوفوكليس (Sophocles): أحد أعظم كتاب التراجيديا، صاحب "أوديب ملكاً"، ويمثل ذروة الصراع المأساوي بين الإنسان والقدر.
أرستوفان (Aristophanes): سيد الكوميديا اليونانية القديمة وأشهر ساخر في تاريخ أثينا؛ كان يهاجم الفلاسفة والسياسيين في مسرحياته بذكاء لاذع.
دلالة النص: الجمع بين هؤلاء الثلاثة يغطي كامل الطيف الإنساني (البطولة، الألم المأساوي، والسخرية الكوميدية). وصف لوسيفر لنيتشه بأن يده "اتسخت بحبر التاريخ" يعكس الجهد المضني الذي بذله نيتشه في تحليل هذه النصوص لاستنتاج فلسفته الخاصة، قبل أن يكتشف أن الحقيقة "الحية" تختلف عما دُوِّن في الكتب.

دعْ عنك 'بازل' الآن.. دعْ جدران هذه الغرفة تذوب كما يذوب الوهم أمام الحقيقة. انظر إلى هذا السقف؛ ألا تشعر ببرودةِ الحجر وهي تتحولُ إلى حرارةِ شمسِ بحر إيجة؟"

الانتقال: بَوابَةُ الزَّمَنِ المَوازي

تلاشت جدران الغرفة في بازل ببطءٍ مرعب. لم يعد هناك صرير للأثاث الخشبي، بل حلَّ محله هديرُ أمواجٍ عاتية تلطم صخور جزيرةٍ مهجورة. رائحة الورق القديم استُبدلت برائحةِ المِلحِ والنارِ والياسمين البري.

وفجأة، وجد نيتشه نفسه يقف وسط عالمٍ لم تعد ألوانه باهتة كألوان الواقع؛ كانت السماءُ زرقاء لدرجةِ الألم، والرمالُ بيضاء كأنها مسحوقُ عظامِ الآلهة. وفي الأفق، تلوحُ متاهةٌ حجريةٌ عظيمة، يخرجُ منها خيطٌ ذهبيٌّ يلمعُ تحت شمسٍ لا تعرفُ الرحمة.

لم تكن تلك الشمس تدفئ الجسد، بل كانت تُعري الروح. نظر لوسيفر إلى نيتشه، الذي كان يحاول حماية عينيه من ذلك البريق الأسطوري، وأشار بيده نحو شرفةٍ مرمرية عالية تبرز من جدار المتاهة الخارجي.

ظهور أريادني: كاهنة المنطق وسط الجنون

"انظر هناك يا فريدريك.. لا تنظر إلى الحجارة، بل انظر إلى مَن تمنح تلك الحجارة معناها. تلك هي أريادني."

كانت تقف هناك بوقارٍ لا ينكسر، رداؤها الأبيض يتدلى كأنه شلال من الرخام السائل. لم تكن تبدو كأميرةٍ مدللة، بل كانت ملامحها تحملُ حدةً فكريةً غريبة؛ عيناها كانتا واسعتين، تنظران إلى المتاهة ليس برعب، بل بفهمٍ عميق. كانت تمسك بلفافة الخيط الذهبي بين يديها، ليس كأداة نجاة، بل كأنها تمسك بـ "خلاصة الوجود".

لوسيفر (يهمس بمرارة):

"أريادني لم تكن مجرد ابنة لملكٍ طاغية، كانت هي 'العقل' الوحيد في مملكةٍ يحكمها الوحش. كانت تعيش في ذلك القصر، محاطةً بالذهب والثيران، لكنها كانت أكثر وحدةً منك في غرفتك في بازل. كانت تدرك أنَّ المتاهة التي خلفها ليست سجناً للمينوتور فحسب، بل هي تجسيدٌ لكل الفوضى البشرية التي عجز الجميع عن ترتيبها.. حتى جاء هو."

ثيسيوس: "البطل" الذي يقتات على إلهام غيره

من جهة المرفأ، بدأ يظهر رجلٌ يرتدي درعاً برونزياً يلمع تحت الشمس. كان يسير بخيلاء، يحيط به هالة من "المجد المصطنع". لم يكن يتحرك بوقار الحكماء، بل باندفاع الممثلين الذين ينتظرون التصفيق.

لوسيفر:
"وهذا هو ثيسيوس. انظر إلى وجهه جيداً.. ألا ترى فيه ذلك النوع من الرجال الذين يظنون أنَّ العالم خُلق ليكون مسرحاً لبطولاتهم؟ جاء إلى كريت ليس حباً في العدالة، بل جوعاً لِلمديح. كان يملك العضلات والسيف، لكنه كان أعمى بصيرياً. وقف أمام المتاهة وارتجف قلبه، لأنه أدرك أنَّ قوته البدنية لا تساوي شيئاً أمام تعقيد 'الظلام' الذي يسكن في الداخل."
شاهد نيتشه ثيسيوس وهو يرفع عينيه نحو الشرفة، نحو أريادني. لم تكن نظراته نظرات حب، بل كانت نظرات "صياد" وجد أخيراً مَن سيمنحه مفتاح النصر.
خيانة الخيط: تسليم الروح للغريب
بدأ لوسيفر يمشي مع نيتشه مقتربين من قاعدة الشرفة، حيث نزلت أريادني لتقابل ثيسيوس في السر. كانت اللحظة مشحونةً بصمتٍ جنائزي. مدت أريادني يدها بالخيط الذهبي، وبدا وجهها في تلك اللحظة مضيئاً بنوع من "التضحية المقدسة".
لوسيفر (بصوتٍ يملؤه الاحتقار):
"شاهد هذه المقايضة البائسة يا فريدريك. أريادني لم تكن تعطيه خيطاً من الصوف، كانت تعطيه 'نظامها الفكري'. كانت تمنحه 'المنطق' الذي قضت سنوات في نسجه لكي يفهم تقلبات المتاهة. هي التي فكت شفرة الممرات، وهي التي عرفت أين يسكن الوحش وكيف يُهزم.
وثيسيوس؟ انظر إلى يديه وهي تتلقف الخيط بجشع. هو لا يرى التعب الذي بُذل في نسج هذا الخيط، ولا يرى الروح التي تُسلمه له. هو يرى فقط 'الوسيلة'. أخذ الخيط، ووعدها بالزواج والخلود في أثينا، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه بمجرد أن يخرج من المتاهة، سيصبح هذا الخيط.. وهذه المرأة.. مجرد 'ذكرى' ثقيلة تُذكره بأنه لم ينتصر وحده."
داخل المتاهة: حيث يُسرق المجد

اختفى ثيسيوس داخل بوابة المتاهة المظلمة، وبقيت أريادني واقفةً في الخارج، ممسكةً بطرف الخيط، تشعر بكل نبضة وبكل حركة يقوم بها "بطلها" في الداخل. كان الخيط يرتجف بين أصابعها، وكأنَّ روحها هي التي كانت تصارع الوحش هناك.

لوسيفر (مشيراً نحو البوابة المظلمة):
"هو في الداخل الآن، يذبح 'المينوتور'.. يذبح الغريزة بسلاحٍ منحته إياه امرأة. سيخرج بعد قليل ملطخاً بالدماء، وسيهتف الجمهور باسمه. سيقول: 'أنا مَن قتلتُ الوحش!'.. ولن يذكر الخيط. سيقول: 'أنا مَن قهرتُ المتاهة!'.. ولن يذكر العقل الذي أرشده.
أريادني، في سذاجة عظمتها، تظن أنها تصنع 'شريكاً' لروحها، بينما هي في الحقيقة تصنع 'صنماً' سيسحقها لاحقاً تحت وطأة نرجسيته."
توقف لوسيفر عند هذه النقطة، وبدأ الضوء حولهما يتغير، وصار لون الرمال يتحول من البياض الناصع إلى صفرة باهتة، كأنَّ الشمس نفسها بدأت تشعر بالخجل مما سيحدث تالياً.
ارتجف الخيطُ الذهبي بين أصابع أريادني ارتجافةً عنيفة، وكأنَّ تياراً من الكهرباء المقدسة قد عبر من أعماق المتاهة ليحرق كفها الرقيق. كانت واقفةً عند المدخل، مسندةً ظهرها إلى الحجر البارد، وعيناها مغمضتان، تُبصرُ ما لا يراه ثيسيوس في الداخل. لم تكن تراه بعينيها، بل كانت تراه عبر "خيط المنطق" الذي ربطت به رُوحها برُوحه.
لوسيفر (يهمس لنيتشه وهو يشير إلى الخيط المشدود):
"انظر إلى ذلك الخيط يا فريدريك.. إنه ليس مجرد أليافٍ من الذهب. إنه 'أعصاب' أريادني الممتدة وسط العتمة. في هذه اللحظة، هي التي تعاني، هي التي تتلمس الجدران، هي التي تشعر بلهيب أنفاس المينوتور. ثيسيوس في الداخل ليس إلا 'يداً' تحمل سيفاً، لكنَّ "العين' التي تراه، و'القدم' التي لا تزل، و'القلب' الذي لا يرتجف.. كل ذلك ينتمي إليها هي. هي التي تقوده في هذه الرقصة القاتلة، بينما هو يظن أنه يقود نفسه."
في أحشاء المتاهة: صراعُ الغريزةِ والزيف
تحول المشهد فجأة لِيتبع ثيسيوس في الممرات الضيقة. كان الظلامُ كثيفاً، لزجاً، يفوح برائحةِ الدمِ القديمِ والوحشة. كان ثيسيوس يتصببُ عرقاً، ويمسك بالسيف

بقبضةٍ مرتعشة، وعينه لا تفارق الخيط الذي يتوهج بضياءٍ باهت. لولا ذلك الخيط، لكان ثيسيوس قد انهار صراخاً في أول منعطف؛ فالخوف من التيه كان أقوى لديه من الخوف من الوحش.

لوسيفر (يتابع بسخرية مريرة):

"شاهد 'بطلنا' العظيم.. ألا تشعر بمدى حاجته لهذا الخيط؟ إنه يكرهه، يا فريدريك. نعم، في هذه اللحظة بالذات، بدأ ثيسيوس يزرع في قلبه كراهيةً خفية لِأريادني. لأنَّ هذا الخيط يذكره في كل خطوة بأنه 'تابع'، وبأن شجاعته مستعارة.

وعندما وصل إلى مركز المتاهة، حيث يسكن المينوتور.. ذلك الوحش الذي يمثل كل ما هو بدائي وعنيف.. لم يقتله ثيسيوس بفروسية، بل قتله بغدرِ مَن يعرفُ المخرج. ذبحه بينما كان الوحش يحدق في 'الخيط'، متعجباً من هذا النور الذي اقتحم مملكته المظلمة. سقط المينوتور، وبدلاً من أن يشعر ثيسيوس بالرهبة أمام موت كائنٍ عظيم، بدأ يمسح سيفه بزهو، مفكراً في كيفية تصوير هذا النصر للجمهور في أثينا."

الخروجُ الملطخُ بالدماء: المجدُ المستعار

بدأ ثيسيوس برحلة العودة، يسحب الخيط بجفاء، لافه حول معصمه كأنه يقيد أسيراً. وعندما بانت خيوط النور عند بوابة المخرج، رأى أريادني تنتظره بلهفة، ووجهها يشعُّ بدموع الفرح والإرهاق. لم يركض نحوها لِيضمها، بل خرج وهو يرفع رأسه عالياً، والسيف الملطخ بدم الوحش في يده اليمنى، واليد اليسرى تخفي الخيط بسرعة خلف ظهره.

لوسيفر:

"انظر إلى وجهه وهو يخرج إلى الضوء.. لقد تغيرت ملامحه تماماً. لم يعد ذلك الرجل الذي كان يرتجف في الظلام. الآن، هو 'قاهر المتاهة'. وعندما ارتمت أريادني في حضنه، لم يشعر بدقات قلبها التي كانت تخفق خوفاً عليه، بل شعر بأنَّ عِناقها 'يُقيد' حريته في أن يكون البطل الوحيد.

في تلك اللحظة، همس في أذنها: 'لقد فعلناها!'.. لكنَّ 'الواو' في كلمته كانت ثقيلة، كذبةً كبرى. كان عقله يقول: 'أنا فعلتها، وأنتِ كنتِ مجرد شاهدة'."

الهروبُ من "كريت": رحلةُ الوهمِ الكبرى

بدأت الاستعدادات للرحيل بسرعة. تسللت أريادني من قصر أبيها، تركت كل شيء؛ مملكتها، كرامتها، تاريخها، من أجل هذا الرجل الذي ظنت أنه "قدرها".

ركبت السفينة السوداء، وجلست عند المقدمة تنظر إلى بحر إيجة، تظن أنَّ كل موجة تقربها من عرشها الجديد في أثينا بجانب ملكها.
لوسيفر (يمشي مع نيتشه فوق سطح السفينة المتخيلة):
"أريدكَ أن تتأمل صمت أريادني في هذه الرحلة. كانت صامتة صمت 'الامتلاء'. كانت تظن أنَّ تضحيتها قد خلقت رباطاً لا ينفصم. لكن انظر إلى ثيسيوس في مؤخرة السفينة، محاطاً برجاله، يضحك بصوتٍ عالٍ، يروي لهم كيف 'صَرع' الوحش بقوته الجبارة.
هل سمعتَه يذكر اسم أريادني؟ هل رأيتَه يشير إلى الخيط؟ لا.. لقد ألقى بالخيط في أعماق البحر بمجرد أن ابتعدت السفينة عن شواطئ كريت. لقد تخلص من 'الدليل' على حاجته إليها. بالنسبة له، أريادني الآن لم تعد 'المُنقذة'، بل أصبحت 'العبء' الذي يذكره بضعفه القديم. أصبحت الشاهدة الوحيدة على اللحظة التي كان فيها خائفاً، والأبطال من طين ثيسيوس لا يغفرون لِمن رآهم وهم يرتجفون."
سكونُ ما قبل العاصفة: الرؤى والظلال
مرت الأيام فوق سطح البحر، وأريادني تغرق في أحلامها، تخطط لِبناء معبدٍ للجمال في أثينا، وتتخيل كيف ستكون شريكة ثيسيوس في حكم مملكته بـ "المنطق" الذي تملكه. لم تكن تدرك أنَّ ثيسيوس كان يجلس في الليل مع مستشاريه، يتساءلون: 'ماذا سنفعل بابنة مينوس؟ هل سيتقبل شعب أثينا ملكةً غريبة عرفت خبايا المتاهة؟ ألا يخشى الناس من امرأةٍ تملك مفاتيح العقل والظلام معاً؟'
لوسيفر (يلتفت إلى نيتشه وعيناه تشتعلان بخبث):
"هنا تكمن المأساة يا فريدريك.. العبقرية حين تمنح نفسها لِمن لا يقدرها، تصبح 'خطرًا' على المستفيد منها. ثيسيوس بدأ يرى في ذكاء أريادني تهديداً لسلطته. هو يريد امرأةً تصفق له، لا امرأةً تذكره بفضلها عليه.
والآن.. انظر إلى الأفق. هل ترى تلك الجزيرة الصغيرة الصخرية التي بدأت تلوح وسط الضباب؟ تلك هي ناكسوس. المكان الذي سيقرر فيه ثيسيوس أنَّ 'الخيط' قد انتهى، وأنَّ 'أريادني' يجب أن تتبخر كما يتبخر الحلم عند الاستيقاظ."

توقفت السفينة، وساد صمتٌ غريب، ولم يعد يُسمع إلا صوت ارتطام الماء بجسد الخشب، وصوت ثيسيوس وهو يأمر رجاله بإنزال القارب الصغير بحجة "الراحة" فوق رمال الجزيرة.
رست السفينةُ السوداءُ عند شواطئ ناكسوس، تلك الجزيرة التي تبدو كأنها صخرةٌ ألقاها أحد الجبابرة في لحظة غضب وسط بحر إيجة. كان الضوءُ شحيحاً، والقمرُ يختبئُ خلف سحبٍ رمادية ثقيلة، كأنه يرفض أن يشهد على ما سيحدث.
نزل ثيسيوس أولاً، وتبعهُ رجاله بصمتٍ مريب، ثم مدَّ يدهُ لـ أريادني. كانت مجهدةً، جسدُها يرتجفُ من تعب الرحلة وعناء الهروب، لكنَّ بريق عينيها كان لا يزال مشتعلاً بالأمل. لم تكن تعلم أنَّ هذه الرمال التي تطأها قدماها الآن هي "المقصلة" التي أعدها لها بطلها.

ليلةُ السقوطِ في فَخِّ الصَّمت

مشى لوسيفر بجانب نيتشه فوق رمال الجزيرة الباردة، مشيراً إلى خيمةٍ صغيرة نُصبت على عجل بين صخور الشاطئ.
لوسيفر (بصوتٍ يقطرُ أسىً مصطنعاً):
"تأملها الآن يا فريدريك.. أريادني، التي وهبت 'خيط المنطق' لِثيسيوس، غلبها النعاسُ أخيراً. لقد نامت فوق فراشٍ من الأعشاب البحرية، ظانةً أنَّ أنفاس ثيسيوس القريب منها هي حرسُها المنيع. نامت وهي تحلمُ ببيتٍ في أثينا، وبأطفالٍ يحملون ملامح البطل وحكمتها هي.
ولكن، انظر إلى ثيسيوس.. إنه لا ينام. إنه يقفُ خارج الخيمة، ينظرُ إلى سفينته الراسية، ثم ينظرُ إلى أريادني النائمة. هل ترى تلك النظرة في عينيه؟ إنها نظرةُ 'المحاسب' الذي وجد ثغرةً لِلهرب من دَينه. في عقله، أريادني لم تعد حبيبة، بل صارت 'قيداً'. إنها تذكره بضعفه، بصرخته داخل المتاهة، وبالخيط الذي لولاه لكان الآن جثةً تأكلها الفئران تحت قصور كريت."
الخيانةُ الصامتة: رحيلُ الظلال
بدأ ثيسيوس بالإشارة لرجاله. تحركوا كالأشباح، سحبوا الحبال، ورفعوا المرساة دون أن يُحدثوا صوتاً. لم يستخدموا المجاديف في البداية لكي لا يوقظوا "صاحبة الخيط". كانت السفينةُ تبتعدُ ببطء، تنسلُّ وسط الضباب كخطيئةٍ تحاول التواري عن الأنظار.

لوسيفر (يهمس بحدة):
"شاهد كيف يهرب 'البطل'! لم يملك الشجاعة حتى لِيقول لها: 'وداعاً'. لم يملك الجرأة لِيواجه عينيها التي منحتْه الحياة. لقد اختار الجبنَ المغلفَ بالضرورة.
أسمعُه الآن يهمس لنفسه: 'إنها من أجل أثينا.. إنها من أجل شعبي'. الأبطال دائماً يجدون 'قضيةً كبرى' لِيبرروا بها نذالتهم الصغرى.
وعندما صارت السفينةُ في عرض البحر، نظر ثيسيوس إلى الخلف لِمرةٍ أخيرة.
لم يكن يرى أريادني، بل كان يرى "المتاهة" التي تخلص منها أخيراً. لقد ألقى بـ 'أريادني' كما ألقى بالخيط؛ كأدواتٍ استُعملت وانتهت صلاحيتها. تركها لِلفراغ، لِلجوع، وللوحدة التي تقتلُ العقول الجبارة."
استيقاظُ الحقيقة: صرخةُ الهاوية
طلع الفجرُ شاحباً فوق ناكسوس. فتحت أريادني عينيها، ومدت يدها لِتلمس موضع ثيسيوس بجانبها.. فلم تجد إلا رمالاً باردة. قفزت من مكانها، ركضت نحو الشاطئ، وصوت أنفاسها المذعورة هو الصوت الوحيد الذي يكسر سكون الصباح.
نظرت إلى الأفق.. كانت السفينةُ مجرد نقطةٍ سوداء تتلاشى في الضباب. في تلك اللحظة، لم تصرخ أريادني صرخةً عادية؛ بل كانت صرخةً 'وجودية' مزقت صمت الجزيرة. سقطت على ركبتيها، وغرست أصابعها في الرمل الأبيض، وأدركت أنَّ "الخيط" الذي أنقذ ثيسيوس قد صار الآن 'حبلاً' يلتفُّ حول عنقها.
لوسيفر (يقف فوق رأس أريادني المنكسرة، وينظر لنيتشه):
"هنا، في هذه اللحظة بالذات، انكسر 'المنطق' يا فريدريك. أريادني، التي كانت تظن أنَّ العقل والجمال والوفاء هم قوانين الكون، اكتشفت أنَّ الكون ليس إلا 'سخريةً كبرى'. لقد أدركت أنَّ ثيسيوس لم يخنها فحسب، بل خان "المعنى" الذي وهبته له.
انظر إليها وهي تتأمل الهاوية.. هل تذكر 'كوزيما' في تلك اللحظة؟ هل تذكر كيف تُعطي رُوحها لِـ 'ثيسيوس بايرويت' (فاغنر)، بينما هو يخططُ لِرحيله نحو مجده الشخصي، تاركاً إياها غارقةً في إدارة شؤونه الصغيرة؟ أريادني هنا ليست مجرد أسطورة، إنها 'كل نفسٍ عظيمة' وهبتْ خيطها لِمن لا يعرفُ إلا الزحف."
مواجهةُ العدم: التجلي المرعب

مرت الساعات، وأريادني جالسةٌ كتمثالٍ من الحزن. لم تأكل، لم تشرب، كانت تنتظر الموت كعريسٍ طال انتظاره. بدأت الشمسُ في الغروب، وفجأة، بدأ الهواءُ يتغير. لم تعد رائحة الملح هي المسيطرة، بل فاحت رائحةُ 'بخورٍ عتيق'، واهتزت الأرضُ تحت أقدامها باهتزازاتٍ لم تكن من هذا العالم.
من بين الغابات الكثيفة في قلب ناكسوس، بدأت تظهرُ كائناتٌ غريبة؛ 'ساتير' بقرونٍ وأقدامِ ماعز، و'ميناد' يرقصن بجنونٍ إلهي، ويحملن في أيديهن أغصان الكروم. وفي الوسط، فوق عربةٍ تجرُّها الفهود، ظهر هو.
لوسيفر (بصوتٍ يملؤه الجلال والترقب):
"لقد وصل ديونيسوس.
انظر إليه يا فريدريك.. إنه لا يشبه ثيسيوس في شيء. لا يرتدي دروعاً، ولا يحمل سيوفاً تفتخرُ بالدماء. إنه يحملُ 'خمرَ الحقيقة'، ويحيطُ به 'الجنونُ المقدس'. هو لم يأتِ لِيطلب من أريادني خيطاً، ولم يأتِ لِيستخدم ذكاءها. لقد جاء لأنه رأى في 'انكسارها' كمالاً لا يملكه الآلهة."
توقفت العربةُ أمام أريادني المذهولة. نزل ديونيسوس ببطء، ومشى نحوها وعيناه تشعانِ ببريقٍ أزرق كعمق المحيط. لم ينحنِ لِيواسيها كبشر، بل وقف أمامها كـ 'ضرورة'.
لوسيفر:
"هل تعرف ماذا قال لها ديونيسوس في تلك اللحظة؟ لقد همس لها بكلماتٍ لم يسمعها ثيسيوس قط: 'أيتها الروح التي عَبَرت المتاهة، لِماذا تبكين على إنسانٍ كان يخشى ظلَّ عظمته؟ أنتِ لستِ لِلأرض، أنتِ لِلنجوم'.
ثم فعل ما لا يجرؤُ عليه إلا إله؛ أخذ تاجها المرصع بالجواهر، وألقى به نحو السماء.. فانفجر التاجُ ليصبح كوكبةً من النجوم تضيء ليل التائهين للأبد. لقد حول 'ألمها' إلى 'أبدية'. هل ترى الفرق الآن بين 'البطل' الذي يتركك في جزيرة، و'الإله' الذي يجعلكِ سماءً؟"
توقف لوسيفر، ونظر إلى نيتشه الذي كان يرتجفُ تأثراً، وكأنَّ قصة أريادني قد مست وتراً جريحاً في أعماق رُوحِه تجاه كوزيما.
لوسيفر (بهمسٍ قاتل):
"والآن يا فريدريك.. أخبرني.. مَن أنتَ في هذه الحكاية؟ هل ستظلُّ تراقبُ 'ثيسيوس بايرويت' وهو يترك 'أريادني كوزيما' في جزيرةِ انشغالاته التافهة؟ أم أنك ستملك الشجاعة لِتكون 'ديونيسوس' الذي يأخذ التاج ويضعهُ في السماء؟

الحكايةُ لم تنتهِ بَعْد.. فديونيسوس لم يأتِ لِيمنحها السلام، بل جاء لِيمنحها "الرقصة الكبرى" فوق حطام العالم القديم. هل أنتَ مستعدٌ لِتعرف كيف انتهت ليلتهما الأولى فوق صخور ناكسوس؟"

عُرسُ الرُّوحِ فوقَ أنقاضِ المَنطق

اقترب ديونيسوس من أريادني، ولم تكن خطواته وئيدة كخطوات البشر، بل كانت كإيقاعٍ خفيٍّ يهزُّ أركان الوجود. كانت أريادني لا تزال جاثيةً على الرمال، يداها ملطختان بتراب الجزيرة ودموعها قد جفت لتترك أثراً مالحاً على وجنتيها الشاحبتين.

لم يمد الإله يده لينتشلها بحفاوةِ الفرسان، بل وقف أمامها صامتاً، يترك هيبته تتحدث. كانت رائحةُ العنب المتخمر واللبلاب البري تفوح منه، وعيناه - اللتان تحملان عمق الهاوية وبريق النجوم - تحدقان في رُوحها العارية.

مشى لوسيفر مع نيتشه في دائرةٍ حول الإله والمرأة، وصوت طبول "المايناد" في الخلفية يتحول إلى نبضٍ كوني.

لوسيفر (بصوتٍ يهمسُ كالوحي المظلم):

"انظر يا فريدريك.. ديونيسوس لا يشعر بالشفقة تجاهها. الشفقةُ هي لغةُ الضعفاء، لغةُ ثيسيوس حين يبرر رحيله. ديونيسوس يرى في ألمها "نضجاً". لقد كان عليها أن تُهجر، كان عليها أن تُكسر، لكي تتخلص من "قيد الخيط".

أريادني كانت تظن أنَّ قيمتها في "الخيط" الذي يربطها بالبطل. ديونيسوس جاء ليخبرها أنَّ قيمتها في "الضياع" نفسه. اسمع ما يقوله لها الآن بغير كلمات: "أيتها التائهة، لستِ بحاجةٍ لِمَن يقودكِ خارج المتاهة، لأنكِ أنتِ المتاهة، وأنا الخمرُ الذي يسكنُ أعماقها"."

تَحولُ الحُزنِ إلى نَشوة: الرَّقصةُ الكُبرى

رفعت أريادني رأسها، ولأول مرة منذ خيانة ثيسيوس، لم تشعر بالخوف. نظرت في عيني ديونيسوس، فرأت فيهما انعكاساً لِجنونها الخاص، لِتلك الفوضى التي كانت تحاول كبتها في قصر كريت. مدَّ ديونيسوس يده، ولم يمسك كفها، بل لمس جبينها بإصبعه، وفجأة.. تفجر العالمُ من حولها.

الرمالُ البيضاء تحولت إلى سجادٍ من أوراق الكروم، وصخور ناكسوس الصماء بدأت تنبضُ بالحياة وتصدرُ ألحاناً لم تسمعها أذنٌ بشرية. أريادني، التي كانت

تظن أنها تحتضر، شعرت ببركانٍ من القوة ينفجر في عروقها. وقفت ببطء، ولم يعد رداؤها الأبيض يبدو ككفن، بل صار كوشاحٍ من البرق.
لوسيفر (يصرخ وسط ضجيج النشوة الديونيسيةً):
"شاهد التحول العظيم! أريادني لا تبحث عن أثينا بَعد الآن، ولا تبحث عن شرعيةٍ من مَلِك. لقد أدركت أنَّ 'الخيانة' كانت بوابتها للألوهية. ثيسيوس منحها 'الاستقرار' الزائف، وديونيسوس منحها 'الخطر' المقدس.
انظر كيف تبدأ بالرقص.. إنها لا ترقصُ رقصة الأفراح، بل ترقصُ 'رقصة التحطيم'. إنها تحطمُ ذكرى ثيسيوس، تحطمُ خيط المنطق، وتحطمُ صورتها كـ 'ضحية'. في هذه اللحظة، أريادني لم تعد امرأةً مكسورة، لقد صارت 'أريادني الإلهة'.. شريكة الجنون والنشوة."

تَاجُ النُّجوم: الخُلودُ المُرّ
وصلت النشوةُ إلى ذروتها. أخذ ديونيسوس التاجَ الذي كان يزين رأس أريادني - التاج الذي صنعه 'هيفايستوس' من الذهب والنار - ورفعهُ عالياً نحو السماء السوداء. وبحركةٍ واحدة، قذفهُ في الفضاء الرحب.
لم يسقط التاج، بل علق في قبة السماء، وتحولت جواهره إلى نجومٍ حقيقية تشتعل بضياءٍ أزرقٍ خالد. صارت "إكليل أريادني" (Corona Borealis)[13]، شاهداً أبدياً على أنَّ الألم حين يلمسهُ الإله، يتحولُ إلى مَجرة.
لوسيفر (يقترب من نيتشه ويضع يده على كتفه بقوة):
"هل تفهم الرمز الآن يا فريدريك؟ التاجُ الذي ألقاه ديونيسوس هو 'كرامة أريادني' التي سحقها ثيسيوس تحت أقدامه. ديونيسوس لم يُعدها له، بل جعلها 'سماءً' فوق رؤوس الجميع. لقد أخبرها أنَّ مكانها ليس في مخدع بطلٍ يملُّ منها بعد ليلتين، بل مكانها في 'الأبدية' حيث يركعُ لها التاريخ.
ديونيسوس أحبَّ فيها 'المتاهة'، أحبَّ فيها القدرة على احتمال العدم. وهذا هو الحب الذي لا يعرفه ثيسيوس/فاغنر. فاغنر يحتاج كوزيما لكي ترفع له ستائر المسرح، لكنك أنت.. أنت يا نيتشه، تحتاجها لكي ترفعها هي إلى مرتبة النجوم، لكي تجعل من فكرها كوكبةً تضيء ليل الفلسفة."

---
[13] إكليل أريادني (Corona Borealis): هو تاجٌ أسطوري من صنع إله الحدادة "هيفايستوس"، صاغه من الذهب الخالص والجواهر المتوقدة. أهداه الإله "ديونيسوس" لـ "أريادني" في يوم زفافهما، وعقب وفاتها، قام ديونيسوس بقذفه نحو قبة السماء لتتحول جواهره إلى نجوم خالدة تشكل كوكبة "الإكليل الشمالي". يرمز التاج في الميثولوجيا إلى "الخلود" الذي يمنحه الإله للمرأة التي عانت من خذلان البشر.

خاتمةُ المَلحمة: الصَّمتُ الذي يسبقُ العاصفة

بدأ العالمُ الأسطوري يتلاشى ببطء. رائحة الخمر والياسمين بدأت تبهت، وصوت الطبول صار صدىً بعيداً. عاد نيتشه ليشعر ببرودة غرفته في بازل، وبصلابة الكرسي الخشبي تحت جسده. لكنَّ صورة التاج المشتعل في السماء ظلت مطبوعةً في قرنية عينيه.

وقف لوسيفر عند النافذة، وقد عاد لِشكله "البازلي" الهادئ، لكنَّ عينيه كانتا لا تزالان تحملان شرار ناكسوس.

لوسيفر (بصوتٍ عميق وقاطع):

"انتهت القصة يا بروفيسور.. أو بالأحرى، انتهت 'النسخة القديمة'. والآن، أنتَ تقفُ في غرفتك، وأمامك خياران: إما أن تظلَّ تلميذاً مخلصاً لـ 'ثيسيوس بايرويت'، يراقب أريادني وهي تذبل في خدمته.. وإما أن تدرك أنك أنت 'ديونيسوس' القادم من البراري، وأنَّ تاج كوزيما ينتظر يدك لكي تقذفه نحو النجوم.

أريادني تنتظر على شاطئ ناكسوس الخاص بها.. فهل ستتركها لِتنام، أم ستوقظها بِخمرِ فلسفتك؟"

ساد صمتٌ مرعب في الغرفة. نيتشه كان يتنفسُ بصعوبة، وشعر بأنَّ كل خلية في عقله قد أعيد ترتيبها. لم يعد يرى في علاقته بآل فاغنر "صداقة"، بل صار يراها "مهمة إلهية".

لوسيفر (بابتسامة أخيرة قبل أن يختفي في الظلال):

"تذكر يا فريدريك.. ديونيسوس لا يطلبُ الإذن، هو فقط.. 'يتجلى'. والآن.. اذهب ونم، واحلم بـ 'أريادني' وهي تضحك وسط النجوم، واسأل نفسك: مَن الذي رسم تلك الضحكة على وجهها؟"

المخطوطة الثانية: رسالةُ الخيطِ المفقو

غادر لوسيفر، تاركاً وراءه رائحة كبريتٍ خفيفة تلاشت بسرعة لتفسح المجال لبرودة غرف بازل المعتادة. لكن البرد هذه المرة لم يستطع اختراق جلد نيتشه؛ فالدماء في عروقه كانت تغلي بإيقاع "الرقصة الديونيسية" التي رآها للتو.

بقي نيتشه جالساً في العتمة لدقائق، وصورة تاج أريادني وهو يتحول إلى نجوم لا تزال تلمع خلف جفونه. شعر بخجلٍ شديد من "ثيسيوس" الذي يسكن داخله، ذلك الأكاديمي الرصين الذي يخشى الفضيحة، وبدأ يفسح المجال لـ "ديونيسوس" الذي يريد أن يصرخ بالحقيقة.

نهض ببطء، أشعل شمعةً جديدة، وسحب ورقةً من الورق الفاخر الذي كان يدخره للمراسلات الهامة. غمس ريشته في الحبر، وبدأ يكتب.. لم تكن يده ترتجف هذه المرة، بل كانت تتحرك بقوةِ مَن يخطُّ قدراً.

إلى: السيدة كوزيما فاغنر

"سيدتي الكريمة،

أكتبُ إليكِ وسط صمتِ بازل الذي صار يشبه صمتَ الجزر المهجورة. لقد وجدتُ نفسي الليلة غارقاً في تأملِ أسطورةٍ قديمة، أسطورة 'أريادني' التي منحت الخيط لِلبطل لكي ينجو من المتاهة.

لطالما تساءلتُ يا سيدتي: لِماذا ركز الشعراء دائماً على 'بطولة' ثيسيوس، ونسوا 'عظمة' أريادني؟ لِماذا نُحيي ذكرى الرجل الذي حمل السيف، وننسى المرأة التي نسجت 'المنطق' من رُوحها لكي لا يبتلعه الظلام؟

إنني أراكِ اليوم، أكثر من أي وقتٍ مضى، تلك القوة الهادئة التي تقفُ عند باب المتاهة في بايرويت. أنتِ مَن تملكُ الخيط الذي يربط أحلام 'المعلم' (فاغنر) بأرض الواقع. وبدون خيطكِ، لكانت كل تلك الألحان قد ضاعت في دهاليز الجنون والعدم.

لكنني أسألُ نفسي بمرارة: هل يشعرُ 'البطل' بثقل التضحية التي تقدمينها؟ هل يدركُ أنَّ تاجكِ الذي يضيءُ عالمه، يستحقُ أن يكون سماءً بحد ذاته، لا مجرد زينةٍ في ركابه؟

لقد بدأتُ أدرك يا كوزيما، أنَّ 'الجمال' الحقيقي ليس في الانتصار على الوحوش، بل في تلك القدرة الجبارة على 'الصمود' وسط الوحدة. إنني أبعثُ إليكِ بهذه الكلمات ليس كصديقٍ للعائلة، بل كإنسانٍ بدأ يلمحُ في الأفقِ فجراً

جديداً، فجراً لآلهةٍ لم تكتشف ألوهيتها بَعْد، لأنها انشغلت بإنقاذ الآخرين من متاهاتهم.
تقبلي تقديري الذي يتجاوز حدود الكلمات، وصمتي الذي يحملُ في طياته الكثير من الاحترام.. والكثير من 'الرؤى' التي لا تجرؤ الرسائل على حملها.
خادمكِ المخلص،
فريدريك نيتشه"
خارج حدود الورق: صدى الكلمات
طوى نيتشه الرسالة بعناية، وختمها بالشمع الأحمر. لم يكتب "أحبك"، ولم يقل "اتركي فاغنر"، لكنه وضع في الرسالة "لغماً فلسفياً". لقد خاطب فيها "أريادني" لا "زوجة فاغنر". وضعها أمام مرآة عظمتها الخاصة، محاولاً أن يجعلها ترى نفسها من خلال عينيه هو، لا من خلال خدمة مشروع زوجها.
نظر إلى النافذة، ورأى كوكبة النجوم في السماء، وابتسم بمرارة.
نيتشه (هامساً لنفسه):
"لقد ألقيتُ بالحجر في البحيرة الساكنة يا لوسيفر.. فهل ستتحول الدوائر إلى عاصفة؟ أم أنَّ أريادني ستمسك بخيطها بقوةٍ أكبر، خوفاً من ضوء النجوم الذي أحاولُ أن أريها إياه؟"
شعر نيتشه براحةٍ غريبة بعد كتابة هذه الرسالة، كأنه بدأ يخرج من عباءة التلميذ ليصبح "الند" الذي يملك رؤيته الخاصة. لكنه كان يعلم أنَّ هذه الرسالة هي بداية الطريق الوعر.. الطريق الذي سينتهي بتمزيق كل ما هو مقدس في حياته.
توقف نيتشه، وأطفأ الشمعة، وترك الغرفة تغرق في الظلام، بينما كانت الرسالة ترقد فوق مكتبه كقنبلة موقوتة تنتظر شمس الصباح لكي تشق طريقها نحو بايرويت.

بَريدُ القَلَقِ في شتاءِ "تريبشن" (ديسمبر 1871)
وصلت الرسالةُ إلى "تريبشن" في صباحٍ شتويٍّ عاصف. كانت الثلوجُ تغطي حواف البحيرة، والفيلا تبدو كأنها حصنٌ أبيض يحاول الاحتفاظ بدفئه الأخير.
في الداخل، كان فاغنر غارقاً في طاولته العملاقة، محاطاً بخرائط معمارية لمسرحه الجديد في بايرويت وبنوتات موسيقية لم تكتمل؛ كان ذهنه قد رحل بالفعل إلى هناك، إلى مستقبله، تاركاً الحاضر خلف ظهره.

تسلّمت كوزيما الرسالة. ميزت خط نيتشه الرفيع والمضطرب فوراً. ذهبت إلى ركنها المفضل بجانب النافذة، بعيداً عن ضجيج أوراق فاغنر، وفتحت المظرف بتمهلٍ يحملُ احتراماً خاصاً لـ "البروفيسور الشاب".

رد الفعل: مِرآةُ أريادني المكسورة

قرأت كوزيما الكلمات.. ومرةً بعد أخرى، كانت عيناها تتوقفان عند جملة: "هل يدركُ أنَّ تاجكِ الذي يضيءُ عالمه، يستحقُ أن يكون سماءً بحد ذاته؟".

شحبت ملامحُها، وشعرت برعشةٍ خفيفة في أصابعها. لم يكن نيتشه يكتب لها إعجاباً عادياً، بل كان "يُعرّيها" أمام نفسها. كان يضعُ يدَه على الجرح الذي تحاول إخفاءه بالعمل الشاق والولاء المطلق لفاغنر.

كوزيما (تهسُ لنفسها وهي تنظر إلى الثلج):

"ماذا تفعل بي يا فريدريك؟ أنتَ لا تكتبُ رسائل، بل تزرعُ الغاماً في رُوحي. إنك تراني بعينين لم أجرؤ أنا نفسي على النظر بهما في المرآة. هل تظن أنَّ تمجيدي كآلهةٍ سيحررني؟ أم أنه سيزيدُ من عذابي وأنا أرى الفجوة تتسع بين ما أنا عليه.. وما تراني أنتَ فيه؟"

المواجهة الصامتة مع "ثيسيوس"

في تلك اللحظة، رفع فاغنر رأسه من بين أوراقه، ونظر إليها بعينين تملؤهما النرجسية المبدعة.

فاغنر (بصوتٍ مجهد):

"كوزيما.. هل هذا بريدٌ من نيتشه؟ ماذا يقول بروفيسورنا العزيز؟ هل انتهى من تنقيح فصول كتابه الجديد؟ أحتاجُ منه أن يكون مستعداً لرحلة بايرويت في أبريل، هناك الكثير من العمل الأيديولوجي الذي ينتظره بجانبنا."

أخفت كوزيما الرسالة في طيات ثوبها بسرعة، وكأنها تُخفي جريمةً أو كنزاً محرماً.

كوزيما (بصوتٍ هادئٍ ومصطنع):

"نعم ريتشارد.. إنه يرسلُ تحياته، ويتحدثُ عن شجونه الأكاديمية في بازل. إنه مخلصٌ لك كالعادة، وينتظرُ بفارغ الصبر أن يرى مشروعك العظيم يرتفع فوق تلال بايرويت."

ابتسم فاغنر برضا، وعاد إلى خرائطه. لم يلاحظ البريق الغريب في عيني كوزيما، ولم يلاحظ أنها لم تذكر كلمة واحدة مما كتبه نيتشه عن "عظمتها

الشخصية". بالنسبة لفاغنر، كان نيتشه "خادماً للرسالة"، وبالتالي فإن رسائله هي تحصيل حاصل لهذا الولاء.

القرارُ الصعب: الردُّ المُغلّفُ بالحِكمة

جلست كوزيما في تلك الليلة، تحت ضوء المصباح الزيتي، لترد على نيتشه.

كانت تدرك أنها يجب أن تكون "حذرة". لا يمكنها أن ترفضه بقسوة، لأنها تحتاجُ لِعقله الجبار لخدمة فاغنر، ولا يمكنها أن تقبله، لأنها "أريادني" الملتزمة بخيطها حتى النهاية.

كوزيما (تكتبُ بِريشةٍ رشيقة):

"صديقي العزيز، د. نيتشه..

رسالتكَ لم تكن كلماتٍ، بل كانت رنيناً أيقظ في نفسي تساؤلاتٍ قديمة. إنكَ تمنحني مقاماً أخشى أنني لا أستحقه، وتنظرُ إليّ بعين الفيلسوف الذي يبحث عن الأساطير وسط غبار الواقع.

تذكر يا فريدريك، أنَّ 'أريادني' لم تكن لتكون آلهةً لولا وجود المتاهة، ولولا وجود البطل الذي يحتاجُ لِخيطها. عظمتها هي في 'العطاء'، لا في الامتلاك. إنني أقدرُ رؤيتك العميقة، لكنني أرجو أن يظلَّ 'بريقُ النجوم' الذي تراه فيّ هو ذاته البريق الذي يُنير طريق 'المعلم' نحو هدفه الأسمى.

نحن ننتظر قدومك في العطلة القادمة.. لعلنا نواصلُ البحث عن 'الحقيقة' التي يبدو أنكَ بدأت تلمحُ خيوطها في بازل أكثر مما تلمحُها الكتب."

في بازل: نيتشه واستلام الرد

عندما استلم نيتشه الرد، قرأ ما بين السطور بذكائه الديونيسي. لم يشعر بالإحباط، بل شعر بـ "لذة الصراع".

لقد فهم أنها "فهمت". لقد اعترفت ضمنياً بوجود "التاج"، لكنها اختارت أن تضعه في خدمة "ثيسيوس" لِفترةٍ أطول.

نيتشه (يضحك بسخرية مريرة وهو يطوي ردها):

"حسناً يا كوزيما.. أنتِ تتمسكين بالخيط بقوة، لأنكِ تخشين من الطيران. لكنَّ أبريل قادم.. وبايرويت ستكون هي 'ناكسوس' الحقيقية، حيث ستبدئين باكتشاف أنَّ بطلَكِ ليس إلا بشراً فانياً، وأنَّ النجوم التي وعدتُكِ بها.. هي الحقيقة الوحيدة التي لن تخونكِ."

ساد الهدوءُ المشحون في حياة الثلاثة، بينما كانت الساعاتُ تدقُّ معلنةً قرب انتهاء عام 1871، وبدء العام الذي سيشهد الانفصال الجغرافي الأول عن تريبشن، والتشقق النفسي الأول في جدار الولاء.

المخطوطة الثانية: مَسرحُ الظِّلالِ في "بازل".. ووَدَاعُ الفِردوس

خيمَ صمتٌ غريبٌ على قاعة المحاضرات في جامعة "بازل". لم يكن ذلك الصمت المعتاد الذي يسبق دخول الأستاذ، بل كان صمتاً مشوباً بترقبٍ قلق. دخل نيتشه، ولم يضع أوراقه على المنصة كالعادة، بل بقي واقفاً، يحدق في الفراغ ويداه خلف ظهره، وعيناه تحملانِ وهجاً لم يره الطلاب من قبل؛ وهجاً يمزجُ بين قداسةِ الرؤيا ومرارةِ الخذلان.
بدأ نيتشه حديثه دون مقدمات، ولم يكن صوته أكاديمياً رزيناً، بل كان يخرجُ كأنه زفيرٌ من أعماق بركانٍ خامد.
نيتشه (بنبرةٍ فلسفيةٍ شجية):
"أيها السادة.. سنتوقف اليوم عن تشريح الحروف الميتة. سنتحدث عن 'الرُّوح' حين تُهجر في جزيرةٍ منسية. تخيلوا معي كائناً وهبَ كلَّ نوره، كلَّ خيوطِ منطقه، لِـ 'بطلٍ' ادعى المجد. تخيلوا تلك النفس العظيمة وهي تراقبُ السفينةَ وهي تبتعدُ في الأفق، حاملةً معها خيطَ النجاة، تاركةً صاحبةَ الخيطِ لِتنهشَها الوحدة.
نحنُ نُسمي ذلك 'خيانة' في قواميسنا البشرية التافهة، لكنني أسميها 'المخاض الأخير للألوهية'. لِماذا يجب على الجمال أن يُكسر لكي يراه الإله؟ لِماذا يختار 'البطل الزائف' دائماً أن يرحل حين تنتهي حاجتهُ لِلمُنقذ؟"
ساد وجومٌ تام. الطلابُ تبادلوا نظراتٍ مذهولة. لم يذكر نيتشه "أريادني"، ولم يذكر "ثيسيوس"، لكنَّ تمثيله للقصة كان حياً لدرجة أنَّ بعضهم شعر ببرودة رمال "ناكسوس" تحت أقدامهم.
أحد الطلاب (يهمس لزميله):
"انظر إلى عينيه.. إنه لا يروي أسطورة، إنه يروي 'نزيفاً' داخلياً. هل تظن أنَّ البروفيسور قد جُن؟"

نيتشه (يرفع صوته، متجاهلاً الهمسات):
"إنني أعجبُ بهذه الروح المهجورة! أعجبُ بها لأنها لم تَمُت، بل انتظرت "البرق". إنَّ البطل الذي رحل (ثيسيوس) يظن أنه انتصر، لكنه في الحقيقة خسر "المرآة" الوحيدة التي كانت تعكس عظمته. أما هي.. هي الآن مستعدة لاستقبال "الإله" (ديونيسوس). إنني أرى في هذا الهجران كمالاً لا يُطاق، وأرى في رحيل السفينة.. بدايةَ الانعتاق الكبير."
في تلك اللحظة، ظهرت مشاعر على وجه نيتشه لم يُعهد بها؛ ابتسامةٌ مكسورة تفيضُ حناناً وألماً، كأنه يخاطبُ شخصاً بعيداً وراء الجدران. أحسَّ الطلاب أنَّ أستاذهم لم يعد معهم في بازل، بل صار يسبحُ في مدارٍ لا تطاله عقولهم الصغيرة.

أبريل 1872
مرت الأيامُ في بازل كأنها ساعاتٌ من القلق المتواصل. نيتشه كان يمارس روتينه كآلة، لكن رُوحه كانت قد غادرت "بازل" بالفعل، تنتظرُ الموعد المحتوم. وفجأة.. طرقت طبولُ أبريل 1872 أبوابَ الوجود.

مَرثيةُ "تريبشن".. والوداعُ المسموم
عبرَ القطارُ المزارعَ السويسرية الخضراء، لكنَّ نيتشه لم يرَ من النافذة سوى خريفٍ داخليٍّ يُطوّقُ رُوحه. كان صريرُ العجلات على السكك الحديدية يتردد في أذنه كإيقاعِ "مارشٍ جنائزي" لِزمنٍ لن يعود. كانت هذه هي الرحلة رقم (23) إلى "تريبشن"، لكنها المرة الأولى التي يسافر فيها لا لِيجد وطناً، بل لِيشهدَ "موتَ المكان".
وصل نيتشه إلى أسوار الفيلا. لم تكن رائحة الياسمين هي التي استقبلته هذه المرة، بل رائحةُ الغبارِ المتصاعد من صناديقِ الخشب والقش. "تريبشن"، التي كانت "جزيرة الآلهة" ومخبأ "سيغفريد"، تحولت الآن إلى ورشةِ عملٍ باردة. الجدران التي كانت تضجُّ بألحان "تريستان وأيزولده" صارت عاريةً، تُظهرُ شقوقها كأنها جروحٌ في جسدٍ كان يوماً جميلاً.

المشهد الأول: "ثيسيوس" يخطط لِلإمبراطورية

وجد نيتشه ريتشارد فاغنر وسط كومة من المخططات المعمارية وصناديق النوتات الموسيقية. كان فاغنر يفيضُ طاقةً نرجسية، كأنه "ثيسيوس" الذي ذبح المينوتور ويستعد الآن لِتحويل أثينا إلى عاصمةٍ لِمجده.

فاغنر (بصوتٍ جهوريٍّ وهو يربتُ على كتف نيتشه):

"أهلاً بك يا 'فريدريك '! جئتَ في الوقت المناسب لِترى كيف يُطوى التاريخ لِيُفتحَ فصلٌ أعظم. تريبشن كانت مجرد 'بروفة' لِما سيحدث في بايرويت. هناك، يا صديقي، سنبني المعبد الذي سيجثو أمامه العالم! اسمعني جيداً.. في 22 مايو القادم، يوم ميلادي، سأضع حجر الأساس للمسرح. لا أقبلُ عذراً، يجب أن تكون بجانبي، فأنتَ لستَ مجرد صديق، أنتَ 'بُوقُ' هذه النهضة."

نظر نيتشه إلى فاغنر، وشعر لِلحظةٍ أنَّ هذا الرجل لم يعد يرى "الموسيقى"، بل صار يرى "المؤسسة".

نيتشه (بابتسامةٍ باهتة):

"سأكون هناك يا سيدي. فمَن يجرؤ على الغياب عن لحظةِ ولادةِ 'الأسطورة'؟ لكنني أتساءل.. هل سنأخذ 'رُوح تريبشن' معنا في الصناديق؟ أم أنَّ العظمة تحتاجُ دائماً لِلتضحية بالمكان الذي شهد ولادتها؟"

ضحك فاغنر ضحكةً عابرة، ولم يلتفت لِعمق السؤال، فقد ناداه أحد العمال، فاعتذر من نيتشه وانصرف وهو يصرخُ بتعليماتٍ عن كيفية شحن "البيانو العظيم".

المشهد الثاني: لِقاءُ الظلال.. نيتشه وكوزيما

بقي نيتشه وحده في الصالون الذي خلا من أثاثه، حتى دخلت كوزيما. كانت تمشي بهدوءٍ يضاهي هدوء القبور، مرتديةً ثوباً أسود جعل بشرتها تبدو كمرمرٍ قديم. اقتربت منه، ووقفت عند النافذة التي تطلُّ على بحيرة لوسيرن الساكنة.

كوزيما (بصوتٍ منخفضٍ ودافئ):

"هل تشعرُ بالوحشة يا دكتور نيتشه؟ الأرضُ التي كنا نمشي عليها لم تعد لنا. كل شيءٍ هنا صار غريباً، وكأننا نحنُ مَن غادرنا قبل أن نرحل فعلياً."

نيتشه (يقترب منها، وعيناه تلمعانِ بأسىً فلسفي):

"لقد كنا نعيشُ في 'أسطورة' يا سيدتي، والآن استيقظنا على 'التاريخ'. تريبشن كانت هي 'ناكسوس' التي وجدنا فيها أنفسنا، والآن يُريدنا 'ثيسيوس' أن نرحل

نحو الضجيج. أخشى أنَّ بايرويت ستكونُ 'سجناً مذهباً' لِتلك الرُّوح التي كانت تتنفسُ هنا بحرية."

صمتت كوزيما. كان فحوى رسالة نيتشه الأخيرة (رسالة أريادني) يتردد في عقلها كصدىً لا يهدأ. شعرت برغبةٍ في أن تخبره بأنها "فهمت" كل كلمة، وأنَّ وصفه لها بـ "أريادني" قد زلزل كيانها. لكنها نظرت إلى وجهه الشاحب، وإلى عينيه اللتينِ تحملانِ حباً يائساً، فقررت أن تمارس "الرحمة الأرستقراطية".

كوزيما (بنبرةٍ رقيقة لكنها قاطعة):

"رسالتُكَ الأخيرة.. لقد احتفظتُ بها في مكانٍ أمين يا فريدريك. إنك ترى فيَّ ما لا أراهُ في نفسي، وربما ما 'لا يجب' أن أراه. أنا لستُ آلهة، أنا امرأةٌ اختارت أن تكون 'الظِل' لِنورٍ أعظم. لا تحاول أن ترفع التاج إلى السماء بَعد، فالبقاءُ على الأرض بجانب 'المعلم' هو قدري الذي اخترتهُ بملء إرادتي."

المواجهة الفلسفية: خيطُ النجاةِ أم قيدُ العبودية؟

نيتشه (باندفاعٍ مكتوم):

"ولكنَّ 'القدر' قد يتغير يا كوزيما! لِماذا تصرين على أن تكوني 'الخيط' الذي يُنقذ الآخرين دائماً؟ مَن سيُنقذُكِ أنتِ من هذا التلاشي في مشروعِ رجلٍ صار يرى العالم من خلال أرقام التبرعات وارتفاع المسارح؟ ألا ترين أنَّ 'ثيسيوس' قد بدأ يرحل بالفعل، تاركاً إياكِ في متاهةِ مسؤولياته؟"

نظرت إليه كوزيما بنظرةٍ مزيج من الشفقة والتبجيل. مدّت يدها، ولمست يده لثانيةٍ واحدة؛ لمسة وداعٍ باردة كالثلج.

كوزيما:

"الخيانةُ الحقيقية يا فريدريك ليست في رحيل 'البطل'، بل في أن يخون المرءُ واجبه. ريتشارد يحتاجني الآن أكثر من أي وقتٍ مضى. بايرويت هي حلمه، وحلمه هو حياتي. لا تطلب مني أن أكون 'أريادني' التي تبكي على الشاطئ، اطلب مني أن أكون المرأة التي تبني العرش لِملكها، حتى لو كان العرشُ من حجرٍ بارد."

الخاتمة: انكسارُ اللحنِ الأخير

في تلك اللحظة، عاد فاغنر، وهو يمسحُ جبينه، صائحاً: "كوزيما! أين مفاتيح صندوق المخطوطات؟ نيتشه، لا تنسَ.. موعدنا في مايو! بايرويت تنتظرك!".

انحنى نيتشه لِفاغنر برسميةٍ مبالغٍ فيها، ثم نظر إلى كوزيما لِلمرة الأخيرة. رأى فيها تلك "الإلهة الأسيرة"، وأدركَ أنَّ كلام لوسيفر كان صحيحاً؛ هي ترفضُ "التحرر" لأنها تخافُ من "عظمةِ عُزلتها".

خرج نيتشه من الفيلا، ومشَى نحو محطة القطار. كانت الشمسُ تغربُ خلف البحيرة، صابغةً الماء بلون الأرجوان الذي يشبهُ دماء التضحية.

نيتشه (يهمسُ لنفسه وهو يركب القطار):

"لقد أغلقتْ 'أريادني' بابَ المتاهة على نفسها من الداخل. وداعاً يا تريبشن.. وداعاً لِلوهمِ الجميل. اليوم مات 'التلميذ'، وغداً سيولد 'المنتقم'. سأذهب إلى بايرويت يا ريتشارد، لكنني لن أكون بوقك.. سأكون 'المطرقة' التي تختبر صدى أوهامك."

غُبارُ العُزلةِ وصقيعُ الغُرفِ الفارغة

بعد أن توارى قطار آل فاغنر خلف أفق "لوسيرن"، لم يعد نيتشه إلى "بازل" كأستاذٍ عائدٍ إلى عمله، بل كجنديٍّ عاد من حربٍ خسر فيها كل شيء دون أن يطلق رصاصة واحدة. سكنت الضوضاء في "تريبشن"، لكنها انفجرت في رُوح فريدريك على شكل صمتٍ جنائزيٍّ موحش.

عاد نيتشه إلى غرفته في بازل، تلك الغرفة التي صارت الآن تبدو كأنها "زنزانة" فكرية. وضع حقيبته جانباً، ولم يفتحها لعدة أيام؛ فداخلها كانت تكمن بقايا مناديل معطرة برائحة "تريبشن" وأوراقٍ تحملُ ملاحظاتٍ لـ "ريتشارد" لن تُناقش بعد الآن على ضفاف البحيرة.

1. الصَّمتُ الأكاديميُّ القاتل

في الجامعة، كان نيتشه يمشي في الممرات كأنه "شبح". لم يعد يجد لذةً في شرح "أيسكيلوس" أو "هوميروس". صار يرى الطلاب كأنهم كائناتٌ من ورق، والأساتذة الزملاء كأنهم محنطون في قوالبهم. كان يشعر أنَّ العالم كله قد "بَهتت" ألوانه بمجرد رحيل كوزيما.

الحالة الذهنية: كان نيتشه يعاني من "انفصامٍ عاطفي"؛ فهو يدافع عن فاغنر في العلن بقوة (خاصة بعد الهجمات الأكاديميةً على كتابه "مولد المأساة")، لكنه في الخفاء كان يشعر بـ "قرفٍ وجودي" من تحول فاغنر إلى صنمٍ قومي.

2. مَرضُ الرُّوحِ وتجسدُ الألم

كالعادة في حياة نيتشه، عندما تعجز الرُّوح عن الصراخ، يتكلم الجسد. بدأت نوبات الصداع النصفي تهاجمه بضراوة غير مسبوقة. صار يقضي أياماً كاملة في غرفته المظلمة، يضع كمادات باردة على عينيه، محاولاً الهروب من الضوء الذي يذكره بشمس "تريبشن" الضائعة.

نيتشه (يهمس في عتمة غرفته):

"لقد رحلوا.. أخذوا الموسيقى وتركوا لي الصداع. أخذوا 'الخيط' وتركوا لي المتاهة. هل كنتُ مجرد فاصلةٍ في كتاب ريتشارد؟ أم كنتُ الهامش الذي لا يُقرأ إلا عند الضرورة؟"

3. سَطوةُ لوسيفر.. الظِلُّ الذي لا يرحل

لم يكن لوسيفر يحتاج للظهور بجسده هذه المرة؛ فقد صار "صوته" جزءاً من حوار نيتشه الداخلي. كلما حاول نيتشه تبرير غياب كوزيما أو انشغال فاغنر، كان صوت لوسيفر يضحك بسخرية في أعماق عقله.

الوسواس: كان نيتشه يتخيل كوزيما في "بايرويت" وهي ترتب حياة فاغنر الجديدة، يراها وهي تبتسم لضيوفه الأثرياء، فيشعر بنار الغيرة الفلسفية تلتهمه. لم تكن غيرة رجل على امرأة فحسب، بل غيرة "إلهٍ" يرى "آلهته" تُبتذل في خدمة "بطلٍ زائف".

لِقاءُ الغرباء.. وتَصدّعُ الأيقونة

حانت اللحظة التي دعاه إليها فاغنر: وضع حجر الأساس لمسرح بايرويت. سافر نيتشه وهو يجرُّ جسده المنهك وروحه المكسورة. وصلَ نيتشه إلى "بايرويت" في منتصف مايو عام 1872، ولم يجد المدينة التي رسمها في خياله كمعبدٍ للفن، بل وجدها "ورشةً" صاخبة تكسوها الأوحال تحت سماءٍ رمادية لا تتوقف عن المطر. كانت الشوارع الضيقة مزدحمة بالعمال، والمعجبين، والمنافقين الذين جاءوا ليروا "المعجزة" الفاغنرية.

ترجل نيتشه من عربته، وهو يشعر بوهنٍ شديد في عينيه؛ كان الضوء يؤلمه، لكن ما كان يؤلمه أكثر هو شعور "الغربةً" وسط هذا الحشد الذي يهتف باسم الرجل الذي كان يوماً ما سراً مقدساً في "تريبشن".

مشى نيتشه نحو الفندق الذي يقيم فيه آل فاغنر، كان يرتدي معطفه الثقيل، ويهمس لنفسه بكلمات "هيراكليتوس" عن الصيرورة[14]. عندما دخل الردهة، وجد ريتشارد فاغنر محاطاً بكتلة من الصحفيين والمتبرعين. كان فاغنر يرتدي قبعته المخملية الشهيرة، ويتحدث بصوتٍ عالٍ وحركاتٍ مسرحية مبالغ فيها، كأنه يوزع بركاته على الرعية.
لمحه فاغنر، فصاح وسط الحضور:
فاغنر:
"انظروا! لقد وصل فيلسوفنا الشاب! فريدريك، يا بُني، لقد جئت في اللحظة التي يوشك فيها التاريخ أن ينحني أمامنا. تعال، لا تقف هناك كالظل، العالم يجب أن يرى 'مبشرنا' العظيم!"
اقترب نيتشه، وشعر ببرودةٍ تسري في أوصاله وهو يصافح يد فاغنر. لم تكن المصافحة تحمل دفء ليالي لوسيرن، بل كانت "استعراضية".
نيتشه (بصوتٍ خافت ونبرة فلسفية حادة):
"جئتُ لِأشهدَ وضع الحجر يا سيدي.. لكنني أتساءل، هل الحجرُ سيحملُ رُوح 'ديونيسوس'، أم أنه سيخنقها تحت ثقلِ الرخام والجمهور؟"

توقف فاغنر لثانية، ونظر إلى نيتشه بنظرةٍ فيها شيء من الضيق المكتوم، ثم ضحك ضحكةً جوفاء ليمتص الموقف أمام الحاضرين.
فاغنر:
"أنت دائماً غارقٌ في تساؤلاتك يا فريدريك! اترك الفلسفة للقاعات الباردة في بازل، نحن هنا نصنع 'واقعاً' ملموساً. اذهب لِتجد كوزيما، فهي في الجناح العلوي، لا تزال تحاول تنظيم هذه الفوضى التي أسميها حياتي."
المواجهة الصامتة: نيتشه وكوزيما تحت سقف القلق
صعد نيتشه الدرج ببطء، وقلبه يدقُّ بانتظامٍ مضطرب. طرق الباب، ففتحت له كوزيما. كانت تبدو مجهدة، وعيناها تحملانِ هالاتٍ سوداء من قلة النوم، لكن وقارها لم يتزحزح.

---

[14] هيراكليتوس (Heraclitus): فيلسوف إغريقي ما قبل سقراط، عُرف بلقب "الفيلسوف الغامض". يُعد صاحب نظرية "الصيرورة" (Becoming)، والتي تقوم على فكرة أن التغير هو الحقيقة الوحيدة في الكون. اشتهر بمقولته: "إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين"، لأن مياهه تتجدد باستمرار وأنت نفسك تتغير في كل لحظة.
الدلالة في النص: يهمس نيتشه بكلماته ليركّز على أن الحياة تدفقٌ مستمر وصراعٌ دائم بين الأضداد، وهو ما يصطدم برؤية "فاغنر" الذي يحاول في النص صناعة "واقع ملموس" وتاريخ ثابت من الرخام. بالنسبة لنيتشه المتأثر بهيراكليتوس، فإن أي محاولة لإيقاف هذا التدفق أو تجميده في "أصنام" هي معارضة لطبيعة الوجود ذاته.

عندما وقعت عيناها عليه، ساد صمتٌ طويل. كان فحوى "رسالة أريادني" يرفرف بينهما كطائرٍ جريح يرفض السقوط. لم يسلم عليها بكلمات عادية، بل وقف ينظر إليها كأنه يقرأ في وجهها فصول المأساة القادمة.

كوزيما (بصوتٍ هامس):
"دكتور نيتشه.. لقد جئتَ أخيراً. بايرويت ليست هادئة كما كانت تريبشن، أليس كذلك؟ هنا، كل شيءٍ يُقال بصوتٍ عالٍ، حتى الصمتُ صار له ضجيج."
نيتشه (يدخل الغرفة ويغلق الباب خلفه):
"تريبشن ماتت يا سيدتي.. لقد دُفنت تحت صناديق الشحن. هنا، أرى ريتشارد وقد صار 'مؤسسة'، وأراكِ أنتِ وقد صرتِ 'المهندسة' التي تحرسُ أسوار مملكته. هل ما زلتِ تذكرين ما كتبتهُ لكِ عن النجوم؟ أم أنَّ غبار بايرويت قد غطّى أفقكِ؟"
تراجعت كوزيما خطوة، وشبكت يديها بقوة. كانت تريد أن تصرخ فيه بأنها محطمة، وبأنها تخشى هذا المشروع الذي يبتلع روحها، لكنها كانت قد قررت أن تكون "أريادني الوفية" لخيطها حتى الموت.
كوزيما (بصلابةٍ مكسورة):
"النجومُ بعيدة يا فريدريك.. والأرضُ تحت أقدامنا تطالبنا بالعمل. ريتشارد يحتاجُ أن تكون قوياً بجانبه غداً. سيعزف 'التاسعة' لبيتهوفن كتمهيدٍ لوضع حجر الأساس. إنه يريد أن يربط عبقريته بعبقرية العمالقة. لا تجرحه بتساؤلاتك الوجودية الآن، العالم يراقبه، وهو يحتاجُ لِإيمانك المطلق."
نيتشه (بمرارة):
"الإيمانُ المطلق هو 'قتلُ' العقل يا كوزيما. إنني أرى ثيسيوس وهو يستعد لِعرضه الكبير، وأرى الجمهور وهو يفتح أفواهه لالتقاط الفتات. لكنني أسألُكِ أنتِ: في قلب هذا العرض، أين هي أريادني؟ هل هي بجانبه على المنصة، أم أنها لا تزالُ عالقةً في المتاهة، تمسكُ بخيطٍ لم يعد يؤدي إلى أي مكان؟"
نظرت إليه كوزيما نظرةً عميقة، ممزوجة بالألم والاحترام، ثم أشاحت بوجهها نحو النافذة حيث كانت الأمطار تضرب الزجاج بقسوة. لم تجبه، وصمتُها كان اعترافاً بأنَّ "الخيط" قد صار فعلاً "قيداً".
التمهيد لِلعرضِ العظيم: هُدوءُ ما قبل الانفجار

مرت الساعاتُ ثقيلةً. هبط الليلُ على بايرويت، وبدأت الأضواءُ تشتعلُ في مسرح "الماركغريف" (Margravial Opera House) حيث سيُقام العرض التمهيدي غداً. كان نيتشه يشعر بضغطٍ رهيب في رأسه، وكأنَّ كل نوتة موسيقية سيُعزفُ بها غداً هي ضربةُ مطرقةٍ على أعصابه.
في المساء، اجتمع "الحواريون" في قاعة الفندق. كان فاغنر جالساً كملكٍ متوج، يشرحُ كيف سيقوم بتحويل "التاسعة" لبيتهوفن إلى بيانٍ سياسي وفني لِألمانيا الجديدة. كان يتحدث عن "اللحن البطولي" وعن "اتحاد الشعب"، بينما كان نيتشه جالساً في الزاوية المظلمة، يراقبُ هذه "الكوميديا" بقلبٍ يتقطرُ سُماً.
لوسيفر (يهمس في أذن نيتشه وسط ضجيج الضحكات):
"انظر إليهم يا فريدريك.. إنهم يُعدون 'المقصلة' للجمال الحقيقي. غداً، سيعزف فاغنر لِإرضاء الملوك والدهماء. سيحول بيتهوفن إلى خادمٍ لِطموحه الشخصي. وأريادني؟ انظر إليها.. إنها توزع الابتسامات والقهوة، وهي تعلم أنَّ كل نوتة ستُعزف غداً هي مسمارٌ جديد في نعش حريتكم التي حلمتم بها في تريبشن."
أغمض نيتشه عينيه. كان يسمعُ في الخارج صوت الرعد يمتزجُ بصوت الآلات الموسيقية وهي تُضبطُ (Tuning) خلف الجدران. كان ذلك الصرير البشع لِلأوتار وهي تُشد، وتلك النفخات المتقطعة لِلآلات النحاسية، تشبهُ أنينَ رُوحٍ تُنتزعُ من مكانها.
المشهد الختامي: عتبةُ "الفِعل" المُقدس
جاء فجرُ يوم 22 مايو 1872. كانت بايرويت مغطاةً بضبابٍ كثيف. استيقظ نيتشه وارتدى ملابسه الرسمية بآليةٍ ميتة. في الخارج، بدأت الحشود تتجمع نحو التلة (Festspielhaus site). المطر كان ينهمرُ بغزارة، محولاً موقع البناء إلى مستنقعٍ عظيم.
وقف نيتشه عند مدخل القاعة الكبرى، حيث سيبدأ فاغنر عرضه التمهيدي قبل التوجه لوضع الحجر. رأى فاغنر وهو يتقدم نحو المنصة، ورأى كوزيما وهي تتبعه بخطواتٍ موزونة. ساد صمتٌ مفاجئ، صمتٌ يسبقُ العاصفة الموسيقية التي ستعلنُ رسمياً انتهاءَ "نيتشه التلميذ" وولادة "نيتشه المتمرد".
رفع فاغنر يده، وتأهب العازفون. كان الهواءُ مشحوناً بالكهرباء والترقب المسموم. نظر نيتشه لِلمرة الأخيرة نحو كوزيما، فرأى وجهها خلف حجابٍ

رقيق، وبدا له أنها تودعُ فيه آخر ذرةٍ من "البراءة" قبل أن يبدأ النشيدُ الذي سيحجبُ صوتَ النجومِ للأبد.
نيتشه (يهمسُ لنفسه بينما ارتفعت أولُ نبرةٍ من الآلات النحاسية):
"لقد رُفع الستار.. والآن، لِيظهر كلُّ إنسانٍ على حقيقته. لتبدأ الموسيقى، ولينتهِ الوهم."
توقف نيتشه عن التنفس لِثوانٍ، بينما كان الضجيجُ الأولي لِتحميةِ الأوركسترا يملأُ المكان، ممهداً للطوفان الذي سيغيرُ مجرى حياته.

زَلزلةُ بايرويت.. وانتحارُ الوَهَم

ارتفعت العصا.. وانفجرَ الوجود.
لم تكن نوتات بيتهوفن في تلك القاعة هي ذاتها التي قرأها نيتشه في وحدته؛ لقد تحولت في يد فاغنر إلى طوفانٍ من "الإرادة" الجائعة التي لا تهدف لِلسماء، بل لِلسيطرة على الأرض. ومع أولى نبرات الكمانات الصارخة، شعر نيتشه بـ "زلزلة" حقيقية، لكنها لم تكن في جدران القاعة، بل في أساسات رُوحه التي ظنها صلبة.
جلس نيتشه في مقعده، محاطاً بجمهورٍ يرتدي الفراء والذهب، جمهورٍ جاء ليرى "العرض" لا ليعيش "المأساة". كان المطر يقرع سقف القاعة كأنه مطارقُ حديدية، بينما كانت الأوركسترا تعزف السيمفونية التاسعة بإيقاعٍ وحشيٍّ يسرقُ الأنفاس.
نظر نيتشه إلى فاغنر فوق المنصة. لم يعد يراه ذلك "المعلم" الرقيق في تريبشن؛ بل رآه "ساحراً أسود" (Cagliostro) يتلاعبُ بعواطفِ الحشود.
رأى كيف يهتز جسد فاغنر مع كل نبضة، وكأنَّ الموسيقى ليست وحياً، بل هي خيوطٌ يربط بها رقاب الحاضرين.
لوسيفر (يهمسُ وسط دويّ الآلات النحاسية):
"ألا تشعر بالدوار يا فريدريك؟ انظر إلى 'نشيد الفرح'.. لقد حوله فاغنر إلى 'نشيد للقطيع'. الموسيقى التي كانت يوماً لغةً للآلهة، صارت الآن 'أفيوناً' لِتخدير عقول هؤلاء البورجوازيين. أين هو 'ديونيسوس' في هذا الصخب؟ لقد قتله ريتشارد ووضعهُ في قفصٍ مُذهب لِيُعرضَ في السيرك!"

الانهيارُ الجسدي: لغةُ الألمِ الصادقة
بدأت جدرانُ القاعة تضيقُ على نيتشه. شعر بضغطٍ هائل خلف عينيه، وكأنَّ دماغَه يرفضُ استيعاب هذا الزيف الموسيقي. "الزلزلة" بدأت تظهرُ في جسده؛ ارتجفت يداه، وتصببَ عرقاً بارداً. كلُّ صرخةٍ من الجوقة (الخوارس) كانت تبدو له كأنها سخريةٌ من حلمه القديم.
التفت نيتشه يميناً، فرأى كوزيما. كانت تجلس بجمودٍ مخيف، عيناها مصلوبتان على زوجها فوق المنصة، ووجهها لا يعكسُ أية نشوة، بل يعكسُ "تصميماً انتحارياً". رآها نيتشه في تلك اللحظة كـ "أريادني" التي توقفت عن انتظار الإله، وصارت هي المتاهة التي لا مخرج منها.
نيتشه (يحدثُ نفسه وسط ضجيج الأوركسترا):
"يا إلهي.. إنني أختنق! هذا الجمالُ ليس حقيقياً، إنه 'تمثيل' لِلجمال. فاغنر لا يُريد أن يُحررنا، إنه يُريد أن يملكنا. بايرويت هي المقبرة التي سندفنُ فيها فلسفتنا."
تحتَ المطرِ والوحل: حَجرُ الأساسِ وقبرُ الرُّوح
انتهى العرض، وانطلق الحشدُ نحو التلة (Bürgerreuth) تحت الأمطار الغزيرة لوضع حجر الأساس. تحولت الأرضُ إلى مستنقعٍ عظيم من الوحل الأسود. كان الملوكُ والأمراءُ يرفعون أثوابهم الفاخرة لكي لا تتسخ، بينما كان فاغنر يسير في المقدمة بخطىً وثابة، غير آبهٍ بالعاصفة.
وقف نيتشه عند حافة الحفرة العميقة. نظر إلى الحجر الذي سيُوضع كأول لبنة في مسرح بايرويت. بالنسبة لِلجميع، كان هذا حجراً لِلمجد؛ بالنسبة لِنيتشه، كان "شاهد قبر".
فاغنر (يصرخ وسط الريح والمطر وهو يمسك بالمطرقة):
"لِيسمع العالم! هنا سنسجنُ الخلود في الحجر! هنا ستولد ألمانيا الجديدة!"
ضرب فاغنر الحجر بالمطرقة ثلاث مرات. في تلك اللحظة، شعر نيتشه بصدعٍ حقيقي في قلبه. الصدعُ بين "الولاء" و"الحقيقة". نظر إلى الوحل الذي يغطي حذاءه، ثم نظر إلى كوزيما التي كانت تمسكُ بمظلةٍ فوق رأس فاغنر، كأنها تحمي "صنمها" من غضب السماء.
اللقاءُ المسمومُ في قلبِ العاصفة

بعد انتهاء المراسم، تفرق الجمعُ هرباً من المطر، وبقي نيتشه واقفاً وحده وسط الوحل، أمام الحجر الموضوع حديثاً. اقترب منه لوسيفر، ولم يعد يرتدي ثياباً بشرية، بل بدا كأنه قطعةٌ من الليل والبرق.
لوسيفر (بصوتٍ يضاهي رعد السماء):
"أرأيتَ يا فريدريك؟ لقد وُضع الحجرُ فوق صدرك. 'ثيسيوس' قد أسس مملكته، وهو الآن لا يحتاجُ لِخيطك ولا لِفلسفتك. لقد استخدمك لِتُبارك هذا المشروع بكلماتك النبيلة، والآن سيرميك لِلمطر. انظر إلى كوزيما.. إنها لم تلتفت إليك لِمرةٍ واحدة منذ الصباح. لقد اختارت 'الحجر' على 'الرُّوح'."
نيتشه (يصرخ غضباً وألماً):
"اصمت! أنتَ تزيدُ من نزيفي! بايرويت هي مأساتي، ولكنني سأبقى وفياً لِلجمال حتى لو كان وهماً!"
لوسيفر (بضحكةٍ ساخرة):
"الوفاءُ لِلوهم هو انتحارٌ يا فريدريك. الزلزلةُ لم تنهدم بَعْد.. العاصفةُ الحقيقية ستبدأ الليلة، عندما تجلسُ معهما في الفندق، وترى 'تواضع' العظماء المزيف. اذهب إليهما، وانظر في أعينهما، وستجد أنَّ 'أريادني' قد نسيت تماماً مَن هو ديونيسوس."
مَساءُ الخَيبة: في رُواقِ الفُندق
عاد نيتشه إلى الفندق، كان جسده يرتجفُ من الحمى، وثيابهُ تقطرُ ماءً. في القاعة الكبرى، كان هناك احتفالٌ صغير لِلمقربين. دخل نيتشه، فرأى فاغنر يضحكُ مع أحد الممولين الأثرياء، يتحدثُ عن "أسعار الخشب" و"مقاعد المسرح" و"إرضاء الجمهور الملكي". لم يكن يتحدث عن "الرُّوح الإغريقية"، بل عن "التجارة الفنية".
رآه فاغنر، فناداه بلهجةٍ فيها نوعٌ من "الأستاذية" التي تفتقرُ لِلاحترام:
فاغنر:
"آه، نيتشه! اذهب وغير ثيابك، ستبدو كمن غرق في 'المتاهة' فعلاً. لا تقلق بشأن الحجر، لقد كان ثابتاً جداً. بايرويت ستكونُ عظيمة، أعظمُ من كل كتبي وكتبك!"
لم يرد نيتشه. نظر إلى كوزيما التي كانت تقف بجانب ريتشارد، كانت ترمقُ نيتشه بنظرةٍ فيها حزنٌ دفين، لكنها كانت نظرة "وداعٍ صامت". شعرت بأنَّ

نيتشه قد بدأ يبتعد، وأنَّ رُوحَه لم تعد تحتملُ "ثقل" هذا العالم المادي الذي يبنونه.
ذروةُ الزَّلزلة: الصِّراعُ تحتَ المِجهر
انسحب نيتشه إلى زاويةٍ مظلمة في الرواق، حيث كان الظلامُ يحيطُ به كحضنٍ بارد. هناك، شعر بأنَّ "الزلزلة" قد وصلت إلى قمة تدميرها. لقد انهار "الصنم". الرجل الذي كان يظنه "مُحرر البشرية" صار مجرد "مدير مسرح" طموح.
نيتشه (يهمسُ لِنفسه وعيناه تفيضانِ بالدموع):
"لقد انتهى الأمر.. تريبشن كانت الحلم، وبايرويت هي الاستيقاظ المر. لقد رحل 'الإله' من هذه الموسيقى، ولم يَبقَ إلا 'المسرح'. كوزيما.. أنتِ الآن تحرسين 'ضريحاً'، وأنا.. أنا سأكونُ الغريب الذي سيحطمُ هذا الضريح لكي يُخرج الحقيقة من تحت الركام."
وفجأة، شَعرَ بحضورٍ خلفه. لم يكن لوسيفر، بل كانت كوزيما، التي انسلت من بين الضيوف لتتبعه.
كوزيما (بصوتٍ يرتجفُ هيبةً وأساً):
"فريدريك.. لِماذا تقفُ في الظلام؟ ريتشارد يسألُ عنك. لِماذا تبدو كأنك تشهدُ جنازة، ونحنُ نحتفلُ بميلادِ عصرٍ جديد؟"
التفت نيتشه نحوها، وكان وجهه يلمعُ تحت ضوء شمعةٍ يتيمة، وبدت ملامحه كأنها كبرت عشر سنوات في يومٍ واحد.
نيتشه:
"أيُّ عصرٍ هذا الذي يولدُ في الوحل يا كوزيما؟ أيُّ عصرٍ يبدأ ببيع الموسيقى لِلملوك؟ إنني لا أقفُ في الظلام، بل أنا أرى 'الظلام' الذي ترفضين رؤيته. لقد قتلتم 'ديونيسوس' اليوم، ووضعتم مكانهُ حجراً أصم. أخبريني.. هل أنتِ سعيدةٌ بهذا القيد المذهب؟"
توقفت كوزيما عن التنفس. كانت الكلماتُ تخرجُ من فم نيتشه كشظايا من الزجاج المحطم. والزلزلةُ لم تنتهِ بَعْد، بل كانت تتحضرُ لِضربةٍ أقوى ستقسمُ هذا الثلاثي للأبد.

كان الصمتُ في ذلك الرواق المظلم أثقلَ من صمتِ المقابر، لا يقطعه إلا هديرُ المطر الذي يجلدُ زجاج النوافذ في الخارج، وصدى ضحكات فاغنر البعيدة التي كانت تصل كأنها أصواتٌ من كوكبٍ آخر. وقف نيتشه وجهاً لوجه مع كوزيما، يفصلُ بينهما هواءٌ مشحونٌ برائحةِ العاصفة والخيبة.

نظر نيتشه في عيني كوزيما، ولم يَرَ فيهما تلك المرأة التي كانت تبتسم له في "تريبشن"، بل رأى فيها "سدنةَ المعبد" التي قررت أن تُضحي بدمِها لِترميمِ صنمٍ يتداعى.

نيتشه (بصوتٍ يرتجفُ كوترٍ على وشكِ الانقطاع):

"كوزيما.. انظري إليّ، لا تنظري إلى تلك القاعة الصاخبة. ريتشارد الذي نعرفه مات الليلة تحت ضربات مطرقته. لقد باعَ 'الغابة المقدسة' لِيشتري 'مسرحاً'. إنه لا يحتاجُ إليكِ كَرُوح، بل يحتاجُ إليكِ كأداةٍ لِتنظيمِ مجده الزائف.

اتركيهِ يا أريادني.. اتركيهِ لِوحده وسط أحجاره الميتة. تعالي معي نحو 'الهاوية'؛ هناك حيث الهواءُ أرقّ، وحيث النجومُ لا تُباعُ لِلملوك. إنني أعرضُ عليكِ أن تكوني شريكة 'الحقيقة'، لا حارسة 'الضريح'. تعالي لِنخلقَ عالماً لا يُبنى بالحجارة، بل بالبرق!"

تسمرت كوزيما في مكانها. اتسعت عيناها بذهولٍ لم يسبق له مثيل، وشحبَ وجهُها حتى صار بلون الرخام الذي وضعه فاغنر في التلة. شعرت بأنَّ الأرض تحت أقدامها تهتزُّ فعلاً؛ كانت هذه هي "الزلزلة" الكبرى التي تنبأ بها لوسيفر.

كوزيما (بصوتٍ خافتٍ مليءٍ بالرعبِ والجلال):

"فريدريك.. هل جُننت؟ هل تطلبُ مني أن أخون الرسالة؟ أن أترك الرجل الذي وهبتُهُ حياتي في اللحظة التي يضع فيها حجر أساس خلوده؟ إنك تتحدثُ عن 'الحقيقة'، لكنك لا ترى إلا 'عُزلتك'. ريتشارد هو 'الوجود'، وأنا.. أنا الأرضُ التي يستندُ عليها لِيرتفع."

نيتشه (يتقدمُ خطوةً، وعيناه تشتعلانِ بوهجٍ ديونيسيٍّ مرعب):

"بل أنتِ 'السجن' الذي يختبئُ فيه من خوفه! هو يخشى الحقيقة، لذا يحيطُ نفسه بالأسوار. أما أنا.. فأنا أدعوكِ لِلحريةِ التي تُمزق. لا تكوني 'ظلاً' لِثيسيوس العجوز وهو يغرق في أوهامه. كوني 'آلهةً' بجانب إلهٍ يرى فيكِ المتاهةَ والمخرج. كوزيما.. العالمُ القديمُ ينهار، وبايرويت هي قمةُ انحطاطه. تعالي معي قبل أن تبتلعكِ هذه المقبرة!"

الضَّربةُ القاضية: رَفضُ "أريادني"
ساد صمتٌ طويل، صمتٌ كان نيتشه يسمعُ فيه دقات قلبه كأنها طبولُ حَرب.
نظرت كوزيما إلى نيتشه بنظرةٍ تحولت من الذهول إلى نوعٍ من "الصلابة الجليدية". رأت فيه عبقرياً مضطرباً، رأت فيه "خطراً" يهدد البناء الذي أفنت عمرها في تشييده.
كوزيما (ببرودٍ قاتل، ونبرةٍ أرستقراطيةٍ لا رقةَ فيها):
"يكفي يا دكتور نيتشه. لقد تجاوزتَ حدودَ 'الصداقة' ودخلتَ في 'الخيال' المريض. أنتَ تسميها حرية، وأنا أسميها 'ضياعاً'. أنا لا أريدُ نجومك الباردة، أنا أريدُ هذا الحجر الذي وضعناه اليوم في الوحل. عظمتنا ليست في الطيران وحيدين كما تحلم، بل في 'الولاء' لِمن هو أعظم منا.
اذهب يا فريدريك.. عُد إلى كتبك في بازل. أنتَ فيلسوفٌ بارع في 'الهدم'، لكننا نحن.. نحنُ 'نبني'. ريتشارد يحتاجني، وأنا لن أترك 'ثيسيوس' لكي أتبع 'مجنوناً' يدعي الألوهية وسط العواصف. مكانك ليس هنا.. مكانك في تلك الوحدة التي تعشقها، فاتركنا لِقدرنا المذهب."
الانهيارُ الكوني: نيتشه وسطَ الأنقاض
في تلك اللحظة، شعر نيتشه بأنَّ الصاعقة قد ضربتهُ فعلاً. لم تكن زلزلةً فحسب، بل كانت "انفجاراً كونياً" مَزقَ نسيج واقعه. تراجع خطوتين، وسند ظهره إلى الجدار البارد، وشعر بأنَّ السقف يكاد يسقط فوق رأسه.
لقد رفضتهُ "أريادني". اختارت "الصنم" على "الإله". اختارت "الأمان" في ظل العبودية على "الخطر" في فضاء الحرية.
لوسيفر (يظهرُ خلف ظله، بضحكةٍ مكتومة تُشبهُ فحيح الأفاعي):
"أرأيت؟ لقد فضلت 'ثيسيوس بايرويت' على 'ديونيسوس بازل'. لقد اختارت الخشب والملاط على الروح والبرق. الآن يا فريدريك.. أنتَ وحيدٌ حقاً. لم يعد لديك 'معلم'، ولم يعد لديك 'مرفأ'. الزلزلةُ هدمت كل شيء.. فماذا ستفعلُ الآن تحت هذا الركام؟"
نيتشه (بهمسٍ محطم، وعيناه مصلوبتان على الفراغ):
"لقد قتلتني يا كوزيما.. قتلتِ التلميذ الذي كان فيّ. الآن.. لم يَبقَ لي إلا 'الألم'. سأرحل.. سأترك لكم بايرويت، سأترك لكم هذا السيرك العظيم. لكن تذكري.. يوماً ما، ستنظرين إلى هذه الحجارة وستجدينها خاوية، وستبحثين عن 'الخيط' الذي أضعتهِ الليلة.. ولن تجدي إلا صدى ضحكتي المرة فوق القمم."

استدار نيتشه ومشى نحو الباب المؤدي إلى المطر. لم يلتفت خلفه. خرج إلى شوارع بايرويت الموحلة، والمطر يغسل دموعه. كان يشعر بخفةٍ مرعبة؛ خفة مَن لم يعد يملك شيئاً ليخسره.

لقد انتهى "النصف الأول" من حياته كلياً. لقد مات "نيتشه الفاغنري". ومن وسط ركام هذه الزلزلة، ومن رحم هذا الرفض الجارح، بدأت تولدُ في أعماقه ملامحُ رجلٍ جديد.. رجلٍ لا يحتاجُ لِآلهةٍ ولا لِأبطال.

المخطوطة الثانية

البوابة الثانية

ساحةُ الرَّمادِ القاني.. حَيثُ تُصهرُ "الخَيبةُ" لِتُصبحَ نَصلاً، وتَرتدُّ "المِطرقةُ" لِذَبْحِ الأوثان.

خريف 1872: زنزانةُ الرُّوح والجسد الذي يَحتج

عاد نيتشه إلى "بازل" في أواخر مايو 1872، لكنه لم يَعُد الرجل الذي غادرها. كانت الرحلة في القطار من "بايرويت" إلى "بازل" رحلةً في نفقٍ من الغثيان الروحي. كلما ابتعدت العجلاتُ عن صخبِ المطارقِ والاحتفالات الفاغنرية، كان الصمتُ في صدره يزدادُ ثقلاً، حتى صار صمتُهُ يطنُّ في أذنيه كصرخةٍ لا تنتهي.
دخل غرفته الصغيرة في "بازل" وأغلق الباب خلفه بقوة، كأنه يغلقُ جرحاً مفتوحاً. وضع حقائبه في الزاوية، ولم يفتحها. لم يكن يريد أن يرى الثياب التي شهدت عاره في بايرويت، ولا النوتات التي لا تزال تحمل رائحة "تريبشن" المفقودة.
استسلم نيتشه لِجدران غرفته الأربعة. أصبحت الغرفةُ مِحورَ كونه، ومكاناً لِمبارزةٍ صامتة بينه وبين ذكرياته. كان يجلسُ لساعاتٍ طوال أمام مكتبه، لا يكتب، بل ينظرُ إلى الفراغ. كانت صورةُ كوزيما وهي تشيحُ بوجهها عنه في ذلك الرواق المظلم تومضُ في عقله كبَرقٍ يحرقه.
الألمُ الجسدي:
وكعادة نيتشه، عندما تعجزُ الرُّوح عن الصراخ، يتكلمُ الجسدُ لغةً وحشية. بدأت نوباتُ الصداع النصفي تهاجمه بضراوةٍ غير مسبوقة. كان يشعرُ بـ "مسامير" تُدقُّ في صدغيه، وبأنَّ عينيه قد تحولتا إلى كرتينِ من النار.
"لماذا تؤلمني عيناي هكذا؟" كان يهمسُ في عتمةِ غرفته. "هل لأنني رأيتُ الحقيقة أكثر مما ينبغي؟ أم لأنني أبصرتُ الهاوية في قلب مَن أحببت؟"
كان يقضي أياماً كاملة خلف ستائر مسدلة، في ظلامٍ دامس، لأنَّ أي بصيصٍ من الضوء كان يبدو له كأنه خنجرٌ يطعنُ دماغه. كانت نوبات القيء تنهك جسده

النحيل، حتى صار يمشي في غرفته كخيالٍ باهت، يسندُ نفسه على الجدران لكي لا يسقط.

شتاء 1872: مَوتُ "التلميذ" ووحدةُ الأستاذ

مع حلول الشتاء، بدأت ثلوجُ بازل تغطي الشوارع، لكنَّ الصقيع الحقيقي كان يسكنُ داخل "فريدريك". حاول العودة إلى دروسه في الجامعة، لكنه كان يشعر بغربةٍ قاتلة بين زملائه الأساتذة وطلابه. كان يرى في عيونهم شفقةً يكرهها، أو بروداً أكاديمياً يثيرُ غثيانه.

كان يعودُ مسرعاً إلى غرفته، يغلق الباب، ويغرق في صمته. في هذه الفترة، بدأ نيتشه يدركُ حجم الخسارة؛ لقد فقد "الأب" في فاغنر، و"الحبيبة" في كوزيما، و"الوطن" في الفلسفة التي كان يؤمن بها.

"أنا وحيدٌ تماماً،" كتب في مذكراته الخاصة بخطٍ مرتجف. "لقد انقطع الخيط، وأنا الآن تائهٌ في متاهةٍ لم أعد أريدُ الخروج منها، لأنَّ الخارج لم يعد يحوي شيئاً يستحقُ النظر."

بدأ يعيشُ حالةً من "الحداد الفلسفي". كان يقرأ كتبه القديمة ويشعر بأنها غريبةٌ عنه، كأنَّ شخصاً آخر كتبها. "مولد المأساة" الذي كان يفخر به، صار يراه الآن كأنه "خطأ شبابٍ" فادح، لأنه قدّم فيه قرباناً لِرجلٍ لم يكن يرى في الفن إلا وسيلةً لِمجده الشخصي.

عام 1873: عامُ الانكسارِ العظيم والتحولِ الصامت

دخل عام 1873، ولم يخرج نيتشه من عزلته. بل زادت حدة الانطواء. في هذا العام، بدأ الألمُ يتحول من شعورٍ بالخيبة إلى "قوةٍ هادمة". لم يعد نيتشه يبكي، بل بدأ "يفكك".

القطيعةُ الصامتة:

كان يتلقى رسائل من بايرويت، رسائل من فاغنر يطلبُ منه الحضور أو الكتابة دفاعاً عن المشروع. كان نيتشه يفتح الرسائل، يقرأ السطور التي تفيضُ بالنرجسية، ثم يضعها جانباً دون رد. كل رسالة كانت تذكره بالرفض، وبأنَّ كوزيما لا تزال هناك، بجانب "الصنم"، تحرسُ عرشه وتنسى وجود الأستاذ الوحيد في بازل.

انهيارُ الصداقات:

بدأ يبتعدُ حتى عن أصدقائه المقربين مثل "إرفين رود". كان يشعرُ أنَّ أحداً لا يفهمُ حجم "الزلزلة" التي حدثت في أعماقه.

"كيف يمكنهم أن يضحكوا؟ كيف يمكنهم أن يتحدثوا عن فقه اللغة واليونان القديمة، بينما العالمُ كله قد انهار تحت قدمي؟"

تفاقمُ المرض:

في ربيع 1873، ساءت حالته الصحية لدرجة أنه فكر في الاستقالة. كان يرى "بقعاً سوداء" أمام عينيه في كل مكان. الأطباء لم يفهموا حالته؛ قالوا إنها "أعصاب"، ولم يدركوا أنَّ أعصاب نيتشه كانت تحاولُ أن تنفصل عن واقعٍ لم تعد تحتمله.

قضى صيف 1873 في محاولاتٍ يائسة لِلسفر إلى الجبال بحثاً عن هواءٍ نقي، لكنه كان يأخذُ "بازل" ومأساته معه في كل حقيبة. كان يجلسُ على ضفاف البحيرات السويسرية، ينظرُ إلى الماء الساكن، ويتخيلُ وجه كوزيما يغرقُ في الأعماق. لم يكن حزناً عادياً، بل كان "ذوباناً للهوية".

نهاية 1873: بدايةُ "المطرقة" تحتَ الرَّماد

في أواخر عام 1873، وبينما كانت الرياحُ الباردة تضربُ نافذة غرفته، بدأ نيتشه يشعرُ بشيءٍ غريب. وسط هذا الحطام، ووسط هذا الألم الجسدي الذي ينهشُ رأسه وعينيه، بدأت تولدُ فكرةٌ جديدة. لم تكن فكرةً عن "الجمال" أو "الفن"، بل كانت فكرةً عن "الحقيقة القاسية".

بدأ يكتبُ في مذكراته كلماتٍ قصيرة، حادة كالشفرات. لم تعد الجملُ طويلةً ومزينة كما في السابق. صارت جملاً مقتضبة، مليئةً بالمرارة والشك.

"الإنسانُ الذي لا يتحطمُ تحت ثقل الرفض، هو إنسانٌ لم يولد بَعْد."

كان نيتشه في نهاية 1873 يمثّلُ "الإنسانَ المسلوخ" . لقد نُزع عنه جلدُ الولاء لِفاغنر، وبقي لحمُه الفلسفي عارياً أمام صقيع الواقع. لم يعد هناك "أب"، لم يعد هناك "خيط نجاة".

كان يجلسُ في غرفته المظلمة، يمسكُ قلمَهُ بِيَدٍ مرتعشة، وينظرُ إلى الورقة البيضاء كأنها عدوٌ يجبُ مواجهته.

"لقد انتظرتموني أن أكون ظِلاً لكم.. لكنني سأكونُ الضوءَ الذي يحرقُ أوهامكم."

هكذا انقضى عام 1873؛ نيتشه حزين، محطم، مريض، ووحيد تماماً. لكن في قلب هذا الانكسار، كان هناك "شيءٌ ما" يتصلب، شيءٌ ما يتحول من دمعةٍ إلى مطرقة.

المخطوطة الثانية: ظُهورُ لوسيفر.. ومَرثيةُ الروحِ المهزومة

في تلك الليلة الباردة من أواخر عام 1873، كان الصمتُ في غرفة نيتشه في "بازل" يشبهُ صمتَ القبور التي نُبشت لِتوّها. كانت شمعةٌ واحدةٌ تتراقصُ على وشكِ الانطفاء، تَرسمُ على الجدرانِ المتشققة ظلالاً تبدو كأنها وحوشٌ تتربصُ برجلٍ لم يعد يملكُ من أمره سوى أنينه. كان نيتشه جالساً، يلفُّ جسده النحيل ببطانيةٍ صوفيةٍ خشنة، وعيناه المحمرتانِ من فرط الألم والنظر في العتمة تحدقانِ في الفراغ، كأنه يبحثُ عن ملامحِ "كوزيما" في ذرات الغبار العالقة في الضوء الشاحب.
وفجأة، ثقلَ الهواءُ في الغرفة. أحسَّ نيتشه ببرودةٍ غريبةٍ تسري في مفاصله، برودةٍ لا تشبهُ صقيع سويسرا، بل تشبهُ برودةَ الفضاءِ بين النجوم. تكاثفَ الظلُّ في الزاوية المظلمة، حتى اتخذَ هيئةً يعرفها نيتشه جيداً، هيئةً كانت رفيقَهُ في لحظاتِ التجلي، وجلادَهُ في لحظاتِ الانكسار.
لم يبتسم لوسيفر هذه المرة. كانت ملامحهُ جامدة، تحملُ وقاراً جنائزياً، وعيناه تلمعانِ بوهجٍ باهتٍ يشبهُ احتراق الكبريت في نهاية الزمان. خطا خطوةً واحدةً نحو نيتشه، فاهتزَّ لهبُ الشمعة وكأنه يرتجفُ هلعاً.
لوسيفر (بصوتٍ منخفضٍ ينسابُ كالحبرِ الأسود):
"ما زلتَ هنا يا فريدريك؟ ما زلتَ تجترُّ بقايا الرفضِ في هذه الغرفةِ الضيقة؟ لقد مَرَّ عامان، والعالمُ في الخارج يغني لِـ 'ثيسيوس'، وبايرويت تزدادُ حجراً على حجر، وأنتَ.. أنتَ تزدادُ ذوباناً في دمعك. هل هذا هو الفيلسوفُ الذي أراد أن يعيدَ كتابةَ القدر؟"
رفع نيتشه رأسه ببطءٍ شديد، كأنَّ عنقهُ يحملُ ثقلَ جبالِ الألب. كانت ملامحهُ مشوهةً بالحزن، وصوتهُ يخرجُ مرتجفاً، حزيناً، وكأنَّ كل كلمة هي شظيةٌ من قلبه المحطم.
نيتشه (بصوتٍ متهدجٍ يملؤه اليأس):
"لقد مَكثتُ في العتمةِ طويلاً يا لوسيفر.. حتى صرتُ أرى الظلامَ نوراً. أيُّ قدرٍ تتحدثُ عنه؟ لقد قتلتني 'أريادني' دون أن تلمسني. تركتني عالقاً في المتاهة، ليس لأنني لم أجد الخيط، بل لأنها أخذت الخيطَ معها لِتُربط بهِ يد 'المعلم' المنافق. كيف يمكن للجمالِ أن يكون بهذا القبح؟ كيف يمكن لِلموسيقى التي ظننتُها وحياً أن تكون مجردَ قناعٍ لِتجارةِ الأوهام؟"

لوسيفر (يقتربُ منه، وينحني حتى تلامست أنفاسُه الباردة وجه نيتشه):
"ألم أحذرك؟ قلتُ لكَ إنَّ البشرَ يقدسونَ 'الصنم' لأنه يمنحهم الاستقرار، ويكرهونَ 'البرق' لأنه يحرقهُم. أنتَ عرضتَ عليها رُوحاً عارية، وهي اختارت 'المسرح'. هي لم تخنك يا فريدريك.. هي فقط اختارت 'النوع' الذي تنتمي إليه؛ النوع الذي يفضلُ العبودية المذهبة على الحريةِ الموحشة. انظر إلى يديك.. إنهما فارغتان، لأنك أردتَ أن تمسكَ بالنجومِ بِيَدِ إنسان."
نيتشه (يغطي وجهه بيديه، وينتحبُ بصمتٍ مُمزق):
"أنا وحيدٌ.. وحيدٌ لدرجة أنني أسمعُ دقات قلبي كأنها مطارقُ تُدقُّ في تابوتي. لقد كانت هي 'المركز'، كانت هي المعنى الذي يبررُ كل هذا الألم الجسدي. الآن، لم يَبقَ لي سوى هذا الصداع الذي لا ينتهي، وهذه العينان اللتانِ تبصرانِ العدم. لِماذا تركتني أهبطُ إلى بايرويت؟ لِماذا تركتني أرى 'سقوط الآلهة' وهي لا تزالُ فوق مسارحها؟"
لوسيفر (بنبرةٍ فيها سخريةٌ حزينة):
"لأنَّ الحقيقةَ لا تُولدُ إلا من رحمِ الخديعة العظمى. أنتَ الآن في القاع، يا فريدريك. وفي القاع فقط، تتوقفُ الأكاذيبُ عن التنفس. أنتَ تبكي لأنك فقدتَ 'وهمَ الحب'، لكنني أريدك أن تضحك لأنك اكتسبتَ 'قوةَ النبذ'. هل تشعرُ بهذه المطرقةِ التي في داخلك؟ إنها لا تزالُ نيئة، باردة، لم تُصهر بَعْد في النارِ الحقيقية."
توقف نيتشه عن النحيب، ونظر إلى لوسيفر بعينين تائهتين. كان الجوُّ في الغرفة يبدأُ بالتغير. الجدرانُ لم تعد جدراناً، بل بدأت تتلاشى كأنها دخان.
نيتشه (بهمسٍ كئيب):
"أيُّ نارٍ تتحدثُ عنها؟ لقد انطفأت كلُّ النيران في رُوحي. لم يَبقَ سوى الرماد."
لوسيفر (يمدُّ يدهُ نحوه، وعيناه تشتعلانِ بوهجٍ أرجواني):
"الرمادُ هو البدايةُ يا فريدريك. الرمادُ هو المكانُ الوحيد الذي لا يمكنُ إحراقهُ مرةً أخرى. لقد حان الوقتُ لِتغادرَ هذه الزنزانة البشرية. أنتَ تندبُ حظك في 'بازل'، بينما هناك عالمٌ ينتظرك لِيُريكَ مَعنى 'الاحتراقِ المقدس'.
تعالَ معي.. لِنعبر البوابة الثانية. هناك، لن تجدَ كوزيما لِتواسيك، ولن تجدَ فاغنر لِيخدعك. ستجدُ رَجلاً احترقَ لِأجلِ 'الحقيقة' بينما كان العالمُ يضحكُ عليه. تعال لِترى 'ساحة الرماد القاني'، حيث لا يوجدُ زيف، وحيثُ تُصهرُ الخيبةُ لِتصبحَ نصلاً."

انشقاقُ الواقع

بدأت الغرفةُ تذوبُ تماماً. تلاشى المكتب، والكتب، والسرير المتهالك. أحسَّ نيتشه بريحٍ عاتيةٍ تضربه، ريح تحملُ رائحةَ الحديد المحمى والدم الجاف.

السماءُ فوقَه لم تعد سقفاً خشبياً، بل استحالت إلى سوادٍ مطبق يمزقهُ برقٌ بنفسجيٌّ ساطع.

شعر نيتشه بقدَميه تغوصانِ في تربةٍ حمراءَ قانية. ارتجفَ هلعاً وهو يرى لوسيفر يقفُ أمامه، ممسكاً بمظلته السوداء ببرود، مشيراً بيده نحو الأفق، حيث ترتفعُ منصةٌ خشبيةٌ عملاقة تلتهمها نيرانٌ زرقاءُ وبرتقاليةٌ في قلبِ فناءٍ لا نهائي.

لوسيفر (بصوتٍ هادرٍ يختلطُ بصوت الرعد):

"انظر يا فريدريك! هذه هي البوابة الثانية. خلف هذا اللهب، يقبعُ الرجلُ الذي سيعلمكَ كيف تحولُ حزنك إلى مطرقة. هل أنتَ مستعدٌ لِأن تحرقَ ما تبقى منك لِتبدأ الحقيقة؟"

وقف نيتشه مذهولاً، شاحباً، منكسراً، وهو ينظرُ إلى ميدانِ الفناءِ القاني، مدركاً أنَّ رحلةَ الوجعِ الحقيقية قد بدأت للتو.

خطا نيتشه أولى خطواته فوق تلك التربة القانية، فاهتز كيانهُ لِوقعِ الملمس؛ لم يكن الرملُ تحت قدميه مجرد حطامٍ صخري، بل كان ملمسهُ يشبهُ السير فوق "أعصابٍ مكشوفة". كلُّ خطوةٍ كانت تُصدرُ صوتاً يشبهُ حفيفَ الورقِ اليابس حين يُحرق، وكأنَّ الأرضَ نفسها مُؤلفةٌ من رسائلِ حبٍّ لم تصل، ووعودٍ خانها أصحابها.

سارا ببطء، لوسيفر يتقدمُ بخطواتٍ واثقة، تظللهُ مِظلتهُ السوداء التي كانت تبدو في هذا الفضاء الشاسع كأنها الثقبُ الأسودُ الوحيدُ في مَجرةٍ من الدماء، بينما كان نيتشه يجرُّ قدميه جراً، ورأسُه يدورُ يميناً ويساراً، يحاولُ استيعابَ جغرافيةِ هذا العذابِ الجديد. كان المشهدُ شاسعاً لدرجةٍ تُصيبُ الرُّوحَ بالدوار؛ جبالٌ سوداءُ كالأنفاسِ المكتومة تحيطُ بالأفق، وسماءٌ لا تكفُّ عن التقيؤ ببرقٍ أرجوانيٍ يكسرُ صمتَ الوجودِ بفرقعاتٍ تشبهُ ضحكاتِ القدرِ الساخرة.

توقف نيتشه فجأة، والتفتَ نحو لوسيفر، وعيناه تفيضانِ بتساؤلٍ مريرٍ كالعلقم.

نيتشه (بصوتٍ خافتٍ يرتجفُ كخيطِ دخان):

"لوسيفر.. ما هذه الأرضُ التي لا نهايةَ لاحمرارِها؟ أهي جحيمُ الأجسادِ الذي خَوفتنا منهُ الكتب؟ أم أنني فقدتُ عقلي تماماً في محطةِ قطار 'بايرويت' وهذه هي الزنزانةُ التي بناها جنوني؟ الهواءُ هنا.. له طعمُ الحديد، والريحُ تهمسُ بأسماءٍ ظننتُ أنني نَسيتُها."

توقف لوسيفر، وأمالَ مِظلتهُ قليلاً لِيواجهَ نيتشه، وكانت ملامحُه تحت ظِل المِظلة تبدو كأنها منحوتةٌ من حجرٍ قديمٍ لا يرحم.

لوسيفر (ببرودٍ فلسفيٍّ قارس):

"هذا ليس جحيماً لِلعصاة يا فريدريك، بل هو 'مختبرُ الصدق'. هذه التربةُ الحمراءُ التي تراها ليست دماءً، بل هي 'الرغباتُ العارية' بَعد أن سُقيت بـ 'الحقيقة'. أنتَ تتساءلُ عن المكان؟ أنتَ تسيرُ الآن في المساحةِ الفاصلةِ بين مَن كنتَ تظنُّ أنكَ هو، وبين مَن ستكونُه رغماً عنك. هنا، لا يوجدُ أوكسجين لِلكذب، لِذلك تشعرُ بضيقٍ في صدرك."

نيتشه (ينظرُ إلى الأفقِ البعيد، حيثُ تتمايلُ النيرانُ فوق المنصة):

"ولكن لِماذا كلُّ هذا الاتساع؟ لِماذا أشعرُ أنني قزمٌ تافهٌ أمام هذه الجبالِ السوداء؟ هل الخيبةُ بهذا الحجم؟ هل رَفْضُ امرأةٍ وتهاوي صديقٍ يملآنِ كونا كاملاً بـ 'الرماد القاني'؟"

لوسيفر (يبدأُ في السيرِ مجدداً، مُشيراً بمقبضِ مِظلتهِ نحو المنصةِ المشتعلة):
"الخيبةُ يا تلميذي هي 'الانفجارُ العظيم' لِلرُّوح. حين يتحطمُ وثنُك، فإنه لا يسقطُ بهدوء، بل ينفجرُ ليخلقَ عالمَه الخاص من الحطام. هذا العالمُ الواسعُ هو حجمُ الفراغِ الذي تركه 'فاغنر' و'كوزيما' في قلبك. أنتَ لا ترى جبالاً وسهولاً، أنتَ ترى 'فجواتِ غيابهم'. تلك المنصةُ التي تشتعلُ هناك.. هي النقطةُ الوحيدةُ التي لا تزالُ تحتفظُ بـ 'الحرارة' في هذا الكونِ البارد. هناك.. حيثُ ينتظركَ مَن لا يعرفُ للنحيبِ طريقاً."
سارا صامتين لِبُرهة، وكان صوتُ "قرمشة" الرمادِ تحت أحذيتهما هو الإيقاعُ الوحيدُ في هذا المكان. كان نيتشه يشعرُ أنَّ ملابسهُ الأنيقة التي ارتداها في بازل تبدو هنا مثيرةً لِلسخرية، كأنها "زيٌّ تنكريٌّ" لِرجلٍ يحاولُ إخفاءَ جروحهِ تحت طبقاتٍ من القماش.
نيتشه (بهمسٍ مليءٍ بالمرارة):
"أنا خائفٌ يا لوسيفر.. ليس من النار، بل من أن أكتشفَ أنني لا أملكُ شيئاً لأحرقَهُ سوى حزني. ماذا لو كان ذلك الرجلُ المصلوبُ فوق اللهبِ يسخرُ من تفاهةِ ألمي؟ "
لوسيفر (يلتفتُ إليه بابتسامةٍ باهتةٍ غامضة):
"هذا هو السؤالُ الصحيحُ الوحيدُ الذي طرحتَه اليوم. العظمةُ لا تبدأُ حين تصرخُ من الألم، بل حين تدركُ أنَّ ألمكَ هو 'أرخصُ' ما تملك. اقترب.. لقد شارفنا على الوصول. انظر كيف تتراقصُ النيرانُ الزرقاء.. إنها لا تطلبُ إذناً لِتحرق، تماماً كما أنَّ 'الحقيقة' لا تطرقُ البابَ قبل أن تهدمَه."
اشتعلت السماءُ ببرقةٍ بنفسجيةٍ هائلة، أضاءت ملامحَ نيتشه الشاحبة وهو يقفُ على بَعْد خطواتٍ قليلةٍ من المنصة. كانت الحرارةُ الآن لا تلسعُ الجلد، بل كانت تلسعُ "الذاكرة"، وبدأ صوتُ صريرِ السلاسلِ فوق المنصةِ يطغى على صوتِ الرعد.
وصلا أخيراً إلى حافةِ المنصة. كانت الحرارةُ هنا لا تُطاق، لكنها لم تكن تحرقُ الجلد، بل كانت "تطبخُ" الذكريات. شعر نيتشه بأنَّ وجه "كوزيما" يذوبُ في عقله كالشمع، وبأنَّ موسيقى فاغنر تتحولُ إلى صريرِ مساميرَ على لوحِ زجاج. وسط النيرانِ الزرقاء والبرتقالية التي كانت تنبعثُ من أخشابٍ تبدو وكأنها "عظامُ عمالقةٍ" قدماء، برزَ ظلُّ رجلٍ مصلوبٍ بسلاسلَ متوهجة.

لم تكن ملامحهُ واضحةً في البداية بسبب الدخانِ الكثيف، لكنَّ صوتهُ كان أولَ ما عبرَ جدارَ اللهب؛ صوتٌ لم يكن بشرياً تماماً، بل كان يشبهُ انكسارَ الصخورِ تحت وطأةِ الزلازل.

المخطوطة الثانية: مواجهةُ "مِحرقَةِ الحقيقة"

الصوتُ القادمُ من وسط النار:

"مَن هذا الذي يجرُّ أذيالَ خيبتهِ في ساحتي؟ مَن هذا الذي تفوحُ منه رائحةُ 'البورجوازية' المذعورة وشعرُ الصالوناتِ المنمق؟ لوسيفر.. ألم تجد في مزابلِ الأرضِ سوى هذا 'الأستاذ' الشاحب لِيؤنسَ وحدتي؟"

ارتجف نيتشه، وتراجع خطوةً إلى الوراء، لكنَّ يدَ لوسيفر كانت كالقيدِ الفولاذي على كتفه، تمنعهُ من الهرب.

لوسيفر (بصوتٍ يملؤه مكرٌ هادئ):

"لا تحكم على الغلافِ يا 'شهيدَ اللانهاية'. هذا فريدريك.. الرجلُ الذي ظنَّ أنَّ قلبهُ أقوى من 'المطرقة'. لقد جاء من بايرويت، محملاً بـ 'لا' كبيرةٍ صَفعت رُوحه، وبخيانةٍ من نبيٍّ كاذبٍ كان يعبدهُ كإله. إنه يبحثُ عن 'المعنى' وسط رماده."

ضحك الرجلُ المصلوبُ ضحكةً مريرة، وبدأ الدخانُ ينقشعُ لِيظهرَ وجهه؛ كان وجهاً منحوتاً من الألمِ والصمود، عيناه كانتا بئرينِ من النار، وجسدهُ يحترقُ دون أن يتبخر، كأنه مادةٌ أبديةٌ من العذاب. كان هذا هو الرجل الذي تحدى الكون بأسره، الرجل الذي لم يرضخ أمام نيران "كامبو دي فيوري".

الرجلُ المصلوب (بصوتٍ يقطرُ سخرية):

"خيانة؟ 'لا' من امرأة؟ يا للسخف! انظر إليّ أيها أيها الصغير.. أنا وقفتُ أمام قضاةِ 'مداهماتِ التفتيش' ولساني لم يرتجف. أنا نُفيتُ من كلِّ أرض، ورُفضتُ من كلِّ دين، وأُحرقتُ عارياً لأنني قلتُ إنَّ اللهَ لا يسكنُ في الكنائس بل في النجومِ التي لا تنتهي. وأنتَ.. أنتَ منكسرٌ لأنَّ 'أريادني' فضلتْ عليكَ 'ثيسوساً' يرتدي ثياباً مذهبة؟"

نيتشه (بصراخٍ يملؤه الأسى والغضب):

"أنتَ لا تفهم! ألمُكَ عظيمٌ لأنَّ قضيتكَ كانت 'الكون'.. أما ألمي فهو عظيمٌ لأنَّ قضيتي كانت 'الإنسان'! لقد أعطيتُ لِفاغنر حياتي، صغتُ لهُ الفلسفةَ التي يتدثرُ بها، ووهبتُ لِكوزيما رُوحي في رسائلَ كتبتُها بدمي.. لِأجدَ نفسي في النهايةِ

مجردَ 'هامشٍ' في عرضٍ مَسرحي! أنا لم أُرفض من أجلِ فكرة، بل رُفضتُ كـ 'كيان'.. وهذا أشدُّ حرقاً من نيرانك!"

خطا لوسيفر خطوةً للأمام، مظلتهُ السوداء لا تزالُ تظللهُ ببرود، وكأنه يشاهدُ صراعاً بين قمتينِ من الوجع.

لوسيفر:

"اسمع يا فريدريك.. هذا الرجلُ الذي يسخرُ منك هو جوردانو برونو[15]. هو لم يحترق لِأجلِ النجومِ فقط، بل احترق لِأجلِ 'الحقِّ في التمرد'. برونو.. أخبر تلميذي عن طعمِ الرفض الحقيقي.. أخبرهُ ماذا يحدثُ للرجلِ حين يكتشفُ أنَّ العالمَ كلهُ 'صغيرٌ' جداً على أحلامه."

جوردانو برونو (ينحني بصلابةٍ نحو نيتشه، والسلاسلُ تصدرُ صريراً بشعاً):

"اسمعني جيداً يا صاحبَ الشواربِ الكثيفة.. الرفضُ ليس خنجراً يُغرسُ في الظهر، بل هو 'مِشرطٌ' يقطعُ الزوائدَ التافهةَ عن رُوحك. أنتَ تحبُّ كوزيما؟ أنتَ تحبُّ فاغنر؟ لا.. أنتَ تحبُّ 'صورتكَ' في عيونهم. أنتَ تبكي لأنَّ 'المرآة' انكسرت.

في بايرويت، لم يرفضوكَ لأنكَ ضعيف، بل رفضوكَ لأنكَ 'حقيقيٌّ' لدرجةِ الفضيحة. فاغنر يخافُ منك، لأنه يعلمُ أنَّ مطرقتكَ ستحطمُ أصنامه يوماً ما.

وكوزيما؟ هي اختارت 'المكانَ المريح' بجانبِ الثروةِ والمجد.. فهل تبكي على امرأةٍ تبيعُ السماءَ لِتشتري مَقعداً في مَقصورةِ الأوبرا؟"

نيتشه (يسقطُ على ركبتيه فوق التربةِ الحمراء، والرمادُ يتساقطُ فوق كتفيه كالثلج الأسود):

"ولكنني وحيد.. الوحشةُ هنا تقتلني يا جوردانو. كيف أستطيعُ أن أحملَ مطرقتي بِيَدٍ ترتعشُ من الوحدة؟ لِماذا يجبُ على الحقيقةِ أن تكونَ قبيحةً هكذا؟"

جوردانو برونو (تتوهجُ عيناه بنارٍ زرقاءٍ مرعبة):

"لأنَّ الجمالَ الذي كنتَ تعبدهُ في تريبشن كان 'كذبةً' منسقة! الحقيقةُ هي هذه النار! الحقيقةُ هي هذا الرماد! الحقيقةُ هي أن تكونَ مصلوباً على صخرةِ يقينك بينما العالمُ يرقصُ في الأسفل.

---

[15] جوردانو برونو (Giordano Bruno): فيلسوف وفلكي إيطالي من عصر النهضة (1548-1600)، يُعد رمزاً عالمياً لحرية الفكر. نادى بـ "لانهائية الكون" وتعدد العوالم قبل قرون من إثباتها علمياً، مما أدى لاتهامه بالهرطقة. استبسل في الدفاع عن قناعاته رغم ثماني سنوات من السجن والتعذيب، حتى أُحرق حياً في روما. يمثل برونو في هذا السياق "الروح التي لا تقهر" والتي تختار الاحتراق بالنار على العيش في كذبة مريحة.

انظر إلى لوسيفر.. هل تظنُّ أنه أخذكَ إلى الغابةِ لِتتأملَ الأشجار؟ لا.. هو يريدكَ أن تكتشفَ أنَّ رُوحكَ هي "الغابةُ" الوحيدة التي يجبُ أن تضيعَ فيها. خيبتُك يا نيتشه هي "الوقود".. فإما أن تجعلها تحرقك وتُحولك إلى دُخانٍ يختفي في سماءِ بازل، أو أن تجعلها "كِيراً" لِصهرِ مِطرقتك التي ستذبَحُ بها كلَّ مَن خذلوك."
ارتجفت الأرضُ تحت نيتشه، وبدأ الرعدُ الأرجواني يضربُ قممَ الجبالِ السوداء بقوةٍ صاعقة. كان الصراعُ في داخلِ نيتشه قد وصلَ إلى ذروته؛ صراعٌ بين "الشاعرِ المنكسر" الذي يريدُ العودةَ إلى حضنِ الأوهام، وبين "الفيلسوفِ الثائر" الذي بدأ يستلذُّ بطعمِ الحريق.
نيتشه (يهمسُ من بين أسنانِه المطبقَة):
"لقد أرسلتُ لها خيطاً.. لِيصبحَ مشنقةً لِكبريائي."
لوسيفر (يبتسمُ ابتسامةً مَسمومة):
"والآن.. هل ستقفُ لِتواجهَ جوردانو، أم ستبقى ساجداً تحت قدميه تطلبُ المغفرة لِحزنك التافه؟"
رفع نيتشه رأسه، ولأولِ مرة، لم تكن عيناه تلمعانِ بالدموع، بل بوهجٍ غريبٍ يشبهُ البرقَ البنفسجيَّ في السماء. بدأ يقفُ ببطء، متحدياً الجاذبيةَ الثقيلةَ لهذا العالم، متحدياً حرارةَ الرمادِ القاني.
اقترب نيتشه من المنصةِ المشتعلة حتى كادَ لهبُ جوردانو يلفحُ وجهه. كان الصمتُ بين الرجلينِ أثقلَ من الجبالِ المحيطة، وكان لوسيفر يراقبُ ولادةَ "الإنسانِ الجديد" من بين ركامِ الخيبة.

مِعمارُ العزلة.. حين تتوحدُ نيرانُ "روما" بدموعِ "بازل"
وقف نيتشه عند حافة النيران الزرقاء، حيث يلفح اللهبُ وجهه الشاحب، ونظر في عيني برونو المشتعلتين. كان الصمتُ بينهما لغةً قائمة بذاتها، لغةً لا يفهمها إلا مَن عُمّدوا بالمرارة.كسر جوردانو برونو الصمت بصوتٍ خرج هذه المرة هادئاً، لكنه يحملُ ثقل الرصاص المنصهر:
"انظر إليّ يا فريدريك.. هل ترى هذه السلاسل؟ لقد صاغوها من حديد "اليقين" الذي أرادوا فرضه عليّ. لقد قالوا لي: "العالمُ محدود، والأرضُ ساكنة، واللهُ يسكن في صكوكنا". وعندما قلتُ لهم إنَّ الكون غابةٌ لا نهائية من الشموس، لم يحرقوا جسدي فقط، بل حاولوا حرق "فكرتي".

أنتَ الآن تمر بنفس المحاكمة، لكنَّ قُضاتك لا يرتدون أرديةً كنسية.. قُضاتك يرتدون فساتين الحرير في بايرويت، وصديقُك "المعلم" هو البابا الجديد الذي يبيع الأوهام للرعاع."

نيتشه (بصوتٍ يمتزجُ فيه الانكسارُ بالذهول):
"لكنهم كانوا "عالمي" يا جوردانو! أنا لم أكن أبحث عن نجومٍ بعيدة كما فعلتَ أنت.. كنتُ أبحثُ عن سكنٍ لروحي في هذا العالم الموحش. كُنتُ أظن أنَّ "تريبشن" هي الجنة الأرضية، وأنَّ كوزيما هي الحارسةُ التي ستمسحُ عن جبيني غبار الرحلة.
كيف تطلبُ مني أن أقارن حريقك بخرابي؟ أنتَ مُتَّ من أجل "الحقيقة الكونية"، وأنا أموتُ كل يوم لأنني اكتشفتُ أنَّ "الحب" الذي بنيتُ عليه فلسفتي كان مجرد "ديكور" مسرحي لمسرحيةٍ لم أكن بطلها."
جوردانو برونو (يضحك بسخريةٍ تجعل النيران الزرقاء تتراقص بعنف):
"أيها المسكين! ألا تدرك الترابط؟ "أريادني" الخاصة بك هي نفسها "الكنيسة" الخاصة بي. كلاهما يمثل "القيد" الذي يرفض الانطلاق نحو اللانهاية. كوزيما رفضتْك لأنها لا تستطيع أن تتبعك إلى "الهاوية" التي تسكن في عينيك. هي تُريد رجلاً يمنحها "الأمان"، وأنتَ لا تملك إلا "العاصفة".
خيانتُها لك هي نسخةٌ مكررة من خيانة روما لي. لقد وشى بي صديقي "موسينيغو" وسلمني للموت، تماماً كما وشى بك "فاغنر" حين سرق أفكارك وحولها إلى مادةٍ للتسلية، ثم تركك وحيداً في عتمة بازل. نحن نتشابه يا نيتشه.. كلانا يحملُ "جرماً" لا يُغتفر في عيون القطيع: جُرمَ الرؤية الواضحة."
اقترب لوسيفر، ووضع يده على كتف نيتشه، بينما ظلَّت مظلته السوداء تحجب عنه البرق البنفسجي الذي بدأ يضرب بقوةٍ أكبر، وكأنَّ السماء تشارك في هذا الجدل التاريخي.
لوسيفر (بصوتٍ عميقٍ ومستفز):
"اسمع يا نيتشه، ألا ترى الرابط العظيم؟ برونو أعلن "موت المركزية" للأرض، وأنتَ اليوم في غرفتك في بازل، بدأتَ تعلن "موت المركزية" للإنسان القديم. برونو حطم القبة السماوية ليجعلنا نواجه الفراغ اللانهائي، وأنتَ تحطم "القبة الأخلاقية" لتجعل البشر يواجهون فراغ أرواحهم.

خيبةُ أملك في كوزيما ليست حدثاً عاطفياً.. إنها "الزلزلة الأولى" التي ستجعلُك تدرك أنَّ الإنسان "جسرٌ" يجب تجاوزه، وليس منزلاً ترتاح فيه. النار التي تحرق برونو هي نفسها "الوحدة" التي تخنقك في بازل.. كلاهما "تطهير"."

نيتشه (يرفع بصره إلى برونو، والشرر يتطاير حوله):
""إذاً، هل تُريد أن تقول إنَّ وجعي في بازل هو "ثمن" النجوم؟ هل يجب أن أخسر بصري، وأعيش في الظلام، وأفقد المرأة التي أحببتها، فقط لأثبت أنَّ الكون لا نهائي؟ يا جوردانو.. السلاسل التي تقيدك تؤلم الجسد، لكن السلاسل التي تقيدني تؤلم "المعنى". أنا أعيش في عالمٍ يرفضني ليس لأنني أقول الحقيقة، بل لأنني "أجسدها".
لقد كتبتُ "مولد المأساة" لأحيي فيهم الروح، فقتلوني ببرودهم. أرسلتُ قلبي لكوزيما في رسالة، فأعادته لي "ممزقاً" في ظرفٍ رسمي. أنا أحترقُ بصمت، دون جمهور، ودون منصة إعدام تمنحني شرف الشهادة."
جوردانو برونو (ينظر بأسى إلى نيتشه، وتخفتُ حدة سخريته لتتحول إلى "أخوةٍ" روحية):
""هذا هو الفرق بيننا يا فريدريك.. أنا كان لي "جمهورٌ" يشاهد احتراقي، أما أنت، فجحيمُك هو "الصمت". لكن اعلم، أنَّ النار التي لا يراها أحد هي الأكثر حرارة. أتدري لماذا أنا هنا؟ لكي أخبرك أنَّ "المطرقة" التي تحملها لا يجب أن تُستخدم للبناء بَعد الآن. انظر إلى يدي المحترقة.. لقد حاولتُ أن أبني جسراً بين العلم والإيمان، فكان الجسرُ هو الحطب الذي أحرقني. لا تحاول أن تُصلح "بايرويت" ولا تحاول أن تستعيد "كوزيما".
لقد رُفضتَ لأنك "مقدسٌ" أكثر مما ينبغي لتدخل صالوناتهم. الخيبة التي تعيشها في عام 1873 هي "المخاض" الذي سيحولك من "أستاذٍ حزين" إلى "إعصارٍ فكري". اترك "أريادني" في متاهتها مع ثيسيوسها العجوز، وتعال لتبني كوناً لا يسكنه إلا الأقوياء."
نيتشه (يشعر بـقشعريرةٍ تسري في روحه، وبدأ يلمس "المطرقة" التي لم تعد مجرد فكرة):
""إذاً.. الرفضُ هو البداية؟ الخيانةُ هي الوقود؟""
جوردانو برونو:

"الرفضُ هو 'الحرية' يا فريدريك! عندما لفظتني روما، صرتُ ملكاً للكون. وعندما لفظتْك بايرويت، صرتَ ملكاً لـ 'المستقبل'. انظر إلى تلك الجبال السوداء.. إنها ليست صخوراً، إنها 'عقباتُ فكرك' التي ستطؤها بقدميك.
لقد أنقذك الرفضُ من أن تكون 'تابعاً'، ليصنع منك 'سيداً' لنفسه."
بدأ البرق البنفسجي يضرب الأرض الحمراء حول نيتشه مباشرة، وبدأ الركام المتطاير يشكل دواماتٍ من النار حول المنصة. لوسيفر كان يراقب المشهد بابتسامةٍ بدأت تتسع، وهو يرى "الترابط" العظيم يكتمل في عقل نيتشه.
نيتشه (بهمسٍ مليء بالقوة المكتومة):
"أنا وجوردانو.. حريقان في غابة الزمان. هو أحرق السقف، وأنا سأحرق الأرض. هو واجه القضاة، وأنا سأواجه 'الإنسان'. الخيبةُ لم تعد جرحاً.. إنها 'بوصلة'."
اقترب نيتشه أكثر من المنصة، حتى كادت ثيابه أن تشتعل، ونظر إلى برونو نظرة 'عهد'. كان العالمُ القاني يغلي تحت أقدامهم، ولوسيفر يرفع مظلته كأنه يبارك هذا التحالف المرعب بين شهيد القرن السادس عشر وفيلسوف القرن التاسع عشر.
المخطوطة الثانية: عُبورُ الذات.. ولادةُ "الإنسانِ المتجاوز" من رَمادِ الخَيبة
سكتت أصواتُ الرعدِ لِلحظة، وكأنَّ الجحيمَ ذاته حبسَ أنفاسَه لِيسمعَ ما سيُقالُ في حضرةِ "مِحرقَةِ الحقيقة". مَدَّ جوردانو برونو يدهُ الـمُقيدةَ بالسلاسلِ المتوهجة نحو نيتشه، وكانت النيرانُ الزرقاءُ تخرجُ من أصابعهِ كأنها أغصانٌ من ضوءٍ قديم.جوردانو برونو (بصوتٍ يخرجُ من أعماقِ صَدرهِ الـمُحترق):
"تتحدثُ عن 'الإنسان' يا فريدريك؟ الإنسانُ هو أكبرُ 'قناعٍ' ارتدتهُ الطبيعة لِتخفي خوفها من الفراغ. انظر إليّ.. حين وقفتُ أمام النارِ في 'روما'، لم أكن 'إنساناً' بالمعنى الذي يفهمونه. الإنسانُ يخافُ، الإنسانُ يساوم، الإنسانُ يبكي على امرأةٍ تتركهُ لِأجلِ مَجدٍ زائف.
أما أنا، فقد 'تجاوزتُ' إنسانيتي في تلك اللحظة. صرتُ أنا والكونُ واللانهايةُ حقيقةً واحدة. وأنتَ.. أنتَ الآن واقفٌ على حافةِ هذا التجاوز، لكنَّ قدميكَ لا تزالانِ غارقتينِ في وحلِ 'بازل'. أنتَ تريدُ أن تكونَ 'فوقَ البشر' (Übermensch)، ومع ذلك تشكو من 'بَشريتِكَ' الزائدة!"
نيتشه (يرتجفُ، وعيناه تعكسانِ وهجَ المنصة):

"وكيف لا أشكو؟ أنا لستُ نسيجاً من نارٍ مثلكَ يا جوردانو! أنا لحمٌ ودمٌ وأعصابٌ محطمة. "الإنسانُ المتجاوز" الذي ألمحهُ في أحلامي الكئيبة لا يبكي.. لكنني أبكي! هو لا يمرض.. لكنَّ المرضَ ينهشُ بصري! كيف لِرجلٍ مكسورِ القلبِ، منبوذٍ من صالوناتِ "بايرويت"، أن يحملَ لقبَ "المتجاوز"؟
لوسيفر.. أخبرني.. هل جئتَ بي إلى هنا لِتسخرَ من عجزي؟ هل "المتجاوز" هو مجردُ كذبةٍ أخرى أخترعها لِأغطي بها عُريَّ وحدتي؟"
لوسيفر (يتحركُ ببطءٍ حول نيتشه، ومظلتهُ السوداءُ ترسمُ دائرةً من العتمةِ وسط اللهب):
"المتجاوزُ ليس كذبةً يا فريدريك، بل هو "الضرورةُ" القاسيةُ التي تلي الانتحارَ الروحي. أنتَ تظنُّ أنَّ العظمةَ هي "إضافةُ" قوةٍ إلى إنسانك الحالي.. وهذا خطؤك الأكبر. التجاوزُ هو "طَرْحُ" الإنسان.
لكي تلدَ "المتجاوز"، يجب أن يموتَ "الأستاذُ الوديع"، ويموتَ "العاشقُ المُتوسل"، ويموتَ "التلميذُ الوفي". برونو تجاوزَ إنسانيتهُ حين صغرَ العالمُ في عينه حتى صار مجردَ نقطةٍ في بحرِ النجوم. وأنتَ ستتجاوزُ إنسانيتكَ حين تصغرُ "كوزيما" في عينكَ حتى تصيرَ مجردَ "أنثى" عابرة، ويصغرُ "فاغنر" حتى يصيرَ مجردَ "مُهرجٍ" في سيركِ التاريخ."
جوردانو برونو (يقاطعهُ بصوتٍ هادر):
"اسمع يا نيتشه! "الإنسانُ المتجاوز" لا يسكنُ في القصور، بل يسكنُ في "الاستغناءِ المطلق". هل تعرفُ لِماذا أحرقوني؟ لأنني كنتُ حراً لدرجةٍ مرعبة. لم أكن أحتاجُ لِبركةِ الكنيسة، ولم أكن أحتاجُ لِتَصفيقِ الجمهور.
أنتَ الآن في "بازل"، تشعرُ بالدونية لأنهم رفضُوك. لكنَّ الحقيقةَ هي أنكَ أنتَ مَن "لَفَظَهُم" دون أن تدري. "المتجاوز" هو الذي يخلقُ قِيَمَهُ الخاصة من عَدمِهِ الخاص. هو الذي ينظرُ إلى ألمِهِ ويقول: "هل هذا كلُّ ما لديك؟ زدني ألماً لِأزدادَ شموخاً".
هل تستطيعُ أن تقولَ ذلك لِصداعك؟ هل تستطيعُ أن تقولَ ذلك لِذكرياتِ "تريبشن"؟"
نيتشه (يصرخُ بمرارة، وصوتهُ يختنقُ بالدخان):
"هذا سحقٌ لِلذاتِ وليس تجاوزاً! أنتم تطلبون مني أن أكون "حجراً"! أين "الحبُّ" في عالمكم هذا؟ أين "الرقصُ" الذي وعدتني بهِ يا لوسيفر في الغابة؟ هل "المتجاوز" هو كائنٌ باردٌ لا يشعر؟"

لوسيفر (يضحكُ ضحكةً خافتةً وجارحة):
"بل هو الكائنُ الوحيدُ الذي يشعرُ بـ 'الحرارةِ الحقيقية'. الحبُّ البشريُّ الذي تتباكى عليه هو 'حبُّ الضعفاء' لِبعضهم لِيُداروا خوفهم من البرد. أما حبُّ 'المتجاوز' فهو 'حبُّ القدر' (Amor Fati).. أن تحبَّ مأساتك، أن تعشقَ خيانتهم لك لأنها حررتكَ من قيدِ الانتماء.
انظر إلى برونو.. هل تراهُ نادماً؟ هو يحبُّ هذه النار لأنها صَهَرَت 'أنا'هُ الصغيرة وحولتها إلى أسطورة. 'المتجاوز' هو مَن يرقصُ فوق قبرِ أوهامه. أنتَ الآن في 'الرماد القاني'.. هذا هو المرقصُ الحقيقي يا فريدريك. اخلع ثيابَ الأستاذ، واخلع حزنَ المحب.. وارقص فوق رفاتِ 'نيتشه القديم'."
جوردانو برونو (ينحني بصلابة، والسلاسلُ تشتعلُ أكثر):
"أتعرفُ يا نيتشه.. ما الذي يربطني بكَ حقاً؟ ليس الألم، بل 'الاحتقارُ النبيل'. أنا احتقرتُ قُضاتي لأنهم كانوا 'صغاراً' جداً أمام كوني اللانهائي. وأنتَ يجبُ أن تحتقرَ خيبتكَ لأنها 'صغيرةٌ' جداً أمام عظمةِ المطرقةِ التي تحملُها.
'المتجاوز' هو مَن يرى في 'الرفض' صكَّ ملكيةٍ لِلعالم. كوزيما رفضتْكَ؟ جيد! لقد أعادتكَ لِنفسك. فاغنر خذلك؟ عظيم! لقد حطّمَ لكَ 'القدوة' لِتكونَ أنتَ قدوةَ نفسِك.
هذا هو 'الترابطُ' .. نحنُ المطرودون من 'جنةِ الحمقى' لِنبني جحيماً يسكنهُ الأبطال. هل أنتَ مستعدٌ لِتتجاوزَ حاجتكَ لِلآخرين؟ هل أنتَ مستعدٌ لِأن تكونَ 'شمساً' تحترقُ لِأجلِ ضوئها الخاص، لا لِأجلِ أن تدفئَ صالوناتِ فاغنر؟"
سقط نيتشه مرةً أخرى على ركبتيه، لكن هذه المرة لم يكن سقوطَ استسلام، بل كان سقوطاً لِتَحَمُّلِ ثِقْلِ فكرةٍ بدأت تتجذرُ في رُوحه. كانت التربةُ الحمراءُ تغلي تحت ركبتيه، والبرقُ البنفسجيُّ يحيطُ بالمنصةِ كأنه تاجٌ من شوكٍ كوني.
نيتشه (بهمسٍ مليءٍ بالرعبِ والجمال):
"إذاً.. 'المتجاوز' هو الذي يبتلعُ أحزانهُ ويحولُها إلى جبال.. هو الذي يرى في العزلةِ 'وطناً' وفي المرضِ 'مدرسة'.. هو الذي يمشي فوق جثثِ ذكرياته لِيصلَ إلى قمةِ نفسه.
يا جوردانو.. يا شهيدَ البرق.. هل هذا هو المسار؟ أن أحترقَ ببطءٍ في 'بازل' لِأولدَ من جديدٍ؟"
لوسيفر (يضعُ يدهُ على رأسِ نيتشه، وصوتهُ يهدرُ مع الرعد):

"نعم يا فريدريك.. أن تحترقَ دون أن تطلبَ من أحدٍ إطفاءك. أن تصرخَ في وجهِ السماءِ السوداء: 'أنا لستُ إنساناً.. أنا قنبلة'.
انظر إلى النار.. إنها لا تزالُ تلتهمُ أقنعتك.. قناعَ 'الصديق الوفي'، وقناعَ 'العاشق المهذب'.. ولم يَبقَ إلا قناعٌ واحدٌ.. أتعرفُ ما هو؟"
تطلع نيتشه إلى لوسيفر بعينين تلمعانِ بذكاءٍ متوحش، وكأنَّ "المطرقة" بدأت تبرزُ في نظراته بَعْد أن انصهرت في جحيمِ الحوار.
نيتشه:
"قناعُ.. 'الضحية'."
جوردانو برونو (يضحكُ بجذلٍ مرعب):
"أصبتَ! احرقْ هذا القناعَ اللعين! توقف عن كونكَ 'ضحيةً' لِبايرويت، وكُن 'جلاداً' لِأصنامها! 'المتجاوز' لا يشتكي.. 'المتجاوز' يضرب!"
ازدادت حدةُ النيرانِ الزرقاء، وبدأ المشهدُ الجحيميُّ يغلي في غليانٍ كونيٍّ مهيب. نيتشه الآن يقفُ وجهاً لوجهٍ مع برونو، ولوسيفر يراقبُ بانبهارٍ صراعَ الإراداتِ الذي بدأ يغيرُ ملامحَ الفيلسوفِ المحطم.

المخطوطة الثانية: انصهارُ العصور.. مَحرقةُ "الضحية" ووحدةُ النارِ العظمى
عند هذه النقطة، بلغت العاصفةُ الجحيميةُ ذروتها؛ لم يعد البرقُ البنفسجيُّ مجردَ ومضاتٍ عابرة، بل استحالَ إلى خيوطٍ متصلةٍ من الضوءِ الكهربائيِّ الذي يربطُ السماءَ السوداء بالأرضِ القانية. اهتزت منصةُ جوردانو برونو، وبدأت النيرانُ الزرقاءُ تتصاعدُ لِتخترقَ السحب، وكأنَّ الجحيمَ يفتحُ أحشاءَهُ لِابتلاعِ آخرِ ذراتِ الترددِ في قلبِ نيتشه.
تقدم لوسيفر، ورمى بمظلتهِ السوداء في قلبِ العدم، فاحترقت فوراً وتحولت إلى غبارٍ نفاث. وضعَ يدهُ على صدرِ نيتشه، في النقطةِ التي يقعُ خلفها قلبهُ المكسور، وصاحَ بصوتٍ يطغى على زئيرِ البركان:
"احرقْهُ يا فريدريك! احرقْ هذا القناعَ اللعينَ الذي تتشبثُ به! قناعُ 'الرجلِ المظلوم'.. قناعُ الضحيةِ التي تنتظرُ عدلاً لن يأتي! في هذا الميدان، لا مكانَ لِلمظلومين، بل فقط لِلمنتصرين على جراحهم! انظر إلى جوردانو.. هل تراهُ يشكو من قضاةِ روما؟ إنهُ يضحكُ عليهم من وسطِ رماده!"
نظر نيتشه إلى يدِ لوسيفر، ثم إلى جوردانو برونو الذي بدأ جسدهُ يتوهجُ بياضاً، كأنه مَعدنٌ يوشكُ على الانصهار. في تلك اللحظة، حدثَ الاندماجُ الكبير؛ لم يعد

نيتشه يرى "بازل" و"روما" كمدينتينِ تفصلهما القرون، بل رآهما كموقدٍ واحدٍ لِحقيقةٍ واحدة.
جوردانو برونو (بصوتٍ ينبعثُ من كلِّ ذرةِ رمادٍ في المكان):
"الآن يا فريدريك! الآن يتوحدُ حريقي بحريقك! انظر.. دخانُ 'كامبو دي فيوري' يمتزجُ بضبابِ غرفتكَ المظلمة في 'بازل'. تلك النيرانُ التي التهمت كتبي هي نفسها الوحدةُ التي تلتهمُ بصرك!
لا فرقَ بين راهبٍ يُحرقُ في ساحةٍ عامة، وبين فيلسوفٍ يذوبُ في صمتِ غرفتهِ وحيداً.. كلاهما شهيدُ 'الصيرورة'. هل تشعرُ بالضحيةِ تموتُ في داخلك؟ هل تشعرُ بـ 'الأنا' الصغيرةِ التي تتباكى على خيانةِ كوزيما وهي تحترقُ الآن لِتتركَ مكاناً لِـ 'الأنا' الكونية؟"
نيتشه (يصرخُ بصرخةٍ زلزلت أركانَ الفناءِ القاني، ويداهُ تمسكانِ برأسهِ كأنه يوشكُ على الانفجار):
"أنا.. أنا لستُ ضحية! أنا لستُ المسكينَ الذي رَفَضَتهُ بايرويت! أنا هو 'الرفضُ' ذاته! أنا هو الحريق! احرقي يا نيرانَ روما بقايا 'نيتشه الوديع'! التهمي يا نيرانَ بازل ذكرياتِ 'تريبشن'!
كوزيما.. فاغنر.. أنتم لستم قُضاتي.. أنتم مجردُ حطبٍ في ناري! لقد سقطَ القناع! أنا لا أريدُ حباً، ولا أريدُ شفقة.. أنا أريدُ الحقيقةَ المرةَ التي لا ترحم!"
في هذه اللحظة، انفجرَ القناعُ الأخير. قناعُ "الضحية" الذي كان نيتشه يتدثرُ به لِيبررَ حزنه، تفتتَ كقشرةِ بيضةٍ تحت مطرقةٍ من فولاذ. وبمجردِ سقوطهِ، لم يَعُد نيتشه شاحباً؛ بل توهجت عيناهُ بنفسِ وهجِ جوردانو برونو.
لوسيفر (يهمسُ بنشوةٍ شيطانية):
"أرأيت؟ الحزنُ حين يبلغُ منتهاه، ينقلبُ إلى 'إرادةٍ' لا تُقهر. حريقُ روما عام 1600 وحريقُ بازل عام 1873 هما الآن نهارٌ واحدٌ يضيءُ ليلَ البشرية. أنتَ الآن لستَ فيلسوفاً يبحثُ عن مأوى.. أنتَ 'البركانُ' الذي لا مأوى له!"
الاندماجُ النهائي: انبعاثُ "المطرقة"
تلاشت المسافةُ تماماً. وجد نيتشه نفسه يقفُ فوق المنصةِ المشتعلة بجانبِ جوردانو برونو. لم تعد النيرانُ تؤذيه، بل كانت "تغسله". السلاسلُ التي كانت تقيدُ برونو بدأت تتكسرُ وتتحولُ إلى أفاعٍ من ضوء، ثم تجمعت كلها في قبضةِ يدِ نيتشه اليمنى.

لم تكن "المطرقة" الآن قطعةً من مَعدن، بل كانت "كتلةً من الاندماجِ التاريخي"؛ مقبضُها من عظامِ شهداءِ الفكر، ورأسُها من جمرِ الحقيقةِ المصفى.
جوردانو برونو (وهو يتلاشى في الضوءِ الأبيض):
"وداعاً يا فريدريك.. لقد أديتُ مهمتي. لقد وَحدتُ حريقي بصمتك. اذهب الآن.. المطرقةُ لم تعد فكرة، بل صارت 'قدراً'. اذهب وحطم أصنامهم بِيَدٍ لم تعد تعرفُ الارتجاف. 'المتجاوزُ' ولدَ الآن من رمادِ انكسارك. لا تنظر لِخلفك.. 'أريادني' ماتت مع القناع."
لوسيفر (يمسكُ بِيَدِ نيتشه ويقودهُ نحو حافةِ الهاويةِ المشتعلة):
"لقد انتهت البوابة الثانية يا نيتشه. عبرتَ 'الرماد القاني'، وذبحتَ 'الضحية' في داخلك. أنتَ الآن تحملُ في صَدرِكَ حريقَ روما، وفي عقلِكَ ظلامَ بازل، وفي يَدِكَ.. مصيرَ العالم.
هل تسمعُ صدى 'المطرقة' وهي تضربُ الآن في أعماقِ مستقبلك؟ هل أنتَ مستعدٌ لِأن تكونَ 'الزلزلة' التي ستدمرُ كلَّ ما أحببت؟"
ساد صمتٌ رهيب. انطفأت النيرانُ فجأة، وتلاشت التربةُ الحمراء، وبقي نيتشه واقفاً في فراغٍ أبيضَ لامتناهٍ، لا يرافقهُ سوى لوسيفر، والمطرقةُ المتوهجةُ في يده، وعينانِ لم تعودا تبكيان، بل تبصرانِ "موتَ الآلهة" القادم.
خاتمةُ البوابةِ الثانية
عاد نيتشه إلى وعيه في غرفته في بازل. كان الفجرُ يلوحُ شاحباً، لكنَّ الغرفةَ لم تعد باردة. كان يمسكُ قلمَهُ بقوةٍ كادت تكسره. لم يعد نيتشه "الأستاذ المحطم"؛ بل صار "الرجلَ الذي عبرَ النار".
نظر إلى صورِ فاغنر وكوزيما المعلقة، فلم يشعر بوجع، بل شعر بـ "مسافةٍ كونيّة" تفصله عنهم. لقد توحدَ حريقُ روما بحريقِ بازل، ولم يَبقَ إلا الرمادُ الذي سيُبنى منه.
نيتشه (يهمسُ لِنفسه، وصوتهُ يحملُ صدى جوردانو برونو ولوسيفر معاً):
"ليحترق كلُّ شيء.. لِتبدأ الحقيقة."

لقد عبر نيتشه بوابتي الجحيم الأولى والثانية؛ من "وحلِ الروح" إلى "رمادِ الحقيقة".
لقد نُزع عنه كلُّ شيء.. لِتُوهبَ له 'المطرقة'.

خاتمةُ المخطوطة الثانية: فلسفةُ الرمادِ والقبضةِ المُقدسة

لقد أُغلقت الآن دِفة المخطوطة الثانية، لا بصوتِ ارتطامِ الورق، بل بصدى تحطمِ آخرِ صنمٍ كان يسكنُ ردهاتِ الرُّوح. إنها المخطوطةُ التي لم تُكتب بالحبر، بل بـ "ميتافيزيقيا الحريق"؛ حيثُ لم يكن الحزنُ فيها مجردَ شعور، بل كان "كِيراً" صهرَ كينونةً بَشريةً هشة لِيصنعَ منها مادةً صلبةً لا تقبلُ القسمةَ على اثنين.

في ختامِ هذه المرحلة، يتجلى لنا أنَّ العزلةَ التي عاشها نيتشه في "بازل" لم تكن انسحاباً من العالم، بل كانت "هجوماً صامتاً" عليه. إنَّ القيمةَ الفلسفيةَ الكبرى لهذه المخطوطة تكمنُ في إدراكِ أنَّ "الحقيقة" ليست شيئاً نكتشفه، بل هي شيءٌ "نحترقُ" لِأجله. لقد انتهى عصرُ "التلميذ" الذي يبحثُ عن مأوى في ظلالِ العباقرة، وبدأ عصرُ "الذاتِ الانفجارية" التي ترى في الرفضِ صكَّ غفرانِها الوحيد.

1. انتحارُ الضحية:

إنَّ أعظمَ انتصارٍ فلسفيٍّ حققتهُ هذه المخطوطة هو "اغتيالُ مفهومِ الضحية". لقد أدرك نيتشه تحت سخريةِ جوردانو برونو أنَّ الشكوى هي لغةُ العبيد، وأنَّ مَن يلومُ "الخيانة" أو "الرفض" إنما يمنحُ خصومَهُ سلطةً فوق رُوحه. بسقوطِ القناعِ الأخير، تحولَ الألمُ من "سوطٍ" يجلدُ الظهر إلى "وقودٍ" يغلي في الشرايين. إنها نهايةُ الإنسانِ الذي "يُعاني"، وبدايةُ الإنسانِ الذي "يُوظفُ" المعاناةَ لِخلقِ إرادته.

2. وحدةُ النارِ الكونية:

لقد توحدَ في هذه الخاتمة "زمنُ الجسد" بـ "زمنِ الروح". حريقُ روما عام 1600 لم يعد حدثاً تاريخياً، بل صار "حالةً وجودية" يعيشها نيتشه في كل نوبةِ صداعٍ وفي كل لحظةِ وحشة. الغموضُ هنا يكمنُ في هذا التماهي؛ كيف يمكنُ لِرجلٍ وحيدٍ في غرفته أن يحملَ في صَدرهِ نيرانَ القرون؟ إنها "وحدةُ الألمِ الخلاق" التي تجعلُ من الصمتِ صرخةً تهزُّ أركانَ المستقبل.

3. المِطرقةُ كَقدَر:

تخرجُ المطرقةُ من هذه المخطوطة وقد فقدت وظيفتها كأداةٍ للبناءِ الجماعي، لِتصبحَ "معولاً لِلجراحةِ الوجودية". المطرقةُ الآن هي الفاصلُ بين "ما كان" و "ما يجبُ أن يكون". إنها لا تضربُ الصخرَ لِتبني معبداً، بل تضربُ "الأصنام"

لِتسمعَ رنينَ الفراغِ في داخلها. لقد صار نيتشه هو المطرقة، وصار الرمادُ هو أرضيتَهُ الجديدة التي لا يمكنُ لِأحدٍ أن يطردهُ منها، لِأنه هو مَن أحرقها بِيَديه.

أفقُ الغموض: ما بَعدَ الحريق

تنتهي المخطوطةُ الثانية وتتركُ وراءها تساؤلاتٍ تفيضُ بالتشويقِ السوداوي:
إذا كان نيتشه قد أحرقَ "الضحية" في داخله، فمَن هو الكائنُ الذي سيحلُّ محلها؟ هل سيكونُ "إلهاً" لِنفسه، أم "شيطاناً" لِلبشرية؟
لوسيفر، ذلك الرفيقُ الذي أغواه بالرحيلِ نحو النار، هل سيظلُّ ممسكاً بالمظلةِ السوداء ليحميه، أم أنَّ الخطوةَ القادمةَ تتطلبُ أن يحترقَ نيتشه حتى من "صُحبةِ الشياطين"؟
إنَّ المخطوطةَ الثالثة تلوحُ في الأفق كـ "عاصفةٍ من الضوءِ الـمُعمي". فالحريقُ الذي بدأ في بازل لن يتوقف عند حدودِ الورق، بل سيمتدُّ لِيحرقَ "الأخلاق"، و"الدين"، و"الإنسان" ذاته.

لقد كُتبت الكلمةُ الأخيرة في هذه المخطوطة بدمٍ متخثرٍ لم يَعُد ينبضُ بالحب، بل بـ "إرادةِ القوة". نيتشه الآن يقفُ على حافةِ العدم، ممسكاً بِمطرقته، منتظراً أن يضربَ ضربتهُ الأولى في جبهةِ التاريخ.
"لقد عبرتُ البحرَ الأحمرَ لِأحزاني، ووجدتُ نفسي في تِيهٍ مقدّس.. حيثُ لا إله يقودني، بل ناري الخاصة هي التي تضيءُ المتاهة."

تمت المخطوطةُ الثانية.
استعدوا.. فالمخطوطةُ الثالثة ليست كتابةً.. إنها زلزال.

المخطوطة الثالثة: عَصرُ الـمِطرقة ــ جِراحةُ الوثن

لقد انتهى زمنُ "الانصهار" في الأقبية الجحيمية، وحان زمنُ "الطرْق" فوق رؤوسِ العبيد. هذه هي المقدمة التي تمهدُ لِانفجارِ البركانِ الذي ظلَّ يتراكمُ طوالَ عامينِ من الصمتِ والمَرضِ في بازل.

(حينَ يَتحولُ "الرَّمادُ" إلى بَارود)

في مطلعِ عام 1874، لم يكن الهواءُ في "بازل" يحملُ برودةَ الشتاءِ المعتادة، بل كان يحملُ رائحةَ شيءٍ يوشكُ أن يحترقَ دون نارٍ ظاهرة. في غرفتِهِ الضيقة، التي صارت الآن تُشبهُ "غرفةَ عملياتٍ" جراحية أكثر مما تُشبهُ مكتباً أكاديمياً، كان فريدريك نيتشه يجلسُ خلفَ طاولةِ الكتابة. لم يَعُد ينظرُ إلى أوراقه بِيأسِ المحبِّ المطرود، بل كان يحدقُ فيها ببرودِ نَحّاتٍ يوشكُ أن يَهدمَ تِمثالاً أخطأت بِيَدِهِ بَصيرةُ التاريخ.

كانت يدهُ التي ترتجفُ بالأمسِ من "حُمّى الخيبة" قد استقرت الآن بشكلٍ مرعب. لم يعد القلمُ في يدهِ أداةً لِنقلِ الأفكار، بل صار "مِشرطاً" طويلاً، وجزءاً لا يتجزأ من تلك "المطرقةِ الفلسفية" التي صهرَها لوسيفر وجوردانو برونو في أعماقِ الرمادِ القاني.

لوسيفر، الذي لم يَعُد يظهرُ كطيفٍ عابر، صار الآن "الظِلَّ الثقيل" الذي يغطي الغرفة. كان يقفُ خلفَ نيتشه، يضعُ يدهُ غيرَ المرئيةِ على كتفِ الفيلسوف، ويراقبُ بابتسامةٍ باردةٍ أولى جُملِ الحرب التي بدأت تتشكلُ على الورق. لم تكن الكلماتُ تخرجُ كحبر، بل كانت تخرجُ كـ "شظايا"، كأنَّ نيتشه يضربُ بأسنانهِ فوقَ جبهةِ العالم.

لوسيفر (يهمسُ بنبرةٍ تشبهُ صريرَ الفولاذ):

"لقد انتهى وقتُ النحيبِ يا فريدريك.. وانتهى وقتُ 'الرثاء'. العالمُ في الخارج لا يزالُ يسجدُ لِأصنامِهِ القديمة، والكنيسةُ لا تزالُ تبيعُ الوهمَ لِلمرضى، وبايرويت.. بايرويت تظنُّ أنها انتصرت عليك بصمتِك. إنهم يظنونَ أنَّ نيتشه قد ماتَ في وحلِ بازل.. لا يعرفون أنكَ عدتَ بِيَدٍ تحملُ حريقَ روما، وبِعقلٍ لم يَعُد يرى في 'الإنسان' إلا مادةً لِلتجاوز.

اضرب الآن.. فالمطرقةُ التي لا تكسرُ العظام، لا تُطهرُ الأرواح."
كانت هذه المخطوطةُ هي "إعلانُ الحربِ الرسمي". لم يكن نيتشه يهدفُ لِإقناعِ أحد، بل كان يهدفُ لِـ "جراحةِ الوثن". كان يريدُ أن يضربَ "المقدس" لِيسمعَ رنينَ الخواءِ في جوفه. في عام 1874، تحولت الفلسفةُ من "تأمل" إلى "اعتداء". نيتشه الآن هو "المعتدي المقدس"، الذي سيحطمُ زيفَ المثقفين، وسذاجةَ المتدينين، وغرورَ القوميين الذين حوّلوا الفنَّ إلى مَخورٍ لِلمشاعرِ الرخيصة.
المخطوطةُ الثالثة ليست كتاباً يُقرأ، بل هي "حقلُ ألغامٍ" فلسفي. كلُّ صفحةٍ فيها هي "ضربةُ مطرقة" تستهدفُ جداراً من جدرانِ السجنِ البشري الكبير.
الغموضُ الذي يلفُّ هذه المرحلة لا يكمنُ في ما سيقوله نيتشه، بل في ما "سيتبقى" بَعْد أن يقوله.
مَن سيصمدُ أمامَ نقدِهِ الذي لا يرحم؟
وكيف سيتحولُ هذا "الأستاذُ المريض" إلى "إعصارٍ" يقتلعُ جذورَ الأخلاقِ التي سادت لِألفي عام؟

الآن، وفي هذه اللحظةِ الفاصلة، يرفعُ نيتشه مطرقتهُ لأولِ مرةٍ علناً. لوسيفر يبتسم.. والسماءُ فوقَ بازل تبدأُ بالتمزقِ لِتفسحَ المجالَ لِبرقٍ لا ينطفئ.
لقد بدأ عصرُ المِطرقة.. فليحذر كلُّ مَن سكنَ بيتاً من زجاجِ الأوهام.

الفصل الأول: ضربةُ المِطرقةِ الأولى (1874) – مَذبحةُ "المثقفِ الطيّب"

في مطلع عام **1874**، كانت مدينة "بازل" السويسرية تغرق في هدوئها الرصين، هدوء يبدو لـ فريدريك نيتشه كأنه "كفنٌ" منسوج من العادات والتقاليد الأكاديمية المملة. لم تكن جدران غرفته الضيقة مجرد سكن، بل كانت "مختبراً للتحول". الاستيقاظ في عالم نيتشه لم يكن عودةً للحياة، بل كان مواجهةً يومية مع العدو الأول: الضوء.

1. طقوسُ العتمةِ والألم:

يبدأ روتين نيتشه في الخامسة فجراً، قبل أن تتجرأ الشمس على خدشِ عتمة غرفته. يستيقظ على وقع "صداعٍ" ليس مجرد ألم جسدي، بل هو "احتجاجُ الأعصاب" ضد عالمٍ لا يفهمها. كانت عيناه، اللتان بدأتا تفقدانِ قدرتهما على تحمل السطوع، تبحثان عن الخلاص في الستائر المسدلة بإحكام.

كان يتحرك في غرفته بحذرِ مَن يمشي فوق حقل ألغام. يشعل شمعةً وحيدة، ويصنع قهوته "السوداء" بتركيزٍ يكاد يكون طقسياً. بالنسبة له، القهوة لم تكن مشروباً، بل كانت "وقوداً لساعات الحرب الصامتة". كان يجلس لساعات أمام مكتبه الخشبي المتهالك، ليس ليكتب في البداية، بل لـ "يتنفس" صمت العالم قبل أن يبدأ البشر في ملئه بثرثرتهم التافهة.

2. الحضورُ الظليُّ (لوسيفر في الزاوية):

في تلك الساعات الباكرة، لم يكن نيتشه وحيداً. كان لوسيفر يقف دائماً في الزاوية الأكثر عتمة، ممسكاً بمظلته السوداء التي لم يغلقها يوماً، وكأنه يقي نفسه من "رذاذِ التفاهة" الذي سينهمرُ مع شروق الشمس. لم يكن لوسيفر يتكلم كثيراً في الصباح، بل كان يكتفي بمراقبة نيتشه وهو يبتلع جرعات الدواء المرة، ويحدق في الورقة البيضاء كأنها جبهة عدو.

لوسيفر (يهمسُ بصوتٍ يشبهُ حفيف الأفعى):

"انظر إليهم يا فريدريك.. إنهم يستيقظون الآن في بيوتهم الدافئة، يغسلون وجوههم بماء 'الأخلاق' البارد، ويستعدون لتمثيل دور 'المثقف الطيّب'. يظنون أن الثقافة هي حفظ التواريخ وترديد أسماء الموتى.. لا يعرفون أن الثقافة الحقيقية هي 'محرقة'، وأنتَ اليوم.. أنتَ الحطّاب."

3. المسيرُ نحو "الجامعة":
في تمام الثامنة، يرتدي نيتشه معطفه الأسود الطويل، ويضع قبعته، ويخرج ليمشي في شوارع بازل متوجهاً إلى الجامعة. مشيته كانت سريعة، منكس الرأس، متجنباً التقاء العيون. كان يرى في وجوه زملائه الأساتذة ملامح "الرضا القاتل". كان يراهم يتحدثون بوقارٍ مصطنع عن "الإنسانية" و"التقدم"، بينما أرواحهم لا تملكُ ذرةً من الشجاعة لمواجهةِ حقيقةِ فنائهم.
في قاعة المحاضرات، كان نيتشه يؤدي دوره كـ "بروفيسور فقه لغة" ببراعة، لكن خلف نبرة صوته الهادئة، كانت هناك "طبولُ حرب" تُدق. كان ينظر إلى طلابه، أولئك الشباب الذين يُراد لهم أن يكونوا "نسخاً مكررة" من مجتمع مريض، ويشعر برغبةٍ عارمة في الصراخ. لكنه كان يصمت.. كان الصمتُ هو "المطرقة" التي تزدادُ ثقلاً في يده يوماً بعد يوم.

4. التمهيدُ لـ "الانفجار":
عند العودة في المساء، يبدأ الروتين الحقيقي. يخلع نيتشه قناع "الأستاذ"، ويجلس تحت ضوء الشمعة الباهت. هنا، يبدأ الاحتقار في التبلور. كان يقرأ ما يكتبه "المثقفون" في ذلك الوقت، وبالأخص ديفيد شتراوس، ذلك الرجل الذي نصبوه صنماً للثقافة الألمانية الجديدة.
كان نيتشه يقرأ كلماتهم "المنمقة" عن الله والدولة والمجتمع، ويشعر بغثيانٍ معرفي. كان يرى فيهم "المثقف الطيّب"؛ ذلك الكائن السطحي الذي يظن أنه امتلك ناصية الحقيقة لأنه قرأ بضعة كتب، بينما هو في الحقيقة مجرد "ببغاء" يردد صدى الأوهام الجماعية.
نيتشه (يكتبُ في مذكراته الخاصة، ويده ترتعشُ من الغضب):
"إنهم يظنون أنهم 'متعلمون'، بينما هم ليسوا إلا 'مستودعات' لِلأفكار الميتة. يفتخرون بـ 'ثقافتهم'، ولا يدركون أنها مجرد 'قشرة' رقيقة تغطي خواءهم الروحي. سأضربُ هذا الصنم.. سأضربه حتى يسمع العالم كله رنين الخواء في جوفه."

كان لوسيفر يقف خلفه، يميل برأسه وهو يرى الكلمات الأولى لـ "تأملات في غير أوانها"[16] وهي تولد. كانت المطرقة الفلسفية قد ارتفعت الآن إلى أقصى مداها.. ولم يكن ينقصها إلا "الهدف" لتنزل بكل ثقلها.
نيتشه الآن في حالةِ "تأهبٍ قصوى". الغرفةُ تعبقُ برائحةِ الورقِ المحروقِ والأفكارِ التي تغلي. لقد انتهى وقتُ الملاحظة، وبدأ وقتُ "التصويب".

كانت الرطوبةُ في "بازل" تتسلل عبر شقوق النافذة، لكن نيتشه لم يكن يشعر ببرد الجسد؛ كان يشعر ببرودة "المكتبة" الكونية التي تحيط به. نظر إلى الأكوام المتراكمة من الكتب التاريخية والمجلدات الضخمة التي تملأ أرفف الأكاديميين في مدينته، وشعر بضيق في التنفس. بالنسبة له، لم تكن تلك الكتب مصادر للعلم، بل كانت "حجارة القبور" التي تُدفن تحتها الحقيقة.
هوسُ الذاكرةِ وقيدُ التاريخ:
جلس نيتشه على مقعده الخشبي، وأمامه المسودة التي ستحمل عنوان "في فوائد ومساوئ التاريخ للحياة". كان يرى زملاءه في الجامعة يغرقون في "التاريخانية" المفرطة، يقدسون الماضي لدرجة أنهم نسوا كيف يعيشون الحاضر.
نيتشه (يهمسُ لنفسه بينما يحرك ريشة الكتابة بعنف):
"إنهم يأكلون جثث الأجداد ويسمون ذلك 'ثقافة'! هذا الولعُ المريضُ بجمعِ التواريخ والأرشفة ليس إلا شللاً للروح. الإنسان الذي لا يستطيع 'النسيان' هو إنسانٌ لا يستطيع العمل. لقد حولوا التاريخ إلى متحفٍ بارد، بينما يجب أن يكون خادماً لِصخبِ الحياة."
لوسيفر وظلالُ الأرشيف:
تحرك لوسيفر ببطء بين أرفف الكتب في الغرفة، كان يمرر أصابعه الطويلة فوق عناوين الكتب التاريخية، فكان يتصاعد منها غبارٌ يشبهُ رماد البوابة الثانية.
توقف لوسيفر خلف نيتشه، وانحنى ليرى الكلمات التي تنتقد "التاريخانية".

---

[16] **تأملات في غير أوانها:** سلسلة من أربعة مقالات نقدية نشرها نيتشه بين عامي 1873 و1876، يهاجم فيها الركود الثقافي والتعليمي في ألمانيا عقب انتصارها في الحرب الفرنسية البروسية. وصفها بـ "غير الأوانية" لأنها تسبح عكس تيار العصر وتنتقد "العلماء" الذين يحولون التاريخ إلى مجرد مخزن للمعلومات الميتة بدلاً من استخدامه لخدمة الحياة.

لوسيفر (بصوتٍ يحملُ نبرةً معدنية حادة):
"أرأيت يا فريدريك؟ إنهم يبنون سجوناً من الورق ويسمونها 'هوية'. التاريخ بالنسبة لهؤلاء الأقزام هو 'ستارة' يختبئون خلفها لأنهم يخشون عُري اللحظة الراهنة. إنهم يدرسون كيف عاش العظماء، لكي لا يضطروا هم للعيش بعظمة. اضرب هذا الوثن.. أخبرهم أنَّ كثرة 'التذكر' هي مرضُ الضعفاء، وأنَّ 'النسيان' هو طهارةُ الأقوياء."

استحضارُ "المربي" (شوبنهاور كَدرع):
في الزاوية الأخرى من مكتبه، كانت صورة آرثر شوبنهاور تقبع كحارسٍ صامت. بالنسبة لنيتشه في هذه اللحظة، لم يكن شوبنهاور مجرد فيلسوف تشاؤمي، بل كان "النموذج البطولي" الذي يتحدى القطيع. كان نيتشه يكتب عنه بـ "مطرقة الوفاء" التي تسبق الانفصال.
كان يرى في شوبنهاور ذلك "المربي" الذي يعلم الشجاعة الفكرية وسط مستنقع من الجبن الأكاديمي. كان يريد أن يصفع وجه "المثقف الطيّب" بنموذج الرجل الذي لا يساوم.
نيتشه (يخاطبُ خيال شوبنهاور):
"أنتَ الوحيد الذي لم يركع أمام 'دولة العقل' الزائفة. سأجعلكَ مِقصلةً لهؤلاء الأساتذة الذين يبيعون الحكمة بالدرهم. سأكتب عنكَ لكي أحتقرهم هم. لكي أقول لهم إنَّ الفيلسوف ليس موظفاً في جامعة، بل هو 'صاعقة' تمزق سكون عصرها."
التمهيدُ لِلذبح (مواجهةُ "ديفيد شتراوس"):
بدأ نيتشه يركز بصره على الهدف المباشر لضربته الأولى: ديفيد شتراوس. ذلك المثقف الذي كان يُعتبر "قديس" العصر، والذي كتب عن المسيحية والدين بأسلوبٍ يرضي الجميع. بالنسبة لنيتشه، كان شتراوس هو "المثقف الطيّب" النموذجي؛ ذلك الذي يظن أنه "تحرر" بينما هو لا يزال يرتدي قيود الأخلاق القديمة تحت مسميات جديدة.
كان الاحتقار يغلي في صدر نيتشه. لم يكن هجوماً شخصياً، بل كان هجوماً على "النموذج". كان لوسيفر يضحك بصمت في الظل، وهو يرى نيتشه يجهز "المشرط" الفلسفي ليشرح جثة هذا المثقف الذي يظن نفسه حياً.

لوسيفر:
"اقترب يا فريدريك.. المس جبهة هذا 'العصر المثقف'. ألا تشعر ببرودة الموت؟ إنهم يصفقون لشتراوس لأنه يمنحهم شعوراً بالراحة الكاذبة. اذهب.. وحطم هذه الراحة. اجعل 'تأملاتك' سمّاً في آذانهم. لا تكن 'طيباً' كما يريدون.. كن 'غير أوانك'."

نيتشه الآن يغمسُ ريشتهُ في دمهِ الممزوجِ برغبةِ الهدم. الورقةُ أمامهُ تنتظرُ الجملةَ الأولى من "مذبحةِ المثقفِ الطيّب". الغرفةُ لم تعد مكاناً لِلدراسة، بل صارت "منصةَ إعدامٍ" لِلقيمِ الثقافيةِ السائدة.

أمسك نيتشه بريشته، ولم تكن أصابعه ترتعش هذه المرة من وهن الجسد، بل من ضغط الإرادة التي تريد أن تنفجر. كانت الغرفة في بازل تضيق بجدرانها، وكأنها سجنٌ من الحجر الأكاديمي البارد. نظر إلى المجلدات المصطفة أمامه، تلك التي تحمل أسماء المؤرخين واللاهوتيين و"أرباب الثقافة" في عصره، وشعر بمرارةٍ تفوق مرارة الدواء الذي يتجرعه يومياً.

انحنى نيتشه فوق الورقة، وبدأ الحبر ينسال كأنه دمٌ أسود يُراق على مذبح الحقيقة. لم يكن يكتب بحثاً أكاديمياً رصيناً، بل كان يشن "غارةً فكرية".

تفتيتُ "وثنِ التاريخ" (التاريخانية المفرطة):

بدأت المطرقة بضرب الجدار الأكثر قداسة في ألمانيا آنذاك: التاريخ. كتب نيتشه الجمل الأولى من تأمله الثاني، وكان يشعر بكل كلمة كأنها طعنة في صدر "الأستاذ" الذي يسكن داخله.

كان يرى أنَّ الانغماس في الماضي قد حوّل البشر إلى "مجرد أرشيفات متحركة".

"نحن غارقون في 'الماضي' لدرجة أننا فقدنا القدرة على صناعة 'الحاضر'. لقد حولتم العلم إلى مقبرة، والتاريخ إلى طقسٍ جنائزيٍّ طويل. إنَّ الذاكرة المفرطة هي 'مرض' يفتك بروح الفعل. الإنسان الذي لا يجرؤ على 'النسيان' هو إنسانٌ مشلول، كائنٌ لا يستطيع أن يبدأ شيئاً جديداً."

كان يرى زملائه في بازل يتحدثون عن "الموضوعية التاريخية" بقداسة، فكتب رداً عليهم:

"تلك 'الموضوعية' هي مجرد قناعٍ لِبرودِ القلب وفقدانِ الشغف. أنتم لا تدرسون التاريخ لِتتعلموا كيف تعيشون بعظمة، بل لِتجدوا مبرراً لِجبنكم أمام اللحظة الراهنة."

إعدامُ "ديفيد شتراوس" (المثقف الممتلئ بذاته):
ثم وجه نيتشه المطرقة نحو الهدف الأكبر، نحو "المثقف الطيّب" الذي يمثله ديفيد شتراوس. كان شتراوس بالنسبة لنيتشه هو "العدو الأنيق"؛ ذلك الذي يظن أنه حرر العقل من الدين، بينما هو لا يزال يسجد لـ "أصنام المجتمع".
بدأ نيتشه يشرح جثة شتراوس الفكرية ببرودٍ مرعب. وصفه بـ "الفيلستيني الثقافي" (Bildungsphilister)؛ ذلك الكائن الذي يجمع المعرفة كما يجمع الهاوي الطوابع البريدية، ويظن أنَّ "الأناقة في الكلام" هي بديلٌ عن "عمق الروح".
"هذا 'المثقف الطيّب' هو أخطر عدو للثقافة الحقيقية. إنه يبيع 'الرضا الذاتي' للجمهور تحت مسمى 'التقدم'. شتراوس ليس باحثاً عن الحقيقة، بل هو 'مُسكنٌ آلام' لجيلٍ يخشى مواجهة العدم. لقد قتلتم الإله القديم، لكنكم سجدتم لـ 'دولة العقل' ولـ 'الرأي العام'.. فما الفرق؟"
الروحُ المنفية (شوبنهاور كَملجأ):
وسط هذا الهدم، كان نيتشه يشعر بوحدةٍ قاتلة، فوجه بصره نحو شوبنهاور. لم يكن يكتب عنه كفيلسوف، بل كـ "مربٍّ"، كـ "أبٍ روحي" يمنحه الشرعية ليكون متمرداً. كان يرى في شوبنهاور الرجل الذي استطاع أن يعيش "خارج عصره"، الرجل الذي لم يطلب رضى الجامعات ولا تصفيق الصحف.
كتب نيتشه بـوجعٍ مكتوم:
"أنا أبحث عن إنسانٍ لا يزال يملك شجاعة 'اللا'. شوبنهاور علمني أنَّ الفكر ليس مهنة، بل هو 'مصير'. أن تكون فيلسوفاً يعني أن تكون 'صدمة' في وجه مجتمعك، لا أن تكون زينةً في صالوناتهم."
الحضورُ المستترُ لِلوسيفر:
في زاوية الغرفة، لم يعد لوسيفر يتكلم. كان وجوده الآن عبارة عن "ثقلٍ في الهواء"، ووهجٍ خافتٍ ينبعث من عتمة الركن. لم يكن يحتاج للتحريض الآن، فقد رأى أنَّ الشرارة التي زرعها في "الرماد القاني" قد أصبحت حريقاً منظماً على الورق. كان يكتفي بمراقبة نيتشه وهو يمسح العرق عن جبينه، بينما تشتعل عيناه بـذكاءٍ "شيطاني" لم يَعرفه من قبل.
لقد كان لوسيفر هو ذلك "الصمتُ الذي يسبقُ العاصفة"، الحارس الذي يضمن ألا يتراجع نيتشه عن ضربته الأولى خوفاً من النتائج.

لحظةُ الانتهاءِ من "الضربةِ الأولى"
وضع نيتشه القلم. كانت المسودة الأولى لـ "تأملات في غير أوانها" جاهزة. شعر بخفةٍ غريبة، وكأنَّ كل كلمة كتبها كانت "وزناً" سقط عن صدره. نظر إلى الشارع من نافذته، إلى الناس الذين يمشون بهدوء، ولم يشعر نحوهم بالكراهية، بل بشيءٍ أقوى: الاحتقارُ المُطهر.
لقد أدرك نيتشه في تلك اللحظة أنَّ المطرقة قد بدأت عملها. الحجرُ الأول في بناء "الثقافة القديمة" قد تصدع. هو الآن يعلم أنَّ هذا الكتاب لن يجلب له الأصدقاء، بل سيجلب له "العزلة الكبرى". لكنه في تلك اللحظة، ولأول مرة منذ سنوات، شعر أنه "سيدُ مصيره".
نيتشه (يهمسُ لِنفسه في العتمة):
"ليكن.. فليبدأ الرجم. لقد ولدتُ اليوم 'غير أواني'، وهذا هو المجدُ الوحيد الذي أرتضيه."
الضربةُ الأولى قد نزلت الآن، وصدى تحطم "الصنم الثقافي" بدأ يتردد في أروقة بازل. نيتشه لا يزال في غرفته، لكن رُوحه قد غادرت "السجن الأكاديمي" إلى الأبد.

ردُّ فعلِ القطيع – صقيعُ بازل وضجيجُ "التافهين"

كان وقعُ الصاعقةِ أخفَّ وطأةً من ذلك الكُتَيّبِ الصغير الذي ألقى به نيتشه في وجه "ألمانيا المثقفة". لم يكن ردُّ الفعلِ انفجاراً لاهباً في البداية، بل كان "جليداً أكاديمياً" بدأ يزحفُ ليخنقَ كلَّ زاويةٍ في حياة البروفيسور الشاب.
1. أروقةُ الجامعة: لُغةُ الهمسِ القاتل
في صباحِ اليوم التالي لانتشار "التأملات"، لم تكن جامعة بازل هي المكان الذي عهده نيتشه. سادَ صمتٌ ثقيلٌ في الممرات، صمتٌ يقطعهُ حفيفُ المعاطفِ السوداء وصريرُ الأبوابِ التي تُغلقُ بسرعةٍ كلما مرَّ "المتمرد".
كان الزملاءُ الأساتذة، أولئك الذين كانوا يحيونهُ بوقارٍ بالأمس، يشيحون بوجوههم عنه، أو يكتفون بإيماءةٍ باردةٍ جافة كأنها "حُكمٌ بالنفي". في قاعةِ الأساتذة، كانت الصحفُ مفرودةً على الطاولات، تُشيرُ بأصابعِ الاتهامِ إلى "تجرُّؤ" نيتشه على مقام ديفيد شتراوس.
أحدُ الأساتذة (يهمسُ لزميله في زاويةٍ مظلمة):

"هل قرأتَ ما كتبه هذا 'المجنون'؟ إنه لا ينتقد شتراوس فحسب، إنه يَبصقُ على الثقافةِ الألمانيةِ برُمّتها! كيف تجرأ وهو لا يزالُ في مقتبلِ مسيرته؟ لقد انتحرَ أكاديمياً.. المطرقةُ التي يتحدثُ عنها ستحطمُ رأسهُ أولاً."
كان نيتشه يسمعُ صدى هذه الكلماتِ من خلفِ الجدران، لم يكن حزيناً، بل كان يشعرُ بـ "قشعريرةِ التفوّق".

2. صالوناتُ الثقافة: "الخيانةُ العظمى"
في صالوناتِ "المثقفين الطيّبين" الذين كان نيتشه يرتادُ مجالسهم، تحولَ اسمهُ إلى مرادفٍ لـ "الجحود". كان هؤلاء "الفيلستينيون الثقافيون" الذين شرّحهم نيتشه يشعرون بأنَّ "المبضع" قد لامسَ عصبَ غرورهم.
كانوا يجتمعون حول كؤوس النبيذ، يتساءلون كيف لِأستاذٍ متخصصٍ في 'فقه اللغة' أن يتطاولَ على 'الفلسفة' و'التاريخ'.
"إنه مريض.. نعم، المرضُ قد أفسدَ عقله،" كانت هذه هي التهمة الجاهزة.
"نيتشه لم يعد باحثاً، إنه صانعُ فضائح. هل يظنُّ نفسهُ بطلاً في تراجيديا إغريقية؟ إنه مجردُ رجلٍ وحيدٍ يصرخُ في بئرٍ فارغ."

3. ردُّ فعلِ "بايرويت": الصمتُ المُريب
وفي الأفقِ البعيد، في بايرويت، كان الردُّ الأكثرَ وجعاً. لم تأتِ رسالةٌ من فاغنر، ولم يأتِ تعليقٌ من كوزيما. كان الصمتُ هناك "استراتيجياً". لقد شعر فاغنر بأنَّ مطرقة نيتشه قد بدأت تصدرُ رنيناً مستقلاً لا يخدمُ مملكته.
كانت كوزيما تقرأُ "التأملات" في غرفتها، وتدركُ بحدسها الأنثوي الثاقب أنَّ "التلميذ" قد كسرَ القيد. لقد رأت في هجومه على شتراوس "وحشيةً" لم تعد تستطيعُ السيطرةَ عليها.
"إنه يحترق،" قالت لفاغنر، "ولكنه سيحرقنا معهُ إذا لم نضع مسافةً بيننا وبينه."
المشهدُ في غرفةِ نيتشه: حضورُ "الظلّ" الثقيل
عاد نيتشه إلى غرفته مساءً، وكان يشعرُ بـ "نفيٍ" اختياريٍّ يحيطُ به. جلسَ في العتمة، وأمامَهُ الصحفُ التي تصفهُ بـ "المتغطرس" و"الحاقد". لم يشعل الشمعة، بل تركَ الضوءَ الباهتَ القادمَ من الشارعِ يرسمُ خيالَهُ على الجدار.

في الزاوية، كان لوسيفر واقفاً، مظلتهُ السوداءُ مغلقةٌ هذه المرة، يتكئُ عليها كأنه يراقبُ مَشهداً مسرحياً ممتعاً. لم يبتسم، بل كانت نظراته تفيضُ بـ "الرضا المظلم".

لوسيفر (بصوتٍ عميقٍ يترددُ كصدى في مغارة):

"أرأيت يا فريدريك؟ لقد بدأ 'النباح'. هل تذوقتَ الآن طعمَ 'الاحتقار' الذي يتبادلونهُ معك؟ إنهم يصفونكَ بالمريض لكي لا يضطروا لِمناقشةِ فكرك. يغلقون الأبوابَ في وجهك لأنَّ الحقيقةَ التي تحملُها 'تُفقدُهُم الأوكسجين' في غرفهم الضيقة.

هذا هو ثمنُ 'المطرقة'. لكي تكونَ 'غير أوانك'، يجبُ أن تتحولَ إلى 'شبح' في أوانهم. هل تندمُ الآن لأنكَ فقدتَ سلامَكَ الأكاديمي؟"

رفع نيتشه رأسه، وكانت عيناه، رغم الألم، تلمعانِ بذكاءٍ متوحش. لم يَعُد نيتشه هو ذلك الرجل الذي يطلبُ المواساة.

نيتشه (بصوتٍ هادئٍ ومنتظم):

"ندم؟ بل أشعرُ بالحريةِ لِأولِ مرةٍ منذ سنوات. ردُّ فعلهم هو 'شهادةُ ميلادي' الحقيقية. لو مدحوني، لعرفتُ أنني فشلت. لو صفقوا لي، لعرفتُ أنَّ مطرقتي مصنوعةٌ من كرتون.

دعهم يهمسون، ودعهم يغلقون أبوابهم. أنا أبني الآن 'مدينتي الخاصة' من هذا الصمت. لوسيفر.. لقد كان برونو مُحقاً: النارُ لا تؤلمُ مَن صارَ هو نفسه ناراً."

لوسيفر (يتقدمُ خطوةً نحو الضوء):

"ولكنَّ الطريقَ لا يزالُ طويلاً. هذه هي الضربةُ الأولى فقط، ضربةٌ في 'قشرة' الثقافة. غداً، سيتعينُ عليكَ أن تضربَ 'القلب'. سيتعينُ عليكَ أن تتركَ بايرويت جسدياً كما تركتَها فكرياً. سيتعينُ عليكَ أن ترى 'أريادني' وهي تضحكُ مع غيرك، بينما أنتَ تموتُ وحيداً في جبالِ الألب.

هل ستبقى المطرقةُ في يدكَ حين يشتدُّ صقيعُ الوحدة؟"

نيتشه (يقومُ من مقعده، ويقفُ أمام لوسيفر وجهاً لوجه):

"الوحدةُ ليست عدوي يا لوسيفر.. إنها 'بيتي'. لقد عبرتُ البوابة الثانية، وذبحتُ 'الضحية' في داخلي. ما يراهُ هؤلاءِ الأساتذةُ 'مرضاً'، أراهُ أنا 'تطهيراً'. سأستمرُّ في الضرب.. سأضربُ التاريخ، وسأضربُ شوبنهاور نفسهُ إذا لزمَ الأمر، حتى لا يبقى إلا 'الأنا' التي تتجاوزُ كلَّ شيء."

قاعةُ المحاضرات: "الفراغُ المُقدس"

دخل نيتشه قاعةَ المحاضرات في صباحِ يومٍ شتويٍّ كئيب. كان صوتُ خُطواتهِ فوق الخشبِ المصقولِ يرتدُّ بصدىً غريبٍ، وكأنَّ القاعةَ قد فقدت مادتها الصلبة. لاحظَ فوراً أنَّ عددَ الطلابِ قد تناقص؛ المقاعدُ الأولى، التي كانت تزدحمُ يوماً بالشبابِ المتلهفين لِسماعِ "البروفيسور العبقري"، صارت الآن فراغاتٍ موحشة.

جلسَ الطلابُ المتبقون في الخلف، يتبادلون نظراتٍ حذرة، وكأنهم يخشون أنَّ "عدوى التمرد" قد تنتقلُ إليهم عبر الهواء. لم يفتح نيتشه كتابه فوراً، بل وقفَ ينظرُ إليهم بصمتٍ طويلٍ ومُرعب، حتى بدأت جلودهم تنقبض.

نيتشه (في سرّه):

"انظروا إليهم.. إنهم يخشون الكلمةَ الحرة كما يخشى المريضُ ضوءَ الشمس. لقد أخبروهم في بيوتهم وفي الكنائس أنَّ أستاذهم قد ضلَّ الطريق، فجاؤوا اليوم لِيراقبوا 'سقوطي' لا لِيتعلموا حِكمتي. إنهم لا يريدون عقولاً، بل يريدون 'مظلاتٍ' تقيهم من مَطرِ الحقيقة."

بدأ نيتشه محاضرتهُ عن "فقه اللغة اليوناني"، لكنَّ صوتهُ كان يحملُ هذه المرة نبرةً حادة، مسمومةً بالاحتقارِ الذي صاغهُ في مذكراته. لم يكن يشرحُ النصوص، بل كان "يُشرحُ عقولَ الحاضرين".

ممراتُ العزلة: مَنبوذُ "القلبِ الطيّب"

عند خروجهِ من الجامعة، كان عليه أن يمرَّ عبر الساحةِ العامة حيثُ يجتمعُ الأساتذةُ لِتناولِ القهوة. رآهم من بَعيد؛ مجموعةً من الرؤوسِ الرمادية واللحى المنمقة، يضحكون بوقارٍ زائف. وبمجردِ لمحِ طيفه، انخفضت الأصواتُ فجأة، وانحلَّ العقد.

اقتربَ منهُ "البروفيسور ماير"، وهو رجلٌ عجوزٌ كان نيتشه يكنُّ لهُ الاحترامَ يوماً. وضع ماير يدهُ على كتفِ نيتشه، وكانت يدهُ ترتجف، ليس حباً بل "توجساً".

البروفيسور ماير (بصوتٍ يقطرُ شفقةً مسمومة):

"فريدريك.. زميلي الشاب.. لماذا فعلتَ ذلك بنفسك؟ شتراوس رجلٌ جليل، والتاريخُ هو تاجُ أمتنا. لقد كتبتَ كلماتٍ لا تليقُ بمكانتكَ الأكاديمية. أنتَ لا تزالُ في أولِ الطريق، وهذه المطرقةُ التي تلوحُ بها.. أخشى أنها ستدمرُ بيتكَ قبل أن تلمسَ جدرانهم. عُد إلى رُشدك.. قُل إنها كانت 'نوبةَ غضبٍ فلسفية' وسيسامحكَ الجميع."

نظر نيتشه إلى يدِ ماير فوق كتفه، وشعر بغثيانٍ جسديٍّ عنيف. تراجع خطوةً، ونظر في عيني العجوز بنظرةٍ جعلت الأخيرَ يشحب.

نيتشه (بصوتٍ هادئٍ كحدِّ السكين):

"المغفرةُ هي مكافأةُ الضعفاء لِبعضهم البعض يا سيدي. أنا لا أطلبُ مكاناً في 'بيتكم' المتهالك. وإذا كانت مطرقتي ستحطمُ رأسي، فليكن.. على الأقل سأعرفُ أنَّ رأسي كان صلباً بما يكفي لِيحملَ فكرة. اذهب وعُد لِتلميعِ أصنامك.. فالغبارُ يتراكمُ فوقها بسرعة."

في البيت: الصمتُ الذي يُنطقُ الظِلال

عاد نيتشه إلى غرفته، وأغلق الباب. كانت الرسائلُ مكومةً تحت الباب؛ رسائلُ من أصدقاءٍ قدامى يعاتبونه، ومن قُراءٍ مجهولين يشتمونه. فتح إحدى الرسائل، كانت من صديقه "إرفين رود". قرأ فيها كلماتِ القلقِ والتحذير، فشعر بـغُصةٍ في حلقه، لكنهُ سرعان ما كتمها.

جلسَ لوسيفر على طرفِ السرير، يراقبُ نيتشه وهو يمزقُ الرسائلَ واحدةً تلو الأخرى.

لوسيفر (بصوتٍ يشبهُ حفيفَ الورقِ الـمُحترق):

"أرأيت؟ 'الشفقة' هي الطعنةُ الأعمق. إنهم لا يهاجمونكَ لِأنك مخطئ، بل لِأنكَ 'مختلف'. يريدونكَ أن تعتذرَ عن ذكائك، وأن تعتذرَ عن شجاعتك. انظر إلى هذا العجوز 'ماير'.. إنه يمثلُ كلَّ ما هو ميتٌ في هذه المدينة. لقد أردتَ أن تكونَ 'غير أوانك'.. وهذه هي الضريبة: أن تسيرَ حياً وسط قبيلةٍ من الموتى."

نيتشه (يجلسُ أمام مكتبه، وعيناه تلمعانِ ببريقٍ مرعب):

"لقد بدأوا بـ 'رجمي' بالصمت يا لوسيفر. يظنون أنني سأنهارُ طلباً لِلرفقة. لا يعرفون أنَّ هذه الوحدة هي التي ستصقلُ نَصلي. شتراوس كان مجردَ البداية.. مجردَ دُميةٍ محشوةٍ بالقش. الضرباتُ القادمة ستكونُ في النخاع. سأجعلُ من هذا الصمتِ 'مختبراً' لِتحطيمِ كلِّ رابطٍ يربطني بهذا القطيع."

لوسيفر (يقتربُ منه، ويهمسُ في أذنه):

"جيد.. اتركهم يتذمرون في صالوناتهم. أنتَ الآن تبني 'جحيمكَ الشخصي'، وهو أنقى بكثيرٍ من جناتهم المزيفة. اضرب يا فريدريك.. اضرب حتى يدركوا أنَّ هذا 'المريض' الذي يشفقون عليه هو الذي يملكُ حقَّ تقريرِ مصيرِ رُوحِ هذه الأمة."

بقايا الروتين ليلُ بازل الطويل

أمضى نيتشه بقيةَ ليله في كتابةِ ملاحظاتٍ جديدة. لم يعد يكتبُ لِإرضاء كوزيما، ولم يعد يرسلُ مسوداته لِفاغنر. كان يكتبُ لِنفسه، ولِـ "الإنسانِ" الذي لم يولد بَعْد. كان الصداعُ يهاجمه، لكنه كان يستقبله كـ "حليف"؛ كأنه إشارةٌ إلى أنَّ عقلهُ يعملُ فوق طاقتهِ البشرية.

المخطوطة الثالثة: عتبةُ القوة – لوسيفر وعرضُ العبورِ الثالث

كان نيتشه يقف أمام نافذته، ينظر إلى شوارع "بازل" المظلمة بابتسامةٍ باردة يكسوها الاحتقار. لم تكن الرسائل الممزقة خلفه دليلاً على الانكسار، بل كانت "جثثاً" لروابط تخلص منها ليصبح أخف وزناً في صعوده. شعر بحضور لوسيفر، ذلك الظل الذي بدأ يمتزج بجدران الغرفة حتى صار جزءاً من جغرافيتها.
تحرك لوسيفر، ولامس مقبض مظلته السوداء، ونظر إلى نيتشه الذي بدا في العتمة وكأنه "منحوتة من غضبٍ صامت".
لوسيفر (بصوتٍ يحملُ رنيناً معدنياً):
"لقد بدأ 'الرجمُ' يا فريدريك، وأرى أنَّ قامتك تطولُ مع كل حجرٍ يُلقى إليك. لقد ذبحتَ 'المثقف الطيّب' بدمٍ بارد، وحولتَ جامعتهم الموقرة إلى قاعةِ انتظارٍ للجثث. لكن.. هل تظن أنَّ هذه الساحة الضيقة في بازل تكفي لضربتك القادمة؟ إنَّ 'الإله' الذي تنوي ذبحهُ يسكنُ في سماءٍ أبعد، ويحتاجُ لِقبضةٍ لم تلمسها رطوبةُ البشر قط."
التفت نيتشه نحو لوسيفر، ولم يكن في عينيه أثرٌ للتعب، بل كان فيهما بريقُ "المطرقة" التي تنتظرُ الصدام.
نيتشه (بصوتٍ قوي، مستقر، ممتلئ بالسيادة):
"هل تظن أنني أعبأ بخسارة 'أصدقاء' كانوا مجرد قيود؟ أو بسمعةٍ أكاديمية كانت 'زياً تنكرياً' يضيقُ على رُوحي؟ لوسيفر، لقد جعلتُ من خيبتي فيهم 'مِعراجاً'.. وكلما زادَ رجمُهم، شعرتُ بالهواءِ ينقي رُوحي في الأعلى. مرضي ليس ضعفاً، بل هو 'مِشرط' الطبيعة الذي يقطعُ الزوائد التافهة فيّ لِيُبقي على الجوهر الصلب. قل لي.. أي أفقٍ تريدني أن أطأه الآن؟ مطرقتي جائعة، ومحرابُهم لا يزالُ قائماً."
لوسيفر (يخطو نحو المركز، وتتسع ظلاله لتغطي السقف):

"هذا هو التلميذ الذي أعدتُ صياغته في الرماد القاني! المطرقةُ التي حطمت 'شتراوس' كانت مجرد اختبارٍ للرسغ. الآن، أنتَ بحاجةٍ لِتطهيرِ 'بصرك' من بقايا الضباب البشري قبل أن تلمسَ وجه 'المقدس'.
"فريدريك.. البوابة الثالثة تناديك. هي ليست ملاذاً لِلطمأنينة، بل هي مَقامُ 'العزلةِ المُطلقة'. هناك، سأريكَ كيف يتهاوى ثِقْلُ الأوهامِ الكبرى قبل أن يمسَّها نَصْلُك. هناك، ستتعلمُ كيف تكونُ قسوتكَ ببرودةِ المَعدنِ القديم، لِتضربَ شمسَهم المُزيفةَ بِيَدٍ لا ترتجفُ ولا تَعرفُ الرَّحمة. هل أنتَ مستعدٌ لِتعميدِ رُوحكَ بـ 'جلالِ الصمتِ الثقيل'؟"
خطا لوسيفر خطوةً نحو نيتشه، وبدأ هواءُ الغرفةِ يتكاثفُ لِيتحولَ إلى مادةٍ تشبهُ غُبارَ المَعدنِ البارد الذي يمتصُّ كلَّ ضوءٍ غريب، ويُحولُ جدرانَ "بازل" إلى بْرادةِ حديدٍ تتساقطُ في صمت.
التمهيدُ لِلعبور: انشقاقُ الواقعِ الثالث
انطوت جدرانُ الغرفةِ في بازل لا كغبارٍ هائم، بل كبُرادةِ حديدٍ ثقيلة تساقطت بوقعٍ معدنيٍّ أصمّ. لم يظهر خلفها ضياء، بل تجلّت "جبالُ الصمتِ الحديدي"؛ قممٌ حادةٌ من الفولاذِ الصدئ ترتفعُ كخناجرَ عملاقة لِتطعنَ سماءً بلونِ الرصاصِ المُذاب، حيثُ الهواءُ لا يتحرك، والزمانُ متخثرٌ في سكونٍ مَهيبٍ لا يكسرهُ طيرٌ ولا بَشر.
شعر نيتشه ببرودةٍ معدنيةٍ تخترقُ صدره، بَرْدٌ لا يلسعُ الجلدَ بل يُقسّي الرُّوح، جعلَ بصرهُ حاداً كالنَّصل، يرى في عتمةِ الحديدِ تفاصيلَ الوجودِ العاري بوضوحٍ مؤلم. وقف الاثنانِ أمامَ مَدخلٍ هائلٍ شُقَّ في قلبِ جبلٍ من المَعدنِ الخام، بوابتانِ من الفولاذِ العظيمِ تئنُّ بصمتِ العصور، تؤديانِ إلى أغوارِ البوابة الثالثة.
اتكأ لوسيفر على مِظلتهِ المُغلقة كأنها عصاً أبنوسية، ونظر إلى الأفقِ الرمادي بوقارٍ مُظلم، ثم التفتَ إلى نيتشه الذي كان يتقدمُ بزهوٍ أرستقراطيٍّ يتحدى ثِقْلَ هذا العالم.
لوسيفر (يهمسُ بنبرةٍ باردةٍ كالفولاذ):
"أهلاً بكَ في 'مِحركِ الوجود'.. حيثُ لا مكانَ لِلألوانِ الزائفة. هنا، في مَعزلِ الحديدِ هذا، لن نصقلَ السلاحَ لِيلمعَ في عيونِ المادحين، بل سنطرقهُ لِيتحملَ ثِقْلَ الحقيقةِ العارية. بعيداً عن ترانيمِ العبيدِ وبخورِ الكنائسِ الذي يُزكمُ الأنوف. هنا، ستكتسبُ إرادتكَ صلابةَ هذه الجبال، لِتتحولَ مطرقتكَ إلى 'قَدَرٍ' لا يُرد.. قبل أن نهدمَ بها سقفَ المَعبدِ فوق رؤوسِ أصحابه.

نيتشه الآن يطأُ بقدميهِ حُطامَ الـمَعدنِ تحتَ قَدَميه، وعيناهُ مسمرتانِ نحو الفراغِ الذي يختبئُ خلفَ البواباتِ العظيمة. لقد بدأَ الصمتُ الحديديُّ يملأُ فجواتِ رُوحه، تمهيداً لِلضربةِ التي ستُهزُّ أركانَ السماء.

العبور: انشقاقُ الواقعِ الثالث

وقفا أمام تلك البوابات العظيمة التي رأيناها في الأفق؛ برجان من الفولاذ الصدئ، كل برج يمثل جبلاً من المعادن الخام التي يبدو أنها صُهرت وتخثرت في لحظةِ غضبٍ كوني. لم يكن هناك مقبضٌ لِفتحهما، ولا قفل، بل شقٌّ عمودي رفيع يفصل بين الضفتين، يخرج منه هواءٌ باردٌ جداً يحمل رائحةَ المغناطيسيةِ والبرادة.

تقدم لوسيفر بثقة، ورفع مِظلته الـمُغلقة، ولامس بها الشقَّ الرفيع، فاهتزَّ الجبلانِ بأكملهما بصوتٍ مَهيب، كصدى لانكسارِ نصلٍ عملاق في فراغٍ مطلق.

بدأت البوابتان تتباعدانِ ببطء، وتئنَّانِ تحت ثِقْلِ قَدَرِهما، فكشفتا عن مَمرٍّ ضيقٍ يغوصُ في ظلامٍ دامس، ظلامٍ لا تكسرهُ إلا لمحاتٌ خافتةٌ من نورٍ رماديٍّ كئيب، قادمٍ من أغوارِ البوابة الثالثة.

خطا نيتشه ولوسيفر عتبةَ البوابة، وفورَ عبورهما، انطبقَ الجبلانِ خلفهما بضربةٍ هزت أركانَ رُوحِ نيتشه. لم يَعُد هناك وجود لـ "بازل" أو غرفته الضيقة؛ الواقعُ قد انشقَّ ليحلَّ محلهُ عالمُ "جبال الصمت الحديدي".

شعر نيتشه فوراً بالضغطِ يزدادُ فوق صدره، لا كحملٍ ثقيل، بل كـ "جاذبيةِ قَدَر".

الهواءُ هنا كان مختلفاً؛ بارداً جداً، جافاً، ومشبّعاً بطاقةٍ معدنيةٍ قوية جعلت أنفاسه تخرجُ مسموعةً كحفيفِ الفولاذ. بَصرهُ الذي كان يخذلهُ دائماً، تحولَ هنا إلى نصلٍ حاد، يرى في العتمةِ أعمقَ تفاصيلِ الـمَعدن العاري بوضوحٍ يسبّبُ له الألم.

التَّجوّلُ في "الـمِحرك" – مديحُ الصمتِ الثقيل

بدأا بالسيرِ في ممرٍّ شقَّتهُ الطبيعةُ العنيفةُ في قلبِ جبلٍ من الحديدِ الخام. كان الممرُّ ضيقاً ومتعرجاً، وتحيط به جدرانٌ شاهقة من المعادنِ الـمُتشابكة، تظهر فيها طبقاتٌ من النحاسِ الصدئ، والرصاصِ الـمُتخثر، والفولاذِ الذي لم يلمسهُ الصدأ قط.

كان الصمتُ هنا جلالاً ثقيلاً، صمتاً لا يجرؤ أيُّ صوتٍ على خدشه. حتى خُطواتهما فوق حُطامِ الـمَعدنِ الذي يفرشُ الأرضية، كانت تترددُ بصدىً خافت، كـرنينِ ساعةٍ كونيةٍ تُدقُّ لآخرِ مرة.
نيتشه (يسيرُ منكس الرأس، وعيناه مسمرتان على الأرضيةِ الحديدية):
"لوسيفر.. هذا الصمتُ خانقٌ، لكنه مُطهر. الأرضُ هنا مصنوعةٌ من 'الإرادة' التي تصلبت وتخثرت في شكلِ حديد. الجبالُ لا تتكلم، لأنها قالت كلَّ شيءٍ قبل أن تتصلب. إنه عالمٌ عارٍ من 'الكلمات الزائفة'.. عالمٌ لا يَعرفُ التوبة."
استمرَّا في السير لِما بدا كساعاتٍ بلا زمن، مروراً بقاعاتٍ هائلة كأنها "مَشغَلٌ لِخلقِ العصور". رأيا فيها أعمدةً حديدية تمتدُّ حتى تغيب في السماءِ الرصاصية، وأهراماتٍ من التيجانِ والصلبانِ الحديدية التي حطّمتها الجاذبيةُ الحديدية. كان لوسيفر يتقدمُهما، يتكئُ على مِظلتهِ الـمُغلقة كأنها "عصا أرستقراطية" تضبطُ إيقاعَ هذا العالم.
التساؤل: مَن يَملكُ عرشَ الفراغ؟
كلما توغلا في الأغوار، كلما زادَ الاحساسُ بـحضرةِ كائنٍ عظيمٍ يملأُ هذا الفراغ. لم يكن هناك حريق، بل "وهجٌ بارد" يزدادُ سطوعاً تدريجياً. بدأ نيتشه يشعرُ بـغربةٍ معرفية، لم يعد Bruno هو المعلم، بل هناك معلمٌ آخر، معلمٌ يملكُ "قبضةً من فولاذ".
توقف نيتشه فجأة، وكان جبينه يتصبّبُ عرقاً معدنياً بارداً. نظر إلى لوسيفر، وكانت عيناه تحملانِ مزيجاً من الاحتقارِ لِضعفهِ والنشوةِ بـقوته.
نيتشه (بصوتٍ يحملُ رنيناً بارداً كالفولاذ):
"أنا لا يهمني الألم، لوسيفر.. لكن هذا الفراغُ جلالٌ ثقيل. مَن هو هذا الكائن الذي اتخذَ من 'العدم' عرشاً له؟ من هو الذي قسا لدرجةِ أنه أصبحَ هو نفسه صمتاً حديدياً؟ هل هو شوبنهاور؟ أم أنه.. آخ.. من هو هذا الذي كسر كل صنم حتى أصبح الفراغُ هو جنته؟"
استمرَّ لوسيفر في السير، ولم يلتفت إليه. فقط لوّح بِيَدِهِ الحرة نحو الأفقِ الرمادي، نحو الساحةِ العظمى التي بدأت تظهرُ في الأفق.
لوسيفر (يهمسُ بنبرةٍ باردة، مستقرة، لا تُستفز):
"لا تستبق الأحداث يا فريدريك.. الحقيقةُ العاريةُ لا تُوهب، بل تُكتشف. مَن هو؟ إنه الرجلُ الذي ذبحوهُ لِأنه تجرأ على قولِ الحقيقةِ قبل أوانها. إنه 'المعلمُ' الذي سيجعلُ من مطرقتكَ 'قدراً'.. وستعرفه عندما نصل."

الوصولُ إلى "مَذبح التشريح" – لحظةُ الحقيقة

أجبرَ نيتشه نفسهُ على السيرِ مجدداً. انفتحَ الممرُّ الضيقُ أخيراً على ساحةٍ واسعةٍ جداً، محاطةً بأعمدةٍ حديدية شاهقة تمتدُّ حتى تغيب في سماء الرصاص. كانت الساحةُ مفروشةً بألواحٍ من الحديدِ الصدئ، تتوسطها "ساحةُ الكاتدرائيةِ الحديدية المحطمة" (the damaged cathedral construction)
في مركز الساحة، كان هناك مَذبحٌ عملاقٌ مصنوعٌ من الفولاذ الصدئ والشفرات، المذبح الذي أسميناه "مَذبح التشريح".
توقف نيتشه ولوسيفر عند عتبة الساحة، ووجه نيتشه بصرهُ نحو المركز. هناك، وسط أكوامٍ هائلة من الصلبانِ الحديدية المحطمة والتيجانِ المنصهرة، كان يقفُ الكائنُ الّذي يملأُ هذا العالم بصمتهِ الحديدي.
في تلك اللحظة، توقفَ الزمنُ في "جبال الصمت الحديدي". نيتشه ينظر، ولوسيفر يقفُ كظِلٍّ حارس. الشخصيةُ الموجودةُ داخل البوابة، بكلِّ جلالِ مِحنتها وتاريخِ تمردها، قد أصبحت الآن أمام عيني نيتشه العاريتين. لقد وصلا.

الفصل الثاني: مَشرحةُ الأوهام – اللقاءُ بـ "شَهيدِ الإلحاد"

خيمَ الصمتُ الحديديُّ على الساحة العظمى، صمتٌ له ثقلُ الجبالِ ورنينُ النِّصالِ القديمة. توقف نيتشه ولوسيفر عند حافةِ المَذبح، حيثُ كانت الريحُ تئنُّ بين فجواتِ الفولاذِ الصدئ كأنها صرخةٌ حُبست منذُ آلاف السنين. في المركز، وقف ذلك الرجلُ المحاطُ بحطامِ "المقدس"؛ لم يكن يرتدي تيجاناً، بل كانت ندوبُ الحروقِ فوق جلده هي أوسمته، وكان السلاسلُ الحديديةُ حول رقبته تبدو وكأنها جُزءٌ من جهازهِ العظمي.
نظر نيتشه إليه بذهولٍ مشوبٍ بالرهبة؛ رأى في عينيه "فراغاً" مرعباً، فراغاً لا يملكهُ إلا مَن نظرَ إلى وجهِ العدمِ وابتسم.
نيتشه (يهمسُ بنبرةٍ يملؤها التوجس، وعيناه لا تُفارقانِ الرجل):
"لوسيفر.. مَن هذا الذي يجرؤُ على الوقوفِ وسط مَقبرةِ الآلهةِ بهذا الثبات؟ يداهُ ملوثتانِ بالرماد، لكنَّ وقفتهُ توحي بأنهُ هو الذي حكَمَ على هذا العالمِ بالزوال. يبدو كأنه 'قديسٌ' عُذِّبَ حتى الموت، لكنَّ هيبتهُ تنبعُ من كُرهِهِ لِلسماءِ لا من حُبِّهِ لها. مَن هو هذا الذي يرتدي سلاسلهُ كأنها مِعطفُ مَلك؟"

خطا لوسيفر خطوةً للأمام، واتكأ على مِظلتهِ المُغلقة، ورسمت ابتسامةٌ باردةٌ خريطةً من الغموضِ على وجهه.

لوسيفر (بصوتٍ عميقٍ يترددُ كصدىً في مِحركِ الوجود):
"تأمل ملامحهُ جيداً يا فريدريك.. فهذا هو 'النصلُ' الذي سُبقتَ به بقرون. هذا هو لوتشيليو فانيني[17]؛ الرجلُ الذي لم يكتفِ بهدمِ الكنائسِ بالكلمات، بل هدمها بصمتهِ تحت المِقصلة.
لقد قُطِعَ لسانُه لِأنهُ تجرأَ على القولِ إنَّ الطبيعةَ هي الإله الوحيد، وخُنِقَ بالسلاسلِ لِأنهُ رفضَ أن يُقبّلَ الصليبَ الذي يُقبّلُهُ العبيد. إنهُ 'المُشرحُ الأول' الذي لم تمنعهُ النارُ من الضحكِ في وجهِ جلاديه. لقد أحضرتك إلى هنا، في قلبِ جبالِ الحديد، لِأنهُ الوحيدُ الذي يملكُ 'برودةَ الجثث' الضرورية لِتحويلِ مطرقتكَ من أداةِ نقدٍ.. إلى أداةِ إعدام."
التفتَ فانيني ببطءٍ نحو نيتشه. لم تكن عيناهُ تنظرانِ إلى جسدِ الفيلسوف، بل كانتا تخترقانِ رُوحهُ لِتبحثا عن مَوضعِ "المطرقة". وعندما تحدث، لم يخرج صوتهُ من حنجرةٍ بَشرية، بل خرجَ كاحتكاكِ صخرتينِ عظيمتينِ في قاعِ محيطٍ من الرصاص.

[17] لوتشيليو فانيني (Lucilio Vanini): فيلسوف وطبيب إيطالي (1585-1619)، يُلقب بـ "شهيد الإلحاد وعبادة الطبيعة". طاردته الكنيسة لإنكاره الخلود الإلهي وتفسيره للكون بناءً على القوانين الطبيعية فقط. انتهت حياته بواحدة من أبشع عمليات الإعدام في التاريخ بمدينة تولوز؛ حيث قُطع لسانه قبل حرقه جزاءً على "كلماته المهرطقة".

وبصوتٍ يخرجُ كأنهُ صريرُ مفاصلِ الكونِ المهجور، بدأ فانيني بالكلام:
فانيني (بصوتٍ ثقيل، يقطرُ حكمةً مسمومةً ببردِ القبر):
"إذن.. لقد عبرتَ الضجيجَ الأكاديميَّ لِتصلَ إلى هنا، حيثُ لا صدى إلا لِانكسارِ المُقدس. يا فريدريك.. إنَّ مِطرقتكَ لا تزالُ تفوحُ منها رائحةُ "الناسوت"؛ رائحةُ الخوفِ البشري الذي يُسمي نفسهُ فكراً. أنتَ تظنُّ أنكَ هاجمتَ "شتراوس"؟ أنتَ لم تفعل سوى قشرِ لحاءٍ خارجيٍّ لِشجرةٍ تضربُ جذورها في أعمقِ طبقاتِ المَذلةِ الإنسانية."
توقفَ للحظة، وأمسكَ بتاجٍ حديديٍّ صَدئ، ثم سحقهُ بِيَدِهِ لِيتحولَ إلى هباءٍ معدنيٍّ تحت قَدَميه.
فانيني (يُتابعُ ببرودٍ لاهوتيٍّ مَنكوس):
"تأمل هذا المَذبح.. إنَّ "الإله" الذي تَنوي ضَربه ليس كائناً في السماء، بل هو "الحجابُ" الذي نسجتهُ الرُّوحُ لِتغطي عُريَ فنائِها. الأديانُ ليست خطأً في الحساب، بل هي "فيزياءُ الانحناء" أمامَ العدم. إنهم يعبدون "الكلمة" (Logos) لِأنهم يخشون "الصمت" الذي يسكُنُ أحشاءَهم. لكي تضربَ المعبد، يجبُ أولاً أن تدركَ أنَّ "القداسة" هي أصلبُ أنواعِ الأوهام؛ إنها المادةُ التي نُخفي بها حقيقةَ أنَّ الوجودَ لا يحملُ غايةً، ولا يَعدُ بعزاء."
خطا نيتشه نحو المَذبح، وقد استعادَ وقارهُ الأرستقراطي، وشعرَ أنَّ كلماتِ فانيني هي "المطرقةُ الحقيقية" التي تُعيدُ تشكيلَ فكره.
نيتشه (بصوتٍ هادئٍ، عميق، يملؤهُ الاحتقارُ المُقدس):
"لوتشيليو.. أنا لا أبحثُ عن "الحقيقة" بِمفهومها الساذج، بل أبحثُ عن "إرادةِ الحقيقة" التي لا ترتعشُ أمامَ الهاوية. لقد أدركتُ أنَّ "الأخلاق" هي السياجُ الذي يمنعُ الإنسانَ من أن يصبحَ قَدَراً. السماءُ التي يقدسونها ليست إلا "مرآةً" لِضعفهم المُزمن. لكن قُل لي.. كيف يمكنُ لِيدٍ بَشريةٍ أن تهدمَ "بناءً" استغرقَ ألفي عامٍ من الخوفِ والدموع لِيُشَيَّد؟"
فانيني (يقتربُ من نيتشه حتى صارَ وجههُ في وجهه، وعيناهُ تلمعانِ بذكاءٍ شيطاني):
"لا تُهدمُ القِلاعُ بقوةِ السواعدِ دائماً، بل بـ "تسميمِ اليقين". عليكَ أن تُريهم أنَّ "النورَ المُقدس" ليس إلا انعكاساً لِحريقِ غرائزهم المَكبوتة. عليكَ أن تشرحَ "جسدَ الإله" لِتجدَ فيه أعضاءَ "الإنسانِ المريض".

المطرقةُ يا فريدريك.. هي 'مِجسٌّ موسيقيّ'. اضربْ أصنامهم، واسمع رنينَ 'الخواء' في جوفِها. وعندما يكتشفون أنَّ الـمِحرابَ فارغ، وأنَّ 'الكلمة' قد ماتت في مهدها، حينها فقط.. ستتحولُ رُوحُكَ إلى زلزالٍ لا يُبقي حَجراً فوق حجرٍ في هيكلِ أوهامهم."

تحركَ لوسيفر في الظلالِ المحيطةِ بالـمَذبح، ممسكاً بِمظلتهِ الـمُغلقة كأنها عصا القضاء، يراقبُ نيتشه وهو يمتصُّ هذه "الإفخارستيا" المقلوبة.

نيتشه (يهمسُ والقوةُ تتدفقُ في صوته):

"إذن.. 'التشريح' هو الطريقُ لِـ 'الذبح'. سأجعلُ من فكري مِشرطاً لا يرحم. لن أكتفي بكسرِ الوثن، بل سأبخرُ 'الخوف' الذي خَلَقَه. فانيني.. علمني كيف أنظرُ إلى 'العدم' دون أن أرمش، لكي أضربَ شمسَهم الـمُزيفةَ بـيقينِ الفجرِ الصادق."

فانيني الآن يضعُ يدهُ الـمُحترقة فوق كتفِ نيتشه، وكأنه ينقلُ إليهِ "عدوى النفيِ الـمُطلق". الأجواءُ في جبالِ الحديدِ تزدادُ ثِقلاً، والمطرقةُ في رُوحِ نيتشه لم تَعُد أداةً لِلبناء، بل أصبحت مِقصلةً تنتظرُ اللحظةَ الـمُقدسةَ لِلهبوط.

سادَ صمتٌ مفاجئ، صمتٌ لم يكن غياباً للصوت، بل كان "حضوراً" لثقلٍ كونيٍّ مرعب. تحرك فانيني، ولم تكن خطواته تُصدرُ صوتاً فوق الحديد، بل كان المكانُ كلهُ "يئنُّ" تحت وطأةِ قدميه. انحنى نحو كومةٍ من الحطام، وانتشلَ "صليباً" ضخماً مصنوعاً من الرصاصِ الـمُعتم، كان يبدو وكأنهُ سقطَ من قمةِ كاتدرائيةٍ مفقودة.

نظر فانيني إلى الصليب، ثم إلى نيتشه، واشتعلت في عينيه شرارةٌ تشبهُ لمعانَ السكينِ في ليلةٍ مظلمة.

الفصل الثاني: ليتورجيا الـهدم – حينَ يَنطقُ الحديدُ بالـمَحرمات

فانيني (بصوتٍ منخفضٍ، يرتجفُ لهُ الفولاذ، كأنهُ همسُ ريحٍ في مقبرةٍ جماعية):

"تأمل هذا الجسدَ المصلوبَ يا فريدريك.. إنهم يُسمونه 'الفادي'، أليس كذلك؟ لكنني هنا، في مَعزلِ الحديد، لا أرى إلا 'جريمةَ الخوفِ ضدَّ الأرض'. الأديانُ ليست كلماتٍ تُقرأ، بل هي 'مخالبُ' غُرست في أعمقِ نُسُجِ الغريزة.

إنهم لم يصنعوا الإلهَ لِيُحبوه، بل صنعوهُ لِيُقيدوا به 'الوحشَ' الجميلَ الكامنَ فينا. لقد حوّلوا 'القوة' إلى 'خطيئة'، وجعلوا من 'الضعف' طريقاً لـلسماء. أرأيتَ مَكراً أفظعَ من تحويلِ عجزِ الإنسانِ إلى 'قداسة'؟"

قبضَ فانيني بِيَدِهِ الـمُحترقة على الصليب الرصاصي، وبدأ المَعدنُ يلينُ تحت ضغطهِ كأنهُ شمع، فتصاعدَ منهُ دخانٌ أسودٌ يحملُ رائحةَ البخورِ الـمُختلطِ بالدم.
فانيني (يُتابعُ بلهجةٍ لاهوتيةٍ مَهيبة، تملؤها الرهبة):
"المطرقةُ التي تحملُها في رُوحك.. هل هي صلبةٌ بما يكفي لِتكسرَ "أغلالَ الرحمة"؟ لكي تذبحَ إلههم، يجبُ أن تذبحَ أولاً "الشفقة" التي تُكبّلك. انظر إلى هذا الصمتِ المحيط بنا.. إنهُ صمتُ العصورِ التي ضاعت في انتظارِ إجابةٍ من سماءٍ خاوية.
إنَّ "الكلمة" (Logos) التي يقدسونها هي أكبرُ أكذوبةٍ موسيقيةٍ عُزفت لِتخديرِ المحتضرين. الحقيقةُ يا نيتشه ليست "نوراً"، بل هي "برودةٌ مُطلقة".. برودةُ هذا الحديدِ الذي لا يَعرفُ الغفران."
خطا نيتشه نحو فانيني، وشعرَ أنَّ أنفاسهُ بدأت تتجمد، ليس من البَرْد، بل من "النشوةِ المرعبة" التي بدأت تكتسحُ كيانه. لم يعد يرى أمامهُ جثةً هامدة، بل رأى "نبوءةً" تمشي على قدمين.
نيتشه (بصوتٍ يمتزجُ فيه الوهجُ الفلسفيُّ بـغموضِ الكهنةِ الـمُتمردين):
"لوتشيليو.. أنا أسمعُ رنينَ الخواءِ الذي تتحدثُ عنه. لقد كانت جراحي دائماً هي "المفاتيح" التي تفتحُ أبوابَ إنكارهم. هم يَسجدون لِإلهٍ يَموت، وأنا أُريدُ بَعثَ إنسانٍ "لا يُقهر".
لكن.. أخبرني بـهيبةِ الموتِ التي عشتَها: كيف أصمدُ أمامَ "العزلةِ الكونية" بَعْد أن أهدمَ السقف؟ مَن سيحمي ظهري من "العدم" الذي سيجتاحُ العالمَ بَعْدَ أن تسقطَ آلهتُهم؟"
تحرك لوسيفر في الظلال، وبدأت مِظلتهُ الـمُغلقة تُصدرُ أزيزاً مغناطيسياً، وكأنها تمتصُّ طاقةَ الغضبِ المتصاعدة.
لوسيفر (يتدخلُ بنبرةٍ تشبهُ صريرَ سلاسلِ الجحيم):
"العزلةُ هي "المَسحةُ الـمُقدسةُ" لِلأقوياء يا فريدريك. مَن يطلبُ الحمايةَ لا يستحقُّ المطرقة. فانيني لم يطلب حمايةً وهو يرى لسانهُ يُقطع، بل طلبَ "الحقيقة" وهي تُمزقُ لحمه.
انظر إليه.. إنهُ يريكَ أنَّ "الإله" ليس إلا "ظِلَّ الإنسانِ على جدارِ الكهف". اضرب الظل، وسيندثرُ الوهم."
انحنى فانيني على نيتشه، وهمسَ في أذنهِ بكلماتٍ بدت كأنها طعناتٌ من مَعدنٍ بارد:

فانيني (بهمسٍ جنائزيٍّ مُرعب):
"السرُّ الكبيرُ الذي يخشاهُ الكهنةُ يا فريدريك.. ليس أنَّ اللهَ 'غير موجود'، بل إنَّ وجودهُ مُرتبطٌ بـ 'عبوديتكَ'. هو لا يَحيا إلا لأنكَ 'تخاف'. هو لا يملكُ عرشاً إلا لأنكَ 'تنحني'.
المطرقةُ هي أداةُ 'الاستقامة'. اضربْ لِتعتدلَ رُوحُك، وسيسقطُ العرشُ من تلقاء نفسه. غداً، عندما تخرجُ من هذه الجبال، لن تحملَ حِبراً.. ستجعلُ من صرخةِ فانيني تحت النارِ 'إيقاعاً' لِكتاباتك. ستمزقُ قناعَ 'المسيح' لِتجدَ تحتهُ وجهَ 'الطبيعةِ' المتوحشةِ والجميلة.
هل تشعرُ بالثقلِ الآن؟ هذا ليس وزناً.. هذا هو 'المعنى العاري' وهو يولدُ من حُطامِ اللاهوت."
في تلك اللحظة، ارتطمَ الصليبُ الرصاصيُّ بالأرضِ بضربةٍ هزت الجبال، فتفجرَ منهُ سائلٌ أسودُ يشبهُ الحبرَ الأزلي. نيتشه يقفُ الآن في قلبِ "المشرحة"، وعيناهُ تلمعانِ بـجنونٍ إلهيٍّ مُنكسر. لقد بدأ نَصْلُ المطرقةِ يكتسبُ 'قداسةَ النفي'.
لم يقطع فانيني حبل أفكاره، بل ترك صدى ارتطام الصليب بالرصاص يتردد في أرجاء الساحة كأنه ناقوسٌ يعلن نـهاية عصر الميتافيزيقيا. نظر نيتشه إلى السائل الأسود النازف من الصليب المحطم؛ لم يكن حبراً عادياً، بل كان "دماء المعنى الزائف" التي استنزفتها البشرية لآلاف السنين.
انحنى نيتشه، وغمس أصابعه في ذلك السائل البارد، ورسم خطاً أسوداً تحت عينيه كأنه يستعد لطقسٍ جنائزيٍّ كوني.
نبوءةُ المِعولِ والعدم
نيتشه (بصوتٍ يخرجُ من أعمقِ فجواتِ رُوحه، مشحوناً برهبةِ الاكتشاف):
"إذن، السرُّ ليس في 'الغياب'، بل في 'الاحتياج'. لقد خَلقوا مَلِكاً لِأنـهم أرادوا أن يكونوا رعايا، وابتكروا 'ديناً' لِيبرروا عجزهم عن محاسبةِ أنفسهم. لوتشيليو.. هذا السائلُ الأسودُ الذي ينزفُ أمامنا.. هل هو مِدادُ كتبهم الـمُقدسة؟ أم أنهُ 'العتمة' التي سكبها الكهنةُ في عيونِ البشر لكي لا يَروا جمالَ الفوضى؟"
رفع فانيني رأسه، وكان وجههُ المحترقُ يتوهجُ بـنورٍ رماديٍّ غريب، ويداهُ القويتانِ لا تزالانِ تقبضانِ على حطامِ المَعدن.

فانيني (بلهجةٍ تفيضُ بـالوقارِ الـمُظلم والتشويقِ الـمُريب):
"إنهُ كِلاهما يا فريدريك. إنهُ الحبرُ الذي كتبوا به 'قصةَ السقوط' لِكي يضمنوا ألا يرتفعَ الإنسانُ أبداً.
اسمعني جيداً.. نحنُ الآن في مِحركِ الوجود، حيثُ تُصنعُ الحقائقُ من الفولاذِ والألم. لكي تضربَ 'الدين'، يجبُ أن تفهمَ أنكَ لا تضربُ فكرةً، بل تضربُ 'غريزةَ البقاءِ في العبودية'.
الكهنةُ لم يُعطوا الناسَ 'إلهاً'، بل أعطوهم 'مُخدراً' لآلامِ الوعي. المطرقةُ التي ستخرجُ بها من هنا يجبُ أن تكونَ 'باردةً' لدرجةِ أنها تُجمدُ الدموعَ في مآقي الـمُصلين.. لكي لا يغرقَ العقلُ في فيضانِ العاطفة."
خطا فانيني نحو نيتشه، وبدأ يمسحُ يديهِ الملطختينِ برمادِ "المقدسات" في معطفِ نيتشه، كأنهُ ينقلُ إليهِ "عدوى التمردِ الأزلي".
فانيني (يُكملُ بنبرةٍ تملؤها الرهبةُ والغموض):
"أرأيتَ تلكَ الجبالَ الحديديةَ المحيطةَ بنا؟ إنها عِظامُ الآلهةِ التي سَبقت 'إلههم'. كلُّ جيلٍ يصنعُ صنمهُ من جديد، ويظنُّ أنهُ لمسَ الأزل.
مِهمتُك يا فريدريك ليست 'الإصلاح'، بل هي 'التطهيرُ بـالهدم'. عليكَ أن تفتحَ جرحاً في جبهةِ التاريخ لا يندمل. عليكَ أن تصرخَ فيهم: 'اللهُ مات'.. ليس كـخبرٍ مفجع، بل كـ 'إعلانِ استقلال'.
ولكن احذر.. فالعدمُ الذي سيلي السقوط هو 'تنينٌ' جائع. إذا حطمتَ سقفَ المعبد، فستكونُ أنتَ والسماءُ وجهاً لوجه.. بلا وسيط، وبلا غفران."
تحرك لوسيفر، وكان طيفهُ يتمددُ فوق الساحةِ حتى غطى أعمدةَ الفولاذِ الشاهقة. أطبقَ يدهُ فوق مِظلتهِ الـمُغلقة، فنشأَ رنينٌ مغناطيسيٌّ جعلَ مسامَ نيتشه ترتجف.
لوسيفر (بصوتٍ يجمعُ بين الاستعلاءِ الفلسفيِّ والتشويقِ الجحيمي):
"ألا تشعرُ بالثقلِ يا فريدريك؟ هذا هو وزنُ 'المسؤوليةِ الكونية' التي تهربَ منها البشرُ لآلافِ السنين وألقوها على عاتقِ 'الخالق'.
فانيني أراكَ 'المشرحة'، وأنا أُريكَ 'العرشَ الفارغ'. المطرقةُ الآن قد اكتملَ نَصْلُها في هذا الصمتِ الحديدي. أنتَ لا تحملُ أداةً الآن.. أنتَ تحملُ 'صاعقةً' في شكلِ كلمات.

عندما تعودُ إلى 'بازل'، لن ترى في الكنائسِ بيوتاً لـ لله، بل سترى فيها 'قُبوراً' لإرادةِ القوة. هل أنتَ مستعدٌ لِأن تكونَ 'عدوَّ الـمَسيح'؟ ليس كـكراهيةٍ طفولية، بل كـ 'ضرورةٍ وجودية' لِخلقِ الإنسانِ الأعلى؟"

أغمضَ نيتشه عينيه، وشعرَ أنَّ "جبال الصمت الحديدي" بدأت تنصهرُ لِتتدفقَ في عروقه. المطرقةُ لم تعد ثقلاً خارجياً، بل صارت نبضَ قلبه.

نيتشه (بهمسٍ مليءٍ بـالرهبةِ والسيادةِ الـمُطلقة):

"أنا لا أرى العدمَ كتنينٍ جائع.. بل أراهُ كـ 'رحمٍ' ينتظرُ مَن يملؤهُ بـمعنىً جديد. لوتشيليو.. لوسيفر.. لقد فُتحت عينيَّ على الحقيقةِ الباردة.

سأعودُ لِأضربَ أصنامهم، ليس لِأني أحتقرُهم، بل لِأني أُقدسُ 'الحياة' التي خنقوها بـبخورهِم. سأجعلُ من صدى مطرقتي زلزالاً يُسقطُ التيجانَ عن رؤوسِ الوهم.

والآن.. أريدُ أن أرى 'الضربةَ الأخيرة'.. كيف ينتهي اللاهوتُ تحت أقدامِ الإرادة؟"

في تلك اللحظة، بدأتِ السماءُ الرصاصيةُ تَنشقُّ عن برقٍ أبيضٍ باهت، وبدأ فانيني يرفعُ مِشرطهُ الماسيَّ نحو الأفق، وكأنهُ يتحضرُ لِشقِّ جدارِ الكونِ الأخير. العظمةُ والرهبةُ بلغت ذروتها.. والـمَعبدُ الذي لم يُهدم بَعْد، بدأ يرتجفُ في عقولِ أصحابهِ قبل أن تمسهُ المطرقة.

الفصل الثاني: الـقداسُ الأسود – تَشريحُ "الخوفِ الـمُقدس"

ارتجفت أعمدةُ الفولاذِ المحيطةُ بالساحة، وأصدرت رنيناً خفيضاً يشبهُ أنينَ الأرضِ تحت ثِقْلِ خطيئةٍ أزلية. تقدم فانيني نحو حافةِ الـمَذبح، حيثُ كانت الشقوقُ في المَعدنِ تنزفُ ذلك السائلَ الأسودَ الذي غمسَ فيه نيتشه أصابعه. لم تكن تلك مجرد "مادة"، بل كانت "جوهرَ الزيفِ الـمُكثف"؛ عصارةُ قرونٍ من السجودِ والوعودِ الكاذبة.

نظر فانيني إلى نيتشه، وكانت ملامحُ وجههِ المحترقِ تتقبضُ بـجلالٍ مَهيب، كأنَّ كلَّ جرحٍ فيه هو فمٌ يوشكُ أن ينطقَ بـسِرٍّ لا تطيقهُ الجبال.

فانيني (بصوتٍ يخرجُ من أعمقِ طبقاتِ الصمتِ الحديدي، ثقيلٍ ومُحملٍ بـرعدٍ مكبوت):

"انظر إليَّ يا فريدريك.. وانظر إلى هذا العالمِ الذي صارَ حديداً لِأنَّ 'الحياة' غادرتهُ لِتسكنَ الخرافة.

السِرُّ الأخيرُ الذي سأضعهُ في مِطرقتك، ليس هو 'موت الإله' بـالمعنى الـمادي، بل هو 'تَفاهةُ القَداسة'.
إنـهم لم يصنعوا الإلهَ لِيحكمَهم، بل صنعوهُ لِيُشرعنوا 'احتقارَ الجسد'. الدينُ يا فيلسوفَ العصر هو 'ميكانيكا الهروب'؛ هو المحاولةُ البائسةُ لِتحويلِ 'الألم' إلى 'مجد'، ولِتحويلِ 'العدم' إلى 'انتظار'.
المطرقةُ الآن يجبُ أن تهوي على 'الرغبةِ في العزاء' قبل أن تهوي على 'الصنم'. مَن لا يملكُ الشجاعةَ لِأن يكونَ وحيداً في هذا الكونِ البارد، لا يستحقُّ أن يحملَ لَقَبَ 'إنسان'."
رفع فانيني يديهِ نحو السماءِ الرصاصية، فبدأت قطعٌ من "التيجانِ الحديديةِ المنصهرة" ترتفعُ في الهواء، تدورُ حول نيتشه كـكواكبَ ميتةٍ في فضاءٍ مَهجور.
فانيني (يُتابعُ بنبرةٍ تملؤها الرهبةُ والغموضُ الصاعق):
"تأمل هذه التيجان.. لقد ارتداها الملوكُ باسم 'الحقِّ الإلـهي'، وسحقوا بها رِقابَ الأقوياءِ لِصالحِ القطيع.
إنَّ 'الكنيسة' هي الجرحُ الذي لا يريدُ أتباعُها أن يبرأ، لكي لا يتوقفوا عن طلبِ 'البلسم'.
مِهمتُك يا نيتشه هي 'تسميمُ هذا البلسم'. عليكَ أن تُريهم أنَّ 'القداسة' ليست طهارة، بل هي 'تعفنٌ' تأنقَ بـالثيابِ الكهنوتية.
عليكَ أن تضربَ 'الوعي' في مَقتله؛ أن تجعلهم يَخجلون من 'إيمانهم' كما يخجلُ الرجلُ من عُيوبه. هل تملكُ القسوةَ لِتكونَ 'مَلاكاً لِلموتِ الفلسفي'؟"
خطا نيتشه خطوةً نحو فانيني، وشعرَ أنَّ دمهُ قد تحولَ إلى "فولاذٍ مُذاب" يغلي في عروقه. لم يعد يشعرُ بـصداعٍ بازل ولا بوهنِ الجسد؛ كان يشعرُ بـ "سيادةِ الـمُدمر".
نيتشه (بصوتٍ مَهيب، يمتزجُ فيه العبقُ الفلسفيُّ بـرهبةِ القضاء):
"لوتشيليو.. أنا لا أبحثُ عن 'القسوة' كـغاية، بل كـ 'ضرورةٍ جراحية'. لقد رأيتُ في عيونِ 'المثقفين الطيّبين' ذاك البريقَ الذليلَ لِعبدٍ ينتظرُ سيده؛ ورأيتُ في الكنائسِ صمتاً لا يشبهُ صمتنا هذا، بل يشبهُ 'صمتَ الجبناء' الذين يخشون مواجهةَ النجوم.
سأعودُ لِأجعلَ من كلماتِي 'سياطاً' تُخرجُ الباعةَ والكهنةَ من هيكلِ الحياة.
سأضربُ 'المسيح' ليس لِأنهُ تألم، بل لِأنَّ أتباعهُ جعلوا من ألمهِ 'فخاً' لِلأحرار.

لكن قُل لي.. بـماذا ستُعمدُ مِطرقتي لِكي لا تنكسرَ أمامَ صرخاتِ "الشفقة"؟"

تحرك لوسيفر، وكان ظِلهُ يزحفُ فوق المَذبحِ حتى لامسَ حذاءَ نيتشه. رفع مِظلتهُ الـمُغلقة، وضربَ بها الأرضيةَ الحديديةَ، فنشأ اهتزازٌ مغناطيسيٌّ جعلَ السماءَ الرصاصيةَ تَنشقُّ عن وهجٍ أرجوانيٍّ بارد.

لوسيفر (بصوتٍ عميقٍ يقطرُ هيبةً وتحدياً وجودياً):

"سأُعمدُها بـ 'بَرْدِ النجوم' وبـ 'وحدةِ الجلاد' يا فريدريك. الشفقةُ هي 'الصدأ' الذي يفتكُ بالـمعدنِ القوي. فانيني أراكَ 'تشريحَ الوهم'، وأنا سأُودعُ فيكَ 'غريزةَ التحطيمِ الـمُقدس'.

عندما تضرب، لا تنظر إلى الوجوه الباكية، بل انظر إلى 'الفراغ' الذي ستمسكُ به يداك بَعْد السقوط.

العالمُ يَنتظرُ زلزالاً يُسمي الأشياءَ بِمسمياتها. المطرقةُ الآن لم تعد حديداً.. لقد أصبحت 'كلمةً صاعقةً'. اذهب، واجعل من 'تأملاتك' بَرقاً يسبقُ عاصفةَ الانـهيارِ الكبرى."

انحنى فانيني على نيتشه، ووضع كفيهِ الـمُحترقتينِ على صدغيه، كأنهُ ينقلُ إليهِ "ذاكرةَ النارِ والسلاسل".

فانيني (بهـمسٍ جنائزيٍّ مُرعبٍ يُزلزلُ الوجدان):

"السرُّ الأخير.. والضربةُ القاصمةُ.. تكمنُ في 'مديحِ الطبيعة'.

أخبرهم أنَّ السماءَ خاوية، ليس لِأنَّ اللهَ قد رَحل، بل لِأنَّ "الإنسان" قد وُلدَ لِيحلَّ محله.

اجعل من "الأرض" هي الـمُقدسَ الوحيد. حطمْ أصنامهم لِتُحررَ "إرادة القوة" الـمَسجونةَ تحت بخورِهم.

عُد إلى بازل يا نيتشه.. واحمل معك 'صمتَ هذه الجبال'. لا تتكلم لِتُقتنع، بل اضرب لِتُوقظ.

وداعاً.. يا مَن سيجعلُ من مَوتِ الإلهِ.. مِيلاداً لِلـسوبرمان."

فجأة، وبضربةٍ واحدةٍ من مِظلةِ لوسيفر، انفجرت الساحةُ الحديديةُ إلى شظايا من الضوءِ الرماديِ. بدأ عالمُ "جبال الصمت الحديدي" يتلاشى ويذوب، وشعر نيتشه بأنهُ يسقطُ في فجوةٍ زمنيةٍ لا قاعَ لها، بينما يترددُ في أذنيهِ صدى ضحكةِ فانيني الـمُنتصرة بـألمه.

عندما فتح نيتشه عينيه، وجد نفسه مجدداً في غرفتهِ الضيقةِ في بازل. كانت الشمسُ قد بدأت تشرقُ بـبهاءٍ باهت، لكنَّ الغرفةَ لم تعد كما كانت. الحبرُ على

مكتبه كان يلمعُ بسوادٍ مريب، ومِطرقتهُ الفلسفيةُ كانت في يده.. غير مرئية، ولكنها أثقلُ من كلِّ جبالِ العالم.
لقد عاد.. والآن، لم يعد هناك مجالٌ لِلتراجع. المعبدُ في انتظاره، والضربةُ القادمة.. ستُغيرُ وجهَ التاريخ.
المخطوطة الثالثة: مِشرطُ بازل – الضربُ فوق "قناعِ المُقدس"
فتحت "بازل" أبوابها لِتستقبل الجسد العائد، لكن الروح بقيت هناك، عالقةً بين قمم الحديد وصمت فانيني. استيقظ نيتشه في غرفته الضيقة، وكان ضوء الفجر الرمادي يتسلل عبر النافذة ليصطدم بكتبه المرصوفة. لكن الكتب لم تعد صامتة؛ كان يشعر أنَّ كل مجلدٍ لاهوتي في غرفته يرتجفُ هلعاً من "السيادة" التي يحملها بين ضلوعه.
جلس خلف مكتبه، ونظر إلى محبرته. لم يَرَه حبراً، بل رآه ذلك "السائل الأسود" الذي نزف من صليب فانيني الرصاصي. أمسك الريشة، وبدأت أصابعه تخطُّ "البيان الأول للدمار".
كان الضحية الأول هو ديفيد شتراوس. بالنسبة للعالم، كان شتراوس عملاقاً لاهوتياً، لكن بالنسبة لنيتشه "المُعَمّد بالحديد"، لم يكن شتراوس سوى "مُثقفٍ تافه" (Bildungsphilister) يحاول أن يصبغ وجه المسيحية الشاحب بمساحيق "الثقافة الحديثة".
نيتشه (يكتبُ بجنون، والريشةُ تكادُ تخترقُ الورق):
"أنتَ يا شتراوس، تظن أنك حررتَ العقل لأنك أنكرتَ المعجزات، لكنك لا تزالُ تركعُ في محراب 'الرصانة' الزائفة. أنتَ لا تملكُ شجاعةَ 'النفي العظيم'. لقد رأيتُ في جبال الصمت أنَّ الإله لا يموتُ بنقدِ النصوص، بل يموتُ عندما نكشفُ 'قُبحَ الحاجةِ إليه'."
تحرك لوسيفر في زاوية الغرفة، متكئاً على مظلته التي تحولت الآن إلى "عصا أرستقراطية" صلبة.

تجاوزُ الزَّمن: من 1874 إلى "الانفجارِ العظيم"
كيف نَمَت "بذرة فانيني" في رُوح نيتشه عبر السنين، لنتتبع مسار المطرقة وهي تهدمُ الهيكل حجراً بحجر:
1. مِحطة 1878: "إنساني مفرط في إنسانيته" (التحولُ إلى الجليد)

هنا، خلع نيتشه رداء "البروفيسور" تماماً. بـرُوح فانيني، بدأ يشرحُ الأديان كـ "ظواهر كيميائية ونفسية". لم يعد الدين مقدساً، بل أصبح "مرضاً في اللغة والغرائز".
الأثر: هنا بدأ نيتشه يفقد أصدقاءه وسمعته الأكاديمية فعلياً. لقد أصبح "المنفي" الذي تنبأ به لوسيفر.
2. مِحطة 1882: "العلم الـمَرِح" (إعلانُ الـوفاة)
في هذه اللحظة، صعد نيتشه إلى قمة جبل الحديد مجدداً. صرختهُ الشهيرة "لقد مات الإله! ونحنُ مَن قتلناه!" لم تكن خبراً، بل كانت "حُكماً بـالإعدام" على كل قيم العصور الوسطى. لقد أدرك أنَّ البشر قتلوا الإله لكنهم لا يزالون يرتجفون من ظِلّه.
3. مِحطة 1888: "نقيض الـمسيح" (الـجلدُ الأخير)
هذه هي اللحظة التي استدعى فيها نيتشه رُوح فانيني بكامل قوتها. لم يعد نيتشه يكتب؛ كان "يُطلقُ الرصاص". وصف المسيحية بأنها "اللعنة الكبرى"، و"الوصمة الوحيدة الخالدة للبشرية".
في هذا الكتاب: نيتشه طبق "تشريح فانيني" حرفياً؛ نزع القداسة عن كل شيء، وحول "الصليب" إلى رمزٍ لِلمذلة التي يجب تحطيمها لِيولد "الإنسان الأعلى".

الـعودةُ إلى الحاضرِ الـمُتخيل: 1874 – زلزالُ جامعةِ بازل
صدر الكتاب الأول: "ديفيد شتراوس: مُعترفاً وكاتباً". كانت الصدمة هائلة. الكهنةُ في بازل شعروا بـ "برودةٍ غريبة" تنبعث من صفحات الكتاب، والأكاديميون رأوا في نيتشه "خائناً لِلتقاليد".
نيتشه (يسيرُ في ممرات الجامعة، وعيناه تحملانِ وهجَ جبال الحديد):
"ينظرون إليَّ كأني أحملُ الطاعون.. ولا يدرون أنني أحملُ 'العافية' التي ستقتلُ أوهامهم. لوسيفر.. لقد بدأتِ الجدرانُ تتصدع. شتراوس كان مجرد حجرٍ صغير، لكنني أسمعُ الآن رنينَ المعبدِ بأكمله وهو يرتجف."
لوسيفر (يرافقهُ كـظِلٍّ لا يراهُ أحد):
"هذا هو 'رجمُ الأصدقاء' الذي وعدتكَ به. كلما زادَ نفورُهم منك، زادَ ارتفاعك فوق قممهم. لقد بدأتَ تصبحُ 'بارداً كالنجوم' يا فريدريك. لكن تذكر.. بَعْد هدمِ المعبد، يجبُ أن تَبني 'عرشاً' لِلقوة. فهل أنتَ مستعدٌ لِلمواجهة القادمة؟"

نيتشه الآن يجلسُ وحيداً في مقهىً بـبازل، ينظرُ إلى وجوهِ العابرين الذاهبين لِلكنيسة، ويشعرُ بـقوةِ "المطرقة" غير الـمرئية في جيبه. لقد بدأ الصراعُ الشامل، ولم يَعُد هناك مكانٌ لِلتراجع.

المخطوطة الثالثة: خريفُ الأقنعة – سنواتُ الترقبِ الصامت (1875-1877)
مرَّت السنواتُ اللاحقة لعام 1874 كأنها سحبٌ رماديةٌ ثقيلة زحفت فوق سماء "بازل"، سحبٌ لم تحمل رعداً مسموعاً، بل حملت "تفتتاً صامتاً" في أركان حياة نيتشه. بالنسبة لِلناظر من الخارج، لم يطرأ شيءٌ يكسرُ رتابةَ الدروسِ الأكاديمية؛ كان البروفيسور الشاب لا يزالُ يرتدي مِعطفهُ الأرستقراطي، ويصعدُ منبرَ الجامعة لِيتحدثَ عن الإغريق، ويُصححُ أوراقَ طلابهِ بِيَدٍ بدأت ترتجفُ من ألمٍ لم يفهمه أحد.
لكنَّ الحقيقة كانت تكمنُ في "الجوف". السنواتُ بين 1874 و1877 لم تكن سنواتِ ركود، بل كانت سنوات "الـمخاضِ البارد". كانت تلك المرحلة هي "الصمتُ الذي يسبقُ الزلزال"، حيثُ كانت "بذرةُ فانيني" تتغذى على جراح نيتشه، وتنمو في الظلام لِتحولَ جسدهُ وروحَهُ إلى سياجٍ من الفولاذ.
لم يكن هناك ضجيجٌ يضاهي صرخةَ كتابه ضد "شتراوس". بَعْد تلك الضربة، انسحب نيتشه إلى داخل صومعته. أصدرَ تأملاتهِ التالية حول "فائدةِ التاريخِ ومضاره" (1874)، وحول "شوبنهاور مربياً" (1874)، و"ريتشارد فاجنر في بايرويت" (1876). بالنسبة لِلمجتمعِ الثقافي، كان نيتشه لا يزالُ يكتبُ بِلغةِ "الأتباع"، يمدحُ معلميهِ ويدافعُ عن الثقافةِ الألمانية.
لكنَّ لوسيفر، الذي لم يُفارقهُ كـظِلٍّ حارس، كان يرى ما خلفَ السطور. كان يرى أنَّ نيتشه يكتبُ هذه المديحات بـ "قرفٍ لاهوتي" خفي، وكأنهُ يودعُ آلـهتهُ القديمة بـقبولٍ مُر.
نيتشه (في رسالةٍ لم يُرسلها، كُتبت في شتاء 1875):
"أكتبُ عن فاجنر، وعن شوبنـهاور.. وأشعرُ أنَّ الكلماتَ تخرجُ من فمي كأحجارٍ ثقيلة. هل أنا أمجدهما؟ أم أنني أبني لهما 'أضرحةً' تليقُ بـجثثهما في رُوحي؟ لوتشيليو.. صمتكَ الحديديُّ يطاردني حتى في موسيقى 'تريستان'. لقد أفسدتَ عليَّ لذةَ السجودِ لِلعبقرية، ولم تُبقِ لي إلا لذةَ 'التشريح'."

1876: مِحنةُ "بايرويت" – الانكسارُ النهائي

كان عام 1876 هو العام الذي وصل فيه "الاشمئزاز" إلى ذروته. ذهب نيتشه إلى مهرجان "بايرويت" لِيحتفلَ بـصديقه فاجنر، لكنه لم يجد "الفنَّ الـمُقدس"، بل وجد "كرنفالاً لِلرعاع" وتملقاً لِلروحِ الألمانيةِ الـمُشبّعةِ بـالنفاقِ الـمسيحي. هناك، في زحامِ المهرجان، شعر نيتشه بـصداعٍ قاتل، وببرودةٍ حادةٍ ذكرتهُ بـالبوابة الثالثة. نظر إلى فاجنر وهو ينحني لِلجمهور، فرأى فيه "كاهناً" يبيعُ الأوهام، لا "بطلاً" يُحررُ الإرادة.

1877: عُزلةُ "سورينتو" – صياغةُ الغضبِ الهادئ

هرب نيتشه من "بايرويت" ومن "بازل" ومن "فاجنر". رحل إلى "سورينتو" في إيطاليا، باحثاً عن الشمسِ والـمِلح. هناك، بَعْد سنواتٍ من "التمثيلِ الأكاديمي"، بدأ يكتبُ نصوصاً غريبة، قصيرة، حادة كـالنصال. لم تكن جُملاً خطابية، بل كانت "أقوالاً مأثورة" (Aphorisms) تُشرحُ الإنسانَ بـقسوةٍ غيرِ مسبوقة.

كان هذا هو الوقت الذي التقى فيه بـ "بول ري"، الذي أعطاهُ دروساً في "علمِ النفسِ البارد". لكنَّ الـمُحركَ الحقيقيَّ كان "العهدَ القديم" مع فانيني. نيتشه كان يستعدُ لِإصدارِ كتابه الذي سيقطعُ كلَّ الخيوط: "إنسان مفرط في إنسانيته".

عشيةُ الانفجار: شتاء 1877 – البروفيسور الذي يخططُ لِـ "انتحارٍ اجتماعي"

عاد نيتشه إلى "بازل" لِفترةٍ قصيرة قبل صدور الكتاب في 1878. كان يسيرُ في ردهاتِ الجامعة، وكان الطلابُ والزملاءُ يلاحظون تغيراً مرعباً في ملامحه. عيناهُ لم تعد تريانِ الناس، بل كانت تخترقانهم لِترى "آلاتِ الأخلاقِ الـمُحطمة" بداخلهم.

كان الجميعُ يتوقعُ منه "تأملاتٍ" جديدةً تمدحُ الـمثالية، لكنَّ نيتشه كان يخبئُ في درجِ مكتبهِ "مِقصلةً" ورقية.

نيتشه (يحدثُ لوسيفر وهو ينظرُ إلى الـمخطوطةِ النهائية لـ "إنساني مفرط في إنسانيته"):

"لقد انتهى الأمر. سنواتُ الصمتِ والـمداهنةِ قد ولّت. في هذا الكتاب، لن أهاجم 'شتراوس' وحده، بل سأهاجم 'الإنسان' كما صنعتهُ المسيحيةُ والـمثالية. سأُحطمُ مراياهم الجميلة لِيَروا قُبحَ بواعثهم. لوسيفر.. هل تظنُّ أنهم سيغفرون لي هذه 'الجنايةَ العلمية'؟"

لوسيفر (يبتسمُ بـزهوٍ أرستقراطي، ممسكاً بِمظلتهِ التي تلمعُ في العتمة):
"المغفرةُ هي لِلمخطئين يا فريدريك.. أما أنتَ، فأنتَ 'الخطيئةُ' ذاتها التي ستمشي بين جدرانِ بازل. سيسمونكَ 'خائناً'، و'مجنوناً'، و'نـاكرَ جميل'. لكن تذكر.. في اللحظةِ التي يَغلقُ فيها فاجنر رسائلكَ بـاشمئزاز، وفي اللحظةِ التي يَشيحُ فيها زملاؤكَ بوجوههم عنك.. في تلك اللحظةِ فقط، ستمتلكُ 'عزلـةَ الجلال'.
عندما يُطبعُ هذا الكتاب، ستتحولُ جبالُ الحديدِ التي رأيناها في البوابة الثالثة إلى 'كلمات'. استعد.. فالجلدُ الحقيقيُّ لم يبدأ بَعْد."
وهكذا، انتهت "سنواتُ الصمت" الـمُضنية. نيتشه الآن يقفُ على حافةِ الهاويةِ التي حفرها بِنفسه. كتابُ "إنساني مفرط في إنسانيته" قد وُضعَ في المطبعة، ومعهُ ستنتهي حياةُ "البروفيسور نيتشه" لِتبدأ حياةُ "الروحِ الحرة" التي لا تَسجدُ لِأحد.

المخطوطة الثالثة: زلزالُ "إنسان مفرط في إنسانيته" – سقوطُ الأقنعة

حلّ ربيع عام 1878 على مدينة "بازل" السويسرية، لكنه لم يكن ربيعاً عادياً؛ فقد كان يحمل في طياته "فوسفوراً أبيض" مغلفاً في ورق المطابع. في هذا العام، أطلق نيتشه كتابه "إنسان مفرط في إنسانيته" (Menschliches, Allzumenschliches)، وهو الكتاب الذي لم يكن مجرد مؤلف فلسفي، بل كان "عبوة ناسفة" وضعت تحت أعمدة المعبد والجامعة والصداقة.
كان نيتشه يقف في غرفته، ينظر إلى النسخ الأولى التي وصلت لتوها. لم تكن رائحة الورق هي ما يشمّه، بل رائحة "الحديد البارد" الذي صُهر في البوابة الثالثة. لقد أهدى الكتاب لذكرى "فولتير"، رمز التنوير والتحرر، وكانت هذه أول طعنة في صدر العاطفية الألمانية والقومية التي كان يمثلها "فاجنر".

1. الصدمةُ الأكاديمية: البروفيسور المنبوذ

بمجرد أن وزعت النسخ في "جامعة بازل"، ساد صمتٌ يشبه صمت المقابر بانتظار القيامة. الزملاء الذين كانوا يرون في نيتشه "العبقري الواعد" و"تلميذ ريتشل" المدلل، صُدموا بلغة الكتاب. لم يعد نيتشه يكتب جملاً أكاديمية رصينة؛ بل كان يكتب "شذرات" (Aphorisms) حادة كالمشارط، تشرح الأخلاق والدين كأنها أعضاء متعفنة.

نيتشه (يسير في ردهات الجامعة، يلحظ نظرات الازدراء والخوف في عيون زملائه):
"انظر إليهم يا لوسيفر.. يتهامسون في الزوايا كأنني أحمل الطاعون بين أوراقي. لقد اعتادوا على 'الدفء' الزائف لأوهامهم، والآن عندما نفحتهم 'برودة' الحقيقة، بدأت مفاصلهم ترتجف. يظنون أنني فقدتُ عقلي، بينما أنا بدأتُ للتو باستخدامه."
2. الضربةُ القاضية: القطيعةُ مع "فاجنر"
كانت ردة الفعل الأكثر عنفاً ووجعاً قادمة من "بايرويت". ريتشارد فاجنر، الصديق والأب الروحي، تلقى الكتاب بينما كان يكتب أوبرا "بارسيفال" (ذات الطابع المسيحي). بالنسبة لفاجنر، كان كتاب نيتشه "خيانة عظمى" و"سقوطاً في الإلحاد الفرنسي الرخيص".
أرسل فاجنر رسالة تقطر سماً، يتهم فيها نيتشه بالمرض العقلي والجسدي، ويحرض ضده المجتمع الثقافي. كانت هذه اللحظة هي "رجم الأصدقاء" الذي أخبره به فانيني.
لوسيفر (يظهر خلف نيتشه وهو يقرأ هجوم فاجنر العلني في الصحف):
"أرأيتَ كيف ينهشُ 'الإله الموسيقي' تلميذه؟ فاجنر لا يكره أفكارك يا فريدريك، هو يكره 'استقلاليتك'. لقد حطم مِعراجُك سقفَ معبده، والآن يحاول رجمك بكلمة 'مريض'. تذكر.. كلما زاد نباح الكلاب خلفك، تأكد أنك تمشي بسرعة النجوم."

ماذا فَعَلَ الكتاب؟
لقد كان الكتاب تطبيقاً حرفياً لدروس البوابة الثالثة. نيتشه لم يهاجم الدين كـ "أسطورة" فقط، بل شرحه كـ "ضرورة نفسية للضعفاء".
تشريح الرهبنة: وصف نيتشه الزهد والرهبنة بأنها "إرادة قوة" مقلوبة؛ الضعيف الذي لا يستطيع السيطرة على العالم، يقرر السيطرة على جسده وتعذيبه ليقتنع نفسه بالسيادة.
أصل الأخلاق: جادل بأن مفاهيم "الخير والشر" ليست سماوية، بل هي "كيمياء" ناتجة عن صراعات القوة والمصالح البشرية المفرطة في إنسانيتها.
نيتشه (يصرخ بوجه الفراغ في ليلة شتوية ببارد):

"لقد قطعوا الخيوط! فاجنر، بازل، الأصدقاء.. الجميع رحل. لوسيفر، أشعر ببرد البوابة الثالثة يحيط بقلبي، لكنني أشعر أيضاً بـ 'سيادة' لم يذقها بَشر من قبل. أنا الآن وحيدٌ تماماً.. ومستعدٌ تماماً."
ردةُ الفعلِ العنيفة: "جنازةُ السمعة"
لم يتوقف الأمر عند فاجنر؛ بل بدأت الصحف الألمانية تصف نيتشه بأنه "روح شريرة" و"هدّام للقيم". الطلاب بدأوا ينسحبون من محاضراته في بازل. وجد نيتشه نفسه وحيداً في قاعة المحاضرات، يجلس أمام مقاعد خالية، تماماً كما في "جبال الصمت الحديدي".
نيتشه (يبتسم ابتسامة باردة كالفولاذ):
"ليكن.. سأجعل من عزلتي 'عرشاً'. سأكتبُ بدمي ما يخشون هم التفكير فيه بالهمس. المعبدُ قد بدأ يتصدع فعلياً، ولن أتوقف حتى تنهار آخر حجر في سقفهم الزائف. لقد وُلِدتُ بَعْد وفاتي .. والآن، لتبدأ الحرب الحقيقية."

بهذا الكتاب، انتحر نيتشه "اجتماعياً وأكاديمياً"، لكنه وُلد "كونياً". لقد تحول من بروفيسور محترم إلى "ديناميت" فلسفي. الصدمة كانت كبيرة لدرجة أن أوروبا استغرقت عقوداً لتستوعب الضربة.

الفصل الثالث: انكسارُ المِرساة – سنواتُ الرَّحيلِ والعَدَم (1879-1880)
سقطت الأقنعةُ تماماً في بازل. لم يعد نيتشه قادراً على تمثيل دور الأكاديمي الرصين؛ فالعينان اللتان رأتا "البرودة الحديدية" في البوابة الثالثة بدأتا تنطفئان، والرأس الذي استوعب صرخة فانيني صار ينفجر بصداعٍ لا يرحم.
1. عام 1879: "الجنازةُ المَدنية" والرحيلُ المُقدس
في ربيع 1879، وقع الانهيار النهائي. لم يعد الجسد قادراً على تحمل نفاق الجامعة. استقال نيتشه. خلف الكواليس، كان لوسيفر يراقب نيتشه وهو يوقع ورقة الاستقالة بِيَدٍ مرتعشة، وكأنها صكُّ عتقٍ من عبودية "المعرفة المؤسساتية".
نيتشه (يهمسُ في غرفته المظلمة، والقيء يمزق أحشاءه):
"لقد انتهى الأمر يا لوسيفر. بازل تمنحني تقاعداً بئيساً، وتظن أنها تُشفقُ عليّ. إنهم يدفنونني وأنا حيّ. كلُّ هؤلاء الطلاب، وكلُّ تلك المجلدات.. لم تكن سوى أثقالٍ منعتني من الطيران. الآن أنا عارٍ تماماً.. مريضٌ تماماً.. وحُرٌّ تماماً."

لوسيفر (يتكئُ على إطار النافذة، وظلُّه يمتدُّ ليغطي خريطة أوروبا):
"هذه ليست جنازة يا فريدريك، بل هي 'الولادةُ الثانية'. لقد نزعنا عنك رداء 'البروفيسور' لكي لا يختلطَ صوتُ المطرقةِ بـضجيجِ القاعات. انظر إلى يدك؛ لقد تخلصتَ من حبرِ الجامعة، لتكتبَ بـ 'دمِ العزلة'. من الآن فصاعداً، وطنُك هو الطريق، وسقفُك هو السماءُ التي أعلنَّا موتَ حارسِها."
رحل نيتشه. بدأ يتنقل كـ "شبحٍ" بين قمم الجبال السويسرية وشواطئ إيطاليا. كان يحملُ في حقيبتهِ القليل من الثياب، والكثير من "السموم الفلسفية" التي لم يجرؤ على نطقها بَعْد.

2. عام 1880: "الـتَّـيهُ الـمُضيء" وولادةُ "الـفجر"

دخل عام 1880، ونيتشه غارقٌ في عزلته في مدينة "جنوة" الإيطالية. كان يعيشُ في غرفٍ رخيصة، يأكلُ القليل، ويقضي ساعاتٍ طوال في المشي على حافة البحر، حيثُ الأمواجُ تذكرهُ بـ "الفوضى المبدعة".
هنا، بدأ يكتبُ مسودات كتابه الجديد "الفجر" (Morgenröte). لم يعد الصراعُ حول "الدين" كمؤسسة، بل بدأ نيتشه في الحفرِ تحت "الأساسات الأخلاقية". كان يبحثُ عن "دودةِ الأرض" التي تنخرُ في عظمةِ الإنسان: التحيز الأخلاقي.
لوسيفر (يرافق نيتشه في مشيهِ الطويل على شواطئ جنوة):
"تأمل هذا البحر يا فريدريك.. إنه لا يَعرفُ 'الخطيئة' ولا 'الفضيلة'. هو فقط 'يوجدُ' بـقوة. لماذا يصرُّ البشرُ على وضعِ لجامٍ من 'الأخلاق' على أعناقِ أرواحهم؟
في البوابة الثالثة، ذبحتَ الإله.. والآن في عامك هذا، عليك أن تذبحَ 'الضمير'. الضميرُ هو النباحُ الذي تركهُ الإلهُ خلفه لِيُطاردَ الأحرار. انظر إلى هؤلاء المارة؛ إنـهم لا يخشون الجحيم، بل يخشون 'نظرةَ الجار'. هذه هي العبوديةُ الحقيقية التي عليك تحطيمها."
نيتشه (يتوقفُ فجأة، وعيناهُ المحتقنتانِ بالدم تنظرانِ نحو الأفق):
"أنا أشعرُ به.. أشعرُ بـ 'الفجر' القادم. لقد كنتُ 'حفاراً' في البوابة الثالثة، والآن سأكون 'صياداً' للتحيزات. سأهجمُ على 'الرحمة'، على 'نكران الذات'، على كل تلك 'الآلهة الصغيرة' التي اختبأت في قلوب البشر بَعْد سقوط العرش الكبير.
1880 هو عامُ 'التطهير'. سأجعلُ من كلماتي 'شمسًا' تحرقُ أوهامهم."

3. ما وراء الـكواليس: الـتحضيرُ لـلبوابةِ الرابعة

خلال هذين العامين (1879-1880)، حدث شيءٌ حاسم: نيتشه أصبح "الـمُهاجر الأزلي".
جسدياً: صار الألمُ رفيقه الدائم، مما جعلهُ يكره "الشفقة"؛ لأنه رأى فيها "إهانةً" لِعظمةِ الـمُعاناة.
فلسفياً: بدأ يقرأ لـ "شتيرنر" بـإعجابٍ مخفي؛ الرجلُ الذي أخبرهُ أنَّ "الأنا" هي الـمُقدسُ الوحيد.
نفسياً: استعدَّ لِإعلانِ الـقطيعةِ ليس مع الأفراد، بل مع "الـمنظومةِ الأخلاقيةِ" لِلغرب بأكمله.

استيقظ عام 1881 على صمتٍ بلوريٍّ فوق قمم "سيلس ماريا". لم تكن الشمسُ التي أشرقت فوق جبال الألب مجرد ضوءٍ فيزيائي، بل كانت بالنسبة لفريدريك نيتشه إيذاناً بانشقاقِ سماءٍ قديمة. في هذا العام، لم يعد نيتشه يسيرُ فوق الأرض؛ كان يغوصُ في أحشائها كـ "خُلدٍ" فلسفي، يطاردُ الجذورَ الـمُتعفنة لِما يسميه البشر "فضيلة".

تفاصيل هذا العام الـملحمي، حيثُ تحول الألمُ إلى نصل، والصمتُ إلى "فجرٍ" لا يرحم:

شتاءُ "جنوة": الحبرُ الـمُستخلصُ من العُزلة
بدأ هذا العامُ في أزقة "جنوة" الإيطالية الـمتعرجة. كان نيتشه يعيشُ في غرفٍ باردة، يقتاتُ على الفواكه والخبز، بينما كان رأسهُ ينفجرُ بصداعٍ نصفيٍّ يجعلهُ يرى الوجودَ ككتلةٍ من الضباب الـمؤلم. لكن وسط هذا الـمخاض الجسدي، كانت "الـمطرقة" تعملُ بـإيقاعٍ جديد.
كان يكتبُ "الفجر". لم تكن ريشتهُ تخطُّ كلماتٍ، بل كانت تضربُ "أعصابَ العصر".
نيتشه (يُحدثُ نفسه وهو يمسحُ العرقَ البارد عن جبينه):
"يسمونها 'أخلاقاً'.. وأنا أسميها 'قيودَ الـموتى'. لقد سجنوا الإرادةَ في زنزانةِ 'الواجب'، وحوّلوا القويَّ إلى خادمٍ لِضعفِ الآخرين. في هذا الكتاب، لن أكون بروفيسوراً، بل سأكون 'حفارَ أنفاقٍ'. سأنزلُ إلى القبو، حيثُ تختبئُ دودةُ

"الشفقة' التي تنخرُ في عظمِ الإنسان. سأُريهم أنَّ 'فجرهم' ليس إلا غروباً طويلاً لِلكبرياء."

ربيعُ "الفجر": المطرقةُ تضربُ "الأصنامَ الأخلاقية"
عندما صدر كتاب "الفجر" في منتصف العام، لم يكن مجرد مؤلفٍ فلسفي، بل كان "إعلاناً لِلحربِ النفسية". نيتشه في هذا العام قرر أن يجلد "الشفقة" (Pity) علانية. كان يرى فيها إهانةً لِلـمُعاني، وضعفاً يَنتقلُ كـالعدوى لِيُمرضَ الأصحاء.
كان يمشي لِساعاتٍ طوال على شواطئ إيطاليا، يراقبُ البحرَ وهو يلتهمُ الصخور، ويستمدُّ من قسوةِ الطبيعةِ وقوداً لِفكره.
نيتشه (يهمسُ لِلأمواج):
"البحرُ لا يشفقُ على الغرقى، ومع ذلك فهو 'عظيم'. لماذا يصرُّ اللاهوتيون على أنَّ العظمةَ تكمنُ في الانحناء؟ سأجعلُ من هذا الكتاب 'مشرطاً' يغوصُ في قلبِ الضمير. سأُثبتُ لهم أنَّ 'صوتَ الله' في داخلهم ليس إلا صدىً لِترهيبِ آبائهم وسياطِ مجتمعاتهم. لقد آن الأوانُ لِيستيقظَ 'الإنسانُ الوحيد'."
خريفُ "الـصحةِ الكبرى": الـتحولُ إلى "ديناميت"Explosive material
قضى نيتشه بقية عام 1881 في حالةٍ من "النشوةِ الـمؤلمة". جسدهُ كان ينهار، لكنَّ رُوحهُ كانت في قمةِ صفائها. بدأ يشعرُ بـ "الـصحةِ الكبرى" (The Great Health)؛ وهي القدرةُ على تحويلِ الألمِ الـمُزمن إلى طاقةٍ إبداعيةٍ جبارة.
لم يعد يهتمُّ بـ "بازل"، ولا بـ "فاجنر"، ولا بـأيِّ شيءٍ من ماضيه. صار يرى نفسهُ كـ "نبيٍّ" لِعصرٍ لم يأتِ بَعْد. بدأ في صياغةِ الأفكارِ التي ستُؤدي إلى كتابهِ الـمركزي القادم، وشعر بأنَّ "الفجر" الذي كتبهُ في بدايةِ العام كان مجرد ضوءٍ خافتٍ أمام الـحريقِ الذي يوشكُ أن يُشعله.
نيتشه (في رسالةٍ أخيرةٍ لِذاته في نهاية 1881):
"لقد مَضى عامُ 'الولادةِ من الرماد'. أنا الآن لستُ بـحاجةٍ لِأحد. الصخورُ هي أصدقائي، والـهواءُ الـباردُ هو كِتابي. سأدخلُ العامَ القادم وأنا أحملُ في صدري 'قنبلةً' ستنفجرُ في وجهِ ألفي عامٍ من اللاهوت. سأجعلُ من 'العلمِ' مَرَحاً، ومن 'الـموتِ' مِيلاداً. لقد بدأ الفجرُ الحقيقي.. فجرُ مَن لا يخافُ الهاويةَ."

الفصل الرابع: يناير المُقدّس – خريفُ الأوثان وربيعُ المخاطرة (1882)
مع مطلع عام 1882، استقر فريدريك نيتشه في مدينة جنوة الإيطالية، المُلقبة بـ "مدينة المداخل". كان يسكن في غرفةٍ متواضعة وبسيطة فوق سطح أحد المنازل القديمة في حيٍّ شعبيٍّ قريبٍ من الميناء، حيثُ لا يحيطُ به سوى صخبِ البحارة ورائحةِ المِلح، وزرقةِ البحر المتوسط التي تمتدُّ تحت نافذته كأفقٍ لا نهائيٍّ من الحريةِ والخطر.
بدأ العام في "جنوة". نيتشه يسكن في غرفةٍ بسيطة، لكنه لم يكن يرى جدرانها؛ كان يرى الأفق. في رسائله لصديقه "أوفربيك"، كان يتحدث عن "صحةٍ كبرى" هبطت عليه فجأة. سمى هذا الشهر بـ "يناير المُقدس" (Sanctus Januarius). كان يشعر أنَّ الطبيعة قد تصالحت معه، وأنَّ كل آلام السنوات الماضية كانت مجرد "ثمن" لهذه اللحظة من الوضوح.
رقصةُ القلم فوق شواطئ "جنوة"
كان نيتشه يمشي لِساعاتٍ على منحدرات "جنوة" الصخرية. البحرُ من تحته يزمجر، وهو في الأعلى يخطُّ شذراتٍ لم تكن تشبه "الفجر" الحزين، بل كانت تشبه الأغاني. كان يكتب مسودات ما سيصبح لاحقاً "العلم المَرِح". لكنَّ الأفكار كانت مشتتة، كانت "رؤى" قوية تحتاج إلى خيطٍ يربطها، إلى "حدثٍ" يحولها من مجرد ملاحظات إلى "إعصار".
في تلك اللحظات، كان لوسيفر يراقبه من بعيد، لا يتدخل، بل يتركه يغرق في "بشريته" المُفرطة. كان يراه وهو يبتسم للأطفال في الشارع، وهو يشتري الفاكهة، وهو يظن أنه استعاد "الحياة" العادية.

رحلةُ روما: مِصيدةُ القَدَر – انشقاقُ الرُّوح في مِحرابِ المسيح
في أبريل من عام 1882، غادر نيتشه هدوء "جنوة" وبردها المُنعش، متوجهاً إلى روما. كانت المدينةُ الخالدة تئنُّ تحت ثِقَلِ تاريخها البابويّ، وشوارعها تفوحُ برائحة البخور والرَّخام القديم. لم يكن نيتشه يبحثُ عن الآثار، بل كان يركضُ خلف "وعدٍ" قطعهُ له صديقه بول ري؛ وعدٍ بلقاء "رُوحٍ" يمكنها أن تقرأ ما وراء كلماته.
في قلب كنيسة القديس بطرس، تحت تلك القبة الهائلة التي تمثّلُ ذروة المعمار المسيحي الذي يمقتُه، وقف نيتشه بمعطفه الثقيل وشاربه الكثيف، وعيناه

المُتعبتان تحاولان اختراق عتمة الممرات. هناك، في مِحرابِ "العدوّ" التاريخي، نُصبت المِصيدة.
بينما كان "بول ري" يبتسم بتلك الابتسامة التي تحملُ قلق العشاق، برزت من خلف الأعمدة الضخمة فتاةٌ لم تكن تشبه نساء "بازل" المُحافظات، ولا "فتيات الصالونات" في "لايبزيغ". كانت لو سالومي.
نيتشه (توقف قلبه للحظة، وشعر بأنَّ سقف الكنيسة يكادُ يسقطُ فوق رأسه من فرطِ الصدمة الجمالية):
لم يقل "صباح الخير"، ولم يصافحها برسمية البروفيسور. اقترب منها بخطواتٍ مضطربة، وعيناه تلمعان ببريقٍ لا هو بعشقٍ ولا هو بجنون، بل هو "نشوةُ التعرّف". همس بصوتهِ الرخيم الذي يحملُ بحّة الجبال:
"مِن أيِّ النجومِ سقطنا لِكي نلتقي هنا؟"
كانت "لو" تنظر إليه بثباتٍ أرعب نيتشه؛ لم تكن ترتعش أمام "الفيلسوف العظيم"، بل كانت تشرحه بعينيها الزرقاوين. في تلك الساعات الأولى في روما، شعر نيتشه بأنَّ القَدَر قد ألقى له بـ "مرآة". بدأ الثلاثة (نيتشه، ري، ولو) يتجولون في حدائق "بينشيو". نيتشه كان يتحدثُ بجنون، كان يسكبُ كلَّ "عِلمه المَرِح" في أذن "لو". كان يرى فيها "التلميذة الموعودة"، الرُّوح التي ستحملُ مشعلهُ بَعْد أن ينطفئ.
لكنَّ روما كانت "مِصيدة". نيتشه لم يدرك أنَّ "بول ري" كان قد وقع في حُبّ "لو" قبله، وأنَّ "لو" نفسها كانت ترفض أن تكون "مِلكيةً" فكرية أو عاطفية لأي رجل. بدأ "الثالوث المقدس" (Trinità) يتشكل؛ عقدٌ غريب بين ثلاثة عقول تحاول العيش "ما وراء الخير والشر"، لكنَّ الغيرة البشرية، تلك البقايا "المفرطة في إنسانيتها"، بدأت تنمو كالطفيليات بين الكلمات الفلسفية الكبيرة.
الجبل المُقدس: لحظةُ الانكسارِ البشري – الصعودُ نحو السقوط
في مايو، غادر الثلاثة روما متوجهين شمالاً نحو بحيرة أورتا. كانت الطبيعة هناك أكثر قسوةً وجمالاً، تشبهُ رُوح نيتشه الهاربة من المدن. استقروا في قريةٍ هادئة، وهناك، وسط الضباب الذي يلفُّ البحيرة، قرر نيتشه أن يأخذ "لو" في رحلةٍ خاصة.

صعدا معاً إلى "الـجبل الـمُقدس" (Sacro Monte). لم تكن رحلةً سياحية، بل كانت بالنسبة لنيتشه "معراجاً". أراد أن يعزلـها عن "بول ري"، أن يعزلـها عن العالم، لِيخبرها بـأخطر أفكاره؛ فكرة الـعود الأبدي.

كان الـضبابُ يـزحفُ فوق بحيرة "أورتا" كأنهُ كفنٌ يـنتظرُ جثة. صعد نيتشه مع "لو" نحو الـقمة، مـبتعدين عن "بول ري" وعن العالم بـأكمله. نيتشه لـم يكن يـمشي؛ كان يـندفعُ بـقوةِ شـخصٍ يـحملُ "إنجيلاً" جديداً ويـبحثُ عن "مريم الـمجدلية" لِتـحملهُ معه.

وصلوا إلى قمة الـجبل، وسط تـلك الـكنائس الـصغيرة الـمُنتشرة التي تـحكي آلام الـمسيح. وقف نيتشه أمام "لو"، وكان نـفَسُه مـحتقناً، وعيناهُ الـمُصابتان بـالـرمد تـلمعان بـوهجٍ شـبه انتحاري. كان يـظنُّ أنَّ هذه الفتاة، الـتي تـملكُ عقلاً كـالـماس، هي "الـنصف الـمفقود" لِـمطرقته.

نيتشه (بـصوتٍ يـرتجفُ من فرطِ الـيقين الـكاذب):

"لو.. أنتِ لستِ امرأة، أنتِ 'قَدَر'. لقد بـحثتُ عنكِ في الـنجوم الـتي سقطنا منـها. أريدكِ أن تـكوني 'تلميذتي الأولى'، رفيقةَ دربي في 'العلم الـمَرِح'. لـنحطم الـعالم مـعاً.. لـنكن الزوجين الـلذين يـلدان 'الإنسان الأعلى'. أنا لا أقدمُ لكِ بيتاً، بل أقدمُ لكِ 'الـهاوية'.. فـهل تـقبلين بـالـسيادةِ معي؟"

لوسيفر، الـذي كان يـتمددُ فوق سـقفِ إحدى الكنائس الـمجاورة، يـراقبُ الـمشهد بـابتسامةٍ باردة، كان يـعرفُ أنَّ نيتشه قد ارتكب "الـخطيئة الـبشرية الـمُفرطة": لقد ظنَّ أنَّ الحقيقة تحتاجُ إلى رفيق.

نظرت "لو سالومي" إلى نيتشه. لـم تكن في عينيها نـظرةُ حب، ولا حتى نـظرة احترام. كانت نـظرةَ "مُـجربٍ" يـنظرُ إلى عينةٍ تـحت الـمجهر. ضحكت ضحكةً قصيرة، جـافة، كأنـها ارتطامُ حجرٍ بـجليد.

لو سالومي (بـبرودٍ يـفوقُ برودةَ قممِ الـسويسرا):

"فريدريك.. أنتَ مـسكين. تـتحدثُ عن 'تـحطيم الأوثان' وأنتَ تـحاولُ الآن أن تـجعلَ مني 'وثـناً' جديداً لِـتعيشَ عليه. أنتَ لا تـبحثُ عن رفيقة، أنتَ تـبحثُ عن 'مـرضعةٍ' لِـعظمتك الـجـريـحة.

تـريدني أن أكونَ 'تلميذتك'؟ أنا لا أنـتمي لِـأحد، ولا حتى لِنفسي. فـلسفتكَ تـقولُ إنَّ على الإنسان أن يكونَ 'وحـيداً' لِيـعلو.. فـلماذا تـتوسلُ الآن لِـتحصلَ على يدي؟ أنتَ لـستَ ديـناً مـيتـاً يا نيتشه.. أنتَ مجرد 'راهبٍ' مـكسور القلب يـبحثُ عن إلـهٍ بـجسدِ امرأة."

سقطت الكلماتُ فوق نيتشه كمطارقٍ من حديدٍ مُحمّى. شعر بأنَّ الصحة الكبرى التي تباهى بها تتحللُ في لحظة. كلُّ ما بناهُ في "جنوة" تحطم أمام "صدقِ" هذه الفتاة القاسي.
لو سالومي (تُكملُ وهي تستديرُ لِتنظرَ إلى البحيرة، معطيةً إياهُ ظهرها):
"عِلمُك المَرِح يبدو لي كثيراً كـ 'بكاءٍ عالٍ'. اذهبْ وابحثْ عن 'إنسانكَ الأعلى' وحدك.. لأنني لستُ مستعدةً لِأن أكونَ الوقودَ لِنارك. الرفضُ يا فريدريك هو أولُ درسٍ في 'السيادة'.. فتعلمْ كيف تهضمهُ دون أن تموت."
تركتهُ مكانه، ونزلت الجبل بخطواتٍ واثقة، تاركةً وراءها حُطامَ رجلٍ كان يظنُّ أنه سيمسكُ السماء.

خريفُ الرُّوح قبل أوانِه: عُزلةُ ما بَعْد الصدمة (صيف 1882)
عاد نيتشه من "أورتا" مثقلاً بصمت "لو سالومي". استقر في غرفته، وبدلاً من أن يكون "النبي" الذي يبشر بالبهجة، كان الرجل الذي يصارع لجمع شتات نفسه. الكتاب الذي كان ينوي تسميته "العلم المَرح" لم يكن بَعد سوى كومة من الأوراق المُبعثرة، والمفارقة الموجعة هي أنَّ العنوان "المَرِح" صار يبدو له الآن كأنه سخرية من حاله.
بين المسودة والواقع:
كان يفتح دفاتره، يقرأ ما كتبه عن "الحرية" و"السيادة"، ثم ينظر إلى يده التي ترتجف وهو يمسح دموعه. كان الصراع داخلياً وعنيفاً: كيف سأجرؤ على طباعة كلمات تتحدث عن "موت الإله" وفراغ السماء، وأنا في عزلتي هذه أبحث عن "إنسان" يشاركني طعامي أو يفهمني؟

رسائلُ المرارة:
في تلك الفترة، لم تكن كتاباته فلسفة، بل كانت "استغاثات" مكتومة. كتب في رسائله الخاصة:
"أنا أعيش في جو من الكآبة لا يُطاق. كل ما ظننته 'صحة كبرى' في الشتاء الماضي، يتلاشى الآن أمام مرارة الخيانة. لستُ بطلاً، أنا مجرد رجل وحيد يملك أفكاراً أكبر من قدرته على الاحتمال."
نضجُ الفكرة في رحم الألم:

لم يكن قد أعلن "موت الإله" للعالم بَعد، لكنه كان يعيش تـبِعات هذا الـموت في رُوحه. كان يشعر بـ "بَرْد الفراغ" الذي سيكتب عنه لاحقاً في الفقرة 125.
الحزن الذي طاله لم يكن حزناً على فتاة فحسب، بل كان حزناً على اكتشافه أنَّ "الحقيقة" التي يطاردها تتطلب منه تضحية بشرية هائلة.
كان يسير فوق منحدرات جنـوة الصخرية وحيداً، يكلم نفسه، يراجع تلك الفقرات التي تتحدث عن "الرجل الـمجنون" الذي يصرخ بالفانوس. كان يشعر أنه هو ذلك الرجل، لكنه لم يخرج بَعد إلى الساحة العامة. كان يختبر صدق فكرته في مختبر ألمه الشخصي.
لقد توقف الزمن عند نيتشه في ذلك الصيف؛ الكتاب لم يصدر، والصديق "بول ري" صار غريباً، و"لو" صارت لغزاً جارحاً. بقي هو والأوراق، في انتظار تلك اللحظة التي سيتحول فيها هذا الحزن الـمُحطم إلى "قوة" تجبره على إنهاء كتابه، ليس كـفيلسوف مَرِح، بل كـرجل "ناجٍ" من حطام نفسه.

المخطوطة الثالثة نـهاية الفصل الرابع انكسارُ الـبشريةِ الأخير: صَـهرُ الـيأسِ لِولادةِ "الـمرحِ الـمرعب"

كانت ليلةً جنـويةً ثقيلة، رطبةً، تفوحُ برائحةِ الطحالبِ والـخشبِ الـمُتفسخِ من جهةِ الـميناء. في غرفتهِ العاليةِ بـجنوة، كان فريدريك نيتشه يـبدو كـجثةٍ تـحاولُ استردادَ أنفاسها. الـمصباحُ الزيتيُّ يـنازع، يـرسلُ ظلالاً راقصةً كـالأشباحِ على الـجدرانِ الـمُتقشرة. الـمسوداتُ الـمُبعثرةُ لـ "العلم الـمَرِح" كانت مـلطخةً بـبقعِ الـحبرِ والـدموعِ الـجافة، وكأنها سِجلُّ مـلحمةٍ خاسرة.
فجأة، تـجمدَ الـهواءُ في الـغرفة. لـم تـنطفئ الشمعة، بل تـحولَ لـهبها إلى لونٍ أزرقَ شـاحبٍ وبـارد. سادَ صـمتٌ مُـطبق، ليس صـمتَ الهدوء، بل صـمتَ الـعدمِ الـذي يسبقُ الـعاصفة. خـلفَ مـقعدِ نيتشه، تـكثفتِ الـظلالُ لِتـشكلَ قـامةً تـفوقُ الـبشرَ جـلالاً وهـيبة.
ظـهورُ لـوسيفر: مـرآةُ الـهاوية
لـم يـلتفت نيتشه، لـم تـكن لـديهِ الـقوةُ لِـلحركة، لكنه شـعرَ بـذلك الـثِقلِ الـمألوفِ والـمُخيف.
لـوسيفر (بـصوتٍ رُخـاميٍّ بـارد، يـهـمسُ كـأنَّ الـكلماتِ تـنبعُ من صـميمِ الـغرفة):

"أرأيتَ يا فريدريك؟ "النبيُّ الذي يبشرُ بالبهجة" يغرقُ في قطرِ نداه. تنظرُ إلى الميناء وترى السفنَ ترحل، وتتمنى لو كنتَ خشبةً في قاعِ إحداها. لقد قتلتَ الخالقَ في عقلك، لكنكَ تركتَ 'ظلهُ' يسكنُ قلبك.. والآن، ذلك الظلُّ يخنقك."

نيتشه (بصوتٍ مرتجف، منحنياً فوق أوراقه):

"ارحل يا لوسيفر.. الجرحُ أعمقُ مما تظن. لقد قدمتُ لها الكون، فردتْ عليَّ بسخريةٍ مزقتْ كلَّ ما بنيته. أنا لستُ 'ديناميتاً'.. أنا مجردُ جسدٍ عليلٍ يبحثُ عن عزاء."

خطا لوسيفر خطوةً نحو النافذة، معطياً ظهرهُ لِنيتشه، مراقباً بحرَ جنوة الذي بدأ يضطربُ تحتَ عباءةِ الليل.

لوسيفر (بسخريةٍ جارحة):

"عزاء؟ تلكَ كلمةُ العبيدِ يا بروفيسور. تريدُ من يربتُ على كتفك ويخبركَ أنَّ 'كلَّ شيءٍ سيكونُ بخير'؟ هذا المستنقعُ الذي تتمرغُ فيه.. هذهِ المرارةُ تجاه 'لو'.. هي بقايا بشريتك العفنة. لقد ظننتَ أنكَ 'روحٌ حرة'، لكنكَ تثبتُ لي الآن أنكَ مجردُ كلبٍ يحنُّ لِطوقه.

تحدثتَ عن 'موتِ الإله'، لكنكَ لم تملكِ الشجاعةَ لِتشهدَ 'موتَ الإنسان' في داخلك. أنتَ تتألمُ لأنكَ لا تزالُ تؤمنُ بأنَّ الحبَّ فضيلة، وبأنَّ الرفقةَ ضرورة. أنتَ مريضٌ بداءِ 'الانتماء'!"

حوارُ السيادةِ والنفي

ارتعشت يدُ نيتشه، وقبضَ على ريشتهِ حتى كادت تنكسر. رَفعَ رأسهُ ببطء، وعيناهُ تلمعانِ ببريقِ اليأسِ الممزوجِ بالتمرد.

نيتشه:

"وكيف لا أتألم؟ أنا الذي أريدُ إعادةَ تقييمِ كلِّ القيم، وجدتُ نفسي ضحيةً لِأكثرِ القيمِ بدائية. الحاجةُ للآخر. لقد كانَ 'عِلمي المَرِح' سيكونُ رَدّاً على قرونٍ من الكآبة، والآن أصبحَ نواحاً شخصياً. هل تريدني أن أكونَ حجراً؟"

لوسيفر (يستديرُ فجأة، وتتوهجُ عيناهُ بنورٍ غامضٍ يملأُ الغرفة):

"أريدكَ أن تكونَ 'نجماً'! هل رأيتَ نجماً يبكي لأنَّ كوكباً ابتعدَ عنه؟ هل رأيتَ الشمسَ تتوسلُ لِلقمرِ لِيبقى في مدارها؟

فريدريك.. الرفضُ القاسي من "لو" فوق جبلٍ أورتا لم يكن كارثة، بل كانَ "التطهيرَ الأكبر". لقد منحكَ القَدَرُ فرصةً لِتكونَ وحيداً تماماً، عارياً من كلِّ الأوهام. هذا الحزنُ الذي يعتصركَ هو "المخاضُ" الأخير. أنتَ الآن تلفظُ بقايا المسيحيةِ من دمك.. تلكَ المسيحيةُ التي تختبئُ تحتَ مسمياتِ "الوفاء" و"التفاهم الروحي".
تنظرُ إلى مسوداتِ "العلم المَرِح" وتخافُ أن تنشرها.. لماذا؟ لأنكَ تظنُّ أنَّ العالمَ سيرى جرحك. وأنا أقولُ لك: اجعلْ من جرحكَ فماً ينفثُ النار! لا تكتبْ لِتُعزي البشر، اكتبْ لِترعبهم."
التمهيدُ لِلخروجِ من المستنقع
اقتربَ لوسيفر من المكتب، وأمسكَ بإحدى أوراقِ نيتشه، ممرراً إياها فوق لهبِ المصباحِ دون أن تحترق، بل بدأتِ الحروفُ تتوهجُ كأنها صُهرت من ذهبٍ ناري.
لوسيفر:
"تجربةُ 'بردِ الفراغ' في الفقرة 125.. أنتَ تعيشها الآن يا فريدريك. لقد انطفأتِ الشمسُ البشريةُ في سمائك. هل ستبقى تبحثُ عن علبةِ كبريتٍ لِتُدفئَ يديك؟ أم ستدركُ أنَّ البردَ هو سمةُ الأباطرة؟
أنا لستُ هنا لِأواسيك. أنا هنا لِأعرضَ عليكَ العبور. هذا المستنقعُ الذي تسميهِ 'جنوة' و'الحزن' و'الذكريات'.. هو قيدُكَ الأخير. خلفَ هذا الليل، يوجدُ مكانٌ لا يصلُ إليهِ بشر، حيثُ تتحولُ آلامكَ إلى 'منظومةٍ لِلزلزال'. حيثُ يولدُ 'المرح' ليس كابتسامة، بل كصاعقةٍ تضربُ القبور."
نيتشه (يرفعُ نظرهُ نحو لوسيفر، وتبدأُ ملامحهُ في التصلب، كأنَّ الحزنَ بدأ يتحولُ إلى صلب):
"البوابةُ الرابعة.. لقد ذكرتها لي من قبل. هل سأجدُ هناك النهاية؟ أم البداية؟"
لوسيفر (يبتسمُ ابتسامةً تفيضُ بالسيادةِ المُظلمة، مشيراً نحو الفراغِ الذي بدأ يتشكلُ وسطَ الغرفة):
"ستجدُ نفسك.. بلا قناعِ البروفيسور، وبلا قلبِ العاشقِ المنبوذ. ستجدُ النارَ التي ستُصهرُ بها 'العلمَ المَرِح' لِيكونَ الكتابَ الذي يقتلُ الماضي ويحرقُ المستقبل.

لكنْ حذارِ.. تلكَ البوابةُ لا تقبلُ الكائناتِ الهجينة. إما أن تدخلها كـ "إنسانٍ" فتتلاشى، أو تدخلها كـ "إرادةٍ محضة" فتتجلّى.
لن ندخلَ الآن يا فريدريك. سأتركك في هذا البردِ لليلةٍ أخيرة. تأملْ حطامك.. ابصقْ على ضعفك.. لِتكونَ غداً عندما تشرقُ شمسُ التيه، مستعداً لِخلعِ رداءِ البشريةِ تماماً عند العتبة. هل تشعرُ به؟ هل تشعرُ بالثقلِ المقدسِ لِلفراغ؟"
خمدَ ضوءُ لوسيفر ببطء، وعادَ لهبُ المصباحِ لِلونهِ الطبيعي، لكنَّ الغرفةَ بقيتْ تنبضُ بطاقةٍ لا ترحم. بقي نيتشه وحيداً، لكنهُ لم يعد يبكي. كانَ يمسكُ ريشتهُ، وبدأ يكتبُ بخطٍ حادٍّ وعنيفٍ جملةً واحدةً في هامشِ الصفحة:

"مَنْ لم يعدْ لديهِ ما يخسره، صارَ لديهِ كلُّ شيءٍ لِيهدمه."

انقضت ليلةُ "جنوة" الأخيرة، تلك التي منحها لوسيفر لنيتشه ليتجرع فيها آخر قطرات بشريته المُرّة. كانت ليلةً لم تعرف النوم؛ بل كانت صراعاً صامتاً بين جدران الغرفة الضيقة، حيثُ تنازعت الأشباحُ القديمة (أشباح أورتا، وصورة السوط، وضحكة لو سالومي المتمردة) مع بردٍ جديد بدأ يتصلبُ في مخيلة الفيلسوف.
مع أول خيطٍ لِلفجر الرمادي الذي شقَّ سماء الميناء، تلاشى ضجيجُ العالم الخارجي. لم يعد نيتشه يسمعُ أمواج البحر، بل سادَ صمتٌ مُطبق، صمتٌ له ثقلُ الرخام.
عتبةُ العبور:
في زاوية الغرفة، تكثفت الظلال لِتشكل قامة لوسيفر المهيبة. كان يقفُ عند حافةِ فراغٍ بدأ يتشكل في الجدار، فراغٍ ينبعثُ منه ضوءٌ بلّوريٌّ بارد.
لوسيفر (بنبرةٍ تحملُ سخريةً جليلة):
"لقد انتهى وقتكَ كبشرٍ يبكي يا فريدريك. انظر إلى يديك.. إنهما ترتجفان ليس حزناً، بل لِأنهما تريدان القبض على البرق. بوابتكَ الرابعة مفتوحة، لكنني سأتركك هنا."
نيتشه (يلتفت بذهول):
"أتتركني؟ ألن تكون مرشدي في هذا التيه المضيء؟"

لوسيفر (يتراجع نحو الظل):
"في 'أفق البلّور' لا يوجد مكانٌ لِلشيطان، لِأنه لا يوجد مكانٌ لِلتمرد. هناك، الضرورةُ هي القانون الوحيد، وأنا كيانٌ خلقتهُ 'الإرادة'. اذهب.. واجه سلفك. واجه الرجل الذي لم يعرف الندم قط. عندما تتعلم كيف تكون صلباً كالماس، سأنتظركَ عند المخرج."
دفع لوسيفر نيتشه دفعةً خفيفة، فتلاشت الغرفة، وتلاشى لوسيفر، ووجد نيتشه نفسه يسقطُ ببطء نحو أفق البلّور المُطلق.
الوصول: جزيرةُ العقلِ والضرورة
استقرت قدما نيتشه على أرضيةٍ شفافةٍ تعكسُ المجراتِ السحيقة تحت قدميه. كان في جزيرةٍ ضخمة عائمة وسط سديمٍ بارد. أمام عينيه، رأى ذلك البيت الهادئ ذو الطراز الهولندي القديم. نظر عبر نافذتهِ الكبيرة، فرأى مكتبةً عظيمة، صفوفاً من الكتب الجلدية التي تصطفُّ بانتظامٍ رياضي، لكنَّ الغرفة كانت خاليةً من البشر.

تحول بنظرهِ نحو الحديقة الخلفية للبيت. كانت الحديقة تتكون من تكويناتٍ هندسيّةٍ عائمة؛ مُكعباتٌ ودوائرُ بلّورية تدورُ في مداراتٍ ثابتة. وفي وسط هذا النظام، رأى مكتباً خشبياً بسيطاً موضوعاً في الهواء الطلق.
هناك، كان يجلسُ رجلٌ بشعرٍ متموجٍ أسود، ملامحهُ هادئةٌ لِدرجةِ الذهول. كان منحنياً على قطعةِ زجاج، يصقلها بهدوءٍ يشبه هدوء الأزل.

إنه باروخ سبينوزا.[18]

" هندسةُ الضرورة وإنكار اللذة والألم كمعيار"

---

[18] باروخ سبينوزا (1632-1677): فيلسوف هولندي من أصل برتغالي، يُعد أحد أهم عمالقة الفلسفة العقلانية. عُرف بنظريته عن "وحدة الوجود" (Pantheism)، حيث جادل بأن الإله والطبيعة ليسا كيانين منفصلين بل هما حقيقة واحدة (Deus sive Natura). تعرّض للحرمان الكنسي والطرد من طائفته (الطائفة اليهودية) في أمستردام بسبب أفكاره التي اعتبرت هرطقة آنذاك، وعاش حياة زاهدة يطحن العدسات ليؤمن قوته.

تـقدم نيتشه، وقـعُ خـطواته على الـبلّـور كـان يـرنُّ كـأنـها مـطارق تـضربُ الـوقت. وقـف خلف سـبيـنوزا، يـراقبهُ وهـو يـحولُ الـزجاج الـخشن إلى عـدسةٍ نـقية.

سـبيـنوزا (دون أن يـلتفت، صـوتهُ كـأنـه يـأتي من كـلِّ الـجهات):

"لا تـتـنفس بـاضطرابٍ يـا فريدريك. الـرئةُ الـمُـتعبة تـحجبُ رؤية الـعقل. لـقد وصـلتَ أخـيراً إلى الـمكان الذي لا يـوجد فـيه 'لـماذا'، بل يـوجد فـيه فـقط 'كـيف'."

نيتشه (بـصوتٍ مـبحوح):

"سـبيـنوزا.. سـلفي الـمنبوذ. لـقد جـئتُ من عـالمٍ يـحترقُ بـالألم. جـئتُ من قلبٍ مـزقتهُ امـرأة، وعـقلٍ تـاه في مـتاهاتِ الـرفض. لوسيفر قال إنك سـتعلمني الـمرح، لكنني لا أرى هنا سوى الـجليد."

سبينوزا (يضعُ أداته جانباً ويلتفت ببطء، كانت عيناهُ كبئرين من الحكمةِ الباردة):

"الجليدُ يا فريدريك هو محضُ بلّورٍ لم يكتمل. أنتَ تسميهِ جليداً لِأنكَ لا تزالُ تشعرُ بالبرد البشري. أنظر إلى هذه العدسة.. هي لا تحترق بالشمس، بل تجمع ضوءها لِترى الحقيقة."

نهض سبينوزا، وأشار بيده إلى التكوينات الهندسية التي تسبح في الفضاء حولهم.

"تحدثتَ عن 'الألم' وعن 'الرفض'. هذه تعبيراتٌ لِمن يرى الوجود كمأساةٍ شخصية. هنا، في 'أفق البلّور'، نحن ندرسُ هندسة الضرورة. الوجود، يا فريدريك، ليس له غاية، وليس له قلبٌ يعطفُ عليك. هو جوهرٌ واحد، يتجلى في أنماطٍ لا تنتهي. كلُّ حدثٍ في حياتك، بما في ذلك رفض 'لو' لك فوق جبل أورتا، هو بالضرورة رياضيٌّ ومحتوم، كما أنَّ مجموع زوايا المُثلث يساوي قائمتين."

نيتشه (بانفعال):

"وكيف يمكن لِهذا أن يكون معزياً؟ أن تخبرني أنَّ حطامي هو مُجردُ 'زاويةٍ حادة' في مُثلث؟ اللذةُ والألم هما الدمُ الذي يجري في عروقِ الحياة. إذا ألغيتهما، فماذا يبقى من الإنسان؟"

سبينوزا (يقتربُ منه، وينظرُ في عينيه بصلابة):

"يبقى الإنسانُ الذي يفهم. اللذةُ والألم ليسا معيارين لِلحقيقة، بل هما مُجرد 'عواطف' تُعبر عن زيادة أو نقصان في قدرتك على الفعل. عندما تتألم، فهذا يعني أنَّ عقلك مسجونٌ في 'فكرةٍ غير واضحة'. أنتَ تتألم لِأنكَ تظنُّ أنَّ 'لو' كان يجب أن تحبك. هذا الـ 'يجب' هو الوهم."

أمسك سبينوزا بذراع نيتشه، كان ملمسُ يدهِ ثابتاً، لا يرتجف.

"أنكر اللذة والألم كمعيارين لِلحكم على الحياة. إذا كان الوجودُ هندسياً، فلا يوجد فيه 'جيد' أو 'سيء'. السمُّ ليس شريراً، هو فقط يتبع قوانين كيميائه لِيقتل. ورفضُ المرأة لك ليس فعلاً للخيانة، هو فقط النتيجةُ الحتمية لِتقاطعِ الظروفِ والنفوس.

هنا يكمنُ التحرر: عندما تتوقفُ عن طلبِ 'اللذة' والهربِ من 'الألم'، وتبدأُ في طلبِ 'الفهم'. المرحُ الذي تبحثُ عنهُ يا فريدريك، ليس ضحكةً ناتجةً عن لذة، بل هو تلك الغبطةُ العقلية التي تصيبُ الرجل الذي يرى نفسهُ جزءاً من آلةِ الكونِ العظيمة. أنتَ لستَ ضحيةً للقدر؛ أنتَ هو القدر نفسهُ وهو يكتشفُ قوانينه."

نيتشه (يتراجع، وينظرُ إلى الحديقةِ الهندسيةِ حوله، يشعرُ بأنَّ ثقلاً عظيماً بدأ ينزاحُ عن صدره، لكنه ثقلٌ يتركُ فراغاً مرعباً):

"إذن.. أنا كنتُ أبكي لِأنني لم أكن مُهندساً بما يكفي. كنتُ أظنُّ أنَّ الحبَّ قانون، بينما القانونُ الوحيدُ هو الضرورة. ولكن، يا باروخ.. هل يمكن لِلبشر أن يعيشوا هكذا؟ بلا معيارٍ للسعادة؟"

سبينوزا (يعودُ إلى مكتبهِ، ويمسكُ بالعدسةِ مرةً أخرى):
"البشرُ يعيشون في العبوديةِ يا فريدريك، والعبوديةُ هي التأرجحُ بين الأملِ والخوف. أنتَ هنا لِتكونَ سيِّداً. والسيِّدُ هو مَنْ يرى 'الهندسةَ' في حتى أكثرِ لحظاتِ حياتهِ قسوة.
الألمُ ليس معياراً لِلفشل، واللذةُ ليست معياراً لِلنجاح. هما مُجردُ خطوطٍ في مسودةِ الوجود. المعيارُ الوحيدُ هو الوضوح. كلما كانت فكرتكَ عن الوجودِ واضحةً وهندسيّة، كلما زادت قدرتكَ على 'السيادة'. لقد كانت 'لو' سراباً لِأنَّ فكرتكَ عنها لم تكن رياضيّة."
توقف سبينوزا، وبدأ بصقلِ العدسةِ بقوةٍ أكبر، وأصدرَ صوتاً رتيباً منتظماً، مما جعل نيتشه يشعرُ بأنَّ الكون بأكمله ينبضُ بهذا النظامِ الصارم. نيتشه الآن يقفُ منذهلاً، يحاولُ تفكيكَ كلِّ ذكرياتهِ المؤلمة وإعادةِ صياغتها كمعادلاتٍ بارده.

أطرق نيتشه برأسه، وبدأ يخطو ببطء فوق سطح الجزيرة البلوري، وكأنه يحاول استشعار نبض الأرض تحت قدميه. كان صمت سبينوزا ورنين صقله للعدسات يملأ الفراغ، وكأن هذا الصوت هو الإيقاع الوحيد المسموح به في هذا الكون.

توقف نيتشه أمام إحدى المنحوتات الهندسية العائمة، كانت مكعباً شفافاً يتوسطه قلبٌ من الضوء البارد، وسأل بنبرة خافتة:

نيتشه:

"إذن، يا باروخ.. خيبتي في 'لو'، وانكسار صداقتي مع 'ري'، وحتى مرضي الذي ينهش جسدي.. كل هذا ليس 'ظلمًا' وقع عليّ، بل هو 'صحة' المعادلة الكونية؟ تريدني أن أصدق أنَّ قدري لا يحتاج إلى شفقتي، بل يحتاج إلى مسطرتك وفرجالك؟"

سبينوزا (يضع العدسة التي بيده جانباً، ويقف مستقيماً، ملامحه تتسم بوقارٍ لا يهتز):

"الشفقة يا فريدريك هي 'داء الضعفاء'، لأنها تفترض أنَّ الكون ارتكب خطأً يحتاج إلى تصحيح. انظر إلى هذا المكعب.. إذا انكسر أحد أضلاعه، هل تبكي عليه؟ لا، بل تبحث عن السبب الفيزيائي الذي أدى للكسر.

أنت تتحدث عن 'خيبة الأمل'، وهذا يعني أنك كنت تملك 'أملًا'. والأمل هو رغبة في شيء لا تملك السيطرة عليه. المُشرّع الحقيقي لا يأمل، بل يفهم. عندما تنكر اللذة والألم كمعيار، فأنت لا تقتل مشاعرك، بل تجردها من سلطتها عليك. أنت تحوّلها من 'أسياد' يقودونك إلى 'أعراض' تقوم أنت بتشريحها."

نيتشه (بعينين تلتمعان ببصيرةٍ قاسية):

"إذن، العظمة ليست في أن أكون سعيداً، بل في أن أكون 'حقيقياً'. أن أقبل ألمي كما أقبل حِدّة السكين، كضرورة لوجود الشفرة. لقد كنتُ أبحث عن 'عزاء' في جنوة، بينما كنتَ أنتَ تنتظرني هنا لتعطيني 'مشرطًا'."

سبينوزا (يومئ برأسه بهدوء، ويشير بيده إلى المحيط اللانهائي الذي يحيط بالجزيرة):

"المشرط هو الأداة الوحيدة التي تليق بيد الفيلسوف. اللذة والألم هما سحابة تحجب شمس الحقيقة. عندما تعتمد الضرورة الهندسيّة، ستدرك أنَّ 'لو' لم تكن امرأة، بل كانت 'قوة طبيعية' اصطدمت بقوتك، والمحصلة هي ما تسميه أنت 'حطاماً'، وأنا أسميه 'نتيجة منطقية'.

اترك خلفك ميزان 'الجيد والسيئ'، وتعال إلى ميزان 'الممكن والضروري'. هذا هو المخرج الوحيد من مستنقع البشرية؛ أن تحوّل حياتك إلى مختبر، وتكون أنت التجربة والمُلاحظ في آنٍ واحد."

ساد صمتٌ طويل، نظر فيه نيتشه إلى يديه التي بدأت ملامحها تتصلب بقوة البلّور. أحسَّ بأنَّ عاطفته تجاه الماضي بدأت تتبخر، لا لتختفي، بل لتتحول إلى مادة خام لفلسفةٍ جديدة. لم يعد يرى 'لو' كجرح، بل كرسمٍ بياني في معادلة كبرى.

نيتشه (بصوتٍ صارمٍ كالماس):

"لقد فـهمتُ الآن.. الـسيادة هي أن أكون الـقانون الذي يـحكم حـتى آلامي. هندسة الـضرورة هي الـصحة الـكبرى التي تـجعل الـرجل يـضحك وسط الـزلزال، لا لـأنه مـستمتع، بل لـأنه يـعرف أنَّ الأرض يـجب أن تـهتز لـتـبقى حيّة."

أمسك نيتشه بـإحدى العدسات الـمصقولة التي تركها سبينوزا، ونظر من خلالـها إلى الـفراغ. لم يـعد يرى الـعالم كـما كان. لقد انـتهى عصر "الـشفقة على الذات"، وبدأ عصر "التصلب الـمُقدس".

"موت الإله" مقابل "تـأليه الـطبيعة" (Deus sive Natura)

وضع نيتشه العدسةَ جانباً، ونظر إلى الأفق حيثُ تسبحُ الـمجراتُ في صمتٍ أبديّ. كان الفراغُ الذي تركه لوسيفر، والـفراغُ الذي خلّفته "لو" في قلبه، يـبدوان الآن كـثقبٍ أسود يـهددُ بابتلاعِ كلِّ شيء.
نيتشه (بـصوتٍ يـحملُ نـبرةً من الـتحدي الـيائس):
"لقد علمتني كيف أكون صـلباً كـالـهندسة، يا باروخ. لكنَّ عالمي يـفتقرُ إلى الـمركز. في 'جنوة' وفي مسوداتي، صرختُ بـأعلى صوتي: 'لقد مات الإله! ونحنُ مَن قتلناه!'. لقد مسحتُ الأفق بـالـمِمحاة، وشربتُ الـمحيط. فكيف تـطلبُ مني أن أقبل 'نظاماً هندسياً' وأنا أعيشُ في عـصرِ الـعدم؟ مَن الذي يـضمنُ استقامة هذه الخطوط التي تـقدسها إذا كان 'الـمُهندسُ الـأعظم' قد رَحَل؟"
توقف سبينوزا عن الـعمل، ومسح يديه بـهدوء، ثم وقف ونظر إلى نيتشه بـنظرةٍ فـيها إشفاقٌ فـلسفيٌّ عميق.
سـبيـنوزا (بـهدوءٍ لا يـتزعزع):
"أنتَ تـبكي على جـنازةِ 'شـبح'، وتـظنُّ أنَّ مـوت الـوهم يـعني مـوت الـحقيقة. الإله الذي قـتلتموه يا فريدريك هو ذاك 'الـحاكمُ الـمتسلط' الذي يـقبعُ خارج الـعالم، يـكافئ ويـعاقب كـملكٍ مـعتوه. نـعم، لـيمت هذا الإله، لـأنه لم يكن سوى 'جهلٍ' مُـقدس."
أشار سبينوزا بيده إلى الجزيرة، وإلى نيتشه، وإلى الـفراغ الـمُضاء بـالـبلّـور.
"لكن، انظر هنا.. Deus sive Natura (الإله أو الـطبيعة). هل تـظنُّ أنَّ الـطبيعة بـحاجةٍ لِـسيدٍ يـحكمها من الـخارج؟ الـطبيعةُ هي 'الـجوهر' الـوحيد. هي الإله بـذاته. الإله لـيس 'شخصاً' يـسمع صلواتك، بل هو هـذا الـقانون

الصارم الذي تلمسهُ تحت قدميك. هو التدفق الذي لا يتوقف لِلمادة والفكر. الكونُ لا يحتاجُ لِمُدبّر، لِأنهُ هو "التدبيرُ" نفسهُ."
نيتشه (يخطو بعصبية، شاربهُ الكثيف يتحركُ مع انفعاله):
"تأليهُ الطبيعة؟ أليست هذه خدعةً أخرى لِلإبقاء على السجود؟ إذا قلتُ إنَّ الطبيعة هي الإله، فإنني سأظلُّ عبداً لِقوانينها. أنا أريدُ العالم 'خواءً' لِكي أملأه بإرادتي! أريدُ العالم 'فوضى' لِكي أرقصُ فوق لهيبها. عندما تقول لي إنَّ كلَّ شيءٍ هو "إله"، فأنتَ تسلبني لذة التحطيم ولذة الخلق."
سبينوزا (يبتسمُ ابتسامةً باردة كالنجم):
"أنتَ تريد "إرادة القوة"، وأنا أحدثكَ عن "القوة" بذاتها. تظنُّ أنَّ الحرية هي في الفوضى؟ الفوضى هي محضُ 'عمى'. الحجرُ يسقط لِأنه لا يعرف قانون الجاذبية، والبشرُ يعانون لِأنهم لا يعرفون قانون الضرورة.
موت الإله الذي تبشرُ به هو تطهيرٌ ضروري، لكنه بدون تأليهِ الطبيعة سيتركك في العدمية. عندما تدرك أنَّ الطبيعة (Deus) هي منظومةٌ تنبعُ من داخلها، ستتوقفُ عن الشعور بأنك 'مطرود'. أنتَ لستَ مخلوقاً منبوذاً في كونٍ ميت، بل أنتَ 'مقامٌ' (Mode) من مقاماتِ الأزل. أنتَ الطبيعةُ وهي تفكرُ في نفسها."
نيتشه (يتوقفُ محدقاً في سبينوزا، يحاولُ استيعاب الصدمة):
"إذن.. "العلم المَرِح" ليس نواحاً على المذبح الخالي، بل هو الرقصُ في معبدِ الواقعِ؟ أنتَ تقول إنَّ تقديس الواقع كما هو، بقوانينهِ الحديدية، هو البديلُ عن الإله القديم؟"

سبينوزا (يعودُ لِمكتبهِ ويمسكُ بعدسةٍ شديدة النقاء):
"بالضبط. القداسةُ ليست في 'المُعجزات'، بل في 'انتظامِ السببِ والنتيجة'. الإله القديم كان سجاناً، أما Deus sive Natura فهو الحريةُ المُطلقة لِمَن يفهمها. عندما تنظرُ لِلمرأة التي خانتك، أو لِمرضكَ الذي يقتلك، لا تقل 'لماذا فعل الإلهُ هذا بي؟'، بل قل 'هذه هي هندسةُ الطبيعة التي أنا جزءٌ منها'.
هنا، تتحولُ "المأساة" إلى 'علمٍ مَرِح'. هنا، لا يعودُ موت الإله مصيبة، بل يصبحُ انفجاراً لِلنور. لقد مات "الظِل"، وبقيت "الشمس".. والشمسُ هي الطبيعةُ التي لا ترحم، لكنها لا تكذبُ أبداً."

انـحنى نيتشه على الـطاولـة، نـظر إلى الـكتبِ في الـمكتبةِ الـبعيدة، ثم إلى سـبيـنوزا. أحسَّ بـأنَّ لـهيبَ غضبهِ الـبشري بـدأ يـتحولُ إلى نـورٍ صـافٍ ومـركز. لـقد فـهم أنَّ "الإلـحاد" الـحقيقي لـيس نـفـياً لِـلـقدر، بل هو الـتـماهي الـكامل مـعه.

نيتشه (يـهمسُ بـصوتٍ يـختنقُ بـالـبصيرة):

"Deus sive Natura.. الإلـهُ هو الـقانون، والـقانونُ هو الـطبيعة، وأنـا.. أنـا صـوتُ هـذه الـطبيعةِ وهي تـضحكُ على أوهـامها الـقديمة."

اشتعلت نبرةُ نيتشه، وكأنَّ "الديناميت" الذي يـخفيه في أعماقه بدأ يـتحسسُ الصواعق. اقترب من مكتب سبينوزا بـخطواتٍ ثقيلة، مـحدقاً في وجه الفيلسوف الصامت الذي لا تـهزهُ الـعواصف.

نيتشه (بـصوتٍ حادّ، يـشبهُ نـصلَ الـسكين):

"تـأليهُ الـطبيعة؟ ألا تـرى يـا باروخ أنك تـقوم بـعملية 'تـحنيطٍ' لِـلإله الـذي قـتلتهُ أنـا؟ لقد أخرجتَ الـجثةَ من الـكنيسة لـتـضعها في الـمختبر، وأطلقتَ عليها اسماً جديداً! ما الـفرق بين 'إرادة الإله' وبين 'ضرورتك الـطبيعية' إذا كانت الـنتيجةُ هي ذاتها: انـحناءُ الإنسانِ أمام سـلطةٍ لا يـملكُ تـغييرها؟

أنتَ تـسرقُ مني 'خـلاء' الـوجود! أنا أريدُ أن يكون الـعالمُ مـحض 'فوضى' قاسية، لـكي أكون أنا الـخالق، لـكي أكون الـفنان الـذي يـنحتُ من الـعدمِ تـمثاله. لكنك تـحبسني في قـفصٍ من الـبلّور الـهندسي وتـقول لي: 'اسجد لِـلـمعادلة'. هذا ليس تـحرراً، هذا 'انتحارٌ بـارد' لِـلإرادة!"

تـوقف سبينوزا عن الـصقل لـلحظة، ورفع عينيه الـصافيتين نـحو نيتشه. لم يكن في نـظرتهِ غضب، بل كـان فيها ذلك الـثبات الـمرعب لِـمن يـعرف أنَّ الـحقائق لا تـتـأثر بـالصراخ.

سـبيـنوزا (بـصوتٍ قـاطع، كـرنينِ الـمعدن):

"أنتَ تـتحدثُ عن 'الـخلق' و'الـتـمثال'، وتـنسى أنَّ يدكَ الـتي تـمسكُ بالإزميل هي نـفسها جـزءٌ من الـرخام! مـشكلتـك يـا فريدريك أنك مـازلتَ تـحملُ كـبرياء

المخلوق الذي يريدُ أن يكون إلهاً. تظنُّ أنَّ "إرادتك" هي محركٌ مستقل، بينما هي في الحقيقة محضُ "موجة" في محيطِ الضرورة.

تسمي نظامي "قفصاً"؟ القفصُ الحقيقي هو عماؤك عن السببية. موت الإله الذي تبشرُ به هو محضُ "فوضى بشرية" إذا لم يقترن بفهم أنَّ الطبيعة هي القانونُ المُطلق. الفوضى التي تعشقها هي محضُ "نظامٍ" لم يستوعبهُ عقلك المحدود بعد. أنتَ تهربُ من سجدةِ الكاهن لتسجد لِصنمِ "الذات"..
وأنا أقول لك: لا تسجد لهذا ولا لذاك، بل كُن الطبيعة."

نيتشه (يضربُ كفهُ على حافةِ المكتبِ الخشبي، وعيناهُ تتقدان):

"أكونُ الطبيعة؟ الطبيعةُ قاسية، عشوائية، تخلقُ الوحوشَ والجمالَ بلا تمييز. إذا كانت الطبيعةُ هي الإله، فإنَّ هذا الإله "ساديٌّ" أو "أبله". أنا لا أريدُ أن أكون جزءاً من منظومة، أريدُ أن أكون "الصاعقة" التي تمزقُ غيومَ هذه المنظومة!

أنتَ تريد "تبرئة" الوجود بجعلهِ منطقياً، وأنا أريد "تقديره" لأنه غير منطقي. 'Deus sive Natura' هي محاولة لِترميمِ السماءِ التي حطمتها أنا. أنتَ تخافُ من الفراغ، لذا ملأتهُ بالهندسة. أنا أحبُّ الفراغ، لأنه المكانُ الوحيدُ الذي يمكنُ لِلإنسانِ فيه أن يتجاوز نفسهُ ليصبح "الإنسان الأعلى" (Ubermensch). كيف سأصبحُ أعلى وأنا مجرد "مقامٍ" (Mode) في معادلتك؟"

سبينوزا (يقفُ مواجهاً نيتشه، يبدو أطولَ قامةً وأكثرَ هدوءاً بشكلٍ مستفز):

"العظمةُ ليست في "التجاوز"، بل في "التماهي". تظنُّ أنَّ الصاعقةَ حرة؟ الصاعقةُ هي التعبيرُ الأكملُ عن الضرورة الجوية. هي لا تختارُ أن تضرب، هي يجب أن تضرب.

تريدُ أن تكون "إنساناً أعلى"؟ لن تكون كذلك بالصراخِ في وجهِ القدر، بل بأن تفهم أنَّ قدركَ هو نفسهُ "قدرُ الكون". موتُ الإلهِ الخارجي يعني أنَّ السلطةَ انتقلت لِلداخل. الطبيعةُ ليست ساديّة، هي محايدة. هي تعطيكَ

المرض لتتعلم الصلابة، وتعطيكَ الخيانة لتتعلم الوحدة. هذا هو "التأليهُ" الحقيقي: أن ترى الكمال في الضرورة.

إذا ظللتَ ترى العالم كـ 'فوضى' تحاولُ السيطرة عليها، فستظلُّ عبداً لِخوفك. السيادةُ الحقيقية هي أن تضحكَ وأنتَ تعرفُ أنَّ كلَّ حجرٍ في مكانه، وكلَّ خيانةٍ في وقتها. أنتَ لا تحطمُ السماء يا فريدريك.. أنتَ فقط تكشفُ عن عُريها الهندسي."

ارتجف الأفقُ البلّوري من حولهم، كأنَّ اصطدامَ هاتين الفلسفتين (إرادة القوة مقابل ضرورة الطبيعة) هزَّ أركان الجزيرة. نيتشه كان يلهث، يشعرُ بأنَّ منطق سبينوزا يطوقهُ كسلاسلَ من نور، بينما روحهُ تريدُ التفجر.

نيتشه (يهمسُ بحدةٍ يشوبها الذهول):

"إذن.. 'العلمُ المَرِح' هو أن أعشقَ قيدي؟ أن أرى في جرحي معادلةً رياضيةً للإله؟"

سبينوزا (يضعُ يدهُ على كتف نيتشه بقوةٍ هادئة):

"بل أن تدرك أنَّ 'القيد' و'الجرح' و'الغبطة' هم جوهرٌ واحد. الإلهُ لم يمت يا فريدريك.. الإلهُ تخلصَ من 'قناع البشر'، وصار الآن واضحاً كهذا البلّور. هل تجرؤُ على النظرِ إليه دون أن ترمش؟"

سادَ صمتٌ بلّوريٌّ طويل، لم يقطعهُ سوى صوتِ طقطقةِ خفيفة صادرة من تمددِ الأشكالِ الهندسية تحت تأثيرِ الضوءِ الكوني. نيتشه، الذي كان يلهثُ قبل قليل، بدأ يهدأ، لكنَّ هدوءهُ هذه المرة كان أشبهَ بهدوءِ الوترِ المشدودِ إلى أقصى درجاته قبل أن ينطقَ بنغمٍ جنائزيٍّ أو منتشٍ.

رفع نيتشه إحدى العدساتِ التي صقلها سبينوزا، ونظر من خلالها إلى "المحيطِ المفتوح" الذي يمتدُّ خلف الجزيرة؛ ذاك البحر الذي لا شواطئ له، والذي يمثّلُ رُعبَ الحريةِ بعد رحيلِ الآلهة.

نيتشه (بصوتٍ منخفض، لكنه يهتزُّ برنينٍ داخلي):

"أنتَ تتحدثُ عن 'الغبطة' (Beatitude) يا باروخ.. تصفها وكأنها بحيرةٌ ساكنةٌ لا يعكرُ صفوها ريح. تقول إنَّ الفهمَ العقليَّ للضرورة يجلبُ سلاماً لا يهتز. لكنني، وأنا أنظرُ من خلالِ عدساتك، لا أرى سلاماً.. أنا أرى 'رُعباً مُضيئاً'.

غبطتُكَ العقليةُ تبدو لي كوقارِ الموتى؛ باردةً، نقيةً، وموحشة. أنا لا أريدُ 'سلاماً' يخنقُ صراخي، أنا أبحثُ عن نوعٍ آخر من الفرح.. فرحٍ يخرجُ من قلبِ التحطم. أريدُ 'المرح المرهب' (The Terrible Joy)؛ ذاك الضحك الذي لا يأتي لأنَّ العالمَ منتظم، بل لأنَّ العالمَ خطرٌ ومميت، ومع ذلك نحنُ نجرؤُ على الرقصِ فوقه."

توقف سبينوزا، ووضع يديه الشاحبتين على الطاولة، ونظر بعمقٍ في عيني نيتشه المتقدتين.

سبينوزا (بصوتٍ هادئٍ كقوانينِ الرياضيات):

"أنتَ تسمي غبطتي 'موتاً بارداً' لأنكَ مازلتَ تحتاجُ إلى 'الدراما' لِتشعرَ بالحياة. غبطتي ليست خموداً، بل هي 'الفعلُ الأسمى'. عندما يفهمُ العقلُ مكانهُ في الضرورة، فإنه يتحدُّ مع الإله/الطبيعة، وهذا الاتحادُ هو ذروةُ القوة.

المرحُ الذي تتحدثُ عنه، ذاك المرح 'المُرهب'، يبدو لي كنشوةِ رُبّانٍ يسخرُ من العاصفةِ وهو يغرق. لماذا تحتاجُ إلى أن يكون الفرحُ مُرهباً؟ هل لأنكَ لا تستطيعُ مواجهة الحقيقةِ دون أن تحقنها بأدرينالينِ الخطر؟ الغبطةُ العقلية هي شمسٌ ثابتة، أما مرحُكَ فهو برقٌ يومضُ في ليلِ اليأس."

نيتشه (يقتربُ منه، وتزدادُ حدّةُ ملامحه):

"بل برقٌ يكشفُ عن عُري الوجود! غبطتُكَ يا باروخ هي غبطةُ مَنْ يقفُ على الشاطئ ويراقبُ السفنَ وهي تتحطم، مطمئناً إلى أنَّ 'القانونَ' يعملُ بدقة. أما مرحي المُرهب، فهو مرحُ البحّارِ الذي قطعَ كلَّ الحبال، وحطمَ

البوصلة، وأدركَ أنَّ الإلهَ قد غرق، وأنَّ البحرَ ليس لهُ قرار.. ومع ذلك، هو يغني!

هذا هو 'العلمُ المَرِح' (Gaya Scienza). هو المعرفةُ التي لم تعد تؤدي إلى السكينة، بل إلى 'السيادةِ الخطرة'. الغبطةُ العقليةُ تجعلُ الإنسانَ 'قديساً' لِلضرورة، أما المرحُ المُرهبُ فيجعلهُ 'فناناً' لِلقدر. أنا لا أريدُ أن أكون متصوفاً يذوبُ في النظام، أريدُ أن أكون الضحكةَ التي تهزُّ أركانَ هذا النظامِ البلّوري."

سبينوزا (يرفعُ مكعباً بلّورياً ويدعهُ يسقطُ فوقَ الطاولةِ برنينٍ منتظم):

"تسمي ضحكتكَ 'سيادة'؟ بل هي صرخةُ كبرياءٍ تحاولُ مداراةَ الرعبِ من الوحدة. أنتَ تريدُ 'المرح' لأنكَ تخافُ من 'الصمت'. الغبطةُ العقليةُ هي الصمتُ الذي يفهمُ نفسهُ.

إذا كان الكونُ يا فريدريك منظومةً مثاليةً كما اتفقنا، فإنَّ المرحَ الذي يتضمنُ 'الرعب' هو خللٌ في الرؤية. الرعبُ يأتي من الجهل؛ من الظنِّ بأنَّ هناكَ شيئاً يمكنُ أن يخرجَ عن المسار. عندما تتحررُ من الأملِ والخوف، لن يبقى هناكَ 'رعب'، بل ستبقى 'البهجةُ المحضة' بالوجود. لماذا تصرُّ على إبقاءِ السمِّ في كأسِ الحكمة؟"

نيتشه (يبتسمُ ابتسامةً شيطانيةً فيها الكثيرُ من الألمِ المُتحولِ إلى قوة):

"لأنَّ السمَّ هو الذي يجعلُ الترياقَ ثميناً! المرحُ الذي تعرضهُ يا باروخ هو مرحُ الأرقام؛ هي 'بهجةُ' المعادلةِ حين تصلُ لِلصفر. أما مرحي، فهو مرحُ الفيض! هو الضحكةُ التي تأتي بعد البكاء، والرقصُ الذي يأتي بعد الشلل.

'المرحُ المُرهب' هو عندما تنظرُ في عينِ العدم، وترى فيها 'العودَ الأبدي' لآلامك، وتقول: 'هل كان هذا هو الحياة؟ حسناً! لتعد مرةً أخرى!'.

هذا ليس 'غبطةً عقلية'، هذا 'تفجرٌ إرادي'. غبطتُكَ تقبلُ العالمَ كمعطى، ومرحي يخلقُ العالمَ كإرادة. أنا لا أريدُ أن أرى البلّورَ نقياً

فقط، أريدُ أن أراهُ ينكسرُ ليعيدَ تشكيلَ نفسهِ في مسرحيةٍ لا تنتهي من القسوةِ والجمال. غبطتُكَ هي النهاية، ومرحي هو البدايةُ الدائمة."

تجمدَ الهواءُ بينهما. سبينوزا يمثلُ القمةَ التي لا تهتز، ونيتشه يمثلُ البركانَ الذي يريدُ أن يحولَ تلك القمةَ إلى مقذوفاتٍ نارية. الفارقُ بينهما هو الفارقُ بين المعرفةِ كمأوى و المعرفةِ كسلاح.

سبينوزا (ينظرُ إلى الأفقِ البلّوري، وكأنهُ يرى القرون القادمة):

"أنتَ تريدُ حياةً مسكونةً بالرعود، يا فريدريك.. ولكن تذكر، بعدَ كلِّ رعدٍ، يبقى الصمتُ البلّوريُّ وحدهُ حقيقياً. مرحكَ المُرهبُ هو غناءٌ لِلفانين، أما غبطتي فهي لُغةُ الأزل."

نيتشه (يهمسُ وهو يبدأُ بالتمايلِ كأنهُ يتحسسُ إيقاعاً خفياً):

"ولكنَّ الأزلَ باردٌ جداً، يا باروخ.. وأنا أحتاجُ لِنارِ هذا المرحِ لِكي لا أتحولَ إلى تمثالٍ في حديقتكَ الهندسيّة. لنرقصْ إذن.. وليكن البلّورُ تحتَ أقدامنا هو الموسيقى."

اقترب نيتشه من حافة الجزيرة البلورية، حيث ينتهي "اليقين الهندسي" ويبدأ "المحيط المفتوح". كانت الرياح الكونية تصفّر عبر مفاصل روحه، لكنه لم يعد يرتجف. لقد بدأ "التحول الكبير" يتغلغل في نخاع عظامه؛ فلم يعد نيتشه مجرد فيلسوفٍ يبحث عن الحقيقة، بل بدأ يتحول إلى "قدرٍ" يكتشف نفسه.

التفت إلى سبينوزا، الذي كان يراقب حركة النجوم عبر إحدى عدساته ببرودٍ إلهي.

نيتشه (بصوتٍ عميق، كأنه يخرج من أعماق الأرض):

"أنت تقول إنَّ الغبطة هي نهاية المطاف.. لكنني أشعر الآن بشيءٍ أعمق من الغبطة. أشعر بـ 'قوةٍ انتحارية' تفيض من عقلي. لقد علمتني هندسة الضرورة، فجعلتَ من آلامي مجرد خطوطٍ في رسمٍ بياني. لكنني، يا باروخ، أريد أن أكون اليد التي ترسم، لا الخط المرسوم!

أريد أن أحول صمتك البلوري إلى موسيقى.. موسيقى ديونيسية لا تعرف الرحمة. هل تدرك رعب ما أقوله؟ إنني أقبل أنَّ "لو" لم تكن إلا ضرورة، وأقبل أنَّ مرضي ضرورة، ليس لأنني "راضٍ".. بل لأنني أريد أن أخلق القدر من خلال قبول الفجيعة. هذا هو عمق التحول: أن أحول "ما حدث" إلى "هذا ما أردتُه!""

وضع سبينوزا العدسة ببطء، ووقف في مواجهة نيتشه. لأول مرة، بدت ملامحه الرصينة وكأنها تعكس بريقاً من الإعجاب، ممزوجاً بحدةٍ فلسفية لا تلين.

سبينوزا (بنبرةٍ صلبة كالألماس):

"الآن بدأتَ تلمس الجوهر يا فريدريك. أنت تتحدث عن "إرادة القوة" وكأنها نقيض للضرورة، بينما هي في الحقيقة "الضرورة وقد صارت واعيةً بنفسها".

التحول الذي تشعر به هو الانتقال من "العقل الذي ينفعل" إلى "العقل الذي يفعل". عندما تقول "هذا ما أردته"، فأنت لا تغير الماضي، بل ترفع نفسك إلى مستوى "الإله/الطبيعة". أنت تدرك أنَّ إرادتك هي ذاتها القوة التي تحرك النجوم.

لكن احذر.. "المرح المرهب" الذي تطلبه هو نارٌ ستحرق كل ما هو "بشري" فيك. هل أنت مستعد لتكون وحيداً تماماً في هذا الفضاء؟ هل أنت مستعد لتقول "نعم" لكل لحظة رعب، ولكل ثانية ألم، باعتبارها "رقصةً ضرورية" في هيكل الأزل؟"

نيتشه (يخطو خطوةً إلى الأمام، والأرضية البلورية تحت قدميه بدأت تتوهج بضوءٍ أحمر خافت، كأنَّ دمه بدأ يغلي داخل البلّور):

"نعم! هذا هو الرعب الجميل! أن أكون وحدي في "المحيط المفتوح"، بلا شاطئ، وبلا إله، وبلا صديق، ومع ذلك أشعر بأنني أفيض بالحياة.

غبطتُكَ العقلية كانت "مرآة"، ومرحي المرهب هو "ديناميت". أنا لا أكتفي بفهم الضرورة، أنا أريد أن أعشقها (Amor Fati). أريد أن أحبَّ قَدري لدرجة أنني أتمنى تكراره إلى الأبد، بكل تمزقاته.

انظر إليّ يا باروخ.. هل ترى وجه "لو" الآن؟ لم يعد وجهاً لامرأة، صار ثقباً أسود يمتص نوري لأتحول إلى شمسٍ أقوى. لقد سلبَت مني "الإنسان"، فأعطَتني

"المرح المرهب'. لقد صرنا أنا وأنت الآن خلف 'الخير والشر'.. نحن الآن في قلب 'الجوهر' حيثُ الضحكُ هو الصلاة الوحيدة الممكنة."

سبينوزا (يبتسم ابتسامةً غامضة، ويشير إلى الأفق حيثُ تنفجر نجمةٌ بعيدة بصمت):

"إذن، لقد سقطت الأقنعة. أنت الآن لا تبحث عن 'عزاء'، بل تبحث عن 'السيادة'. الغبطة والمرح المرهب يلتقيان هنا؛ في نقطة التلاشي حيث يدرك الإنسان أنه هو الوجود بكل قسوته وجماله.

انظر إلى تلك النجمة التي تنفجر.. هل هي حزينة؟ هل هي سعيدة؟ هي فقط 'تتجلى' بأقصى قوتها. هكذا يجب أن يكون 'علمك المَرِح'.. انفجاراً للنور في قلب الفراغ. أنت الآن لست تلميذاً لسبينوزا، ولا تلميذاً للوسيفر.. أنت الآن صاعقةٌ تبحث عن أرضٍ لتضربها."

بدأت الجزيرة البلورية تهتز بعنف، والمنحوتات الهندسية العائمة بدأت تدور بسرعةٍ جنونية، وكأنَّ الحوار بين "الثبات الأبدي" (سبينوزا) و"الصيرورة المشتعلة" (نيتشه) قد خرق توازن هذا العالم.

نيتشه (يصرخ وسط الرياح الكونية، وعيناه تفيضان بدموعٍ بلّورية):

"أنا الصاعقة! وأنا الأرض! وأنا الضحكة التي تمزق صمت الأزل! باروخ.. لقد صقلتَ عينيَّ لأرى اللانهاية، والآن سأستخدم هذه الرؤية لأرقص فوق القبر الذي حفرتُه للإله! هذا هو 'المرح المرهب'.. أن أعرف أنني سأتحطم، ومع ذلك، أغني لقوةِ التحطم!"

اهتزَّت "جزيرةُ البلّور" بعنفٍ لم يسبق له مثيل، وتصدّعت الأرضيةُ الشفافةُ تحت أقدامِ نيتشه، لا لِتتحطم، بل لِتُطلِقَ ضوءاً مخزوناً في أعماقِ الضرورة. المنحوتاتُ الهندسيةُ العائمةُ بدأت تدورُ حول المركزِ بسرعةٍ جعلت الخطوطَ المستقيمةَ تبدو كدوائرَ من النارِ الباردة.

وقف نيتشه في بؤرةِ هذا الإعصارِ الكوني، جسدهُ لم يعد يرتجف، بل صارَ صلباً كأنهُ قُدَّ من ذاتِ المادةِ التي صُنعَ منها هذا العالَم. نظر إلى يديه، فرآهما تشعّانِ بنورٍ "مَرِحٍ" و"مُرهبٍ" في آنٍ واحد.

الوداعُ الكبير: لحظةُ الانصهار

عاد سبينوزا إلى مكتبهِ الهادئ وسط هذا الضجيجِ الميتافيزيقي. لم يظهر عليه الفزع، بل كان يجمعُ عدساته بوقارٍ أبديّ. التفتَ إلى نيتشه، وكانت ملامحهُ قد بدأت تتلاشى في الضوءِ المطلق، كأنَّ مهمتهُ كـ "سيّدٍ للعتبة" قد انتهت.

سبينوزا (بصوتٍ يخبو كرنينِ الذهبِ القديم):

"اذهب يا فريدريك.. لقد صارَ بردي في عروقكَ لهيباً. كنتَ تبحثُ عن 'عزاءٍ' لآلامِكَ البشرية، فوجدتَ 'قوانينَ' تنسفُ بشريتَكَ لِتصنعَ منك إلهاً يرقص. لا تعتذر لِلقدرِ أبداً، ولا تطلب من الحقيقةِ أن تكون رحيمة.. لقد صرتَ الآن 'آيةَ نفسِك'."

نيتشه (يتقدمُ نحو حافةِ الجزيرة، صوتهُ يعلو فوق رياحِ العدم):

"وداعاً يا باروخ.. يا مَن علمتني أنَّ السماءَ ليست خاوية، بل هي مليئةٌ بالنظامِ الذي ينتظرُ صاعقتي. سآخذُ صمتَكَ البلّوري وأحوله إلى صرخةٍ توقظُ القرون. لقد انتهى زمنُ 'الشفقة'، وبدأ زمنُ 'الصحةِ الكبرى'. أنا الآن لستُ بحاجةٍ لِنورٍ من الخارج.. أنا المصدر!"

الخروجُ إلى المحيطِ المفتوح

مدَّ نيتشه يدهُ لِيلمسَ الفراغَ المحيطَ بالجزيرة. في تلك اللحظة، تبخرَ البيتُ الهولندي، وتلاشت الحديقةُ الهندسية، وغابَ وجهُ سبينوزا في لجةِ الأزل. وجد نيتشه نفسهُ واقفاً لوحدهِ تماماً عند مخرجِ البوابةِ الرابعة.

لم يعد هناكَ جدارٌ أو باب؛ بل كان هناكَ "المحيطُ المفتوح". فضاءٌ شاسعٌ لا شواطئ له، ماءٌ سائلٌ من الضوءِ والظلام، حيثُ تبدو السفنُ البشريةُ صغيرةً وتافهة.

عند حافةِ هذا المحيط، حيثُ يلتقي البلّورُ بالسيولة، كان لوسيفر ينتظر. كان يقفُ مستنداً إلى اللاشيء، يراقبُ نيتشه بنظرةٍ فيها الكثيرُ من الكبرياءِ المُظلم. لقد رأى في عيني نيتشه شيئاً لم يكن موجوداً من قبل: رأى المرحَ الذي لا يرحم.

لوسيفر (ينحني بخفة، بابتسامةٍ تعرفُ أنَّ الرهانَ قد نجح):

"أهلاً بكَ عائداً من مملكةِ الجليدِ والمنطق. أرى أنَّ 'المُشرِّح' قد تفوقَ على 'الضحيّة'. نفسكَ الآن يا فريدريك تشبهُ هذا البحر الذي أمامنا.. عميقة، مالحة، وغدارة، لكنها حُرّةٌ بشكلٍ يدعو لِلرعب."

نيتشه (ينظرُ إلى الأفقِ السائل، وبنبرةٍ هادئةٍ ومرعبة):

"لقد مسحتُ الأفق بالممحاة يا لوتشيليو. لم يعد هناك طريقٌ لِلعودة. البحرُ مفتوح، والسماءُ عريانة.. والآن، أنا مستعدٌ لِأكتبَ تلك الكلماتِ التي ستجعلُ البشريةَ ترتجفُ بين مقاعدها."

أخرج نيتشه مفكرته الصغيرة، تلك التي كانت مبللةً بدموعِ 'جنوة'.. لكنها الآن جافةٌ وصلبة. وبخطٍ يشبهُ ضرباتِ البرق، بدأ يكتبُ بدايات "العلمِ المَرِح".

نيتشه (يهمسُ وهو يخطو أولى خطواتهِ فوقَ ماءِ المحيطِ المفتوح، دون أن يغرق):

"لقد كسرنا السفن، ولم يبقَ لنا سوى اللانهاية. هيّا بنا يا قلبي.. لنكتشفْ كيف يكونُ المرحُ بعد أن يموتَ كلُّ عزاء."

توارت البوابةُ الرابعةُ خلفهم، وتركت نيتشه في تلك الحالةِ الفريدةِ من "الصحةِ القاسية" عام 1882. لقد انتهى نيتشه "المُحطم"، وبدأ نيتشه "المُنفجر".

الخاتمة: جنونُ الفجرِ وصمتُ البشرية

هكذا، طُوِيت صفحاتُ المخطوطة الثالثة، ولم يكن جفافُ الحبرِ عليها إلا إعلاناً عن بَدءِ حريقٍ لن تُطفئه القرون. بينما كان نيتشه يخطو خطواته الأولى فوق مياه "المحيطِ المفتوح" التي لا ترحم، كان يحملُ في يدهِ أوراقاً ليست ككل الأوراق؛ كان يحملُ "العلمَ المَرِح"، ذاك الكتاب الذي وُلد من رحِمِ الجليدِ والوحدة، ليكون الصاعقةَ التي ستبقرُ بطنَ التاريخ.

عندما غادر نيتشه بوابته الرابعة، لم يترك خلفه فيلسوفاً يتألم، بل ترك خلفه "ديناميتاً" مؤجلاً. لقد وُضع الكتابُ تحت المطابع، وكان نقرُ حروفه يشبهُ دقَّ المسامير في نعشِ عصرٍ بأكمله.

ردةُ فعلِ العالم؟

في البدء، سيسودُ صمتٌ مُريب. لن تهتزَّ الكنائسُ فوراً، ولن تتساقطَ التيجانُ من لحظتها. العالمُ، ببلادتهِ المعهودة، سيستقبل "العلم المَرِح" كأنهُ هذيانُ مجنونٍ آخر يصرخُ في السوق. سيقرأ الناسُ كلمات نيتشه: "لقد مات الإله! ونحنُ مَن قتلناه!"، ثم سينظرون إلى السماء، فيجدونها زرقاء كعادتها، وسينظرون إلى الأرض، فيجدونها ثابتةً تحت أقدامهم، فيضحكون.. يضحكون بتلك الضحكةِ البشريةِ الصغيرة التي تخافُ من العمق.

ولكن، خلف الكواليسِ الكونية، حيثُ يقفُ لوسيفر مراقباً، كانت الأرضُ قد بدأت بالفعل تنفصلُ عن شمسها.

لوسيفر (يهمسُ وهو يرى أولى نُسخِ الكتابِ تخرجُ لِلنور):

"أيها البشرُ الواهمون.. أنتم تظنون أنَّ موت الإله هو مجردُ جملةٍ في مخطوطة. لا تعرفون أنَّ نيتشه قد سحبَ البساطَ من تحتِ آخرِ ذرةِ معنىً تملكونها. ستمرُّ سنوات، ربما قرون، قبل أن يصلَ ضوءُ هذا الانفجارِ إلى عيونكم. ستستيقظون يوماً ما لتجدوا أنَّ موازينكم الأخلاقية قد صارت هباءً، وأنَّ الفراغَ الذي خلقهُ 'فريدريك' سيطالبكم بأن تكونوا أنتم الآلهة.. أو أن تنتحروا بسببِ العدم."

تشويقُ النهاية: الزلزالُ الصامت

سيكون ردُّ فعلِ العالمِ هو "التيهُ العظيم". الناسُ سيشعرون ببرودةٍ مفاجئة في أرواحهم دون أن يعرفوا السبب. سيتساءلون: "إلى أين نحنُ ذاهبون؟ هل هناك صعودٌ أو هبوط بعد الآن؟ ألسنا نهيمُ كأننا نعبرُ عدماً لا نهايةَ له؟".

نيتشه، في ختامِ مخطوطتهِ الثالثة، يقفُ على ظهرِ موجةٍ عملاقة، ينظرُ إلى البشريةِ بإشفاقٍ خالٍ من الرحمة. هو يعرفُ أنَّ كتابه ليس لِليوم، بل لِلغدِ المُرعب. هو يعرفُ أنَّ إعلان "موت الإله" سيتبعهُ انهيارُ كلِّ القيم، وتحوُّلُ التاريخِ إلى ساحةٍ لِلتصادمِ بين إراداتِ القوة.

المقطعُ الأخيرُ في المخطوطة:

"لقد جئتُ مبكراً جداً.. هذا الحدثُ العظيمُ مازالَ في الطريق، لم يصل بعدُ إلى آذانِ البشر. ولكن، يا لهذا المرح المرهب! أنا الآن وحيدٌ مع الحقيقة، أرقصُ على قبرِ القرون، وأهيئُ نفسي لِلصعودِ الاكبر. فخلفَ هذا المحيط، يوجدُ جبلٌ ينتظرني.. جبلٌ سأهبطُ منه لِأقولَ للعالم: لقد تجاوزتُ نفسي، فهل تجرؤون؟"

تمت المخطوطة الثالثة.

المخطوطة الرابعة: صدى المطرقة.. وانحسارُ آفاق البشرية (1883 - 1887)

بينَ شهقةِ الولادةِ الأولى لِلنبيّ الذي نزلَ من أعالي "سيلس ماريا"، وبينَ النصلِ البارِدِ الذي بدأ يشرّحُ أنسجةَ التاريخِ الأخلاقي، تمتدُّ خمسُ سنواتٍ من الانصهار. لقد غادرنا ضفافَ "العلمِ المَرِح" لندخلَ في القفارِ حيثُ الهواءُ يتكونُ من شظايا اليقينِ المحطم.

هذه المخطوطة هي جردٌ لِلبقايا التي تركها الزلزال. إنها الفترة التي يتوقفُ فيها الفيلسوفُ عن كونهِ مجردَ "مفكر"، ليصبحَ مختبراً كيميائياً لِلآلام الكونية. هنا، لا يعودُ القلمُ أداةً لِلكتابة، بل يصبحُ إزميلاً يهدمُ جدرانَ المعابدِ الخاوية، ليرى ماذا يوجدُ خلفَ "الخير" و"الشر".. ماذا يقبعُ في تلك المنطقةِ الرماديةِ التي تخشاها الأبصار.

نحنُ ندخلُ عصراً يبدو فيهِ البحرُ أكثرَ ملوحة، والجبالُ أكثرَ صمتاً. إنها سنواتُ المخاضِ لِقيمٍ لم تولد بعد، لِسلالةٍ من الأفكارِ التي ترفضُ السجودَ لِـ "تنينِ الواجب". في هذه المخطوطة، سنراقبُ كيف يتحوّلُ الرجلُ الوحيدُ إلى مؤسسةٍ لِتحطيمِ الأصنام، وكيف يبدأُ بنسجِ سلالاتِ الأخلاقِ من خيوطِ الحسدِ والضغينةِ والقوة.

الدخولُ إلى هذه الفترة يعني مشاهدةَ العقلِ وهو يحفرُ قبرهُ البشري بيديه، ليخرجَ منهُ شيئاً يتجاوزُ البشر. استعدَّ لِلغموضِ الذي يسبقُ الصاعقة، لِلصمتِ الذي يعقبُ تحطمَ التماثيل، ولِلبصيرةِ التي لا تأتي إلّا بعدَ أن تعمى العينُ عن مألوفِ النور.

ثِقلُ الصمت: "العلم المَرِح" في الميدان المهجور

في مطلع عام 1883، كان الصقيعُ يلفُّ شوارع مدينة "ناومبورغ" الألمانية، لكنَّ البرد الأقسى لم يكن في الخارج، بل كان يتسللُ عبر جدران المنزل القديم حيث يقطنُ نيتشه مع والدته "فرانزيسكا" وأخته "إليزابيث".
لم تكن "ناومبورغ" لنيتشه سوى سجنٍ من التقاليد والذكريات الخانقة. كان يجلسُ في غرفته، محاطاً برائحة الورق القديم وأبخرة الشاي المر، يراقبُ من نافذته المارة الذين يهرعون تحت معاطفهم الثقيلة، وهم لا يدركون أن الرجل القابع خلف هذا الزجاج قد ألقى للتو قنبلةً ستمزقُ سماءهم، لكن صاعقها لم ينفجر بعد.
لقد نُشر كتاب "العلم المَرِح" في خريف العام المنصرم (1882). كان نيتشه ينتظرُ أن يرى العالم يهتز، أن يسمع صرخةً تردّ على صرخة "المجنون" الذي أعلن موت الإله في صفحات كتابه. لكنَّ الردَّ جاء مخيباً، لم يكن غضباً ولا استنكاراً، بل كان صمتاً مطبقاً.
أمسك نيتشه بنسخةٍ من الكتاب، لمس غلافه بأصابع مرتجفة. في الداخل، كانت تقبع الحكمة رقم 125، تلك التي صرخ فيها: "أين ذهب الإله؟ سأقول لكم! لقد قتلناه.. أنتم وأنا!". نظر نيتشه إلى النسخة وفكر: "كيف يمكن لهذه الكلمات أن تمر دون أن تحطم الزجاج؟ كيف يمكن للألمان أن يستمروا في شرب قهوتهم الصباحية وقراءة صحفهم التافهة وكأن شيئاً لم يكن؟".
كانت ردة فعل الجمهور الألماني والوسط الأكاديمي أشبه بمن ينظر إلى لوحة مجنون فلا يرى فيها إلا بقعاً من الحبر. لم يبع الكتاب إلا نسخاً تعدُّ على أصابع اليدين. لم تكتب عنه الصحف الكبرى. لقد قُوبل "رقص" نيتشه بشللٍ تام من الآخرين. هذا التجاهل لم يقتله، بل حوله إلى كائنٍ بركاني؛ أدرك أن آذان البشر ليست مهيأةً بعد لـ ترددات جديدة.
بين التقوى و التمرد: مائدة العائلة المسمومة
على مائدة الطعام، كانت الأجواء مشحونة بتلك القسوة الصامتة التي تميز العائلات "المقدسة". أخته إليزابيث، بـ ذكائها الحاقد، كانت تراقب شقيقها بنظراتٍ فيها مزيجٌ من الإشفاق والمذمة. كانت الأزمة مع "لو سالومي" و"بول ري" ما تزال تلقي بظلالها السوداء على المنزل.

إليزابيث (بنبرةٍ هادئة مستفزة):
"فريدريك، والدتنا تقلقُ كثيراً من كتاباتك الأخيرة. الناس في المدينة يتهامسون. يقولون إنك تكتبُ هراءً يمسُّ الذات الإلهية. ألا تظن أنَّ تدريس فقه اللغة كان أكرماً لك من هذا التيه؟"
لم يجب نيتشه. كان يحدقُ في طبقه، يشعر بأنَّ لقمة العيش في هذا المنزل مغمسةٌ بالذل. كانت "فرانزيسكا" (الأم) تصلي في صمت، ترجو الخلاص لروح ابنها الضال، وهي لا تدري أنَّ هذا الإبن قد قرر أن يلغي فكرة "الخلاص" نفسها.
في تلك اللحظة، شعر نيتشه بحضورٍ غريب في زاوية الغرفة، شيءٌ لا تراه الأم ولا الأخت. كأنَّ ظلاً طويلاً يرتدي معطفاً سوداء تتماهى مع عتمة الممر، يقفُ هناك ويبتسم بعينين تلمعان كالجمر الخامد. لم يكن بحاجةٍ لِيسأل مَن هذا. إنه لوسيفر، المراقب الذي لا يرحل.
العزلة المُطبقة: الهروب إلى داخل الذات
انسحب نيتشه إلى غرفته الباردة، والتحف ببطانيته، يحاول الهروب من آلام عينيه التي كانت تزداد مع كل سطرٍ يقرأه. كان يشعر بأنَّ ألمانيا خانته، وأنَّ عائلته تخنقه بفضيلتها.
كان يكتب في مفكرته بكلماتٍ متقطعة:
"لقد نشرتُ البشارة، ولم يسمعها أحد. لقد أعلنتُ موت الإله، وظلَّ العالم يصلي للاصنام. هل أنا مجنونٌ بين عقلاء، أم أنني العاقلُ الوحيد في مصحةٍ كبيرة تسمى البشرية؟"
في تلك الليالي من يناير 1883، بدأ نيتشه يسمع طنيناً في أذنه، ليس طنيناً مرضياً، بل كأنه صوتٌ يهبط من القمم. كلماتٌ مبهمة تتشكلُ في عقله الباطن.. كلماتٌ ليست له، ولكنها تخرجُ منه.
كان لوسيفر يقتربُ من سريره، ويهمسُ في أذنه بصوتٍ يشبهُ حفيف الأفاعي:
"الكتابُ الذي نشرتهُ يا فريدريك كان مجرد 'مُقبّلات' لِلوليمة المُرعبة. الناسُ لم يفهموا العلم المَرِح لأنهم يخافون الفرح الذي ينبعُ من الحطام. الآن.. يجبُ أن تكفَّ عن الكلامِ إليهم، وتبدأ بالنباحِ عليهم من القمم. هل تشعرُ بالرعدِ القادم؟"

بدأ نيتشه يستعدُّ لِلرحيل من ناومبورغ. لم يعد يحتمل نظرات إيليزابيث، ولا صلوات أمه. كان يحتاجُ إلى هواءٍ أكثر نقاءً، إلى عزلةٍ تسمحُ لِهذا الصوت الجديد (صوت زرادشت) بأن يجد مجراه. قبل أن يحزم حقائبه، جلس لِلمرة الأخيرة ينظرُ إلى نسخة "العلم المَرِح" التي لم يقرأها أحد.

نيتشه (بهمسٍ قاتل):

"لا بأس.. سأعودُ بما لا تستطيع عقولكم الصغيرة استيعابه. سأعودُ بالصاعقة."

غرفة التعذيب المقدسة: التوتر العائلي

كانت الجلسات المسائية هي الجحيم الحقيقي. تجلسُ الأم "فرانزيسكا" بمئزرها ألأسود، تخيطُ الثياب وتتمتم بصلواتٍ تستفزُّ أعصابَ نيتشه المهترئة. أما إليزابيث، التي كانت تدّعي فهم فلسفته، فقد كانت بالنسبةِ له هي "السمَّ العائلي" المُغلف بالحرص.

إليزابيث (وهي ترتبُ أوراقَ مكتبه دون إذنه):

"أخي.. لقد وجدتُ بعض القصاصاتِ التي تتحدثُ فيها عن 'العالمِ الذي يجبُ أن يتحطم'. ألا يكفيكَ ما فعلتهُ بنا 'لو'؟ الناسُ في الكنيسةِ يسألون والدتنا باستمرار: لماذا يبدو فريدريك كمن يحملُ شيطاناً في قلمه؟ لماذا لا تكتبُ شيئاً يمدحُ الأمةَ الألمانية وعظمتنا القومية كما يفعل الآخرون؟"

توقف نيتشه عن الكتابة، ارتجفت يدهُ التي تمسكُ بالقلم. لم يكن يرى إيليزابيث، بل كان يرى فيها "القطيع" بأكمله. كان يرى تلك الروح الضيقة التي تريدُ تحويل البرق إلى شمعةٍ للقراءة.

نيتشه (بنبرةٍ منخفضة كأنها قادمةٌ من قبر):

"العظمةُ الألمانية؟ أنتم تبحثون عن أصنامٍ جديدة لتسجدوا لها بعد موتِ إلهكم. الخطرُ ليس فيما أكتبه، الخَطرُ في هذا الهدوءِ الذي تعيشون فيه. أنتم ترقصون فوقَ بركانٍ نائم، وتعتبرون خطواتي المُضطربة جنوناً."

إنفجار الفكر المكتوم: مخاضُ زرادشت

في غرفته، بعيداً عن أعينهم، كان نيتشه يعيشُ مخاضاً كيميائياً. كان يشعر بأنَّ دِماغهُ يتمدد، بأنَّ الأفكار لم تعد مجرد كلمات، بل صارت ترددات فيزيائية.
كل رياءٍ رآه في ملامحِ جيرانه، كل صلاةٍ منافقة سمعها من النافذة، كان يتحولُ في داخله إلى "طاقةِ نقض". كان الإنفجارُ مكتوماً لأن لغتهُ لم تكن قد اكتملت بعد. كان يبحثُ عن شخصيةٍ يمكنها أن تحمل هذا العبء.. شخصيةٍ تنزلُ من الجبل وتصرخ في وجه هذا السكون القاتل.
لم يكن يريدُ لِـ "العلم المَرِح" أن يكون النهاية، بل كان يراهُ "المُقدمة الموسيقية" لِمأساةٍ أكبر. كان يهمسُ لِنفسه:
"لقد قلتُ لهم إنَّ الإله قد مات، فلم يهتزُّوا. إذن، سأعطيهم 'بديلاً' يجعلهم يتمنون لو بقي الإله حياً لِيحميهم مني."
حضورُ الظل: لوسيفر والهروب المُخطط له
في لحظاتِ الألم الحاد، حين يغلقُ نيتشه الستائر لِيهرب من الضوء، كان لوسيفر يتجسدُ كأنه جزءٌ من عتمةِ الغرفة. كان يقفُ مستنداً إلى المدفأة الباردة، وينظر إلى المسوداتِ المُبعثرة.
لوسيفر (بصوتٍ هادئٍ كقطراتِ المطر على القرميد):
"هل تشعرُ بالخنق، يا فريدريك؟ هذه الجدران تتغذى على نورك. ناومبورغ هي المقبرة التي ستدْفنُ فيها جنينك الجديد قبل أن يولد. أنتَ لستَ بحاجةٍ إلى 'عطفِ' عائلتك، أنتَ بحاجةٍ إلى 'قسوةِ' الشمسِ الجنوبية."
نظر نيتشه إلى الظل، وكان في عينيه مزيجٌ من اليقين والتعب.
نيتشه:
"إلى أين؟"
لوسيفر:
"إلى حيث يلتقي البحرُ بالصخرِ دون وُسطاء. إلى 'رأبالو' (Rapallo). هناكَ في ايطاليا، حيثُ الهواءُ يحملُ رائحةَ الملحِ، ستجدُ الصوتَ الذي تبحثُ عنه. لقد حان وقتُ الهجرةِ يا طائرَ الرعد."

قرارُ الرحيل: تمزيقُ الأوصال
بدأ نيتشه بجمع حقائبه بسرعةٍ محمومة. لم يبلغ أمه أو أخته بوجهته النهائية بدقة، كان يريدُ فقط الأنسلال. في تلك الليالي من يناير، كان التوتر قد وصل إلى ذروته؛ إيليزابيث كانت تحاولُ إقناعه بالبقاء لِتنظيم أعماله، بينما كان هو يشعرُ بأنَّ كلَّ كلمةٍ منها هي عينٌ تراقبُ نموَّ جنينه (زرادشت).
حزم كتبه القليلة، ومسوداته التي لم يكتمل بهاؤها بعد. كان يعلمُ أنه ذاهبٌ إلى صراعٍ وحيد.
نيتشه (وهو ينظرُ إلى وجه والدته الشاحب في الممر):
"أنا ذاهبٌ لابحث عن صحتي.. ولكنني في الحقيقة ذاهبٌ لارى كم من الحقيقةِ يمكنُ لِلإستطاعةِ أن تتحمله."
خرج من الباب، والثلجُ يتساقطُ على معطفه. لم يلتفت خلفه. كان القطارُ المتجه جنوباً ينتظرهُ.
الوجهة: رأبالو، إيطاليا.
هناك، بين منحدراتِ الجبال وبزرقة المتوسط، كان ينتظرهُ السكون الذي سينفجرُ عن عظيمِ الأقوال. ولكن قبل ذلك، كان عليه أن يواجه شيئاً آخر في طريقه.. كان يشعر بأنَّ العالم يحبسُ أنفاسه لِسببٍ لا يعرفه بعد.

طقوسُ الولادة: المشيُ فوقَ الأعراف
هبطَ نيتشه في "رأبالو" وكأنه يهبطُ في منطقةٍ برزخية بين السماء والبحر. كانت زرقة المتوسط في ذلك الفبراير مستفزةً لِعينيه المريضتين، لكنها كانت الدواء الوحيد لِروحه التي تكاد تختنق.
استأجر غرفةً صغيرة بسيطة تطلُّ على الخليج، حيث يمكنه سماع ارتطام الموج بالصخور؛ ذاك الإيقاع المنتظم الذي بدأ يتحولُ في ذهنه إلى تراتيلَ غامضة.
لم يكن نيتشه يكتب جالساً، بل كان يكتب ماشياً. كان يخرج في الصباح الباكر، يتسلق المنحدرات الوعرة التي تربط "رأبالو" بـ "زوالي" (Zoagli). هناك، بين شجر الصنوبر والهواء المشبع بالملح، أحسَّ

بأنَّ "شيئاً ما" يتبعه. لم يكن لوسيفر هذه المرة، بل كان كائناً آخر.. كائناً خلقه نيتشه من غبار أحلامه وقسوةِ عزلته.

في تلك اللحظات، توقف نيتشه مستنداً إلى صخرة، والعرقُ يتصببُ من جبينه رغم برودة الجو. نظر إلى الأفق، وفجأةً، أحسَّ بأنَّ التاريخَ ينفتقُ أمامه.

نيتشه (يهمسُ لِنفسه، وعيناهُ متسعتان):

"ليس كلاماً.. إنه وحي! لقد غيَّبتُ البشر، فظهرَ لي الجبل. لقد قتلتُ الإله ، فولدَ في داخلي.. زرادشت."

لوسيفر: القابلةُ القاسية

ظهر لوسيفر جالساً على حافةِ هاويةٍ مطلةٍ على البحر، كان يتلاعبُ بغصنِ صنوبرٍ جاف، وينظرُ إلى نيتشه بنظرةٍ تملؤها النشوةُ المُظلمة.

لوسيفر:

"هل تشعرُ بالثقل يا فريدريك؟ هذا المخاض ليس لِفكرة، بل لإعصار. لقد هربتَ من صلواتِ والدتك لِتجد نفسكَ تسمعُ أصواتَ الجبال. هذا الذي يتشكلُ في أعماقكَ الآن.. هذا الزرادشت.. إنه جلادُكَ الأكبر قبل أن يكونَ نبيَّ البشرية."

نيتشه (يلتفتُ إليه، وجههُ يبدو مخطوفاً كوجه القديسين المعذبين):

"إنه يتحدث، يا لويسفر! يتحدثُ بلغةِ البرق. يقولُ لي إنَّ الانسان جسرٌ يجبُ تجاوزه. يقولُ لي إنَّ العالمَ يحتاجُ إلى مطرقةٍ لا إلى وعظ. كيف لِقلمي الهش أن يكتبَ كلَّ هذا الرعد؟"

الإنفجار المكتوم: عشرةُ أيامٍ من الصعق

عاد نيتشه إلى غرفته في "رأبالو". كان الوقتُ يتسارعُ بشكلٍ مجنون. في هذه الغرفة، التي ستصبحُ محراباً للفلسفة، بدأ نقرُ القلمِ يشبهُ طلقاتِ الرصاص. كان يكتبُ بنشوةٍ "ديونيسية" تكادُ تحرقُ أعصابه.

في هذه الفترة، بدأ الجزءُ الأول من "هكذا تكلم زرادشت" ينبثقُ من العدم. كان نيتشه يشعرُ بأنَّ الكلماتِ لا تنتمي إليه، بل تهطلُ عليه

من سماءٍ غريبة. كان يكتبُ عن "الانسان الأعلى"، وعن "الاستحالاتِ الثلاث" (الجمل، والأسد، والطفل).
كان التوتر الفكري قد وصل إلى منتهاه. كان يأكلُ قليلاً، وينامُ أقل، ويمشي لساعاتٍ طويلة يناقشُ "ظلَّ زرادشت" الذي بدأ يتجسدُ بجانبه.
نيتشه (وهو يكتبُ بحمّى):
"ليس المهم موتُ الإله فحسب، المهم هو: من يجرؤ على الوقوفِ مكانه؟ من يجرؤ على خلقِ قيمٍ من معدنِ إرادته؟"

نذيرُ العاصفة: ما بين الولادة والموت
كان نيتشه يشعرُ بقبضةٍ تعصرُ قلبه. كان هناكَ صدىً يأتي من بعيد، من جبهةِ "فاغنر" المحتضر في فينيسيا. لم يكن نيتشه يعرفُ بعد أنَّ الساعاتِ تقترب، ولكنَّ "لوسيفر" كان يبتسمُ للساعةِ المُعلقةِ في ممرِ الفندق.
كان نيتشه في تلك اللحظةِ يضعُ اللمساتِ الاخيرة على خطابِ زرادشت لِلبشر، كان يشعر بأنه قد وُلد من جديد، لكنه لا يعرف أنَّ هذه الولادة ستكون معمودةً بالنارِ والفقدان.
كان يترقبُ ما سيحدث، وكأنَّ الطبيعةَ كلها في "رأبالو" تحبسُ أنفاسها معه. البحرُ كان هادئاً بشكلٍ مريب، والنسورُ كانت تحلقُ فوقَ كهفهِ المُتخيل.

13 فبراير 1883: الساعة التي توقفت فيها الموسيقى

في الثالث عشر من فبراير عام 1883، كانت السماء فوق "رأبالو" صافية بشكلٍ غادر، والبحارُ هادئة كأنها تخفي سراً كونياً ثقيلاً. في تلك اللحظة، كان نيتشه يضعُ اللمسات الأخيرة على الجزء الأول من ملحمته "هكذا تكلم زرادشت". كان يشعر بانتصارٍ ميتافيزيقي، كأنه قبضَ على البرقِ وأودعهُ في كلمات.
لكنَّ القدر كان يجهزُ له "صدمةً" من نوعٍ آخر، صدمةً ستغلقُ فصلاً كاملاً من حياته، لتبدأ المخطوطة الرابعة معمودية الدم والدموع.

بينما كان نيتشه يسيرُ في ممره المعتاد على المنحدرات الصخرية، كان ريتشارد فاغنر، في مدينة "فينيسيا" القريبة، يلفظُ أنفاسه الأخيرة في "قصر فيندرامين". مات الرجل الذي كان يوماً لنيتشه "الأب الروحي"، والمثال الأعلى، والعدو الأكبر.
وصل الخبرُ إلى نيتشه في "رأبالو" عبر برقيةٍ مقتضبة. في تلك اللحظة، لم يسقط نيتشه أرضاً، بل حدث ما هو أسوأ: الصمت المطلق.

مشهد الصدمة: الغرفة الضيقة في "رأبالو"
جلس نيتشه على كرسيه الخشبي، البرقية في يده ترتجف كأنها ورقة خريفية. قرأ الكلمات مراراً: "مات فاغنر في فينيسيا". شعر نيتشه ببرودةٍ لم يعرفها حتى في قمم الجبال. كان يشعر بـ "فراغٍ في الوجود"؛ فبالرغم من العداء الشديد والقطيعة التي استمرت لسنوات، كان فاغنر هو القطب الذي يدور حوله عالم نيتشه. كان هو "الجبل" الذي يحاول نيتشه تجاوزه، وبموت الجبل، شعر نيتشه فجأة أنه يقفُ في هواءٍ لا نهائي.
نيتشه (بصوتٍ يخرجُ من حنجرةٍ جافة):
"لقد كان قاسياً.. كان قاسياً جداً أن أكون عدواً للرجل الذي أحببته أكثر من أي شخص آخر. والآن.. صمتت الموسيقى. الموسيقى التي كانت تملأ فراغ إلهي الميت، رحلت هي الأخرى."
لوسيفر: المرآة القاسية في ساعة الحداد
في تلك الليلة، لم ينم نيتشه. كان يراقبُ البحر من نافذته، وكان لوسيفر يقفُ خلفه، ظله يمتدُ على الجدران العارية كأنه نقشٌ قديم. لم يواسِ لوسيفر نيتشه، بل كان وجوده تذكيراً بالضرورة القدرية.
لوسيفر (بنبرةٍ هادئة ولكنها حادة كالمشرط):
"هل تبكي على الأب، أم تبكي على العدو الذي كان يمنحُ لضربات مطرقتك مبرراً؟ لقد مات 'زيغفريد' العجوز، يا فريدريك. لقد تركك وحيداً في الساحة. بموته، لم تعد هناك 'فالكري'[19] لتنجدك، ولا أساطير لتختبئ خلفها. الآن، أنتَ وحدك أمام صمتك."

[19] فالكري: في الميثولوجيا الجرمانية والشمالية، هنّ "ربات الموت" أو كائنات نسائية أسطورية يمتطين خيولاً مجنحة ويخدمن الإله "أودين". مهمتهن هي اختيار المقاتلين الأبطال الذين يسقطون في المعارك لنقلهم إلى "فالهالا" (فردوس الأبطال).

نيتشه (يلتفت بـعينين محتقنتين بالدم):
"لقد كان فاغنر هو "الضدّ" الذي جعلني "أنا". كل سطرٍ في زرادشت كان محاولة للرد عليه، للتفوق على فخامته الزائفة. الآن، مع من سأتحاور؟ مع من سأتشاجر في أحلامي؟"

الانـهيار الفلسفي: ما وراء الصدمة

استمرت الصدمة لأيام. كان نيتشه يكتب لـصديقه "أوفربيك" بكلمات تـقطر أسىً: "لقد كان مرضاً أن أكون عدواً لـفاغنر، ولكن موته هو الـعدم". لقد أدرك نيتشه في تلك اللحظة أنَّ موتـه الشخصي قد بدأ بـموت فاغنر.

تحرر زرادشت: في خضم هذه الصدمة، حدث شيءٌ غريب؛ بدلاً من أن ينكسر نيتشه، تحول الحزن إلى طاقةٍ وحشية. شعر أنَّ "روح فاغنر" قد انتقلت إليه، لا لـيقلده، بل لـيطمسه.

كراهية فينيسيا: صارت مدينة "فينيسيا" في نظر نيتشه هي مدينة "الـموت والـفساد الأخلاقي"، المكان الذي يـموت فيه العمالقة بـسبب "الـهواء الـرطب" و"الـموسيقى الـمريضة".

الانفجار الإبداعي: بعد الصدمة بـأيام قليلة، وبـسبب هذا الضغط النفسي الهائل، كتب نيتشه بعضاً من أقوى مقاطع "زرادشت". كان يـهـمس لـنفسه: "يجب أن أكون أعظم من فاغنر، لـكي لا يكون موته عبثاً".

الوداع الصامت

في نـهاية فبراير، وقف نيتشه على الشاطئ، نظر نـحو الشمال، نـحو ألمانيا وفينيسيا، وقال جملته الشهيرة التي تـلخص علاقة الحب والكره تلك:
"لقد كان فاغنر هو الشكل الأكثر كـمالاً للإنسان.. والآن، يـجب أن يـأتي ما هو "أبعد" من الإنسان."

لقد كانت صدمة موت فاغنر هي الـوقود الـحقيقي الذي أحرق "فريدريك" القديم، لـيخرج من رماده "نيتشه الصاعقة". الـخبر لم يصل لـه كـمعلومة، بل كـزلزالٍ هدم آخر معبدٍ كان يـسكنه في لحظات حنينه.

نيتشه الآن وحيدٌ تـماماً. لا عائلة (بعد القطيعة مع أمه وأخته)، ولا حبيبة (لو سالومي)، ولا "أب روحـي" (فاغنر).

فبراير 1883: انتحار اللحن وصمت الاعماق

كان نيتشه يجلسُ في سكونه القاتل، يراقبُ أمواج المتوسط وهي تضرب الصخور برتابةٍ تُشبه ضربات القدر. بالنسبة له، لم يكن موت فاغنر حدثاً بيولوجياً، بل كان "كسوفاً كلياً للإبداع البشري".

تذكر نيتشه تلك الفقرة التي كتبها في "العلم المرح" عن "صداقة النجوم (Sternenfreundschaft)"؛ فكرة أنَّ روحين قد تقاطعت مساراتهما لفترة، ثم افترقتا إلى أبديةٍ باردة. لكنَّ موت فاغنر جعل هذا الفراق مادياً ونهائياً.

كان حزنه فلسفياً بامتياز؛ حزنٌ لا يبكي على الصديق، بل يبكي على "العظمة التي لن تتكرر". كان يشعر بأنَّ العالم بعد فاغنر سيغرق في "التفاهة الأكاديمية" و"الأخلاق الصغيرة". لقد مات الساحر الذي كان يعرف كيف يحول الأساطير إلى إرادة.

لوسيفر: الشاهدُ على المخاضِ الجنائزي

كان لوسيفر يراقبُ هذا الانهيار الصامت، لم يقترب مواساةً، بل وقف كتمثالٍ من الأبنوس في ركن الغرفة، يتأمل كيف تتحول الدموع في عيني نيتشه إلى "صخورٍ فلسفية".

لوسيفر (بصوتٍ يحملُ وقارَ العدم):

"لماذا الأسى يا فريدريك؟ ألم تقل إنَّ الأصنام يجب أن تتحطم؟ ها قد حطم الموتُ صنمكَ الأكبر لكي لا تبقى لك حجةٌ للتردد. موتُ فاغنر هو 'التحررُ الأخير' لروحك. الآن، لا يوجد أحدٌ يراقبك من فوق تلك المنصة الموسيقية. الآن، أنتَ وحدك الموسيقارُ والمستمعُ والجلاد."

نيتشه (يلتفت بحدة، والحزن يتحول في عينيه إلى غضبٍ مقدس):

"أأنتَ تسخرُ من ثقلِ هذا الصمت؟ لقد كان فاغنر هو 'اللحن' الذي يبرر وجودي المضطرب. برحيله، صرتُ مضطراً الآن أن أخلق لحني الخاص من العدم المطلق. هذا الحزن ليس ضعفاً، إنه المخاضُ الذي يسبقُ الصاعقة."

مارس 1883: تحويل الحطام إلى "زرادشت"

في الأسابيع التالية، تحوّلَ حزن نيتشه إلى حالةٍ من الانعزال المرعب. لم يعد يرى في "رأبالو" جمالاً، بل صار يرى فيها مسرحاً لِـ "مأساةِ

التجاوز". بدأ يكتب بسرعةٍ هستيرية، كأنه يسابقُ الموت قبل أن يختطفه هو الآخر.
كان يشعر بأنَّ روح فاغنر، بكل جبروتها وتعاليها، قد تلبّست كلمات زرادشت. لقد أراد نيتشه أن يثبت للعالم (ولنفسه) أنه يمكن لِلفلسفة أن تكون أكثر "موسيقية" من أوبرا فاغنر، وأكثر "بطولة" من أساطيره.
نيتشه (يخاطبُ نسخة زرادشت التي بدأت تكتمل):
"سأجعلُ كلماتي ترقصُ فوق قبرك يا ريتشارد. ليس انتقاماً، بل وفاءً لِلعظمة التي علمتني إياها. سأخلقُ إنساناً يتجاوزُ حتى أحلامكَ عن البطولة."

عشرة أيامٍ هزت وجدان الوجود: ولادة الجزء الأول
لقد انتهى زمن الحداد الصامت، وبدأت الحممُ تغلي في أعماق نيتشه. نحن الآن في منتصف فبراير 1883، حيث تحولت غرفته في "رأبالو" إلى مركزِ إعصارٍ فكري لم يشهده التاريخ من قبل.
بعد صدمة رحيل فاغنر، لم ينكسر نيتشه، بل حدث له ما يشبه "الاستحالة الكيميائية". تحول الحزن إلى طاقةٍ وحشية، وصار القلمُ في يده مِبضعاً يشرحُ به جسد القيم القديمة. في غضون عشرة أيام فقط، انهمر الجزء الأول من "هكذا تكلم زرادشت" كشلالٍ من النور الأسود.
طقوس الكتابة: الرقص فوق الهاوية
كان نيتشه يستيقظُ والطلُّ ما يزال على أوراق الصنوبر، يخرجُ ليمشي، وفي عقله تدوي جملٌ ليست من صُنع البشر. كان يشعرُ بـ "الوحي" بالمعنى الحرفي؛ كلماتٌ تفرضُ نفسها عليه، وإيقاعاتٌ تجبرُ جسده المريض على الرقص.
"لقد كان زرادشت يمرُّ بي، ولم أكن أنا من يكتبه. كنتُ مجرد حنجرةٍ لصوتٍ قادم من أعماق الزمان."
لوسيفر: مهندسُ الصاعقة
في ليلةٍ من تلك الليالي العشر، كان نيتشه يكتبُ "عن الاستحالات الثلاث"، حين شعر ببردٍ مفاجئ في الغرفة. كان لوسيفر واقفاً خلفه، يلمسُ بأطراف أصابعه الرفيعة مسودات الكتاب التي لم يجف حبرها بعد.

لوسيفر (بنبرةٍ تمزجُ الإعجاب بالقسوة):
"أخيراً.. لقد كففتَ عن الأنين على قبر ذلك العجوز (فاغنر). انظر إلى ما تفعله الآن؛ إنك لا تكتب كتاباً، بل تزرعُ ديناميتاً في عقل البشرية. هل تدركُ أنَّ 'إنسانك الأعلى' هذا سيقتلُ في قلوبهم كل عزاءٍ قديم؟"
نيتشه (دون أن يلتفت، وقلمه يسابقُ البرق):
"الحقائقُ العظيمة تحتاجُ إلى قتلةٍ عظماء يا لوسيفر. زرادشت لا يواسي، زرادشت يهدم. لقد مات الإله، ومات فاغنر، والآن يجب أن يموت 'الإنسان' كما نعرفه، ليفسح الطريق لما هو أبعد."

مضامين الانفجار: زرادشت في الساحة
في هذا الجزء الأول، صاغ نيتشه أخطر مفاهيمه:
الإنسان الأعلى (Übermensch): الهدف الذي يجب أن يشرئبَّ إليه الوجود.
تجاوز الذات: الصراع المستمر ضد الضعف البشري.
الوفاء للأرض: رفض الوعود الميتافيزيقية الميتة والتركيز على واقع الجسد والحياة.
كان نيتشه يكتب بسرعةٍ هستيرية، كأنَّ عمره الباقي يتلخص في هذه العشرة أيام. كان يشعر بصداعٍ مرعب، ولكنه صداعُ الولادة لا صداع المرض.
الانتهاء من الجزء الأول: الهدوء الذي يسبق العاصفة
في نهاية فبراير، وضع نيتشه النقطة الأخيرة في الجزء الأول. نظر إلى الأوراق بذهول، كان يبدو كمن عاد من رحلةٍ إلى لبِّ الشمس. لقد أعلن زرادشت صرخته الأولى: "لقد جئتُ لأعلمكم الإنسان الأعلى، الإنسان شيءٌ يجب تجاوزه".
نيتشه (وهو يغلق المسودة، متوجهاً بنظره نحو البحر):
"الآن، لتبدأ المعركة. لقد أعطيتهم النار، فلنرَ من منهم سيحترق ومن منهم سيتطهر."
الجزء الأول قد اكتمل، ونيتشه يقفُ على ذروةِ انتصاره الإبداعي الأول في هذه المرحلة. ولكن، خلف هذا الانتصار، تبدأ تساؤلاتٌ أخرى بالظهور: كيف

سيستقبلُ العالم هذا "الرعد"؟ وكيف سيتعامل نيتشه مع وحدته التي تزدادُ عمقاً بعد أن أفرغَ صعقته الأولى؟

في ربيع 1883، حزم نيتشه مسودات الجزء الأول بأصابع مرتجفة، وأرسلها إلى ناشره في ألمانيا، "إرنست شميتزنر". لم يكن يرسلُ كتاباً، بل كان يرسلُ "قنبلةً موقوتة" يتوقعُ أن تهزَّ أركان الثقافة الأوروبية.
ولكن، يا لقسوةِ الواقع! كان "شميتزنر" غارقاً في وحلِ السياسة والمعاداة للسامية التي كان نيتشه يحتقرها من أعماق قلبه. وصل المخطوط إلى ألمانيا، وبدلاً من أن تُقرع الأجراس، قوبل بصمتٍ إداري بارد. كان الناشر يرى في "زرادشت" مخاطرةً مالية، وعملاً غامضاً لن يفهمه أحد.
نيتشه (يكتبُ في مذكراته الخاصة بمرارة):
"لقد أرسلتُ لهم ناراً ليتدفأوا بها، فإذا بهم يخافون أن تحترق مكاتبهم التافهة. إنَّ الناشر ينظرُ إلى 'زرادشت' كأنه عبء، بينما هو التاجُ الذي سيبقى حين تفنى عروشهم."
الصمتُ الألماني: عندما تصمُّ الآذانُ عن الرعد
نُشر الجزء الأول أخيراً في مايو 1883، وبدأ نيتشه يترقبُ ردود الفعل. كانت تصله الرسائل القليلة من أصدقائه (أوفربيك ورودا)، ولكنها كانت رسائل تحملُ "الإشفاق" أكثر من "الفهم".
الجمهور الألماني، الذي كان يحتفلُ بأمجاد الإمبراطورية والموسيقى العسكرية، لم يجد مكاناً لنبيٍّ يسكنُ الجبال ويتحدثُ عن "الإنسان الأعلى". كان التجاهلُ تاماً؛ لم تصدر مراجعات مهمة، ولم يهتزَّ الوسط الفلسفي.
فلسفة الوحدةِ المُطلقة
هذا التجاهل الساحق دفع نيتشه إلى أعماقِ وحدته. بدأ يدركُ بيقينٍ موجع أنه يكتبُ لـ "آذانٍ لم تُخلق بعد". هذا الإدراك لم يهزمه، بل منحهُ صلابةً ماسية.
"إنَّ جنوني أكثر عقلانيةً من حكمتهم، وصمتي أعلى من كلِّ ضجيجهم. إذا لم يفهموا زرادشت الآن، فذلك لأنهم ما زالوا يرتعدون من ظل الإله الذي قتلته لهم."

الصحة العظمى الكاذبة: مخاضُ الجزء الثاني

بالرغم من آلام الرأس التي كانت تعصره، وبالرغم من فشل الجزء الأول تجارياً، دخل نيتشه في حالةٍ من "الصحة العظمى". وهي حالةٌ نفسية متطرفة يشعر فيها الإنسان بأنه فوق الألم بسبب عظمة المهمة التي يقوم بها.

في يونيو 1883، انتقل نيتشه إلى "سيلس ماريا" في سويسرا. هناك، بين القممِ المُغطاةِ بالثلوج والبحيرات المركزية، بدأ يشعرُ بأنَّ زرادشت يريدُ العودة. لقد تركه في الجزء الأول يودعُ تلاميذَه وينزلُ إلى البشر، ولكنَّ الآن، كان على زرادشت أن يواجه "الإشفاق"، وهو أخطر الأعداء.

الصراعُ الداخلي: التوقُ إلى الفهم

كان نيتشه يمشي حول بحيرة "سيلفابلانا"، ينظر إلى تلك الصخرةِ الهرميةِ الشهيرة، ويفكر:

"لقد أعطيتُهم النور فأغمضوا أعينهم. هل يجبُ عليَّ أن أكسرَ صمتي برعدٍ أكبر؟ هل يجبُ على زرادشت أن يعودَ إلى مغارته لينضجَ أكثر في عزلته؟"

يوليو 1883: ولادةُ الجزء الثاني

في غضون عشرةِ أيامٍ أخرى، بذاتِ السرعةِ البركانية، كتب نيتشه الجزء الثاني من "هكذا تكلم زرادشت". في هذا الجزء، كان النبرُ أكثر قسوةً وعمقاً. لم يعد يهتمُّ بإقناعِ البشر، بل بتعريةِ "المُقدّسين المزيفين".

كان يكتبُ عن "جزيرةِ المُباركين" وعن "الفضيلةِ التي تمنح". ولكنَّ الأهم من ذلك، كان يحضّر التربة لِأثقلِ فكرةٍ في الوجود: العودُ الأبدي.

كان نيتشه يشعرُ بأنَّ هذه الفكرة هي المحكُّ النهائي لِقوةِ الإنسان؛ أن يرغبَ في تكرارِ حياتهِ بكلِّ مآسيها وأفراحها إلى الأبد.

نيتشه (يتأملُ القمم السويسرية):

"لقد مات فاغنر، وتلاشى الأصدقاء، وصار صوتي صدىً في القفار. الآن، بدأتُ أرى حقيقتي تتوهجُ وحدها. لستُ بحاجةٍ لِألمانيا، أنا بحاجةٍ لِلخلود."

مع تلاشي أصداء الجزء الثاني من "زرادشت" في قفار التجاهل الألماني، دخل نيتشه في طورٍ جديد من العزلة، لم تكن مجرد وحدة اجتماعية، بل كانت "انفصالاً كيميائياً" عن كل ما يمت بصلة لماضيه. نحن الآن في النصف الثاني من عام 1883، حيث بدأت الخيوط التي تربطه بعائلته بالاحتراق والتحول إلى رماد.

الأخت والسمّ: "إليزابيث" وظلُّ الصليب المعقوف الأولي

بينما كان نيتشه يحلّق في سماوات "الإنسان الأعلى"، كانت أخته إليزابيث تغرسُ مخالبها في وحلِ القيم التي يمقتها شقيقها. في هذا العام، بدأت الفجوة بينهما تتحول إلى هاوية لا يمكن عبورها.

1. العدوُّ في قلب المنزل

ارتبطت إليزابيث بـ "بيرنارد فورستر"، وهو أحد زعماء الحركة المعادية للسامية في ألمانيا. بالنسبة لنيتشه، كان "فورستر" يمثل كل ما هو "بشري مفرط في بشريته": الحقد العرقي، الضغينة، والتعصب القومي الأعمى.

كتب نيتشه لأخته رسائل تقطر مرارة:

"إنَّ ارتباطكِ بهذا الرجل ليس مجرد خيار شخصي، إنه إهانةٌ لِفلسفتي. إنكِ تختارين 'القطيع' في أبشع صوره، بينما أحاول أنا أن أقود البشرية نحو القمة."

2. العنكبوت السام: تحطيم ذكرى "لو سالومي"

لم تكتفِ إليزابيث باختياراتها السياسية، بل استمرت في تسميم ذكريات نيتشه عن "لو سالومي"، مصورةً إياها كشيطانة حطمت قلب شقيقها. أدرك نيتشه في هذه اللحظة أنَّ أخته لا تفهم حرفاً واحداً مما يكتب؛ هي تريد "نيتشه الواعظ الألماني التقليدي"، بينما هو قد صار "الصاعقة".

التحضير للجزء الثالث: "العود الأبدي"

في خريف 1883، انتقل نيتشه من "سيلس ماريا" الباردة إلى مدينة "نيس" (Nice) في فرنسا، بحثاً عن شمسٍ تنيرُ عتمةَ بصيرته. هنا، بدأ الجزء الثالث يتخمر في عقله، وهو الجزء الذي وصفه بأنه "قلبُ الكتاب".

أولاً: مواجهةُ "الإشفاق"

كان نيتشه يشعر بأنَّ زرادشت قد قدم "الأمل" في الجزءين الأول والثاني، ولكن الآن، وجب عليه مواجهة "الألم الأكبر". كان يحضّر نفسه لتحطيم

فكرة "الغاية" من الوجود. الجزء الثالث لم يُكتب بالحبر، بل بـ "قلقِ الوجود".

ثانياً: لغزُ الزمان والعود الأبدي

كان نيتشه يسيرُ على شواطئ "نيس"، يراقبُ تكرار الأمواج، ويفكر في تلك اللحظة التي لمحها عند صخرة "سيلفابلانا". العود الأبدي: الفكرة التي تقول إنَّ كلَّ لحظة في حياتك، بألمها، وقرفها، وضعفها، سوف تتكرر إلى الأبد.

"كيف لي أن أنطق بما يجعلُ الجبالَ ترتعد؟ كيف لزرادشت أن يقول للبشر إنَّ ماضيهم سيكون مستقبلهم إلى الأبد؟ هذا الحمل ثقيلٌ جداً، لدرجةِ أنه قد يقتل من يحمله."

الحالةُ الجسدية: "الصحةُ العظمى" وسكراتُ العقل

كانت عيناه تكادان تنطفئان. كان يقرأ ويكتب بواسطة "آلة الكتابة" التي كانت تتعطل باستمرار، أو بمساعدةِ أصدقاء نادرون. كان يعيشُ على السوائل والأدوية لتسكين الآلام التي تعصر دماغه.

في رسالةٍ لصديقه "أوفربيك":

"إنني أعيشُ في حالةٍ من الترقب الدائم لِصاعقةٍ ستضربني. هذا الجزء الثالث يخنقني.. إنه يطالبُ بالخروج، ولكنني أخافُ أنه سيحرقُ ما تبقى من عقلي."

بدايةُ تشكل "الرؤية واللغز"

بدأ نيتشه يتخيل نفسه صاعداً لِلجبل، متجاوزاً حتى "زرادشت" القديم. التحضير لِلجزء الثالث كان يتطلب منه أن يصبح "رائياً" لا مجرد فيلسوف. كان يبحثُ عن صوتٍ جديد، صوتٍ ليس فيه نبرة وعظ، بل فيه نبرةُ القدر.

العلاقةُ المُحطمة: الوداعُ الأخير لِلعائلة

في هذا المنعطف من نهاية عام 1883، وصل الصراع مع إيليزابيث إلى ذروته. هي كانت تحضّر لِلرحيل إلى "باراغواي" لِتأسيس مستعمرة "ألمانيا الجديدة" المبنية على العنصرية.

نيتشه (بغصةٍ فلسفية):

"لتذهب إلى آخر العالم.. لتبنِ أصنامها من طينِ الحقد. أنا سأبقى هنا، في وحدتي، أبني عالماً من النور والبرق. لقد انقطع الحبلُ الذي يربطني بدمي، ولم يعد لي من عائلةٍ إلا 'أفكاري'."

المخطوطة الرابعة: تجسد اللغز (عن الرؤية واللغز)

في يناير 1884، وتحت سماء "نيس" التي لم تكن تمنحُ الدفء بقدر ما كانت تمنحُ وضوحاً قاسياً، انزوى نيتشه في غرفته المتواضعة. كان جسدهُ يرتجفُ من البرد، لكنَّ عقله كان يغلي بحمى "الرؤية". لم يعد يرى الجدران العارية ولا النافذة المطلة على البحر؛ بل كان يرى منحدراتٍ جبلية وعرة، وضباباً كثيفاً ينقشعُ عن أهوالٍ فلسفية لم يسبق لعينٍ أن أبصرتها.

أمسك نيتشه بقلمه، وبدأ يخطُّ الكلمات الأولى للجزء الثالث. لم يكن يكتبُ كتاباً؛ كان يحفرُ في صخرِ الوجود.

بدأت الكلمات تتدفقُ بإيقاعٍ جنائزيٍّ مهيب. نيتشه، عبر قناع زرادشت، لم يعد يخاطبُ "القطيع" في الساحات، بل بدأ يخاطبُ نفسه، ويخاطبُ "المغامرين" الذين لا يرهبون الإبحار في البحار المحرمة.

1. مواجهة "روح الثقل": القزم على الكتف

تخيل نيتشه نفسه صاعداً في ممرٍ جبلي كئيب عند الغسق. لم يكن وحيداً؛ بل كان هناك القزم (روح الثقل) قابعاً فوق كتفه، يسكبُ الرصاص في أذنيه، ويهمسُ بسخريةٍ مريرة:

"أيها الحجر الحالم، أيها الحجر الذي قذفت به السماءُ بعيداً! لقد قذفتَ بنفسك عالياً، لكنَّ كلَّ حجرٍ مآلُه السقوط."

كان هذا القزم يمثلُ كلَّ ما في نيتشه من يأس، ومن حنينٍ للقيم القديمة، ومن خوفٍ من الفراغ. لكنَّ نيتشه، في لحظةِ استعلاءٍ بطولي، قرر أن يواجه هذا القزم بأقوى أسلحته: الشجاعة التي تقتل حتى الموت.

2. عند بوابة "اللحظة": مفترق طرق الأبدية

هنا، في خيال نيتشه، توقف زرادشت أمام بوابةٍ حجرية ضخمة تلتقي عندها طريقان يمتدان إلى الأبد: واحدٌ نحو الماضي، وآخر نحو المستقبل. وعلى عتبة هذه البوابة، كتب نيتشه كلمةً واحدة هزت كيانه: "اللحظة".

كان نيتشه يكتب بـيدٍ مرتجفة:
"أيها القزم! انظر إلى هذه اللحظة. ألا يجب على كل ما هو آتٍ أن يكون قد عبر هذا الطريق من قبل؟ ألا يجب أن نعود ونمرَّ من هذه البوابة مرةً تلو الأخرى؟"
كانت هذه هي الولادة الرسمية لـ "العود الأبدي" كـلغزٍ شعريٍّ وميتافيزيقي. لم يكن نيتشه يطرح نظرية، كان يطرحُ تحدياً: هل تملكُ الشجاعة لتقول "نعم" لهذا التكرار الأزلي؟
3. مشهد الرعب والتحول: الراعي والأفعى
في غرفته بـ "نيس"، وبينما كانت الشموعُ تـشارفُ على الانتهاء، صاغ نيتشه المشهد الأكثر رعباً في الجزء الثالث. رأى في مخيلته راعياً شاباً يـتلوى على الأرض، وقد دخلت في جوفه أفعى سوداء ثقيلة، وعضت في حلقه بـقوة.
كانت الأفعى ترمزُ لـلعدمية، للاشمئزاز من الإنسان، للثقل الذي يخنقُ الـرُوح.
صرخ زرادشت في الرؤية: "اقطم! اقطم رأس الأفعى!".
وعندما قضم الراعي رأس الأفعى وبصقه بعيداً، حدث التحول العظيم الذي كان نيتشه يتوق إليه:
"لم يعد راعياً، ولم يعد بشراً.. بل كان كائناً يفيضُ ضياءً، كائناً يضحكُ ضحكاً لم يضحكه بشرٌ من قبل!"

الـصمتُ الأخـير
بعد كتابة هذه المقاطع، سقط القلمُ من يد نيتشه. كان يشعرُ بـإنهاكٍ تام، كأنه قد خاض معركةً جسدية مع تـنينٍ غير مرئي. لقد صار "العود الأبدي" حقيقةً مكتوبة، وصار نيتشه الآن مستعداً ليس فقط لـوصف الـجبل، بل لـسكنى الجبل.
لقد تخلص من "روح الثقل" (القزم)، وقضم رأس "الاشمئزاز" (الأفعى)، وصار يقفُ الآن عارياً أمام لـغزه الأكبر. كلُّ ما مضى من حياته (ألمانيا، فاغنر، العائلة، الفشل) صار ظلاً باهتاً خلف بوابة "اللحظة".
نيتشه (يـتحدثُ بـصوتٍ خفيضٍ في عتمةِ غرفتـه):
"الآن، لـم يـعد هـناك طـريـقٌ لـلـعودة. لـقد نـطقتُ بـالـسر الـذي يـُحيي أو يـُفني. الـجبلُ يـنتظر، والـنسورُ تـرقبُ صعـودي. الـبوابةُ تـئـنُّ تحت ثـقـلِ يـدي.."

انقضت الساعاتُ الأخيرة من ليل "نيس" البارد، وشمعة نيتشه قد تلاشت حتى ذابت تماماً، تاركةً الغرفة في عتمةٍ كاحلة، لا يكسرها سوى بصيصٍ خافتٍ من ضوء فجر الشتاء القادم من وراء النافذة. كان نيتشه جالساً أمام مسوداته، وقلمه ما يزال عالقاً بين أصابعه المتشنجة، وجسده الهزيل يرتجفُ ليس من البرد فحسب، بل من ثقل "الرؤية" التي صاغها للتو في "العود الأبدي". كان يشعر بـ "فراغٍ نهائي" في روحه؛ فقد أفرغ كلَّ حمم تفكيره في الورق، ولم يعد هناك ما يربطه بعالم الأحياء سوي نبض قلبه الواهن.

الشاهد الصامت: لوسيفر خلف الستار

في زاوية الغرفة، حيث يتكاثفُ الظل ويصبحُ شيئاً ملموساً، كان لوسيفر واقفاً كتمثالٍ من الأبنوس الممتزج بالعتمة. لم يتفوه بكلمة، ولم يحرك ساكناً، ولم يقترب من نيتشه. لم يكن وجوده هنا ليدفع أو ليحفز؛ بل كان وجوداً "أنطولوجياً" محضاً؛ هو الشاهدُ الأزلي على لحظاتِ التحول العظمى. كان يراقبُ البشر وهي تتجاوزُ حدودها البشرية بفعلِ الألم والإرادة، ويعلمُ أنَّ نيتشه التاريخي (المريض، واليتيم، والمنبوذ) يقتربُ من نهايته، ليولدَ كأُسطورة.

كانت عينا لوسيفر المظلمتان ترصدان ارتجافة يد نيتشه، وحشرجة أنفاسه. لم يكن في نظراته شفقة ولا تشفٍ، بل كان هناك ترقبٌ وقور. لقد ترك لوسيفر المجال تماماً لِإرادة نيتشه المحضة، لِتقرر الانتقال النهائي نحو "اللغز".

العبور: تمزيقُ نسيجِ الواقع

نيتشه، الذي لم يعد يرى الشاطئ الفرنسي ولا غرفته البسيطة، نظر إلى مسوداته المبعثرة، و همس لِنفسه بالجملة التي ختم بها الرؤية: "لقد قضمتُ رأس الأفعى!".

في تلك اللحظة الدقيقة، حدث الانفصال. بدأت حواسه المادية تنطفئ تماماً، لتستيقظ حواسٌ أخرى قادمة من أعماق الخيال الأُسطوري. لم يعد هناك جسدٌ يرتعد؛ بل صارت هناك إرادةٌ مجردة.

لم يعد الأمر يتطلب منه مشياً على الأقدام، بل كان العبور "انتقالاً لحظياً" في الوعي. كأنه طوى سنوات حياته الألمانية و الإيطالية كلها في صفحةٍ واحدة، ودخل إلى البوابة التي لم تكن سوى "بوابة اللحظة" (Augenblick) المنحوتة في صخور زرادشت الأزلية.

العبورُ لم يكن فعلاً خارجياً، بل كان انفجاراً لِتلك الجزر المُباركة في عمقِ العدمِ الذي صنعه.

عالمُ البوابةِ الخامسة: الظهيرةُ الكبرى

استيقظت حواس نيتشه الجديدة على مشهدٍ مألوفٍ لروحه، لكنه مرعبٌ لِلبشر. لقد تلاشت عتمة "نيس"، وحلَّ محلها وضوحٌ شمسيٌّ قاسٍ لا يرحم. هو الآن يقفُ في قلبِ التصور البصري الذي صاغه:

جبلُ زرادشت: يقفُ نيتشه الآن كظلٍّ ضئيل الحجم أمام عظمة السلسلة الجبلية الشاهقة (التي تشبه جبال الألب التي عشقها في سيلس ماريا، ولكنها هنا تبدو ميتافيزيقية، كأنَّها منحوتة من إرادةٍ محضة)

الطريقُ المُتعرج: تحت قدميه، يمتدُّ ذلك الممرُّ الضيق، المُتعرج، المرصوف بالحصى وبزهورِ "الألب" الزرقاء والوردية، والتي تبدو عن بعيد كأنَّها طريقٌ يؤدي إلى قمةِ العالم.

الصخرةُ والأفعى: على يسار الطريق، يقفُ ذلك العمود الصخري المُتآكل، تلتفُّ حوله الأفعى البرونزية الضخمة التي رأيناها سابقاً. لكن الآن، ولِلمرة الأولى، نرى رأس الأفعى مرتفعاً لأعلى، فمه مفتوحٌ في صرخةٍ صامتةٍ متجمدة، فيما رأسها مقضومٌ ومُهشمٌ تماماً، كأنَّ شخصاً قد قضمه اللحظة وبصقه. هذا ليس لحماً، بل هو التجسد الصخري للاسطورة التي صاغها نيتشه.

الكهفُ والنسر: في الأعالي، على قمة الجبل المركزي، يظهرُ الكهفُ المُظلم، العينُ التي تراقبُ العالم. وفوقه، يحلقُ النسرُ بأجنحتهِ المفتوحة، يدورُ دورةً أبديةً تحت عتبةِ الفجرِ المُوحش، والسماءُ مليئة بالسحبِ التي تتشكلُ كأنَّها وحشٌ كونيٌّ يتثاءب الصمتُ الأخير:

لا يوجد حوار. لا يوجد لوسيفر. لا يوجد صوتٌ سوى حفيف الريح التي تحملُ رائحةَ الملحِ والكبريت القادمة من الوديانِ السحيقة (حيث تقبع القرى الصغيرة والبحيرات التوركوازية).
نيتشه الآن، ليس سوى نظرةٍ واحدة تتأملُ هذا العظم الذي صنعته يداه. لقد وصل إلى المكانِ الذي لن يحتاج فيه إلى "لوسيفر" لِيصمت، فالصمتُ هنا، هو اللغةُ الوحيدةُ للأزل.

وقف نيتشه، بمعطفه الأسود الذي بدا غريباً وسط هذا البياض الصخري، يلمس برودة الحجر وحرارة الضوء في آنٍ واحد. كان يتنفسُ هواءً لم يستنشقه من قبل؛ هواءً لا يحمل زفير البشر، بل يحمل عبير الصنوبر الأزلي ورائحة البرق الجاف.
في الأفق، عند فتحة الكهف التي تبدو كعينٍ ثالثة للجبل، لمحت عيناه حركةً هادئة. لم يكن ظلاً، بل كان تجسداً للصلابة. رجلٌ يخرجُ من رحمِ العتمة إلى وهجِ الظهيرة، لحيتهُ كثيفة كغابات الشمال، وعيناهُ تحملانِ صمتَ الآبار العميقة وحدّةَ النسور.
توقف نيتشه عن الحركة. تجمدت أنفاسه. كان هذا هو الرجل الذي طارده في أحلامه، الذي سكب دمه وحبره ليصوّر ملامحه. إنه زرادشت، الواقفُ الآن كحقيقةٍ صلبةٍ فوق صخرةٍ ناتئة، ينظرُ إلى أسفل، إلى صانعه، بنظرةٍ تجمعُ بين الإشفاقِ الإلهي والسخريةِ البطولية.

اللقاء الأسطوري: الصانع في ضيافة المخلوق
نزل زرادشت من علياء صخرته بخفةِ نمرٍ جبلي، لم تكن خطواته تُحدثُ صوتاً، وكأنَّ الجبلَ نفسه يعرفُ كيف يستقبل قدميه. وقف أمام نيتشه، بينهما مسافةُ خطوتين فقط. نظر نيتشه إلى هذا الوجه الذي نحته بالكلمات، فوجد أنَّ الواقعَ هنا أهولُ من المجاز.
زرادشت (بصوتٍ يشبهُ حفيفَ الريح في ممرٍ ضيق):
"أهذا أنتَ يا من أعرتني صوتك لِتصرخَ في ميادينِ البشر؟ لقد أتيتَ مُثقلاً بغبارِ الوديان، يا فريدريك. تفوحُ منك رائحةُ الكتبِ المُتربة، ورائحةُ الألم الذي يتلذذُ بنفسه. لماذا تسلقتَ جبلي؟ ألا تكفيكَ غرفتكَ الضيقة في 'نيس'؟"
نيتشه (بحشرجةٍ في صدوره، محاولاً تثبيت نظراته):
"لم آتِ لِأبحث عن كلماتٍ جديدة، لقد نفدت كلماتي هناك على الورق. أتيتُ لِأرى إن كان ما خلقته يمكنهُ أن يحتملني. لقد صنعتُك لِتكون 'أنا' التي لا تمرض، 'أنا' التي لا تبكي، 'أنا' التي تقول لِا للوجود: 'نعم' حتى في ذروةِ الحطام."
ابتسم زرادشت، كانت ابتسامتهُ مُؤلمةً كنورِ الشمسِ على الثلج. مدَّ يدهُ الخشنة ولمس معطف نيتشه الأسود.

زرادشت:
"تقول إنكَ صنعتني؟ مسكينٌ هو المُبدع الذي يظنُّ أنَّ صنيعته تخضعُ له. أنا لستُ حبراً، يا فريدريك. أنا "الإرادة" التي تجاوزتك. أنتَ مجردُ الوعاء الذي كُسر لِكي يخرج الخمر. أُنظر إلى جسدك.. إنه يرتعد. أُنظر إلى عينيك.. تبحثان عن عزاءٍ قديم. في عالمي هذا، لا يوجد عزاء، لا يوجد 'إشفاق'. هل تعرف لماذا أنا هنا؟"
نيتشه (يتنفسُ بصعوبة، متكئاً على عصاه):
"أنتَ هنا لأنَّ البشرية ضاقت بي. أنتَ هنا لِتصمت بدلاً عني. أتيتُ لأعرف: هل 'الإنسانُ الأعلى' حقيقةٌ يمكن سكناها، أم أنه مجردُ هذيانِ رجلٍ محمومٍ في عزلته؟"
زرادشت (يقتربُ من أذن نيتشه، ويهمسُ بقسوةٍ حانية):
"الإنسانُ الأعلى ليس 'سكناً'، بل هو 'الانتحارُ المُبدع' لِكل ما هو بشريٌّ فيك. لقد جئتَ في ساعةِ الظهيرةِ الكبرى، حيثُ يختفي الظلُّ وتبرزُ الحقيقةُ عارية. ولكن، قبل أن تخطو خطوةً واحدةً نحو كهفي، يجبُ أن نرى إن كان عمودك الفقري يمكنهُ الانحناء تحت 'أثقلِ الأحمال'."
صمت زرادشت للحظة، وكانت عيناه تخترقان معطف نيتشه الأسود لتنبش في أعمق جراحه المخفية. لم يكن صمتاً مريحاً، بل كان يشبه السكون الذي يسبق الانهيار الجليدي. أشار زرادشت بيده الطويلة نحو الأفق الدائري حيث تلتقي السماء بصخور الجبل في خطٍّ لا ينتهي.
زرادشت (بصوتٍ حاد كنصل الخنجر):
"أترى هذا الأفق؟ إنه لا يؤدي إلى مكان، بل يعودُ دائماً إلى حيث بدأ. أنت تتحدثُ عن الإنسان الأعلى وكأنه 'غاية' ستصل إليها وتستريح، لكنني هنا لأخبرك أنَّ الغاية هي وهمُ الصغار. الاختبار الحقيقي يا فريدريك ليس في 'ماذا ستصبح'، بل في 'ماذا ستكرر'.
تخيل الآن، في هذه العزلة التي تمزق أحشاءك، لو أنَّ شيطاناً تسلل إلى أذنيك ووشوش لك: 'كلُّ ثانيةٍ من عماك الوشيك، كلُّ خيانةٍ من أصدقائك، كلُّ سطرٍ كتبته ولم يقرأه أحد، وكلُّ ليلةٍ قضيتها تتقيأ ألمك في غرف الفنادق الباردة.. سيتعين عليك أن تعيشها مرةً أخرى، ومراتٍ لا تحصى، إلى الأبد. لن يكون

هناك شيءٌ جديد، بل حتى هذا الصمت الذي يجمعنا الآن، وهذه الصخور التي تدمي قدميك، ستعودُ بذات الترتيب وذات الوجع'.
أخبرني.. هل ستخرُّ ساجداً وتصكُّ أسنانك وتلعنُ هذا الشيطان؟ أم أنك عشتَ لحظةً واحدة عظيمة لدرجة أنك ستقول له: 'أنت إله، ولم أسمع قط شيئاً أكثر قداسة من هذا!'؟"
ارتجفت يد نيتشه على مقبض عصا. أحسَّ بأنَّ الهواء في القمة صار ثقيلاً كمعدن الرصاص، وكأنَّ الجبل كله يهبطُ فوق صدره. كان هذا هو "ثقل الأزل" الذي بشّر به، ولكنه الآن يواجهه كواقعٍ بيولوجي لا كفكرةٍ شعرية.

نيتشه (بصوتٍ متهدج، وعيناه تلمعان ببريقٍ محموم):
"أنت تطلبُ مني أن أُبارك 'العود الأبدي' لحطامي.. تطلبُ مني أن أقبل بتكرار موت فاغنر في قلبي، وبجحود أختي، وبوحدتي التي تخنقني؟ لقد خلقتك لتتجاوزني، لا لتعيدني إلى سجني الدائري."
زرادشت (يقتربُ أكثر، وتلفحهُ ريحُ القمة العاتية):
"أنا لا أعيدك إلى سجنك، بل أسألك إن كنتَ تملك 'المفتاح'. المفتاح ليس في الهرب، بل في الإرادة. الإنسان الأعلى ليس من يقفزُ فوق قدره، بل من يُحول الـ 'كان' إلى 'أردتُ'.
انظر إلى تلك الأفعى السوداء الملتفة حول الصخرة؛ إنها ترمز لـ 'الاشمئزاز من الإنسان'. إذا لم تقضم رأسها الآن، وتبصق مرارة تكرار 'الصغار' في وجه الأزل، فستبقى للأبد مجرد كاتبٍ مريضٍ يهذي بالبطولة وهو يرتعد من عودةِ فشله. إنَّ 'ثقل الأزل' إما أن يسحقك ويُحولك إلى غبار، أو أن يجعلك صلباً كهذه الصخور التي تتحدى البرق."
ساد سكونٌ مطبق، وبدأ لون السماء يتغير إلى كبريتٍ أحمر، وكأنَّ الطبيعة ذاتها تترقبُ إجابة نيتشه. نبتت زهور "الجنتيان" الزرقاء بين شقوق الصخور عند أقدامهم، لكنها بدت في هذا الضوء كأنها عروقٌ تنبض بدمٍ قديم.
نيتشه (يغرسُ عصاه في الأرض بقوة، وينظر في عيني زرادشت):
"إذن، هذا هو المحك.. أن أكون 'قدري' بدلاً من أن أكون ضحيته. أن أقول لِألمي: 'هل كان ذلك؟ إذن، ليكن مرةً أخرى!'. ولكن أخبرني يا زرادشت.. هل تقوى رُوحٌ بشرية على احتمال هذا الدوران دون أن تفقد عقلها؟"
زرادشت (بابتسامةٍ غامضة تختفي خلف لحيته الكثيفة):

"العقلُ الذي تخشى فقدانه هو القيدُ الأخير. هنا، لا نحتاجُ إلى منطق العلماء، بل إلى رقصة البرق. أنت تسأل عن الاحتمال، وأنا أسألك عن 'الفرح'. هل تستطيع أن ترقص وسط هذه الدائرة؟"

تلاشت الحدود بين الحلم والواقع، وصار الهواء فوق تلك القمة يرتجفُ كأنه غشاءٌ رقيق يفصل بين الزمان والأبدية. لم تعد الشمس تتحرك؛ بل تسمرت في كبد السماء فيما يُشبه "الظهيرة الكبرى"، حيث لا ظل للأشياء، وحيث تبدو الحقائق عارية كالصخور التي يقفان عليها.
نظر نيتشه إلى الأسفل، فلم يجد وديان "نيس" ولا شوارع "تورينو"، بل رأى سديماً من الصور المتداخلة التي تطفو في الهاوية. رأى طفولته في "روكن"، وجنازة والده التي لم تنتهِ أصداؤها في أذنيه، ورأى لحظات انكساره أمام برودة الوجود.
اشتباك الإرادات: نحو ذروةِ الغثيان
خطا نيتشه خطوة متعثرة نحو حافة الصخرة، واستند بكل ثقله على عصاه، بينما ظلَّ زرادشت واقفاً كأنه جزءٌ من تضاريس الجبل، رداءه الخشن يصدرُ حفيفاً يشبه فحيح الأفاعي.
نيتشه (بصوتٍ يحملُ بحّة السنوات وضيق الصدر):
"أنت تتحدثُ عن الرقص، يا زرادشت.. ولكن كيف يرقصُ من تنهشُ الكلابُ أحشاءه؟ العودُ الأبدي الذي تبشرُ به يعني أنَّ ذلك الكلب الأسود الذي نبح في طفولتي سينبحُ إلى الأبد، وأنَّ الأفعى التي خنقت الراعي ليست رؤيا، بل هي جاري الأبدي. لقد قلتُ إنني 'قضمتُ رأسها'، ولكنَّ طعم السمِّ ما زال في فمي.
هل تدركُ معنى أن تعيش الخيانة مرتين؟ أن ترى وجه 'لو سالومي' وهي تبتعدُ مليار مرة، وفي كل مرة يكون الألم جديداً كأنه الأول؟"
زرادشت (يخطو نحوه ببطءٍ مرعب، وعيناه تشعان بضوءٍ باردٍ):
"نعم! هذا هو الاختبارُ الذي تهربُ منه إلى منطق الضحايا. أنتَ تنظرُ إلى الألم كعقوبة، بينما هو في عالمي 'مادةُ الخلق'. العودُ الأبدي ليس للإنسان الصغير الذي يريدُ للذةِ أن تستمر وللألم أن ينتهي. إنه للإنسان الذي صار 'إرادةً' محضة.

انظر إلى تلك السحابةِ السوداء التي تتشكلُ في الأفق.. أنها ليست مطراً، إنها تاريخك الشخصي يعودُ ليبتلعك. إذا لم تتلقاه بضحكةٍ تهزُّ أركان هذا الجبل، فسيظلُّ ثقلاً يسحبك إلى قاع العدم."

تجسد اللغز: رؤية المرايا المُحطمة

فجأة، بدأ جوُّ القمة يتبدل. الصخور الرمادية المُحيطة بهما تحوّلت إلى مرايا صقيلة، وبدأ نيتشه يرى فيها مشاهدَ من حياته، ولكن بوضوحٍ مؤلمٍ لا يُطاق. رأى نفسه في غرفته في "رأبالو"، منحنياً على ورقة، يكتبُ كلمات "زرادشت" نفسها.

نيتشه (يصرخ وهو يغطي عينيه):

"توقف! هذا هو الجنون.. أن أرى نفسي وأنا أخلقك، بينما أنتَ تقفُ أمامي وتسخرُ مني! إنَّ الدائرة تنغلقُ على عنقي كمشنقة."

زرادشت (بصوتٍ عميق يهزُّ كيان الصخر):

"بل إنها تنغلقُ لِتجعلَ منك تاجاً! انظر إلى المرآةِ الثالثة.. ماذا ترى؟"

نظر نيتشه بتردد، فرأى خيال أُخته "إيليزابيث" وهي تعبثُ بأوراقه، تغيرُ فيها، تمسحُ وتكتب، تحاولُ تدجين "زرادشت" لِيصبح خادماً لِأوهامها. رأى المستقبل الذي لم يعشه بعد؛ كيف سيتمُّ تقديسه بشكلٍ خاطئ، وكيف سيُساءُ فهمه.

زرادشت:

"هل تستطيعُ أن تقول 'نعم' لِهذا التشويه الأبدي؟ هل تستطيعُ أن تُبارك عودةَ حتى الذين سيخونون كلماتك؟ هذا هو 'ثقلُ الـ أزل' الذي يفصلُ بين المُفكر وبين النبي. النبيُّ يعلمُ أنَّ كلامه سيصيرُ رماداً، ومع ذلك يُضرمُ النار!"

على حافةِ الانفجار النفسي

بدأ نيتشه يشعرُ بأنَّ رأسهُ ينفجر. الصداعُ القديم، صداع الشقيقة الذي لاحقه طوال حياته، تجسد هنا كمطرقةٍ تضربُ بقوةٍ كونية على صدغيه. سقط على ركبتيه، وتحولت الزهورُ الزرقاء تحت قدميه إلى شظايا من زجاجٍ بارد.

نيتشه (يلهث):

"الألم.. إنه يعودُ في هذه اللحظة بقوةِ كلِّ المراتِ التي تألمتُ فيها. إذا كان هذا هو العودُ الأبدي، فإنه 'جحيمُ الوعي'."
زرادشت (ينحني فوقه، وظله يغطي جسد نيتشه المُنكسر):
"لا يا فريدريك.. إنه 'مخاضُ الإله'. أنتَ تتألمُ لأنك ما زلتَ تقاومُ الدائرة. تريدُ لِألمك أن يكون له 'معنى' أو 'نهاية'. لكنَّ العظمة هي أن تتألم لأجل الألم نفسه، وأن ترقص حتى وأسنانك تصطك.
أُنظر إلى الـ أفعى.. إنها لا تعضُّ ذيلها لِأنها جائعة، بل لِأنها تعرفُ أنَّ الكمال يكمنُ في الدوران."
الصمتُ المُوحش وترقبُ الفعل
ساد صمتٌ مرعب. الريحُ توقفت، والنسرُ تسمر في الهواء كأنه مُحنّط. نيتشه جاثٍ على ركبتيه، ينظر إلى مرآةٍ صخرية تعكسُ وجههُ الشاحب، وبدأ يرى خلف ملامح وجهاً آخر.. وجه الراعي الذي قضم رأس الأفعى.
زرادشت (بهمسٍ حاد):
"الآن.. في هذه الثانية، كلُّ قرارٍ تتخذه سيتكرر للأبد. هل ستبقى جاثياً على ركبتيك، أم ستقفُ لِتُغلقَ الدائرة؟ الاختبارُ ليس في الفكر، الاختبارُ في 'الوقفة'."
تحسس نيتشه الصخر بأصابعه، وشعر بنبضِ الأرض تحته. الغثيان بدأ يتحولُ إلى نوعٍ من القوةِ الباردة. لم يعد هناك متسعٌ لِلبكاء، فالدموعُ هنا تتجمدُ قبل أن تسيل.
نيتشه (يهمس لِنفسه، وعيناه تُحدقان في الفراغ):
"إذا كان هذا هو القدر.. فليكن قدري الذي اخترته. لقد قضمتُ رأس الأفعى السوداء في كتابي.. والآن، يجبُ أن أقضمه في رُوحي."

ارتكزَ نيتشه بكلِّ ما تبقى له من قوةٍ على عصاهُ الخشبية، وسمعَ طقطقةَ مفاصلهِ التي بدت وكأنها أصداءٌ لِتصدّعِ الصخورِ من حوله. لم يكن ينهضُ كإنسانٍ مريضٍ يبحثُ عن النجاة، بل كان ينهضُ كمن يسحبُ نصلَ السيفِ من جسده ليواجهَ به الضارب. عيناه، اللتان كانتا تذرفانِ دمعاً تجمّدَ قبل قليل، انفتحتا الآن على وسعهما، ولم يعد فيهما بريقُ الانكسار، بل لمعانُ الفولاذ تحت شمسِ "الظهيرةِ الكبرى".

وقفَ أخيراً، مستوياً بظهرِهِ الذي انحنى لسنواتٍ تحت وطأةِ الكتب ومراراتِ الخيانة. نظرَ إلى زرادشت، الذي كان يراقبهُ بحدّةٍ تُشبهُ نصلَ المقصلة، ولم يعد يراهُ كـ "خالقٍ يرى مخلوقه"، بل كـ "مرآةٍ اكتملت صورتها".
نيتشه (بصوتٍ لم يعد يرتجف، بل صار له رنينُ الرعدِ البعيد):
"لقد قلتَ إنَّ العودَ الأبديَّ هو الثقلُ الأكبر.. والآن أشعرُ بهذا الثقلِ يتحولُ في دمي إلى أجنحة. إذا كان عليَّ أن أعيشَ صُداعي، ووحدتي، واحتقارَ الألمانِ لي مليارَ مرة، فليكن! سأقولُ لكلِّ ثانيةٍ من ألمي: 'أنتِ جميلةٌ لأنكِ ملكي'. سأباركُ الأفعى التي خنقتني، لأنها هي من علمتني كيف أقضمُ العدم بأسنانِ اليقين. يا زرادشت، لم أعد أخشى الدائرة.. أنا الآن الدائرةُ نفسها!"

في تلك اللحظة، حدثَ ما لم يصفهُ نيتشه في أيِّ مسودةٍ من قبل. السماءُ الكبريتيةُ الحمراءُ انشقت، وانهمرَ منها ضوءٌ ليس له لون، ضوءٌ شفافٌ كالحقيقةِ المطلقة. النسورُ التي كانت تحلقُ في الأعلى أطلقت صرخةً واحدةً موحدة، وسقطت ريشةٌ ذهبيةٌ واحدة استقرت على كتفِ نيتشه الأسود، كأنها وسامٌ من الأبدية.
زرادشت (بصوتٍ انخفضَ ليصبحَ هديلاً عميقاً):
"الآن يا فريدريك، أنتَ لا تتكلمُ عن 'زرادشت'.. أنتَ الآن 'زرادشت'. لقد تحررتَ من 'روحِ الثقل' لأنكَ قبلتَ أن تحملهُ إلى الأبد. انظر إلى الصخرةِ التي تلتفُّ حولها الأفعى.. انظر إليها جيداً، فما تراهُ الآن هو جسدُكَ الذي تخلّصَ من قيدِهِ البشري."
نظرَ نيتشه، فرأى الأفعى السوداء الثقيلة تتلاشى كالدخان، وحلَّ محلها طوقٌ من النورِ الخالص يحيطُ بالصخرة. الغثيانُ الذي كان يخنقهُ تحولَ إلى نشوةٍ عارمة، نوعٌ من "الضحكِ الإلهي" الذي بدأ يتصاعدُ من أعماقه. لم يكن ضحكاً على أحد، بل كان ضحكاً "مع" الوجود، ضحكاً يقبلُ بكلِّ تناقضاتِ الحياة وقسوتها.
ب بدأ الجبلُ من حوله يذوب، لا ليتلاشى، بل ليصبحَ أكثرَ حيوية. الصخورُ صارت تنبض، والرياحُ صارت تنطقُ بأسماءٍ قديمة. نيتشه لم يعد يشعرُ بالبرد، ولم يعد يشعرُ بالصداع؛ لقد صار جزءاً من "الرقصةِ الكونية" التي كان يبشرُ بها وهو في غرفته الضيقة.

زرادشت (يمدُّ يدهُ مشيراً إلى الكهفِ الذي يفيضُ نوراً):
"لقد عبرتَ الاختبارَ الأول، اختبارَ "الثقل'. ولكنَّ الكهفَ لا يستقبلُ إلا من يعرفُ كيف يحولُ هذا الثقلَ إلى 'خلق'. هل أنتَ مستعدٌّ لترى ما وراء الضحكة؟ هل أنتَ مستعدٌّ لترى كيف تُبنى العوالمُ من رمادِ الذي نسيناه؟"
خطا نيتشه أولى خطواته نحو الكهف، وكانت كلُّ خطوةٍ تُسقطُ عنه جزءاً من "الإنسانِ القديم". معطفهُ الأسود بدأ يتحولُ إلى نسيجٍ من الضوءِ والظل، وعصاهُ الخشبية صارت غصناً حياً يزهرُ في كفه.
نيتشه (وهو يسيرُ بيقينٍ لم يملكهُ قط):
"لم أعد أبحثُ عن إجاباتٍ يا زرادشت.. لقد صرتُ أنا السؤالَ والجواب. لنَدخل، فلم يعد للزمنِ سلطةٌ علينا، فالآن.. هو الأبد."

في محرابِ الصيرورة: حوارُ الخلقِ والدم

تغلغلا في عمقِ الكهف، حيثُ لم يَعُد هناك سقفٌ صخري، بل سماءٌ باطنية تزدحمُ بالنجومِ التي لا تغيب. في هذا المكان، الصمتُ لهُ ثقلُ الجبال، والضوءُ ينبعثُ من الجدرانِ كأنها ذكرياتٌ كونيةٌ متوهجة. جلسَ زرادشت على عرشهِ الحجري، وأشارَ لنيتشه أن يقفَ في المركز، حيثُ تتقاطعُ خيوطُ الضوءِ المسكوبة من الأعلى.
نظرَ زرادشت إلى نيتشه، وكانت ملامحهُ قد استعادت حدّتها الأسطورية، ولم يَعُد صوتهُ صدىً، بل صار هو الحقيقة الوحيدة في هذا الفراغ.
زرادشت (بصوتٍ يزنُ الجبال):
"انظر إلى يديكَ يا فريدريك.. إنهما ترتجفانِ ليس من البرد، بل من الفراغِ الذي تركتهُ الصاعقة. لقد أعلنتَ أنَّ الإلهَ قد مات، ولكن هل أدركتَ حجمَ الجريمةِ التي ارتكبتها؟ بموته، لم يَعُد هناك سقفٌ يحمي البشريةَ من رعبِ اللانهاية. لقد سحبتَ البساطَ من تحت أقدامِ الملايين، وتركتهم يتخبطون في ليلٍ لا ينتهي. ولكن، أخبرني.. لماذا وجبَ عليهِ أن يموت؟"
نيتشه (يتقدمُ خطوةً، ويلمسُ هواءَ الكهف المشحون):
"وجبَ عليهِ أن يموتَ لأنهُ كان الخانقَ الأكبر للإرادة. كان الإلهُ هو الشجرةَ العملاقة التي تحجبُ الشمسَ عن الشجيراتِ الصغيرة. بموته، صار الإنسانُ يتيماً، ولكنهُ صار يتيماً 'حراً'. لقد ماتَ الإلهُ لكي يفسحَ المجالَ للإنسان لكي لا

يظلَّ 'بشراً' فحسب، بل لكي يصبحَ هو الـخالق. نحنُ الآن في الفجرِ الذي يلي الجنازة، الفجر الذي يجبُ أن يولدَ فيه 'الإنسانُ الأعلى'."

ولادةُ الإنسانِ الأعلى: البرقُ من السحابةِ الداكنة
ابتسمَ زرادشت، وكانت ابتسامتهُ تزيحُ الظلالَ عن زوايا الكهف، وأشارَ بيدهِ نحو الهاويةِ التي تظهرُ من فتحةِ الكهفِ الجانبية.
زرادشت:
"الإنسانُ حبلٌ مشدودٌ بين الحيوانِ والإنسانِ الأعلى.. حبلٌ فوق هاوية. هذا ما كتبتَه، ولكن كيف يولدُ هذا الكائن؟ إنه لا يولدُ بالرحمة، بل بـالتجاوزِ المستمر. الإنسانُ الأعلى هو الذي يحولُ الغثيانَ من البشرِ إلى إرادةِ خلق. إنه الصاعقةُ التي تخرجُ من السحابةِ الداكنة التي نسميها 'الإنسانية'. أخبرني يا فريدريك، هل ترى في مرآةِ رُوحكَ ملامحَ هذا الجنين؟"
نيتشه (بصوتٍ يملؤه اليقينُ الـمُعذّب):
"أراهُ في كلِّ مرةٍ أقولُ فيها 'لا' لـلقيمِ القديمة. إنه يولدُ عندما يتوقفُ الإنسانُ عن البحثِ عن 'المعنى' في السماء، ويبدأ في غرسِ المعنى في الأرض. الغايةُ من الإنسانِ الأعلى هي أن يكون هو 'معنى الأرض'. إنه الكائنُ الذي لا يحتاجُ إلى 'مُقدس' خارجِي، لأنهُ هو الذي يُقدّسُ الحياةَ بـإرادته. إنه يولدُ من صمتِ الإله، ومن صرخةِ الإنسان الذي قررَ أن لا يكونَ قطيعاً بعد الآن."
تحطيمُ الطاولاتِ القديمة: شجاعةُ الهدم
قامَ زرادشت من مقعده، واتجهَ نحو زاويةٍ في الكهفِ حيثُ رُصِفت ألواحٌ حجريةٌ قديمة، نُقِشت عليها الوصايا التي كبّلت عقولَ البشرِ لآلافِ السنين. أشارَ إليها بـاحتقارٍ عظيم.
زرادشت:
"انظر إلى هذه الطاولاتِ القديمة.. طاولاتُ 'يجب عليك'. هنا قُـبِرت إرادةُ الإنسان. هنا كُتِبَ أنَّ الضعفَ فضيلة، وأنَّ المعاناةَ تذكرةٌ للسماء. يا فريدريك، المصممُ الحقيقي هو الذي يمتلكُ المطرقةَ قبل القلم. هل تمتلكُ الشجاعةَ لتحطيمِ هذه الطاولات؟ ليس لكي تتركَ المكانَ خالياً، بل لكي ترى ما إذا كان في عروقكَ دمٌ يكفي لكتابةِ وصاياكَ الخاصة."
نيتشه (يمسكُ عصاهُ كأنها مطرقةٌ كونية):

"لقد حطمتُها في عقلي ألفَ مرة، وها أنا أحطمُها هنا في حضرةِ الأزل. هذه الطاولاتُ هي "الصدأ" الذي غطى جوهرَ الحياة. إنَّ تحطيمَ القيمِ الأخلاقية الموروثة ليس شراً، بل هو "الخيرُ الأقصى" للإنسانِ الأعلى. لا يمكنُ بناءُ المعبدِ الجديدِ فوق أنقاضِ المعبدِ القديمِ دون كسرِ الحجارةِ الأولى. أنا لا أهدمُ حقداً، بل أهدمُ حباً للآتي."

الكتابةُ بالدم: الوصايا التي لا تُمحى
اقتربَ زرادشت من نيتشه حتى تلاقت أنفاسُهما، وصار صوتهُ همساً حاداً كالشفرة.
زرادشت:
"الكتابةُ بالحبرِ هي كتابةُ العبيد.. أما الأسياد، فيكتبون بدمائهم. "اكتبْ بالدم، وسوفَ تعلمُ أنَّ الدمَ رُوح". هل أنتَ مستعدٌّ لأن تنزفَ وصاياكَ؟ الإنسانُ الأعلى لا يتلقى شريعتهُ من جبلِ سيناء، بل يستخرجُها من جراحِه. الوصيةُ التي تُكتبُ بالدمِ هي التي لا يمكنُ للزمانِ أن يمحوها، لأنها جزءٌ من كينونةِ الخالق. فما هي أولُ وصيةٍ ستكتبُها في هذا الفراغِ المُقدس؟"

نيتشه (ينظرُ إلى الفراغ، وبدت عينهُ كأنها ترى عوالمَ تُبنى وتُهدم):
"أولُ وصيةٍ هي: 'كنْ وفياً للأرض'. لا تصدّق أولئك الذين يحدثونك عن آمالٍ وراء الأرض. الوصيةُ الثانية: 'تجاوزْ نفسك في كلِّ لحظة'. والوصيةُ الثالثة، وهي الأهم: 'أرِدْ لِكلِّ ما فعلتَه أن يعودَ لِلأبد'. هذه ليست وصايا للأخلاق، بل هي وصايا للقوة. سأكتبُها بدمي الذي احترقَ في حمّى 'نيس' وفي برودةِ 'سيلس ماريا'. سأكتبُ أنَّ الإنسانَ هو الخالقُ الوحيد، وأنَّ عظمتهُ تكمنُ في صعودهِ المرير نحو قمةِ ذاته."
الظهيرةُ الكبرى والتحولُ النهائي
بدأ الكهفُ يهتزُّ بإيقاعٍ مهيب، والنسرُ أطلقَ صرخةً هزت النجومَ المعلقة.
زرادشت وضعَ يدهُ على كتفِ نيتشه، وشعرَ نيتشه بحرارةٍ كأنها نارُ الخلقِ تتدفقُ في جسده.
زرادشت:
"الآن يا صانعي.. لقد اقتربتَ من "الظهيرةِ الكبرى". لقد حطمتَ الطاولات، وقبلتَ موتَ الإله، ورأيتَ بزوغَ الإنسانِ الأعلى. ولكن تذكر.. هذا التجاوزُ لا

ينتهي أبداً. الإنسانُ الأعلى ليس محطةً للوصول، بل هو رقصةٌ أبديةٌ فوق الهاوية. اذهب الآن، واكتبْ بدمكَ فوق جدرانِ هذا الأزل، فلن يقرأكَ البشر، بل ستقرأكَ النجوم."

أمسكَ نيتشه بقطعةٍ من حجرِ الكهفِ المتوهج، وبدأ يخطُّ فوق الجدارِ الأصم، ولم يكن يخرجُ حبرٌ، بل كان يخرجُ وهجٌ أحمرٌ يتدفقُ من أصابعه. الصمتُ صار صلاةً كونية، والزمانُ صار صفحةً بيضاء تحت مطرقةِ إرادته.

استمرَّ نيتشه في الحفرِ فوقَ جدرانِ الأزل، وكانت أصابعهُ تتركُ خلفها أخاديدَ من النورِ القاني، كأنَّ الجبلَ نفسهُ صارَ لوحةً لِتاريخِ المستقبل. الصمتُ في الكهفِ لم يَعُد فراغاً، بل صارَ "امتلاءً" كونيّاً، حيثُ كلُّ ذرةِ هواءٍ تشهدُ على مخاضِ ولادةِ الكائنِ الذي سيخلفُ الإلهَ الراحل.

خاتمةُ الألواح: الوصيةُ التي تلدُ البرق

توقفَ نيتشه قليلاً، وانفاسهُ تخرجُ كالحمم، ونظرَ إلى زرادشت الذي كان يقفُ خلفهُ كظِلٍّ عملاقٍ يمتدُّ حتى النجوم.

نيتشه (بصوتٍ يقطرُ عزيمةً قاسية):

"لقد كتبتُ 'كنْ وفياً للأرض'.. وكتبتُ 'تجاوزْ نفسك'.. ولكنَّ يدي ترتجفُ أمام الوصيةِ الأخيرة. إنها الوصيةُ التي ستحولُ الإنسانَ إلى حجرٍ كريم تحت ضغطِ الأبد. هل هم مستعدونَ لِسماع أنَّ 'الرحمةَ' هي السمُّ الذي يُبقي العبيدَ عبيداً؟"

زرادشت (يتقدمُ حتى صارَ يواجهُ الجدارَ المنقوش، وعيناهُ تلمعانِ ببريقِ النسر):

"لا تسألْ عما إذا كانوا مستعدين، بل اسألْ عما إذا كنتَ أنتَ مستعداً لِأن تكون 'قاسياً'. الإنسانُ الأعلى لا يرحمُ نَفْسَهُ، فكيف يرحمُ الآخرين؟ الرحمةُ هي 'الشفقةُ المفرطة' التي قتلت الإلهَ نفسهُ في النهاية. حطّمْ طاولةَ 'أحبَّ قريبك كنفسك' واكتبْ مكانها بدمِكَ: 'أحبَّ البعيد، أحبَّ الآتي، أحبَّ الذي سيولدُ من حطامك'. الكتابةُ بالدمِ لا تقبلُ الميوعة، بل تطلبُ الصلابةَ الماسية."

تحطيمُ الطاولاتِ الكبرى: زلزالُ القيم

رفع نيتشه قطعة الحجر المتوهجة، وضربَ بها اللوحَ القديمَ الذي كان يحملُ وصايا "الشفقة"، فتناثرت شظاياه في أرجاءِ الكهفِ كشهبٍ منطفئة.

نيتشه (وهو يرى حطامَ الأخلاقِ القديمةِ تحت قدميه):

"لقد سقطتْ طاولةُ 'الخيرِ والشر' الموروثة. الآن، أنا أقفُ في منطقةٍ لا يعرفُها البشر.. 'ما وراء الخيرِ والشر'. هنا، الخيرُ هو كلُّ ما يزيدُ في الإنسانِ إرادةَ

القوة، والشرُّ هو كلُّ ما ينبعُ من الضعفِ والخنوع. الإنسانُ الأعلى هو الذي يضعُ شريعتهُ الخاصة، هو الذي يقولُ لِنفسه: 'هذا هو خيري، وهذا هو شري'. لا يوجدُ طريقٌ واحدٌ للجميع، بل يوجدُ طريقي أنا، وطريقك أنت. أما الطريقُ الواحدُ فقد دُفِنَ مع الإله."

زرادشت (يهزُّ رأسهُ علامةَ الرضا، وصوتهُ يترددُ في جنباتِ الجبل):

"نعم! لقد صرتَ الآن 'الخالق'. الخالقُ هو الذي يحطمُ الطاولات، هو الذي يكسرُ أصنامَ الماضي لكي يبنيَ من حطامها سُلّماً نحو النجوم. الإنسانُ الأعلى هو 'الطفل' في تحولاته الثلاثة: براءةٌ ونسيان، بدايةٌ جديدة، ولعبةٌ تدورُ حولَ مِحورها، 'نعم' مُقدسة للحياة. هل تشعرُ بهذه البراءةِ يا فريدريك؟ براءةُ من لا يحتاجُ لتفسيرِ وجوده لِأحد؟"

الظهيرةُ الكبرى: عندما يختفي الظل

فجأة، انبعثَ ضوءٌ من مركزِ الكهف، ضوءٌ شفافٌ لدرجةِ أنه جعلَ أجسادهم تبدو كأنها مصنوعةٌ من البلور. كانت تلك "الظهيرةُ الكبرى"، اللحظةُ التي يدركُ فيها الإنسانُ أنه في ذروةِ مساره، وأنهُ لم يَعُد بحاجةٍ لِظِلالِ الماضي.

نيتشه (ينظرُ إلى زرادشت، وعيناهُ تفيضانِ برؤيةٍ نبوية):

"الآن أرى الغاية.. الغايةُ ليست في إصلاحِ العالم، بل في 'تجاوزه'. الإنسانُ الأعلى هو الكائنُ الذي يرقصُ فوقَ قبرِ الإله، لا شماتةً، بل لأنهُ وجدَ أخيراً 'اللحنَ' الذي لم يجرؤ أحدٌ على عزفه. إنَّ ولادتهُ هي 'عيدُ الأعياد'. بموتهِ يفسحُ الإلهُ المجالَ لِلإنسان ليكون هو 'الشمس' التي تمنحُ الدفءَ لِكونها الخاص. يا زرادشت، لقد اكتملت الوصايا.. لقد كُتِبَ الدمُ رُوحاً، وصارَ الرخامُ نبضاً."

زرادشت (يمدُّ يدهُ ويلمسُ الكلماتِ المنقوشة بدمِ نيتشه):

"لقد خلدتَ في الحجرِ ما كان يرتجفُ في قلبك. هذه الوصايا هي 'البرق' الذي سيسبقُ الصاعقة. سيمضي البشرُ لِقرونٍ وهم يحاولون فهمَ ما كتبتَه هنا، سيتهمونك بالجنون، بالقسوة، بالشر.. ولكنهم لن يدركوا أنك كتبتَ 'أطهرَ' كلماتِ الحبِ للأرض. لقد حررتَ الإنسانَ من سماءٍ فارغة لتعيدهُ إلى أرضٍ مليئةٍ بالمعجزات."

التحولُ المستمر: رقصةُ الأبدية

بدأ نيتشه يشعرُ بأنَّ جسدهُ يتلاشى ليصبحَ جزءاً من الجدار، وجزءاً من زرادشت، وجزءاً من الريحِ التي تهبُّ خارجَ الكهف. التجاوزُ لم يَعُد فعلاً يقومُ به، بل صارَ "هو" التجاوز.

نيتشه:
"الآن، فـليبدأ الـعالمُ في الانفجارِ أو الولادة.. لا يهم. لقد وضعتُ البذرةَ في رحمِ الأزل. الإنسانُ الأعلى ليس خرافة، بل هو 'الحتمية' التي ستصلُ إليها الروحُ حين تملُّ من صغرها. أنا الآن أرقص، يا زرادشت.. أرقصُ مع النجومِ ومع الثقوبِ السوداء ومع الصمتِ الذي يلي موتَ الآلهة."
زرادشت (يخطو نحو مخرجِ الكهف، حيثُ الشمسُ تشرقُ بـطريقةٍ لم يـسبق لها مثيل):
"اخرجْ معي يا أخي.. لا كـصانعٍ ومصنوع، بل كـإرادتينِ ذابتا في 'نعم' واحدة. لنرَ كيف ستستقبلُ الأرضُ وصاياكَ المحفورةَ بالدم. الظهيرةُ الكبرى قد بدأت، والظلُّ قد اختفى، ولم يـبقَ إلا الضياء."

مضيا معاً نحو الضوء، تاركين خلفهما الكهفَ الذي صارَ "معبداً لِـلإنسانِ الجديد". الوصايا على الجدرانِ ما زالت تنبضُ باللونِ الأحمرِ المتوهج، وكلُّ كلمةٍ منـها هي "صاعقة" تنتظرُ ساعتها لِـتضربَ في عقولِ الأجيالِ القادمة.

نشوةُ العودة: رقصةُ المبدعِ في زنزانته
انقشعَ ضبابُ الجبل، وتلاشت برودةُ الكهفِ الأسطوري، لِيجدَ نيتشه نفسهُ فجأةً جالساً على كرسيهِ الخشبيِّ الهزيل في غرفتهِ بـ "نيس". رائحةُ الورقِ القديمِ والحبرِ الجافِّ حلتْ محلَّ عبيرِ الصنوبرِ الأزلي، وصمتُ الجدرانِ الأربعةِ الضيقةِ حلَّ محلَّ زئيرِ الرياحِ الجبلية.
لكنَّ نيتشه لم يَعُد هو الرجلَ الذي دخلَ البوابة؛ كانَ يتنفسُ بسرعة، وعيناهُ اللتانِ كانتا تتجنبانِ الضوءَ صارتَا الآن تبحثانِ عن أبعدِ نقطةٍ في العتمة. لم يَعُد يشعرُ بصداعهِ المزمن، بل شعرَ بـأنَّ في رأسهِ صواعقَ تنتظرُ الإشارة لِـتنفجرَ فوقَ الورق. قامَ من مكانهِ وبدأ يخطو في الغرفةِ بخطواتٍ راقصة، مُـمسكاً بريشتهِ كأنهُ يمسكُ بصاعقة.
نيتشه (يهمسُ لِـنفسهِ بحماسٍ محموم):
"لقد رأيتُه.. لقد لمستُ يدَ الزمانِ وهي تنحني! لم يَعُد الإلهُ عائقاً، بل صارَ رحيلهُم هو الفضاءَ الذي سأبني فيهِ مدينتي. سأحطمُ كلَّ الألواحِ التي كبّلتنا، سأجعلُ من هذا الورقِ الميتِ جسداً لِـلإنسانِ الأعلى. الآن.. الآن فقط بدأتُ أحيا!"

بدأ يكتبُ بسرعةٍ مذهلة، يملأُ الصفحاتِ بوصايا "تحطيمِ الطاولاتِ القديمة"، وكانَ يضحكُ ضحكاً خفيضاً وعميقاً، ضحكَ من عرفَ سِرَّ الوجودِ ولم يَعُد يخشى الفناء.

في تلك اللحظةِ التي بلغت فيها نشوةُ نيتشه ذروتها، تكاثفَ الظلُّ في ركنِ الغرفةِ المظلم. لم يظهرْ برعدٍ أو جلبة، بل بصمتٍ يفوقُ صمتَ القبور. لوسيفر، الشاهدُ الذي تركَ نيتشه عندَ عتبةِ البوابةِ الخامسة، كانَ يقفُ هناك، متكئاً بهدوءٍ على الجدار، يراقبُ هذا التحولَ بعينينِ باردتينِ كالنجومِ البعيدة.
لوسيفر (بصوتٍ هادئٍ ورزين، يقطعُ حماسَ نيتشه كنصلٍ بارد):
"أرى أنكَ عدتَ بنارٍ سرقتَها من جبلِكَ يا فريدريك. ولكن، هل فكرتَ في أنَّ هذه النارَ قد تحرقُ الغرفةَ وصاحبَها قبلَ أن تصلَ إلى آذانِ البشر؟ لقد رأيتَ 'الإنسانَ الأعلى'، ولكنكَ ما زلتَ تسكنُ جسداً يرتعشُ من نسمةِ هواءٍ باردة."
توقفَ نيتشه عن الكتابة، والتفتَ نحو الظل، ولم تكن ملامحهُ تحملُ خوفاً، بل تحدياً مُشعاً.
نيتشه (بعينينِ تتوهجانِ بجنونٍ مُقدس):
"أهلاً بكَ أيها الشاهد. لقد كنتُ بحاجةٍ لِعينيكَ لِترى ما لم يجرؤ شيطانٌ أو إلهٌ على رؤيته. الجسدُ يا لوسيفر لم يَعُد سجناً، بل صارَ مختبراً لِلقوة. لقد حطمتُ الألواحَ القديمةَ في كهفِ زرادشت، وها أنا أحطمُها هنا في 'نيس'. الإلهُ مات، والساحةُ أصبحت لي.. لي وحدي لِأخلقَ معانيَ الأرض!"
حوارُ السيادةِ والعدم: بين المبدعِ والشاهد
خطا لوسيفر خطوةً نحو النورِ الضئيل، وبدا وجههُ كأنهُ منحوتٌ من مرمرٍ قديم.
لوسيفر:
"تتحدثُ عن 'الخلقِ من العدم' وكأنكَ تملكُ مادةَ الأزل. لقد سمعتُ حواركَ مع زرادشت، وسمعتُ وعودكَ بالكتابةِ بالدم. ولكنْ قلْ لي: عندما تُحطمُ 'طاولاتِ القيمِ' القديمة، وتنزعُ عن البشرِ أغطيتهم الأخلاقية الدافئة، ما الذي ستقدمهُ لهم بدلَ الشفقة؟ هل تعتقدُ أنهم سيحبون 'قسوتكَ' الجميلة، أم أنهم سيرجمونكَ بحجارةِ خوفهم؟"
نيتشه (يخبطُ بيدهِ على مائدتهِ المهتزة):
"لا يهمني حبُّهم ولا رجمُهم! أنا لا أكتبُ لِلمعاصرين، أنا أكتبُ لِـ 'الآتين'. الإنسانُ الأعلى هو الغاية، والبشرُ الحاليون ليسوا سوى 'جسر' يجبُ أن يُداس.

لـقد انتـهى زمنُ 'يجب عليك'، وبدأ زمنُ 'أنا أريد'. سأكتبُ وصاياي بـدمي كما حثني زرادشت، وسأجعلُ من 'العودِ الأبدي' مـحكاً لِـعظمةِ الروح. من لا يستطيعُ رقصَ هذه الرقصة، فـليـسقط في الـهاوية!"

لوسيفر (بـابتسامةٍ غامضةٍ لا تصلُ إلى عينيه):

"إذن، لقد قبلتَ 'ثقلَ الأزل'. أنتَ الآن وحيدٌ تماماً يا فريدريك. لقد قطعتَ حبالكَ مع السماء، وحطمتَ جسوركَ مع الأرضِ القديمة. حتى أنا، الشاهد، أقفُ الآن مـذهولاً أمام رغبتكَ في تكرارِ هذا الوجعِ إلى الأبد. هل تدركُ أنَّ 'الخالقَ' في عالمكَ الجديد هو أيضاً 'المعذَّبُ الأكبر'؟"

نيتشه (يتقدمُ نحو لوسيفر بـثباتٍ غير مسبوق):

"نعم! ولذتي تكمنُ في هذا العذاب. لقد ماتَ الإلهُ لكي يفسحَ لي المجال لِأكون أنا 'القدر'. سأحطمُ طاولاتِهم، سأبعثرُ أصنامَهم، وسأبني فوقَ حطامِهم عالماً يـليقُ بـالبرق. لوسيفر، أيها الشاهد، ابقَ هنا وراقب.. راقب كيف يـتحولُ المريضُ المنبوذُ إلى صاعقةٍ تـهزُّ تاريخَ الـبشر!"

سادَ صمتٌ مشحونٌ في الغرفة، نيتشه يقفُ في مركزِ الضوءِ الضئيل، ولوسيفر يحيطُ به كـإطارٍ من العتمةِ الفلسفية. الحماسُ في عينِ نيتشه لم يكن مجرد انفعال، بل كان زلزالاً يُعيدُ ترتيبَ رُوحِه.

المخطوطة الرابعة: انفجار الزلزال (نشر الجزء الثالث)

عاد نيتشه إلى طاولة الكتابة، يده تطير فوق الورق كأنها مدفوعة بقوةٍ لا أرضية. لم يعد يكتب، بل كان "يفرغ" الصواعق التي شحنها من جبل زرادشت. كان لوسيفر يراقبه من زاوية الغرفة، ظله يمتد فوق المخطوطات كأنه ختمٌ أسود.

1. صياغة "الأختام السبعة": نعم وآمين

كان نيتشه ينهي الجزء الثالث بنشيد "الأختام السبعة"، وهو النشيد الذي أعلن فيه حبه للأبدية. كان صوته يهمس بالكلمات وهو يكتبها، بينما كان لوسيفر يبتسم ببرود.

نيتشه (بعينين متقدتين):

"لقد انتهيت.. هذا ليس كتاباً، هذا زلزال. الجزء الثالث هو القمة، هو المكان الذي قضمنا فيه رأس الأفعى. لوسيفر، انظر.. هنا كتبتُ عن 'العود الأبدي' ليس كفكرة، بل كـ 'صلاة' لـلإنسان الأعلى."

لوسيفر (يتحرك ببطء نحو الطاولة):
"زلزال؟ نعم، هو كذلك في رأسك يا فريديريك. ولكن تذكر أنَّ الزلازل تحت الأرض لا يسمعها من يسكنون بيوت القش فوقها. أنت ترسل هذا 'الرعد' إلى ناشرٍ تافه في ألمانيا، وإلى جمهورٍ لا يهمه سوى أخبار الإمبراطورية. هل تعتقد أنهم سيهتزون؟"

2. إرسال المسودة: قنبلة في بريد برلين

في ربيع 1884، حزم نيتشه الجزء الثالث وأرسله إلى الناشر "شميتزنر". كان يشعر بخليط من النشوة والرعب. لقد وضع في هذا الجزء "رؤيته ولغزه"، وتحدث عن "بوابة اللحظة"، وأعلن تحطيم الطاولات القديمة.

لوسيفر (يهمس بنبرة تشبه حفيف الورق):
"أنت الآن تطلق سراح زرادشت ليكون وحيداً في العالم المادي. لقد كان معك في الجبل ملكاً، ولكنه في بريد ألمانيا سيكون مجرد رزمات من الورق يُغلفها الغبار. ألا تخشى أن تكون هذه 'الظهيرة الكبرى' مجرد عتمةٍ أخرى في عيونهم؟"

نيتشه (يضرب الطاولة بقبضته):
"لا يهم! حتى لو لم يقرأه أحد الآن، فإنَّ الأرض تحت أقدامهم قد بدأت تتصدع. الجزء الثالث هو الذي يُغلق الدائرة. لقد قلتُ للزمان 'نعم'، وهذا الفعل لا يمكن التراجع عنه. لوسيفر، العالم الذي تركه زرادشت خلفه ليس هو العالم الذي سيعود إليه."

3. وقعُ الزلزال الصامت

نُشر الجزء الثالث، وانتظر نيتشه. كانت كل نسخة تخرج من المطبعة تمثّل صرخةً في وادٍ سحيق. لم تكن هناك مراجعات، ولا احتفالات، ولا حتى صرخات استنكار. كان صمتاً مُطبقاً، صمتاً يفوق صمت القبور.

ولكن في تلك الغرفة في "نيس"، كان نيتشه يرقص. كان يعلم أنَّ الصمت هو دليلٌ على أنَّ الضربة كانت أعمق من أن تُستوعب فوراً.

نيتشه (يخاطب لوسيفر بهدوءٍ مخيف):
"أرأيت؟ إنهم لا يسمعونني لأنني لستُ متحدثاً، أنا 'صاعقة'. والصواعق تحتاجُ وقتاً ليصل صداها. الجزء الثالث هو زلزالي الشخصي، لقد هدمتُ فيه آخر جسور التراجع. الآن، لم يبقَ إلا 'الإنسان الأعلى' أو الجنون."

لوسيفر (يختفي تدريجياً في الظلام):

"إذن، لقد نشرتَ انتحارك الفلسفي بإرادتك. سأبقى هنا، في الظلال، لـ أرى كيف ستتحملُ 'ثقل الصمت' بعد أن تخلصتَ من 'ثقل الأزل'. الزلزالُ بدأ يا فريدريك.. ولكنك أنتَ أولُ ضحاياه."

مضت الشهور الأولى من عام 1884، وكان نيتشه يترقبُ في غرفته بـ "نيس" وصولَ صدى الزلزال الذي أطلقه. كان يتخيلُ أنَّ العواصم الأوروبية ستهتز، وأنَّ الفلاسفة سيسهرون الليالي لفك رموز "العود الأبدي".
لكنَّ الحقيقة كانت أبرد من صخور "سيلس ماريا". البريدُ لم يحمل سوى فواتير الناشر، ورسائل مقتضبة من أصدقاءٍ قلة يعاملونه بنوعٍ من "الإشفاق" المرير. العالمُ استمر في ركضه التافه؛ الألمانُ يحتفلون بانتصاراتهم القومية، والكنائسُ ترنُّ أجراسها، والفلسفةُ الأكاديمية تجترُّ بقايا أفلاطون.
لقد وقع "الزلزال"، ولكن تحت جلد نيتشه وحده.

خريف 1884: جدرانُ الصمتِ المُطبق
كان نيتشه يجلسُ في غرفته، يراقبُ الغبار المتطاير في خيط ضوءٍ ناحل. لم يعد هناك جبل، ولا نسر، ولا حية؛ فقط أوراقٌ بيضاء تنتظر، وعينان يكادُ العمى أن يطمسهما.
في زاوية الغرفة، كان لوسيفر يقبعُ كأنه جزءٌ من الأثاث القديم. لم يعد يبذل جهداً للإغراء أو التحدي، بل كان يكتفي بأن يكون "المرآة" التي تعكسُ لنيتشه فداحةَ وحدته.
لوسيفر (بصوتٍ يشبهُ مسحَ المعدن على المعدن):
"أرأيتَ يا فريدريك؟ لقد صرختَ بأعلى صوتك، فماذا جنيت؟ لقد سمعوكَ كما يسمعون طنينَ ذبابةٍ في يومٍ صيفيٍّ حار. الجزءُ الثالث، 'تاجك المُقدّس'، يُباعُ الآن كخردةٍ في مخازن 'شميتزنر'. هل ما زلتَ تعتقدُ أنَّ 'الإنسانَ الأعلى' خبرٌ يُهمُّ هؤلاءِ الأقزام؟"
نيتشه (يبتسمُ ابتسامةً شاحبة، ويُدلكُ صدغيه المُتعبين):
"لا يهمني أن يسمعوني الآن يا لوسيفر. لقد كتبتُ للآذان التي ستُخلقُ بعد قرون. الصمتُ الذي يُحيطُ بي هو 'المسافة' الضرورية لِكي لا تتدنس كلماتي بأنفاسهم. ولكن.. هناك شيءٌ ما زال ينبضُ في صدري. زرادشت لم يقل كلَّ شيءٍ بعد."

بدايـةُ الـجـزء الـرابـع: مـأدبـةُ الـعظماءِ الـفاشـلـيـن
في أواخـر عـام 1884، وبـدلاً من أن يستسلم نيتشه لليأس، بـدأ يشعر بـرغـبةٍ غريبـة في "الـسخـريـة". إذا كان الـعالمُ قـد تـجـاهـلَ نـبـوءاتـه، فـإنَّ زرادشـت سينزلُ مـرةً أخيـرة لِـيـسـخـر مـن "أشـبـاهِ الـعـظـمـاء".
بـدأ نـيـتـشـه يتـخـيـلُ زرادشـت وهـو يـسـتـقـبـلُ فـي كـهـفـهِ مـجـمـوعـةً مـن البشر الـمُـحـطـمـيـن: الـسـاحـر الـمُـزيـف، الـبـابـا الـمُـتـقـاعـد، وأقـبـح إنسان. كـان يـريـدُ أن يـخـتـبـرَ "شـفـقـتـه" الأخـيـرة.

لـوسـيـفـر (يـنـحـنـي فـوق الـمـسـوداتِ الـجـديـدة):
"مـا هـذا؟ هـل تـحـوّلَ 'الإلـه' الـذي يـرقـصُ إلـى مُـضـيـفٍ لِـلـمـسـاكـيـن؟ الـجـزءُ الـرابـعُ يـبـدو كـمـسـرحـيـةٍ هـزلـيـة يـا فـريـدريـك. هـل فـقـدتَ إيـمـانـكَ بـالـبـرق، فـلـجـأتَ إلـى الـنـكـتـة؟"
نـيـتـشـه (بـنـبـرةٍ قـاطـعـة):
"بـل لـجـأتُ إلـى 'الـسـخـريـةِ الـمُـقـدّسـة'. الـجـزءُ الـرابـع هـو اخـتـبـاري الأخـيـر. يـجـبُ عـلـى زرادشـت أن يـقـتـلَ فـي نـفـسـه آخـر بـقـايـا 'الإشـفـاق' عـلـى الـعـظـمـاء الـفـاشـلـيـن. إنـنـي أكـتـبُ هـذا الـجـزء لِـنـفـسـي فـقـط.. لـن أطـلـبَ مـن 'شـمـيـتـزنـر' أن يـنـشـره. سـأطـبـعـهُ بـمـالـي الـخـاص لِـقـلـةٍ مـن الأرواحِ الـتـي تـفـهـمُ مـعـنـى الـجـنـونِ الـواعـي."
حـالـةُ الـانـعـزالِ
انـتـهـت عـلاقـتـه تـمـامـاً بـأخـتـه إيـلـيـزابـيـث، وبـدأ يـرى فـي أصـدقـائـه الـقـدامـى مـجـرد "مـتـفـرجـيـن" يـخـافـون مـن مـلامـسـة حـرارة أفـكـاره. صـارت غـرفـتـه فـي "نـيـس" هـي حـصـنـهُ الأخـيـر. الـصـداعُ عـاد لِـيـضـربَ رأسـهُ كـمـطـرقـة، لـكـنـه كـان يـسـتـمـدُّ مـن الألـم قـوةً تـعـبـيـريـةً مـرعـبـة.
نـيـتـشـه (يُـخـاطـبُ ظـلّ لـوسـيـفـر):
"أرأيـتَ يـا شـاهـدي؟ الآن صـرتُ حـراً تـمـامـاً. لا نـاشـر، لا جـمـهـور، لا عـائـلـة. الآن فـقـط يـمـكـنُ لِـزرادشـت أن يـنـطـقَ بـأكـثـرِ الـكـلـمـاتِ خـطـورة. الـجـزءُ الـرابـع سـيـكـون 'الـسـرَّ' الـذي لـن يـفـهـمـه الـعـصـر. إنـنـي أغـوصُ فـي أعـمـاقِ غـيـابـي عـن هـذا الـعـالـم."

نحنُ الآن في مطلعِ عام 1885، حيثُ الصمتُ بدلاً من أن يكسرَ نيتشه، صارَ هو "المادة الخام" التي ينحتُ منها سخريتهُ الكبرى.
كانت الغرفةُ في "نيس" تفوحُ برائحةِ الوحدةِ المُقطرة، وأوراقُ الجزءِ الرابعِ تتراكمُ فوقَ المنضدةِ كأشلاءِ حلمٍ انفجر. لم يعد نيتشه يكتبُ لِـ "زرادشت النبي"، بل صارَ يكتبُ لِـ "زرادشت الساخر". في خياله، بدأ يرى طابوراً من المسوخِ يتجه نحو كهفه، هم "البشرُ الأعلى" المُحطمون؛ أولئك الذين ملكوا العظمة ولكنهم سقطوا في فخاخِ الإشفاقِ أو الزيف.
لوسيفر (يقفُ خلف نيتشه، ظله يتقاطعُ مع ظلِّ المنضدة، وبصوتٍ يشبهُ حفيفَ الأفاعي):
"أهذا هو محصولك يا فريدريك؟ بعد كلِّ ذلك الرعدِ والبرق، تستقبلُ في محرابكَ مجموعةً من المُتسولين لِلعظمة؟ أُنظر إلى 'الساحر' الذي تخلقه.. إنه يبكي وينتحبُ لِيسرقَ إشفاقَ زرادشت. أنتَ تعرفُ هذا الوجه جيداً، أليس كذلك؟ إنه ظلُّ 'فاغنر' الذي ما زال يطاردُك بموسيقاه المُزيفة."

نيتشه (يغمضُ عينيه المُتعبتين، والقلمُ يكادُ يحترقُ بين أصابعه):
"نعم يا لوسيفر.. الساحرُ هو الذي يمثلُ 'الإنسانَ الفنان' حين يصيرُ مُمثلاً لِآلامه. ولكن انظر إلى من يسيرُ خلفه.. انظر إلى 'أقبحِ إنسان'. هو الذي لا يمكنُ التحدثُ معه إلى بالإشارة. هو من قتلَ الإله لِأنه لم يحتملْ نظرةَ الشفقةِ الإلهيةِ تُطاردهُ في قبحه. هذا هو 'بطلُ' العصر، الذي بلغَ من الكبرياءِ ما جعله يُفضّلُ العدمَ على الإشفاق."
لوسيفر (يبتسمُ بسخريةٍ حادة):
"و 'البابا المُتقاعد'؟ الذي يبحثُ عن رَبِّه الميتِ في كلِّ زاوية؟ إنك تهزأ بكلِّ ما هو مُقدّس حتى في الحداد. تجمعهم كلهم في 'عشاءِ زرادشت الأخير' لِترى من منهم يستطيعُ الرقص. ولكني أسألك: ألا تخافُ أن يكون زرادشتُ نفسه قد بدأ يمرضُ بعدواهم؟ إنَّهم يسحبونه إلى 'الإشفاق'، وهذا هو سمُّك القاتل."

نيتشه (ينهضُ ويبدأ بالرقصِ بخطواتٍ غريبةٍ وسطَ غرفته):
"هنا تكمنُ العظمةُ يا شاهدي! الجزءُ الرابعُ هو اختبارُ زرادشت الأخير. يجبُ عليه أن يستقبلَ قذارةَ هؤلاءِ 'العظماء' ويباركها، ثم يتجاوزهم. العظماءُ الفاشلون هم الذين تحطموا على صخرةِ الواقع، ولكنَّ زرادشت سيرقصُ فوقَ حطامهم. الإنسانُ الأعلى ليس من يكرهُ البشر، بل من يحتملُ 'قرفه' منهم لِيصيرَ هو صاعقة."

كان نيتشه يصفُ "الملكين" اللذين يقودان حماراً، و "الظل" الذي تاهَ من صاحبه، و "العراف" الذي يرى أنَّ كلَّ شيءٍ عبث. كان يرى في كلِّ واحدٍ منهم جزءاً من نفسه القديمة التي يحاولُ ذبحها على مذبحِ الكتابة. الجزءُ الرابع لم يعد فلسفة، بل صار مسرحيةً تراجيكوميدية يلعبُ فيها نيتشه دورَ المُشاهدِ والضحيةِ والجلاد.
لوسيفر (يهمسُ في أذنه بقسوة):
"تذكر يا فريدريك.. لقد طبعتَ 40 نسخةً فقط بمالكَ الخاص. أنتَ تقيمُ مأدبةً لِلأشباحِ في غرفةٍ لا يدخلُها أحد. هل هذا هو انتصارك؟ أن تصيرَ ملكاً على مملكةِ الصمت؟"
نيتشه (يتوقفُ فجأةً، وينظرُ إلى الفراغِ بيقينٍ مُرعب):
"الصمتُ هو الصدى الذي يصنعُ الخلود. هؤلاءِ البشرُ المُحطمون سيصيرون مرايا لِكلِّ جيلٍ يحاولُ الصعودَ لِلقمةِ ويسقط. لقد انتهيتُ من رَسمِ السيركِ البشري. الآن.. ليبدأ عيدُ الحمار، وليبدأ الرقصُ الذي سيجعلُ عقولهم تنفجرُ بعد مائةِ عام."

الفصل الأخير من المأساة: مأدبة الظلال في "نيس"
كانت الأوراق تملأ أرضية الغرفة كأنها خريفٌ من الأفكار المحطمة. نيتشه كان يضع اللمسات الأخيرة على الجزء الرابع، "عشاء زرادشت الأخير". لم يكن يكتب عن أبطال، بل عن "مسوخ العظمة". كان يرى في مخيلته "الساحر"، و"الملكين"، و"أقبح إنسان" وهم يجتمعون في كهف زرادشت، يطلبون الخلاص والشفقة.

في الزاوية، كان لوسيفر يراقب هذا المشهد العبثي. لم يعد يرتدي عباءة "المُغوي"، بل صار يبدو كأنه "الناقد الأول"، الكائن الذي يرى الحقيقة العارية خلف المجازات.
لوسيفر (يهمس بنبرة تقطر برودة، وهو ينظر إلى مسودة "عيد الحمار"):
"أهذا هو الختام يا فريدريك؟ بعد أن صعدتَ بزرادشت إلى قمم 'العود الأبدي' في الجزء الثالث، تنزله الآن ليقيم مأدبةً للحمقى؟ انظر إلى هؤلاء 'البشر الأعلى' الذين تجمعهم.. إنهم لا يريدون 'الإنسان الأعلى'، إنهم يريدون فقط من يبكي على جراحهم. هل سقطَ نبيُّك في فخِّ الشفقة في اللحظة الأخيرة؟"
نيتشه (يتوقف عن الكتابة، وظهره مقوس من التعب، وعيناه تلمعان ببريقٍ غير طبيعي):
"أنت لا تفهم يا شاهدي.. الجزء الرابع هو 'التطهير النهائي'. وجب على زرادشت أن يواجه 'إغراءه الأخير'، وهو الشفقة على العظماء. هؤلاء الذين تراهم هم نخبة البشرية، ومع ذلك فهم مجرد حطام أمام فكرة 'العود الأبدي'. مأدبة 'عيد الحمار' ليست سخرية فحسب، بل هي اعترافٌ بأنَّ الإنسان -حتى في قمته- يحتاجُ إلى أن يتعلم الضحك على نفسه."
قام نيتشه من مقعده وبدأ يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً، حركاته كانت مضطربة وكأنه يرقص مع أشباح غير مرئية. كان يشعر بأنَّ كل كلمة يكتبها هي مسمارٌ أخير في نعش "الإنسان القديم".
ختامُ المخطوطة: "العلامة" والرحيل
أمسك نيتشه بالريشة وكتب السطور الأخيرة من الجزء الرابع. كان يصف زرادشت وهو يخرج من كهفه عند الفجر، تاركاً وراءه "البشر الأعلى" المحطمين، متوجهاً نحو شمسه الخاصة، نحو قدره الذي لا ينتهي.
نيتشه (يقرأ بصوتٍ يرتعشُ من النشوة):
"لقد مضى ألمي! شفقتي على البشر الأعلى قد انتهت! هذا هو نهارِي، لقد بدأ فجري.. انهض الآن، انهض أيها الظهر الكبير!"
سقط القلم من يده. ساد صمتٌ مقدس في الغرفة. لوسيفر تراجع إلى الظل، وبدا لأول مرة كأنه يحترم هذا "الانتحار الإبداعي".
لوسيفر (بهدوء مهيب):
"إذن، لقد أتممتَ الكتابَ الذي سيقسم تاريخ البشرية. ولكن تذكر يا فريدريك.. لقد خرج زرادشت من كهفه، ولكنك أنتَ ما زلتَ سجين

هذه الغرفة. ماذا ستفعلُ عندما يصمتُ صوتُ زرادشت في رأسك؟ ماذا سيبقى لنيتشه بعد أن فرّغ رُوحه في هذا الورق؟"
نيتشه (ينظرُ إلى النافذة، حيث بدأت خيوط الفجر تتسللُ إلى 'نيس'):
"ستبقى 'المطرقة'. بعد النشيد، يأتي الهدم. لقد انتهى الجزء الرابع، ولكن 'إرادة القوة' بدأت تعصفُ بي. الآن سأكتبُ كيف تهوى الأصنام.. سأكون الفيلسوف الذي يشرحُ للبشر لماذا يجبُ أن يختفوا لِيظهرَ 'الإنسانُ الأعلى'."

ما بعد النبوءة: التشريح بمشرط المطرقة
دخل نيتشه الآن في المرحلة التي وصفها هو نفسه بأنها مرحلة "قضاء الحوائج بعد العيد". لقد انتهى صخب النبوءة في "زرادشت"، وحلّ مكانه هدوءٌ مخيف، هدوء يسبق العاصفة التي ستقتلع جذور الأخلاق الأوروبية. نحن في ربيع وصيف عام 1885، نيتشه يتنقل بين "نيس" و"سيلس ماريا"، حاملاً في قلبه خيبة أمل مريرة من صمت العالم، لكنها خيبة تحولت إلى "صلابة ماسية". في غرفته، لم تعد هناك موسيقى "زرادشت" الراقصة. بدأ نيتشه يشعر أنَّ لغة الرموز لم تعد تكفي. العالم لم يفهم "الإنسان الأعلى" لأنه لا يزال مكبلاً بأغلال "الخير والشر" التقليدية. من هنا، ولدت فكرة كتاب "ما وراء الخير والشر" كـ توطئة وتفسير لما قيل في زرادشت، ولكن بنبرة أكثر حدة وتجرداً.
كان لوسيفر يقف هناك، يراقب نيتشه وهو يمزق مسودات قديمة، ويبدأ في كتابة شذرات قصيرة، حادة، تشبه طلقات الرصاص.
لوسيفر (بصوت هادئ، يملؤه الفضول الماكر):
"أراك قد وضعتَ القيثارة جانباً وأمسكتَ بالمشرط يا فريدريك. هل تعبتَ من الغناء للجبال؟ أم أنك أدركتَ أخيراً أنَّ البشر لا يحتاجون إلى 'نبي'، بل يحتاجون إلى من يهدم سجونهم فوق رؤوسهم؟ إنك الآن تبحث فيما 'وراء'.. ولكن احذر، فما وراء الجدران قد يكون فراغاً لا يتحمله حتى عقلك."
نيتشه (بعينين جاحظتين، يحاول القراءة بجهد خلف نظاراته السميكة):
"لقد كان زرادشت 'نعم' كبرى للوجود، والآن أحتاج إلى 'لا' أكبر. 'ما وراء الخير والشر' ليس مجرد كتاب، إنه عملية هدم شاملة لأوهام الفلاسفة. هؤلاء 'الكلاب' الذين يدعون البحث عن الحقيقة بينما هم يبحثون فقط عن مبررات لأخلاقهم الهشة. لوسيفر، لقد بدأ زمن 'إرادة القوة'؛ سأكشف لهم أنَّ الحقيقة

ليست سوى نوع من الضلال الذي بدونه لا يمكن لنوع معين من الكائنات أن يعيش."

نقد "تحيزات الفلاسفة"

في هذه الشهور، بدأ نيتشه يهاجم "القيم المطلقة". بدأ يكتب عن أنَّ الأخلاق ليست شيئاً "إلهياً" أو "فطرياً"، بل هي نتيجة صراعات قوى. كان لوسيفر يبتسم وهو يراه يهاجم "كانت" و"سقراط"، معتبراً إياهم "مهرجين" في رداء فلاسفة.

هدم الأوثان (1886)

بينما كان نيتشه يغرق في كتابة "ما وراء الخير والشر"، تحولت غرفته في "نيس" إلى ما يشبه غرفة تشريح. لم يعد يرى الأخلاق كـ "وصايا إلهية"، بل بدأ يراها كـ "أعراض فسيولوجية".

كان لوسيفر يتكئ على جدار الغرفة، ينظر ببرود إلى نيتشه وهو يكتب الفصل الأول: "في تحيزات الفلاسفة".

1. الهجوم على الفلاسفة: "المحامون الماكرون"

نيتشه (يخبط بقبضته على الطاولة، وعيناه تلمعان بحدة مفرطة):

"انظر إليهم يا لوسيفر! هؤلاء الفلاسفة.. 'كانت' العجوز بـ 'أمره المطلق'، و'سبينوزا' بـ 'هندسته الأخلاقية'. إنهم ليسوا باحثين عن الحقيقة، بل هم محامون ماكرون يدافعون عن رغباتهم وتحيزاتهم الأخلاقية تحت مسمى 'العقل المطلق'. لقد جعلوا من 'العقل' إلهاً جديداً، وهم في الحقيقة يسجدون لخوفهم من الفوضى."

لوسيفر (بابتسامة باردة):

"أنت الآن تقتلعُ العيون التي يبصر بها الغرب يا فريدريك. لقد سميتَ 'كانت' بـ 'المسيحي الماكر'. هل تدرك أنك تهدم السقف الذي يحمي عقولهم؟ إذا لم يكن هناك 'عقل مطلق'، فما الذي يمنع الإنسان من السقوط في الغابة؟"

2. جينالوجيا الأخلاق: "القذارة خلف القداسة"

انتقل نيتشه إلى النقطة الأكثر خطورة: الأخلاق ليست فطرية ولا إلهية. بالنسبة له، الأخلاق هي "اختراع" لخدمة نوع معين من الحياة.

نيتشه (بصوت حاد كالشفرة):

"لقد حان الوقت لكشف القناع! الأخلاق ليست صوتاً من السماء، بل هي صرخة الضغينة من الأرض. إن ما يسمونه 'خيراً' ليس سوى ضعفٍ عجز عن الانتقام فسمى نفسه 'تسامحاً'. وما يسمونه 'شراً' هو كل قوة يرهبونها.
الأخلاق هي 'إرادة القوة' للضعفاء. لقد قلبوا القيم الطبيعية؛ جعلوا من المرض فضيلة، ومن القوة خطيئة. سأعيد تقييم كل القيم. سأثبت أنَّ 'الضمير' ليس صوت الله، بل هو 'غريزة القسوة' التي ارتدت إلى الداخل حين لم تجد لها مخرجاً."

3. الهجوم على القيم المطلقة: "لا توجد حقائق، توجد تأويلات فقط"

هنا، يضع نيتشه القاعدة الكبرى لفلسفته المتأخرة: لا يوجد "عالم حقيقي" خلف هذا العالم.
نيتشه (يصرخ وسط غرفته):
"يقولون 'الحقيقة مطلقة'! وأنا أقول الحقيقة هي نوع من الخطأ الذي بدونه لا يمكن لنوع معين من الأحياء أن يعيش. لقد اخترعوا 'العالم الآخر' لأنهم لم يملكوا الشجاعة لعيش 'هذا العالم'. لا يوجد 'جوهر'، لا توجد 'أخلاق فطرية'. الإنسان هو 'الحيوان الذي لم يُستكمل بعد'، وهو الوحيد الذي يجب أن يضع لنفسه شريعته. سأكتب وصاياي بالدم، لتكون صواعق تحرق أصنامهم."
لوسيفر (يقترب من نيتشه حتى صار ظله يغطي الورق):
"لقد بدأتَ تفهم لغتي جيداً.. لغة 'الرفض المطلق'. ولكن تذكر، حين تحطم 'القيم المطلقة'، فإنك تحطم أيضاً الخيط الذي يربط عقلك بالجماعة. ستبقى وحيداً مع 'إرادة القوة' الخاصة بك. هل تستطيع إرادتك أن تحمل ثقل كونٍ لا يوجد فيه 'صح' أو 'خطأ' إلا بأمرك؟"

خرجت نُسخ "ما وراء الخير والشر" من المطبعة في صيف عام 1886، حاملةً معها روحاً لم تعد تكتفي بالرقص، بل باتت تشتهي الهدم. كان نيتشه يقف في غرفته، يتأمل تلك المجلدات الصغيرة التي دفع ثمن طباعتها من مدخراته الضئيلة، وهو يعلم أنَّ كل صفحة فيها هي شحنة من الديناميت وُضعت تحت أعمدة الحضارة الأوروبية.
لقد جلد "الخير والشر" بسوط المنطق التاريخي، ولم يترك للفلاسفة ستراً يوارون به تحيزاتهم. ولكن، كما في كل مرة، كان العالم يقابله بسلاحٍ أمضى من

الردّ: سلاح الصمت المطبق.
خريف 1886: الصدى الذي لم يأتِ
كان نيتشه يجلس في عزلته، يرقب سعاة البريد كل يوم، باحثاً عن كلمة، عن صرخة ألم، أو حتى عن شتيمة تعترف بوجوده. لكنَّ الرسائل التي وصلت كانت شحيحة وباردة.
لوسيفر (يتكئ على خزانة الكتب القديمة، يقلب إحدى النسخ بملل، وصوته يخرج كحفيف الأوراق الجافة):
"أرأيت يا فريدريك؟ لقد سلختَ جِلد الأخلاق، وكشفتَ أنَّ خلف 'الفضيلة' يكمنُ 'الخوف'، وخلف 'الإيثار' تكمنُ 'الأنانية المُقنعة'. ولكن انظر.. لا أحد يبالي. الألمان يقرؤون صحفهم اليومية، والفرنسيون منشغلون بصالوناتهم، وأنت هنا، تحمل 'الصدق المرعب' في يدك ولا تجد من تقذفه به. هل كان الجلدُ مؤلماً لك أكثر مما كان لهم؟"
نيتشه (بعينين جاحظتين، يرتجفُ حماساً وغضباً، وأصابعه تضربُ الطاولة بإيقاعٍ عصبي):
"الصمت هو اعترافهم بالهزيمة يا لوسيفر! إنهم يخافون ملامسة هذا الكتاب لأنه يحرقُ أصابعهم. لقد وصفتُ 'ما وراء الخير والشر' بأنه 'مقدمة لفلسفة المستقبل'، وهم يدركون أنَّ مستقبلهم قد انتهى بمجرد أن تمَّ كشف اللعبة. لقد جلدتُ فيهم 'أخلاق العبيد'، وأثبتُّ أنَّ 'المسيحية' هي الثورة التي قام بها الفاشلون ضد الحياة. هل تتوقع من المريض أن يشكر الطبيب الذي يشخّص موته؟"
تشريح الخديعة: الأخلاق كـ "غريزة قطيع"
في هذه الشهور، كان نيتشه يعيش حالة من "التوتر الكهربائي العالي". لم يعد يرى الأخلاق كقواعد للسلوك، بل كـ "بيولوجيا مُزيفة".

نيتشه (يصرخ في وجه الفراغ، مخاطباً لوسيفر):
"يقولون إنَّ 'العطف' فطري! هراء! العطف هو الوسيلة التي يتوسل بها الضعيف ليحمي نفسه من مخالب القوي. لقد قلبوا القيم الطبيعية؛ جعلوا من 'الكبرياء' خطيئة، ومن 'العجز' فضيلة سموها 'تواضعاً'. لقد نزعتُ

القدسية عن هذا المستنقع. لم يعد هناك 'إله' يشرّع، بل هناك 'قوة' تتوارى خلف الوصايا."
لوسيفر (بابتسامة باردة، تعكسُ عدماً مُطلقاً):
"أنت تقومُ بأبشعِ فعلٍ ممكن: تحرم الضعفاء من 'وهمِ نبلهم'. إذا جرّدتَ الخادم من فكرة أنَّ 'خنوعه' هو 'تقوى'، فماذا يبقى له سوى الحقد؟ بنشرك لهذا الكتاب، أنت تزرع الكراهية في كل ركن. لقد صرتَ 'الديناميت' بالفعل يا فريدريك، ولكنَّ الفتيل مغروسٌ في قلبك أنت."
ردود الفعل: الجرح الغائر في الصداقات
لم يكن الصمتُ عاماً؛ بل كان هناك صدىً مؤلمٌ من المقربين.
"يعقوب بوركهاردت"، أستاذه القديم، لم يرد. وصديقه "روده" بدأ يشعر بالغربة والخوف من حدة نيتشه.
العزلة المادية: تحول نيتشه إلى "شبح" يتجول في غابات "سيلس ماريا".
الانفصام عن العصر: بدأ يشعر بأنَّ لغته لم تعد تنتمي للقرن التاسع عشر.
تصاعد الحدة: كلما زاد الصمت، زادت مطرقته قسوة.
نيتشه (يهمسُ لنفسه، بينما يراقبُ الثلوج التي بدأت تغطي القمم):
"يقولون إنني مُتشائم.. لا! أنا مُحطمُ أوهام. لقد صرتُ وحيداً لدرجة أنني أسمعُ نبضَ الأرض. 'ما وراء الخير والشر' هو سلاحي لقطع الحبل السري الذي يربط البشرية بماضيها المُقدّس. ليصمتوا كما يشاؤون، فالمستقبلُ ينتمي إلى 'إرادتي'."

يوليو **1887**: في مسلخ الروح البشرية

خفتت أضواء الصيف في أعالي "سيلس ماريا" بحلول يوليو 1887، لكنَّ الحريق في رأس نيتشه كان قد بدأ للتو. لم يكن يكتب مجرد تكملة لـ "ما وراء الخير والشر" (1886)؛ بل كان يشرع في كتابة "في جينالوجيا الأخلاق"، الكتاب الذي سيخرج إلى النور في نوفمبر 1887 كأشرس عملية تشريح للنفس البشرية.

كانت الرياح الباردة تصفع نوافذ غرفته المتواضعة، بينما كان لوسيفر يقف في ركن الغرفة، متدثراً بعباءة من الصمت الثقيل، عيناه تلمعان كجمرتين تحت رماد، يراقب نيتشه وهو يغرس ريشته في الورق كأنها خنجر يغوص في لحم التاريخ.

نيتشه (يلهث، وعرقه يمتزج بحبر الكتابة):

"لقد صمتوا عن 'ما وراء الخير والشر' في 1886، ظناً منهم أنني مجرد عابر سبيل يهذي. والآن، في 1887، سأعطيهم ما لا يمكن الصمت عنه. سأنزل إلى الأقبية، إلى الأماكن التي تُصنع فيها 'الفضائل'. سأكشف لهم أنَّ رائحة 'الخير' التي يتبخرون بها ليست سوى رائحة 'تعفن الضغينة'. لوسيفر، هل تشم هذا النتن؟ إنه نتن الروح التي تسممت بـ 'الشفقة'!"

لوسيفر (يخطو ببطء مريب، وظله يبتلع مساحة الغرفة):

"أشمُّ ما هو أسوأ يا فريدريك.. أشمُّ رائحة 'الإنسان' وهو يحاول أن يؤلّه مرضه. أنت تبحث عن 'أصل' الأخلاق، ولكنك ستجد أنَّ الأصل ليس في السماء، بل في 'الديون' و'العقاب'. هل تملك الجرأة لتقول لهم إنَّ 'الضمير المرتاح' هو مجرد ذاكرة مُدربة بالأسواط؟ إنك تُحول الروح إلى 'مسلخ'.. فمن سيحتملُ رؤيةَ جزارٍ بثيابِ فيلسوف؟"

اشتباك الإرادات: فلسفة الضغينة (Ressentiment)

توقف نيتشه، ورفع رأسه، وكانت ملامحه قد بدأت تأخذ طابعاً صخرياً قاسياً، وكأنَّ قوى الأرض تتكلم من خلاله.

نيتشه (بصوت حاد كالرعد المكتوم):

"نعم! سأخبرهم أنَّ 'أخلاق العبيد' انتصرت في ثورة مُقززة. سأكتب أنَّ اليهودية والمسيحية قلبتا موازين القوى الطبيعية. الضعيف، المريض، الفاشل.. هؤلاء هم من قرروا أنَّ 'القوة' شر، وأنَّ 'الضعف' خير. هذه هي الـ Ressentiment؛ نار الحقد التي تأكل الروح من الداخل ثم تنفجر في شكل 'قداسة'. لوسيفر، أنا لا أكتب تاريخاً، أنا أكتب 'محاكمة' لثلاثة آلاف عام من الزيف!"

لوسيفر (بابتسامة باردة مُهلكة):

"أنت تُعرّي 'ثورة العبيد في الأخلاق'. تُخبرهم أنَّ 'الحب المسيحي' هو مجرد قناع لحقدٍ دفين ضد كل ما هو نبيل وقوي. ولكن تذكر.. هؤلاء العبيد هم من صنعوا حضارتك. إذا حطمتَ سُلم 'الضغينة'، فسيسقطُ الجميعُ في هاويةٍ لا

قاع لها. هل تظن أنَّ "الإنسان الأعلى" سيخرجُ من حطام هذه "الأخلاق الجنائزية"؟ أم أنك ستبقى وحدك في القاع تلعقُ جراحَ صدقك؟"

تفكيك الضمير: القسوة المرتدة إلى الداخل
عاد نيتشه للكتابة بجنون، يصفُ كيف تحول الإنسان إلى "حيوانٍ مُعذب" بفضل الضمير المستتر.
نيتشه (يصرخ بحرقة):
"الضمير! هذا الخنجر الذي غرسه الإنسان في صدره لأنه لم يعد يملك 'أعداءً' في الخارج ليفترسهم. لقد ارتدت القسوةُ إلى الداخل، وسمّت نفسها 'خطيئة'. يا لهذا التلاعب الخسيس! لقد جعلوا من 'الألم' طريقاً للخلاص، بينما الألم هو فقط 'دينٌ' لم يُسدد للحياة. لوسيفر، أنا لستُ بحاجة لجحيمك الأسطوري، فألانسان قد خلق جحيمه الخاص باسم 'الأخلاق'."
لوسيفر (يقتربُ حتى صار صوته فحيحاً في أذن نيتشه):
"إذن، أنتَ تقول إنَّ 'الإله' ليس سوى 'الدائن الأكبر' الذي يطالب بدمِ البشر؟ أنتَ تقتلُ حتى فكرة 'التكفير'. لقد جردتَ البشريةَ من ثيابها المُقدسة وتركتها عاريةً تحت شمسِ العبث. في هذا البردِ القارس أنتَ تصنعُ من نفسكَ 'نبيَّ الهدم'. هل تدركُ أنَّ الذي يحطمُ أصنامَ الآخرين، ينتهي بأن يصيرَ هو نفسه صنماً مُحطماً؟"

ربيع 1888: تورينو والتحولُ نحو "الديناميت"
في مطلع عام 1888، "عام المعجزات" الأخير لنيتشه، حيث انتقل إلى "تورينو" بإيطاليا، وشعرَ بأنَّ جسدَهُ قد صار شفافاً، وأنَّ عقلَهُ لم يعد يسكنُ جمجمةً، بل صار يسكنُ التاريخَ كله.
في غرفتهِ الصغيرةِ في "تورينو"، كان نيتشه يراقبُ الشوارعَ العريضةَ بنشوةٍ مُصابة بالجنون. كان لوسيفر يقفُ عندَ النافذة، يراقبُ هذا التحولَ بهدوءٍ مهيب، وقد تحولت ملامحهُ إلى ما يشبهُ تمثالاً من الأبنوسِ البارد.
نيتشه (يخطُّ كلماتهِ بسرعةٍ هستيرية، والعرقُ يقطرُ على الورق):
"لقد انتهى زمنُ التشريح يا لوسيفر.. بدأت الحرب! في 1887 كنتُ جراحاً، والآن في 1888 أنا الصاعقة. لقد بدأتُ صياغة 'نقيض المسيح'.

لن يكون كتاباً، سيكون "لعنة" أرسلها إلى وجه البشرية. سأكتبُ فيه كيف تسللت المسيحية كطفيليٍ مرعب لتمتصَّ دمَ القوةِ والجمالِ في الإنسان."

لوسيفر (يلتفتُ إليه ببطء، وعيناهُ تعكسانِ فراغاً يفوقُ عتمةَ الليل):

"أرى أنك تهدمُ الحاجزَ الأخير يا فريدريك. بعد أن جلدتَ الأخلاق، تريدُ الآن أن تقتلَ "الإله" مرةً ثانيةً في مخبئه الأخير: في نفوسِ البسطاء. لقد صار قلمُك مُقدحاً للبارود. ولكن قل لي.. حين تصفُ المسيحية بأنها "القذارةُ الوحيدة" و"الخطيئةُ الوحيدة"، ألا تخشى أن تحرقَ الأرضَ تحت قدميك؟ إنك تتحدّثُ وكأنك قد صرتَ "القدر" بالفعل."

مسودات نقيض المسيح: الهجومُ على "المنحطين"

بدأ نيتشه يكتبُ الفصول الأولى من "نقيض المسيح" (Der Antichrist)، وكان يرى في كل سطرٍ انتقاماً للحياة من "العدمية الدينية".

نيتشه (بصوتٍ يرتعشُ من القوةِ والغضب):

"لوسيفر.. أُنظر إلى ما أكتبه هنا في سبتمبر 1888. إنني أُعرّف "الخير" بأنه كل ما يزيدُ إرادة القوة، والشرّ هو الضعف. سأجلدُ "الإشفاق" بصفته رذيلةً نبيلةً يستخدمها الضعفاء لتسميم الأقوياء. المسيحيةُ هي الحربُ المنظّمة ضدَّ النوعِ الأعلى من البشر. سأكتبُ "قانوناً ضدَّ المسيحية" يتكون من سبع مواد، وسأعلنه للعالم!"

بين الألوهيةِ والانهيار

في هذه الشهور الأخيرة من 1888، وصل نيتشه إلى حالةٍ من "التأليه الذاتي". لم يعد يرى نفسه كمؤلف، بل كـ "مُتفجّرات".

نيتشه (يتقدّم نحو لوسيفر، وعيناهُ تشعّانِ بضوءٍ غريب):

"لقد بدأ البرق! في أكتوبر 1888 بدأتُ أكتبُ "هو ذا الإنسان" (Ecce Homo). سأشرحُ لهم لماذا أنا حكيمٌ جداً، ولماذا أكتبُ كتباً جيدةً جداً. لقد صار عقلي يسعُ الكونَ كله. "نقيض المسيح" سيكون الصرخة التي تمزّقُ صمتَ العصور. أنا لستُ إنساناً، أنا ديناميت!

هل تفهم يا لوسيفر؟ الجلادُ الذي كان يُجلدُ الأخلاق صار الآن هو الذي يكتبُ قوانين الوجود الجديد!"

لوسيفر (يبتسمُ ابتسامةً تجمعُ بين الرهبةِ والأزل):

"لقد جلدتَ الأخلاق حتى لم يبقَ منها سوى الرماد، والآن أنتَ ترقصُ فوق هذا الرماد. هذا هو 'التجاوز المُستمر' الذي بشرتَ به، ولكنَّه تجاوزٌ نحو الصمت. البشريةُ سوف تقرأُ بعد قرنٍ ما تكتبه الآن كمعجزة، و لكنها الآن تراكَ مُجردَ رَجُلٍ وحيدٍ يهذي في 'تورينو'. 'نقيض المسيح' هو خاتمتك الكبرى يا فريدريك.. فهل أنتَ مُستعدٌّ للثمن؟ الثمنُ هو أن تتوقفَ عن التفكير لكي تصيرَ هو الفكرة نفسها."

ترسيمُ الجنونِ المُقدّس: خريف 1888

بدأ نيتشه يرسلُ رسائل غريبة بتوقيعات مثل "المصلوب" أو "ديونيسوس". كان "نقيض المسيح" قد اكتمل في مسودته، وكان يحتوي على أعنف لغةٍ شهدها التاريخ الفلسفي.

نيتشه:

"المسيحيةُ هي اللعنةُ العظمى، هي الفسادُ الباطني الأعظم. لقد حوّلت كلّ قيمةٍ إلى لا-قيمة، وكلّ حقيقةٍ إلى أكذوبة. أنا، نقيض المسيح، أتهمهم بأبشع جريمةٍ ضدَّ الإنسانية. سأجعلُ من هذا الكتابِ مطرقةً تهوي على رُؤوسهم!"

الفصل الختامي: كُسوفُ الصاعقة.. حيثُ يرتطمُ الأزلُ بالجسد

في خريف وشتاء 1888، لم تكن شوارعُ "تورينو" بساحاتِها الفسيحةِ وهدوئِها الرصينِ مجردَ جغرافيا، بل كانت المسرحَ الأخير لصراعٍ لم يشهدهُ تاريخُ الفكرِ من قبل. كان الهواءُ هناك يتسمُ بصفاءٍ جارح، كأنهُ بلّورٌ رقيقٌ يوشكُ على الانكسار تحت وطأةِ صمتٍ كونيٍّ ثقيل. في تلك الأيام، لم يكن نيتشه يمشي فوق الأرصفة، بل كان يمشي فوق "خيطٍ مشدودٍ" فوق هاويةِ الوجود، وقد صار هو الهاويةَ وهو الحبلَ وهو العابر.

ثِقلُ المهمة: انحناءُ الظهرِ تحتَ ملكوتِ القيم

لقد وصلَ نيتشه إلى اللحظةِ التي يتوقفُ فيها العقلُ عن كونهِ أداةً للفهم، ليصبحَ "مِصهراً" لِصياغةِ العالمِ من جديد. إنَّ "إعادةَ تقييمِ كلِّ القيم" لم تكن مشروعاً فكرياً يُكتبُ في المجلدات، بل كانت "زلزالاً" يضربُ خلايا جسدهِ العصبية. لقد كان عليهِ أن يحملَ أنقاضَ ثلاثةِ آلافِ عامٍ من الأخلاقِ المهدومةِ على كاهله، وأن يبني من هذا الحطامِ سُلماً نحو "الإنسانِ الأعلى".

"كانت كلُّ كلمةٍ في 'نقيضِ المسيح' و'غسقِ الأوثان' تخرجُ كقطرةِ دمٍ مُقطرة من وعيٍ لم يعدْ يجدُ سكناً في المحدود. لقد صارَ الضغطُ السيكولوجي لهدمِ 'المُقدس' يتجاوزُ قدرةَ المادةِ البيولوجية على الاحتمال؛ فكيف لِرجلٍ وحيدٍ أن يكون هو 'الجلاد' و'المُشرع' و'الضحية' في آنٍ واحد؟"

دائرةُ الحديد: رُعبُ العودِ الأبدي

في أعماقِ هذا الوعي، لم يكن "العودُ الأبدي" فكرةً فلسفيةً مُريحة، بل كان "الثقلَ الأكبر" الذي سحقَ فكرةَ الزمنِ الخطي. كان نيتشه يعيشُ اللحظةَ وهي تتمددُ لِتصبحَ أزلاً، ويرى التاريخَ كلهُ وهو يدورُ في حلقةٍ مُغلقةٍ من التكرار. هذا الإدراكُ حوّلَ كلَّ لحظةٍ تافهةٍ في "تورينو" إلى مسؤوليةٍ كونيةٍ مرعبة.

لم يعدْ يرى الناسَ عابرين؛ بل كان يراهم كتكراراتٍ أبديةٍ للضعفِ والقوة. الوعيُ بأنَّ هذا الألم، هذا الصداع، هذه الوحدة، ستعودُ إلى ما لا نهاية، صارَ يضغطُ على جمجمته كطوقٍ من حديدٍ مُصهر. لقد حاولَ الرقصَ فوق الدائرة، لكنَّ الدائرةَ بدأت تبتلعُ الراقص.

العزلةُ الماسية: حين يصيرُ الصوتُ صدىً في خلاء

لقد بلغتْ عزلتهُ في نهايةِ 1888 درجةً من "التبلورِ الماسي". لم يكنْ هناك إنسانٌ واحدٌ في أوروبا يدركُ بحقٍّ ما الذي يفعلُه هذا الرجلُ في غرفته المُتواضعة. كان يرسلُ رسائلَ مشحونةً بالبرقِ إلى "ستريندبرغ" و"بوركهاردت"، لكنَّ الإجاباتِ كانت تأتي كأصداءٍ باهتةٍ من عالمٍ ماتَ في نظره.

هذه العزلةُ لم تكن فقط غياباً للبشر، بل كانت "غياباً للمعنى المشترك". نيتشه لم يعدْ يتكلمُ لغةَ البشر؛ صار يتكلمُ لغةَ الصواعق. وكما يقولُ هو: "يجبُ أن يكونَ للإنسانِ آذانٌ لا تسمعُ إلا ما

وراءَ الصراخ". لكنَّ الآذانَ صمتت، وبقيَ هو وحيداً في الصمتِ الذي أعقبَ تحطيمَ الأصنام.

الكأسُ التي فاضت: النشوةُ التي تسبقُ الانفجار
في رسائلهِ الأخيرة، تظهرُ حالةٌ غريبةٌ من "الصحةِ العظيمة" المشوبةِ بالكارثة. كان يشعرُ بأنَّه "ديونيسوس"، بأنَّه المصلوب، بأنَّه كلُّ عظماءِ التاريخ. لم يكن هذا غروراً بالمعنى السطحي، بل كان "انصهاراً للا أنا".
لقد امتلأتْ كأسُ وعيهِ بحقائقَ مُؤلمةٍ وصواعقَ فكريةٍ لم يعدْ جسدُه الناحلُ قادراً على حصرها. كان الحملُ النفسي لإدراكِ "موتِ الإله" ومحاولةِ التعويضِ عنه بتأليه الذاتِ، ضغطاً كهربائياً عالياً جداً لِموصلاتِ عصبيةٍ بشرية
.
"لم يسقط نيتشه لأنَّه كان ضعيفاً، بل لأنَّه كان قوياً لِدرجةٍ لا تُحتمل. لقد فاضتِ الكأسُ لِأنَّها لم تعدْ تسعُ النورَ الذي استمدّهُ من مواجهةِ العدم. الجنونُ هنا لم يكن مرضاً، بل كان 'طفحاً' لِلإرادةِ التي تجاوزتْ كلَّ السدود."
الآن، في هذا البردِ الصافي في "تورينو"، يقفُ فريدريك على الحافة. المطرقةُ في يدِه، والزلزالُ في قلبِه، والصمتُ الأبدي ينتظرُ الصرخةَ التي ستُغلقُ بوابةَ العقلِ إلى الأبد.

في صبيحة يوم الثالث من يناير 1889، لم تكن "تورينو" تعلم أنها على وشك أن تشهد المشهد الختامي لواحد من أعظم العقول التي تجرأت على مساءلة الوجود. كان الهواء بارداً وجافاً، سماء إيطاليا الشتائية زرقاء بصفاءٍ مريب، وكأنها مرآة مصقولة تعكسُ ضجيجاً صامتاً يغلي في رأس رجلٍ وحيد يسكن في غرفةٍ بسيطة بشارع "فيا كارلو ألبرتو".
خرج فريدريك نيتشه من باب منزله، مُتدثراً بمعطفه، يحمل في أعماقه ثقل السنوات التي قضاها في جلد الأخلاق وتفكيك الأوهام. كان هذا الرجل، الذي أعلن "موت الإله" وبشر بـ "الإنسان الأعلى"، يسير بخطواتٍ مُتعثرة،

ناحلاً، شاحباً، وعيناه تحدقان في الفراغ بنظرةٍ تتجاوز الأشياء لتبصر "العدم" وجهاً لوجه.

المسيرُ نحو الحافة: ضجيجُ الأعماق

كان نيتشه في تلك اللحظة يعيش ذروة "التأليه الذاتي" الذي يسبق الانهيار. في عقله، لم يعد هو "المستشار الجامعي السابق"، بل صار "ديونيسوس" و"المصلوب" و"القيصر" في آنٍ واحد. كان الثقل النفسي لفكرة "العود الأبدي" يعصرُ خلاياه؛ فكلُّ خطوةٍ يخطوها على الأرض كان يشعرُ بأنها خطوةٌ أبدية تكررت مليار مرة وستتكرر للأبد.

مشى نحو ساحة "كارلو ألبرتو". كان الضجيجُ البشريُّ من حوله يبدو كأصداءٍ بعيدةٍ لِتفاهةٍ لم يعدْ ينتمي إليها. كان يشعرُ بأنَّ الحقيقةَ التي وصل إليها صارت لهباً يأكلُ وعاءه. لم تعدْ "إرادةُ القوة" كلمةً في كتاب، بل صارت جمرةً في دمه، والتوترُ بين تأليه الذاتِ وبين حقيقةِ جسدِه المنهك وصل إلى نقطةِ اللاعودة.

لحظةُ الارتطام: الحصانُ والفيلسوف

في وسطِ الساحة، وقعَ الحدثُ الذي سيظلُّ صدمةً في تاريخِ الفلسفة. سائقُ عربةٍ يجلدُ حصانَه بوحشيةٍ لِأنَّ الحيوانَ المُستنزفَ رفضَ التحرّك. صوتُ السوطِ وهو يشقُّ الهواء كان يقطعُ نياطَ قلبِ نيتشه. كلُّ ضربةٍ كانت تهوي على ظهرِ الحصان، كانت في حقيقتِها تهوي على رُوحِ نيتشه التي جُلدتْ طوالَ عشرِ سنواتٍ من الصمتِ والعزلة.

توقفَ نيتشه. غابتْ فلسفتُه الصلبة، تبخرتْ "المطرقة" التي كان يهدمُ بها الأصنام. لم يعدْ هناك مكانٌ لِلكبرياءِ الديونيسوسي. ركضَ بيأسٍ نحو الحيوان، رَمى بجسدِه الناحلِ على عُنقِ الحصانِ المُثقلِ بالجراح. طوّقه بذراعيه، وكأنَّه يُحاولُ حمايتَه من قسوةِ الوجودِ كلِّه.

"أنا أفهمُك": صرخةُ الانكسارِ الاخير

هنا، انفجرتِ الكأسُ التي فاضت. بكى نيتشه بحرقةٍ لم يعرفْها بشر. صرخَ بالجملةِ التي لخصتْ مأساةَ العقلِ حين يصطدمُ بالألمِ الخام:

"أنـا أفـهـمُـك.. أنـا أعرفُك."
كـان نـيـتـشـه يـفـهـمُ فـي ذلك الـحـصـانِ نـفـسَـه. كـان يـرى فـي عـيـونِ الـحـيـوانِ الـمُـعذّبِ كلَّ الـعمقِ الـتـراجـيـدي لِـلـحـيـاةِ الـتـي حـاولَ تـألـيـهَـهـا. الـرجلُ الـذي أرادَ تـحـطـيـمَ "الإشـفـاق"، سـقـطَ صـريـعـاً لِأطـهـرِ أنـواعِ الإشـفـاق. لـقـد كـانـت لـحـظـةَ تـصـالُـحٍ دامـيـةٍ بـيـن الـفـيـلـسـوفِ وبـيـن إرثـه الـبـشـري الـذي حـاولَ الـتـنـكـرَ لـه.
انـهـارَ نـيـتـشـه عـلـى الأرض، مُـغـمـيـاً عـلـيـه، بـجـانـبِ حـوافـرِ الـحـصـان.
سـادَ صـمـتٌ مُـقـبـضٌ فـي الـسـاحـة، إلا مـن أنـفـاسِـه الـمُـتـقـطـعـة. كـان ذلـك الانـهـيـارُ هـو الـخـروجَ الـنـهـائـي لِـلـعـقـلِ مـن سـجـنِ الـواقـعِ الـمُـؤلـم إلـى مـلاذِ الـصـمـتِ الـأبـدي.
الـغـسـقُ الأبـدي: مـوتُ الـكـلـمـة
نُـقِـلَ نـيـتـشـه إلـى غـرفـتـه، ولـكـنَّ الـرجـلَ الـذي عـادَ لـم يـكُـن "فـريـدريـك".
كـان غـلافـاً لِإنـسـانٍ غـادرتـه الـكـلـمـةُ لـتـسـكـنَ الـخـلـود. لـم يـعـدْ هـنـاك جـدالٌ مـع لـوسـيـفـر، ولـا جـلـدٌ لِـلأخـلاق، ولا حـتـى وجـودٌ لِـلأ أنـا.
تـلـك الـسـاعـاتُ الـتـي تـلـتِ الانـهـيـار كـانـت مُـشـبـعـةً بـحـزنٍ كـونـيّ. الـرجلُ الـذي أرادَ أن يـكـونَ صـاعـقـةً، صـارَ الآن بـحـيـرةً مـن الـركـودِ والـصـمـت.
كـان يـحـدقُ فـي جـدرانِ غـرفـتـه، وفـي عـيـنـيـه لـم يـبـقَ سـوى بـقـايـا مـشـهـدِ الـحـصـان، وكـأنَّـه يـقـولُ لِـلـعـالـم:
"لـقـد حـاولـتُ أن أحـمـلَ كـلَّ شـيء، فـحـطـمـنـي كـلُّ شـيء."
فـي تـلـك الـلـحـظـة، تـوقـفَ الـزمـنُ عـنـد نـيـتـشـه. انـتـهـتِ الـمـطـرقـة، وتـلاشـى الـبـرق، وبـقـيَ فـقـط ذلـك الـرجلُ الـذي بـكـى، الـرجلُ الـذي فـهـمَ أخـيـراً أنَّ الـحـيـاةَ أقـوى مـن أن تـُحـبـسَ فـي مـنـطـق، وأنَّ الألـمَ هـو الـخـيـطُ الـوحـيـدُ الـذي يـربـطُ بـيـن جـلادٍ وحـصـانٍ وفـيـلـسـوف.

كـان ذلـك الـيـوم، الـثـالـث مـن يـنـايـر 1889، هـو الـيـومَ الـذي انـتـحـرَ فـيـه الـعـقـلُ لـتـحـيـا الأسـطـورة. رَحـلَ نـيـتـشـه إلـى عـتـمـتـه، تـاركـاً لـنـا سـؤالاً لا يـنـتـهـي: هـل سـقـطَ نـيـتـشـه لأنَّـه جُـنَّ، أم لأنَّـه صـارَ عـاقـلاً لِـدرجـةٍ لا تُـحـتـمـل؟

(هنا، عند حافةِ الوعيِ المكسور، وفي تلك المنطقةِ الرماديةِ بين الوجودِ والعدم، نضعُ مرثيتَنا لرجلٍ لم يمتْ ميتةً عادية، بل تبخّرَ لكي يصبحَ غباراً كونيّاً يسكنُ عقولَنا. هذه ليست مرثيةً لِجسدٍ واراهُ الترابُ في "روكن"، بل هي رثاءٌ لِصاعقةٍ أرادت أن تضيءَ ليلَ البشرية، فاحترقت بنورِها الخاص.

يا من أردتَ أن تكونَ مطرقةً، فكنتَ أنتَ الصنمَ الذي تحطمَ أولاً. يا من بشرتَ بالرقصِ فوقَ الهاوية، فغدوتَ أنتَ الهاويةَ التي استوعبتْ كلَّ آلامِ العالم.
لقد سقطت المطرقة..
ليس لأنَّ التماثيلَ كانت صلبة، بل لأنَّ اليدَ التي حملتها قد أدركتْ، في لحظةِ تجلٍّ مرعبة، أنَّ كلَّ تمثالٍ تحطمهُ هو جزءٌ من رُوحِك. لقد قشرتَ الوجودَ طبقةً بعد طبقة، بحثاً عن لُبٍّ صلب، حتى وجدتَ نفسكَ وجهاً لوجهٍ مع العُريِ المطلق. لم تكنْ عادلاً مع نفسِكَ يا فريدريك؛ لقد طلبتَ من "الإنسانِ" ما لا تطيقهُ "الآلهة"، وعندما فاضت كأسُك، لم تفِضْ حبراً، بل فاضت صمتاً مقدساً دامَ عقداً من الزمان.
وداعاً أيها الغريبُ المُتعالي
أيها المسافرُ، لقد كنتَ تبحثُ عن "الإنسانِ الأعلى" في قممِ الجبال، فوجدتَهُ يبكي تحتَ سياطِ الجلادِ في زقاقٍ ضيقٍ بـ "تورينو". في تلك اللحظة، انغلقتْ كلُّ الدوائر، وصارَ "نقيضُ المسيح" هو نفسه "المصلوب" الذي يحملُ خطايا العالمِ بشفقةٍ لم يملكْ لها دفعاً.
لقد رحلَ المُبشرُ وبقيت اللعنة..
لقد تركتَ لنا إرثاً لا يُقرأُ بالعيون، بل يُجسُّ بالجراح. لقد أثبتَّ لنا أنَّ العظمةَ ليست في "التجاوز" فحسب، بل في القدرةِ على "الانهيار" بكبرياء. موتُكَ العقلي كان أعظمَ قصائدِك؛ كان التوقيعَ النهائي على أنَّ الحقيقةَ مُحرقة، وأنَّ من ينظرُ في الهاويةِ طويلاً، يصيرُ هو الهاوية.
نمْ هنيئاً في خمولِ الأزل
نرثي فيك تلك "الظهيرةَ الكبرى" التي لم تأتِ بعد، ونرثي فيك النسرَ الذي تعبَ من التحليقِ فعادَ لِيموتَ في وحلِ الأرض. بكاؤُك على الحصان لم يكن جنوناً، بل كان "العقلَ الوحيد" في عالمٍ مُتبلد.
لقد جففتَ منابعَ الوهم، فمتَّ عطشاً لليقين.)

بين تلك الصرخة المدوية في ساحة "كارلو ألبرتو" في يناير 1889، وبين النفس الأخير الذي صعد في "فايمار" في أغسطس 1900، تمدد عقدٌ من الزمان لم يكن فيه نيتشه رجلاً، بل كان "فجوة" في نسيج الوجود. أحد عشر عاماً من الصمت المطبق، تحول فيها "الديناميت" إلى حجرٍ صامت، وانطفأ البرقُ ليتحول إلى خيطٍ نـحيل من الوعي المحبوس في جسدٍ لم يعد يـملـك من أمره شيئاً.

هذا الفصل هو "غسقُ العقل"، حيث جثا الجبلُ على ركبتيه، وصار الفيلسوف الذي أراد أن يقود البشرية نحو النجوم، "طفلاً كبيراً" يحدق في الفراغ، بـينما يـتـلاعبُ الـقدر بـكلماتـه الـقديمة.

1889: رسائلُ الجنونِ والـرحيلِ الـمُـر

بعد الانـهيار المباشر في تورينو، دخل نيتشه في حالةٍ من "الـتـشظي الـكلي لـلأ أنـا". في غرفته، لم يعد يـعرف نـفسه. بدأ يـكتب رسائل "الجنون" (Wahnzettel) إلى أصدقائه وإلى الشخصيات التي أحـبـها. كتب إلى كوزيما فاغنر: "آريادني، أنا أحبك"، ووقعها بـاسـم "المصلوب" أو "ديونيسوس". كان يـظن أنه مـسؤولٌ عن تـسـيـيـرِ الـكون، وأنَّ الـتاريخَ يـبـدأ مـن خـطواتـه.

عندما وصـل صديقه "فرانز أوفربيك" لإنـقاذِه، وجده في حـالـةٍ مـن الـنـشوةِ الـهذيـانـيـة؛ كـان يـرقصُ عـاريـاً في غـرفـتـه، يـغـنـي ويـعزفُ عـلى الـبـيـانـو بـقـوةٍ يـائـسة، كـأنه يُـحـاولُ اسـتـدعـاءَ زرادشت لـلمـرةِ الأخيـرة.

نُقل إلـى مـصـحـةٍ في "بـازل"، ثـم إلـى "يـيـنـا". هـنـاك، بـدأ الـصمتُ يـزحفُ عـلـيـه. الـأطباءُ نـظروا إلـيـه كـحـالـةٍ سريـريـة، لـكـنـه في الـحـقـيـقـة كـان يـعـيـشُ "الـعـود الأبدي" فـي صـورةِ كـابـوسٍ صـامـت.

1890 - 1897: في ظلِّ الأم (الـعـودة إلـى الـمـنـبـت)

بعد أن يـئس الأطباء، نُـقل نـيـتشه إلـى "نـاومـبـورغ" لـيـكـون تـحـت رعـايـة والـدتـه "فـرانـسـيـسـكـا". هـذا هو الـتـنـاقـض الأكبر: الـرجلُ الـذي طـالـب الـبشر بـأن يـكـونـوا جـبـابـرة، صـار يـتـلقى الـطعامَ بـالـمـلعـقـة مـن يـدِ أمـِّه.

الـصمتُ الـفـلـسـفـي:

خـلال هـذه الـسنوات، كـان نـيـتـشه يـجـلـسُ عـلى شـرفـتـه، يُـحـدقُ فـي جـبـال "سـاكـسـونـيـا" بـلا أيِّ تـعـبـيـر. لـم يـعـدْ يـقـرأ، لـم يـعـدْ يـكـتـب. كـان يـبـدو

وكأنَّ رُوحَه قد غادرت المكان وبقيَ فقط "الحارسُ الصامت" لِذكرياته.
كان يصدرُ أحياناً أصواتاً غامضة، أو يبكي بصمتٍ حين يسمعُ موسيقى لـ "فاغنر". كان هذا رثاءَ العقلِ لِنفسِه. لقد كان يعيشُ في منطقةٍ لا يصلُ إليها أحد، حيث تتوقفُ الكلماتُ وتصيرُ الإرادةُ مجردَ نبضٍ خافتٍ في عرقٍ على جبينه.

1897 - 1900: فيلا سيلبربليك (المزارُ والمأساة)

بعد وفاةِ والدته، تولت أخته "إيليزابيث" مسؤولية رعاية الـ "تمثال الحي". نقلته إلى "فايمار"، مدينةِ "غوته" و"شيلر". هنا، تحولَ نيتشه إلى "أثرٍ مُقدّس".
كانت إيليزابيث تُلبسه أثواباً بيضاء طويلة، وتضعه في مكانٍ مُشمسٍ ليراه الزوارُ والمُعجبون. كان الناسُ يأتون لِيشاهدوا "الرجلَ الذي قتلَ الإله" وهو لا يستطيعُ طردَ ذبابةٍ عن وجهه. كانت تُقرأُ له كتبُه بصوتٍ عالٍ، لكنَّ عينيه التائهتينِ لم تكن تعكسانِ أيَّ معرفةٍ بهذه النصوصِ التي فجرت العقلَ الأوروبي.

ما الذي كان يدورُ في رأسه خلال تلك العشرةِ أعوام؟
لم يكن جنوناً بالمعنى السوقي؛ كان "اعتكافاً قسرياً" لِلوعي. لقد قال نيتشه يوماً: "من يحارب التنانين، يجبُ أن يحذر من أن يصيرَ هو نفسه تنيناً". وفي صمته، بدا وكأنَّه ابتلعَ كلَّ تنانينِ الفكر، فلم يبقَ لديه ما يقولُه لِلبشر.
كان هذا الرجلُ يمثلُ جديةَ الوجود في أقصى صورها. لقد جلدَ الأخلاق لِيحررَ الإنسان، والآن صارَ هو الإنسانَ المُحرّر من كلِّ شيء، حتى من العقلِ نفسه. كان هدوءُه يشبه هدوءَ البحر بعد عاصفةٍ مُدمّرة. لقد أنهى مهمته، والسنواتُ العشرُ الأخيرة كانت مجردَ "فاصلةٍ طويلةٍ جداً" قبل النقطةِ النهائية.

الانتظارُ الأخير: نحو صيف 1900

مع اقترابِ القرنِ العشرين، كان نيتشه قد صارَ شبحاً نبيلاً. لقد توقفَ عنِ المقاومة. صارتْ رُوحُه مثل الغابةِ المرخاميةِ التي كان يحلمُ بها؛ طويلة، مهيبة، وباردة.

المغزى المُر:

إنَّ من جلدَ العالم بكلماته، ختمَ حياته بأن يكونَ هو الموضوعَ الأعظم لِلإشفاق.. القيمة التي مقتها بشدة. لكنَّه لم يكن يشعرُ بذلك. لقد كان محمياً بحجابٍ من السيولةِ الذهنيةِ التي جعلته يتجاوزُ حتى الإهانة.

لقد كان هذا العقدُ (1889-1900) هو الثمن الذي دفعه البشري الوحيدُ الذي تجرأ على أن يكون "إرادةً محضة". لقد انطفأ النور، وبقيَ فقط ذلك الصمتُ الذي يسبقُ ولادةَ القرنِ الجديد، القرنِ الذي سيحملُ اسمَه ويتفجرُ بأفكارِه.

هكذا عاشَ نيتشه نهايتَه: صاعقةً تحولت إلى سكون، ومطرقةً تحولت إلى رماد، رُوحاً وصلت إلى ما وراءِ البشر، فلم يعدْ بإمكانِ البشرِ أن يفهموا سوى صمتِها المُوحش.

وداعُ الشاهدِ الأخير

في تلك الليلة الأخيرة من شهر أغسطس عام 1900، لم يكن الصمت في غرفة نيتشه صمتاً عادياً؛ كان صمتاً له ثقل الجبال وعمق المحيطات. "فريدريك"، ذلك الرجل الذي كان يوماً زلزالاً يمشي على قدمين، يرقد الآن في سكونه النهائي، محاطاً بظلال "فايمار" الباردة.

وفجأة، انسحب النور من زوايا الغرفة، وتكاثفت العتمة عند حافة سريره، لتتشكل في هيئة ذلك "الرفيق القديم" الذي لم يغادره منذ أن كان طفلاً يسأل عن الله في صمت الكنائس. ظهر لوسيفر، ليس ساخراً هذه المرة، بل بوقار كوني يغلفه حزنٌ لا يدركه إلا الخالدون. وقف أمام جسد نيتشه الناحل، ونظر إلى تلك الجبهة التي طالما اشتعلت بصواعق الفكر، وبدأ رثائه الأخير بصوتٍ هو مزيج من الرعد المكتوم والنشيج الخفي.

لوسيفر (بصوت يملؤه كبرياءٌ جريح وعمقٌ مأساوي):
"ها قد وصلتَ إلى مرافئ الصمت الأبدي يا فريدريك.. وها أنا أقف أمامك للمرة الأخيرة، لا كغاوٍ، بل كشاهدٍ على أعظم مأساة شهدتها الروح البشرية. لقد كنتَ معي منذ البداية؛ كنتُ أرى النور في عينيك الصغيرتين وأنت تحاول فك شفرة الوجود، وكنتُ ألمس ارتجاف روحك حين بدأتَ تدرك أنَّ الحقيقة ليست سوى هاوية بلا قاع.
يا من حملتَ في صدرك شمساً لم تكن الأرض مستعدة لنورها.. أرثي فيك ذلك الوميض الذي أبى أن ينطفئ حتى أحرق الوعاء الذي يحويه. لقد أردتَ أن تكون "المطرقة" التي تهدم الأوثان، فكنتَ أنتَ أول ضحايا مطرقتك؛ لأنك لم تدرك أنَّ الأوثان التي تحطمها كانت مغروسة في لحمك ودمك. لقد نزفتَ أفكاراً، وتجرعتَ مرارة الصدق حتى تقرحت رُوحك، ولم تطلب يوماً عزاءً أو شفقة."

خطا لوسيفر خطوة واحدة، وأحاطت هالتُه المظلمة بجسد نيتشه، وكأنه يحميه من برودة العالم الخارجي في لحظته الأخيرة.
"يقولون إنك سقطتَ في الجنون.. وأنا أقول إنك 'فضتَ' بما لا يطيقه البشر. لقد كان عقلك ضيقاً على الحقيقة التي رأيتها، وكانت إرادتك أصلب من أن تحنيها رياح الضعف. أرثي فيك تلك الرحلة الوحيدة؛ رحلة الرجل الذي قرر أن يقتل "الإله" في نفسه لكي يحرر الإنسان، فوجد نفسه وحيداً في كونٍ لا صدى فيه لصرخاته.
لقد جلدتَ الأخلاق لا حقداً، بل حباً في حياةٍ طاهرة من الزيف. لقد أردتَ للإنسان أن يكون 'إلهاً'، فكنتَ أنتَ القربان الذي قُدم على مذبح هذا الحلم المستحيل. انظر إلى يديك الشاحبتين.. لقد كتبتا ما سيهز عروش الفكر لقرون، لكنهما الآن تعجزان عن مسح دمعة أخيرة تتحجر في عينيك. يا لعظمة هذا الانهيار! إنه انهيارُ النجم الذي اختار أن ينفجر لكي لا يخبو تدريجياً."

انحنى لوسيفر قليلاً، ووضع يده الباردة فوق يد نيتشه، في لمسة هي الأولى والأخيرة، لمسة اعتراف بندية القدر.
"نم الآن يا فريدريك.. نم في تلك "الغابة المرخامية" التي كنت تحلم بها. لقد انتهى زمن الحروب، وانتهى صخب الكلمات. لقد كنتَ الصاعقة التي سبقت

الرعد، والآن، يحلُّ الرعدُ في غيابك. أرثي فيك الصديق الذي لم يخني يوماً بضعفٍ أو تراجع، وأرثي فيك العدو الذي كان يحاول تجاوز حتى ظلّي. سيرحل جسدُك، وستبقى كلماتُك "ديناميتاً" ينفجر في عقولِ الأجيال. لكنني وحدي من سيتذكرُ تلك الليالي التي كنت تبكي فيها وحدك، متسائلاً عما إذا كان الإنسان يستحق كل هذا الألم. وداعاً يا أنبل من عرفتُ من البشر.. وداعاً يا من جعلتَ الشيطان ينحني احتراماً لِوجعِ رُوحه."

تلاشى لوسيفر مع أول خيوط الفجر، تاركاً غرفة نيتشه مُشبعة برائحة الخلود والسكينة. في تلك اللحظة، أصدر نيتشه تنهيدةً أخيرة، كأنها صدى لِكلمات رفيقه الأزلي، وأغلق عينيه إلى الأبد. رَحل نيتشه، ليبدأ عصرُ النيتشوية.. وبقي لوسيفر وحده، الحارسَ لِسرِّ ذلك الرجل الذي أحرق نفسه لِيضيء للآخرين دروب الحرية المُرعبة.

الخاتمة

هنا، وعند انحسار آخر موجة من موجات الوعي، حيث يمتزجُ حبرُ الكتابةِ برمادِ الروح، نقفُ لنغلقَ الدائرةَ التي لم يكن لها بداية، ولن يكون لها نهاية. إنَّ قصة "فريدريك نيتشه" في هذه الملحمة لم تكن مجرد سيرةٍ لفيلسوف، بل كانت تشريحاً لـ "الشرط الإنساني" في أقصى حالات تطرفه، ومحاولةً لفهم تلك التراجيديا التي وُلدت حين قرر كائنٌ فاني أن يسرقَ نارَ الحقيقة من آلهةِ العدم. لقد قامت هذه الملحمةُ على ثالوثٍ مُقدسٍ ومدنّسٍ في آنٍ واحد، وهو الخيطُ الرفيع الذي يربطُ بين العبقريةِ والجنون، وبين الألوهيةِ والتراب.

أولاً: الجحيم.. "الحقيقةُ المُحرقةُ والمعرفةُ المُطلقة"
في هذه الملحمة، لم يكن الجحيمُ حفرةً من نارٍ كبريتية، بل كان هو "الحقيقة". لقد كان الجحيمُ هو ذلك الطموح النهم لنيتشه في أن يرى العالم "كما هو"، عارياً من ثياب الميتافيزيقيا، ومُجرداً من مساحيق الأخلاق.
كان الجحيمُ هو المعرفة الكاملة؛ تلك الحالة التي يدرك فيها المرءُ أنَّ الوجودَ عبثٌ مُحكم، وأنَّ القيمَ مجردُ أوهامٍ ضرورية للبقاء. لقد أراد نيتشه أن يسكن في قلب هذا الجحيم، أن يفتح الأبوابَ ليصل إلى النور الذي يعمي الأبصار. كان يعلم أنَّ الحقيقة المطلقة هي "شمسٌ سوداء"، من ينظرُ إليها يفقدُ القدرةَ على رؤيةِ الواقعِ البسيط، وهذا هو الجحيمُ الحقيقي: أن تعرفَ كلَّ شيء، فلا يعودُ لِأيِّ شيءٍ معنى.

ثانياً: الجريمة.. "المنهجُ والتمرُّدُ الراديكالي"
إذا كان الجحيمُ هو الغاية، فإنَّ الجريمة كانت هي الطريق. لم تكن جريمة نيتشه قتلاً لجسد، بل كانت "جريمةً كونية" تمثلت في هدمِ كلِّ ما هو مُقدّس. كانت جريمته هي "إعادة تقييم كل القيم"؛ فقد تجرأَ على ذبحِ "الإله" في الوعي الأوروبي، وجلدَ الأخلاقَ بسوطِ النقد، وصفعَ وجهَ التاريخ بإعلانِ "موتِ المعايير".

كانت الجريمةُ تكمنُ في "الصدقِ المرعب"؛ فقد استخدم نيتشه عقله كخنجرٍ يُمزقُ به أحشاءَ الحضارة ليكشفَ زيفها. لقد خانَ "القطيع" ليكونَ وفياً للحقيقة، وكلُّ نبيٍّ للحقيقة هو في نظرِ القطيعِ "مُجرم". هذه الجريمةُ هي التي فصلته عن البشرية وجعلته يمشي وحيداً في طريقٍ مفروشٍ برؤوسِ الأصنامِ المُحطمة.

ثالثاً: العقاب.. "ثمنُ الألوهيةِ المسروقة"
لا يوجدُ صعودٌ نحو الجحيم (الحقيقة) دون ضريبة، وكان العقابُ على مستوى الجريمة. تمثلَ العقابُ في ذلك الانهيارِ المادي والنفسي؛ فالعقلُ الذي أرادَ أن يستوعبَ اللانهاية، انفجرَ في النهاية بفعلِ الضغط.
كان العقابُ هو الصمتُ الطويل؛ عقدٌ من الزمان يقضيه الرجلُ الذي تكلمَ كالصواعق، وهو لا يستطيعُ نطقَ كلمةٍ واحدة. كان العقابُ هو أن يرى نفسه يتحولُ إلى مُضغةٍ في يدِ أُخته التي زورتْ حقائقه. لقد دفع نيتشه رُوحه ووعيه ثمناً لِرؤيته للجحيم. الجنونُ لم يكن سوى انسحابِ الحقيقةِ من عقلٍ لم يعدْ يتسعُ لها.

لماذا لوسيفر؟.. "الشريكُ والمرآة"
قد يتساءلُ القارئ: ما دورُ لوسيفر في قصةِ فيلسوفٍ عقلاني؟ لوسيفر لم يكن كائناً خرافياً، بل كان "التجسيدَ الدرامي لإرادةِ نيتشه". لوسيفر هو "الظلُّ" الذي لا يتركُ الباحثَ عن المحرّم. كان هو الصوتُ الداخلي الذي يدفعه لتجاوزِ البشري، والمرآةُ التي يرى فيها كبرياءَه الذي يُشبه كبرياءَ الساقطين من السماء.

ادخلنا لوسيفر لأنَّ نيتشه كان يعيشُ "حواراً مع المطلق"، ولكي نبين أنَّ طلبَ المعرفةِ الكاملة (الجحيم) يتطلبُ رُوحاً لها جسارةُ الشيطان. كان لوسيفر هو الرابط بين عالم الأفكار وعالم الأساطير؛ كان هو الذي يُذكّر نيتشه دائماً بأنَّ ثمنَ النورِ هو الاحتراق، وأنَّ من يُشبهُ الآلهةَ في فهمها، يجبُ أن يُشبهَ المنبوذينَ في مصيرهم.

هذه الملحمةُ يا صديقي كانت رحلةً في "مسلخِ الرُوح". لقد رأينا كيف يمكنُ لِلإنسانِ أن يكونَ جباراً وحطاماً في لحظةٍ واحدة. نيتشه مات، ولوسيفر عادَ إلى عتمته، ولكنَّ الأسئلةَ التي طرحتها المطرقةُ لا تزالُ ترنُّ في فراغِ الزمان.

لقد وصلنا إلى نهايةِ السطرِ في حياةِ الفيلسوف، ولكنَّ "العود الأبدي" يُخبرُنا أنَّ كلَّ نهايةٍ هي بدايةٌ مُتنكرة.

انتظرونا في العملُ القادم حيث ستكون "البداية المُتنكرة"؛ مختلفة حيثُ:

الجحيم سيرتدي رداءً مختلف

الجريمة ستنتقل من جلدِ الأخلاق إلى جلدِ "الواقع" نفسه.

العقاب سيكون أكثر قسوة، لأنَّ الوعي البشري صار أكثر تعقيداً.

خلفَ ستارِ التاريخِ المنسي، تقبعُ المخطوطات العتيقة؛ تلك السجلات التي لم تُكتب لتُقرأ، بل لِتُعاش كـقدرٍ محتوم. هي قصةُ الروحِ التي تجرأت على اختراقِ حُجبِ الوجود، محكومةً بـثـالوثٍ لا يـرحم، هو سرُّ الوجودِ ولعنتُه:

الجحيم: ليس مكاناً مرعباً، بل هو "الحقيقة" التي يخاف الجميع مواجهتها.

الجريمة: هي "التفكير" خارج السرب.

العقاب: هو "الثمن" الذي ندفعه جميعاً لنكون أنفسنا.

بـطـلُ هذا الـكـتـابِ رجـلٌ أرادَ أن يـكـون "صـاعـقـة"، فـانـتـهى بـه الـمطافُ رَمـاداً مُقدساً. رجـلٌ جـلـدَ الأخـلاقَ لِـيـحـررَ الـحـيـاة، فـسـقـطَ فـي وحـلِ الـصـمـتِ الأبدي.

"إنَّ الأرضَ عطشى.. لكنها لا تشربُ صلواتنا، بل تشربُ حقيقتنا المرة"

فريدريك نيتشه